

وَمُضَىٰ فِي الْإِسْلَامِ



وَضَائِعُ الْإِسْلَامِ

الأستاذ الدكتور
محمد راتب النابلسي

دارُ الْمَكِّي

الطبعة الثالثة 1431هـ - 2010م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المکتبي بدمشق

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص.ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢

e-mail: almaktabi@mail.sy

دار المکتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

www.almaktabi.com

الإهداء

● إلى الذين يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ، ولا يخشون أحداً إلا الله .

● إلى الذين انتفعت الدعوة بهم ، ولم ينتفعوا بها .

● إلى الذين أحبوا ربهم ، وأحبوا من أحبوا ربهم ، وحببوا الله إلى عباده .

● إلى الذين كانوا قدوة لمن حولهم ، عرضوا الإسلام بأعمالهم ، وفتحوا القلوب بإحسانهم قبل أن يفتحوا العقول ببيانهم ، وقبل أن يملؤوا الأسماع بأقوالهم .

● إلى الدعاة إلى الله . . . الذين أخلصوا في دعوتهم ، فاتبعوا ولم يبتدعوا ، وتعاونوا ولم يتنافسوا ، وكان انتماؤهم لمجموع المؤمنين .

● إلى طلاب العلم ، الذين يرجون الله واليوم الآخر ، ولم يتضعضوا لقوي أو غني ، الذين آثروا الآخرة على الدنيا ، والمبادئ على المصالح ، والقيم على الشهوات . .

● إلى زوجتي الحبيبة ، وأولادي الأعزاء - ذكوراً وإناثاً - الذين أعانوني في دعوتي ، وكان نصيبهم مني أقل مما ينبغي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي أخرجنا بالإسلام من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات ، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، وشرع الإسلام وجعل له منهجاً ، وأعز أركانه على من غالبه ، فجعله أمناً لمن تمسك به ، وسلماً لمن دخله ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم عنه ، ونوراً لمن استضاء به ، وفهماً لمن عقل ، ولباً لمن تدبر ، وآية لمن توسم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق ، وثقة لمن توكل ، وراحة لمن فوض ، وجنة لمن صبر .

يقول العالم الجليل ابن القيم : « من أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه ، وأن تسمع داعيه ثم تتأخر عن الإجابة ، وأن تعرف قدر الرّيح في معاملته ثم تعامل غيره ، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له ، وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأُنس بطاعته ، وأن تذوق عصرة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته ، وأن تذوق العذاب عند تعلّق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه ، وأعجب من هذا علمك

أنك لا بد لك منه ، وأنك أحوج شيء إليه ، وأنت عنه مُعرِضٌ ، وفيما يُبْعِدُكَ عنه راغبٌ » .

وإنَّ الحقَّ لا بَسَّ خَلَقَ السماواتِ والأرضِ ، والحقُّ هو الشيءُ الثابتُ ، والهادفُ ، بخلافِ الباطلِ ، فهو الشيءُ الزائلُ والعاثُ ، إنَّ الحقَّ دائرةٌ تتقاطعُ فيها أربعةُ خطوطٍ ؛ خطُّ النقلِ الصحيحِ ، وخطُّ العقلِ الصريحِ ، وخطُّ الفطرةِ السليمةِ ، وخطُّ الواقعِ الموضوعيِّ ، فالنقلُ الصحيحُ كلامُهُ سبحانه وتعالى ، مع بيانِ المعصومِ ﷺ ، والعقلُ الصريحُ ميزانُ أودعه اللهُ في الإنسانِ ليتعرَّفَ من خلاله إلى الله ، والسماءُ رفعها ووضع الميزان ، والفطرةُ ميزانُ آخرِ نفسيٍّ متطابقٌ مع المنهجِ الإلهيِّ ، وهو مركزٌ في أصلِ كيانِ الإنسانِ ليكتشفَ من خلالها خطأه ، قال تعالى : ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، والواقعُ خَلَقَ اللهُ تحكُّمهُ القوانينُ التي قننها اللهُ جلَّ جلاله ، فإذا كانت هذه الفروعُ الأربعةُ من أصلٍ واحدٍ ، فهي متطابقةٌ فيما بينها .

وهذا الكتاب . . . كتاب « ومضات في الإسلام » من سلسلة الكتب ذات الموضوعات المتعددة التي صدرت قبله وهي « نظرات في الإسلام » ، و« تأملات في الإسلام » وهو محاولة متواضعة للتعريف بهذا الإله العظيم ، ودينه القويم ، ونبيه محمد عليه أتم الصلاة والتسليم ، فلعل القارئ الكريم - كما قال ابن القيم - يعرفه ، فيحبه ، فيعبده ، فيسلم ويسعد في الدنيا والآخرة ، وعندئذ يحقق الغاية من وجوده ، لأنَّ العبادة علة وجود الإنسان على وجه الأرض ، وهي في أدق تعاريفها

« طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، أساسها معرفة يقينية تفضي إلى سعادة أبدية » ، ولعل القارئ الكريم يقف بعد قراءته . . . يقف على أرض صلبة ، لا تتزلزل بسبب المتغيرات والمستجدات ، ويضع يده على الحق الثابت والهادف الذي يقدم التصورات الصحيحة ، والعميقة ، والمتناسقة عن الكون والحياة والإنسان ، وعن حقيقة الوجود ، ومقاييس المعرفة ، وطبيعة الحق والباطل ، والخير والشر ، والجمال والقبح ؛ لئلا يضل عقل الإنسان ، ولئلا تشقى نفسه ، ولئلا يندم على ما فات ، ولئلا يخشى مما هو آت ، بعيداً عن الشبهات ، والضلالات ، والأكاذيب والترهات في عصر العولمة ، وثورة المعلومات ، وثورة الاتصالات ، وهيمنة القطب الواحد على الجوانب الثقافية ، والفكرية ، والاجتماعية ، والدينية ، ومحاولة هذا القطب لطمس الخصوصيات الثقافية والحضارية للأمة الإسلامية .

وقد حرصت على أن يكون في الموضوع الواحد ؛ ركن عقدي فلسفي ، وركن من النقل الصحيح ؛ كتاب وسنة مع الشرح الأصولي ، وركن من سيرة النبي ﷺ ، وسير صحابته الكرام ، والجوانب المشرقة من التاريخ الإسلامي ، وركن علمي يؤكد أن النقل الصحيح يتوافق مع العقل الصريح ، وأن الذي خلق الأكوان ، وخلق الإنسان هو الذي أنزل على عبده الفرقان ، ليكون منهجاً للإنسان ، بحيث إذا طبقه لا يضلُّ عقله ، ولا تشقى نفسه ، ولا يندم على ما فات ، ولا يخشى مما هو آت .

وقد ورد في هذا الكتاب الموضوعات الكبرى التالية : موضوعات معاصرة ، موضوعات قرآنية ، موضوعات إيمانية ، موضوعات إسلامية ، موضوعات في السيرة ، موضوعات في المناسبات الدينية ، موضوعات في العبادات الشعائرية ، موضوعات في العبادات التعاملية ، موضوعات تربوية ، موضوعات دعوية .

وقد بينت في موضوع « الاستخلاف بين الوعد والشرط » ما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون في شتى أقطارهم وديارهم ؛ من تعاون ، وتناصر ، وتعاطف ، فهم كالجسد الواحد ، نصحة متوادون ، وهم بنيان واحد ، يشد بعضه بعضاً ، وهم يد على من سواهم ، سلمهم واحدة ، وحرهم واحدة ، وقد أنجز الله وعده للمؤمنين يوم عبودهم حق العباد ، فأطاعوه ولم يعصوه ، وشكروه ولم يكفروه ، وذكروه ولم ينسوه ، فجعل الله منهم قادة للأمم ، بعد أن كانوا رعاة للغنم ، لكن الذي حدث أن قلب المسلمون لديهم ظهر المجن ﴿ قَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ ، وقد لقي المسلمون ذلك الغي .

وقد بينت في موضوع « عالمية الإسلام وعولمة الغرب » أن العولمة كما يريدونها ، ويروج لها دعاتها لا تعدو أن تكون تعبيراً معاصراً عن نزعة تسلطية قديمة ، صاحبت كل قوة غاشمة على مدار التاريخ ، إنها تضفي طلاءً من الذهب على الأغلال الحديدية ، وتتوارى خلف أقنعة زائفة من العبارات الجذابة ، والشعارات البراقة ، كالحرية ، والديمقراطية ، والعدالة ، والسلام العالمي ، والتعايش السلمي ، وحقوق الإنسان ،

ومكافحة الإرهاب... فهي علقمٌ قديمٌ في آنيةٍ جديدةٍ .

وقد بينت في موضوع « إدارة الوقت » أن الوقت أساس الحياة ، وعليه تقوم الحضارة ، فصحيحٌ أن الوقت لا يمكن شراؤه ، ولا بيعه ، ولا تأجيله ، ولا استعارته ، ولا مضاعفته ، ولا توفيره ، ولا تصنيعه ، ولكن يمكن استثماره وتوظيفه ، أولئك الذين لديهم الوقت لإنجاز أعمالهم ، ولديهم أيضاً الوقت لمعرفة ربهم ، وعبادته ، والتقرب إليه ، عرفوا قيمته ، هم يستثمرون كل دقيقة من وقتهم ، ولذا فإدارة الوقت لا تنطلق إلى تغييره ، أو تعديله ، أو تطويره ، بل إلى طريقة استثماره بشكلٍ فعالٍ ، ومحاولة تقليل الوقت الضائع هذراً من دون فائدة .

وقد بينت في موضوع « أسباب هلاك الأمم » أن من أهم هذه الأسباب ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لأنه هو القطب الأعظم في الدين ، وهو الذي بعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه ، وأهمّل علمه وعمله ، لتعطّلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمّت الفتنة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد .

وقد بينت في موضوع « الجهاد في فلسطين » أن رفع المعاناة عن الأمة يتطلب عدداً كبيراً من المؤمنين الواعين المخلصين المضحين في جميع الميادين ، وهذا ما يجب السعي إليه ، ولأنّ ينجح فردٌ في إعداد مجموعة من المواطنين إعداداً إيمانياً ، وعلمياً ، وعقلياً ، وخلقياً ، ونفسياً ، واجتماعياً ، وجسدياً أحب وأنفع من أن يُلقَى بنفسه في أتون نارٍ تقول :

هل من مزيد ، إنَّ النجاحَ يكمنُ في أنْ يستخدمَ المرءُ عقلَه قبلَ يده ، كما يفعل أعداؤنا .

وقد بينت في موضوع « التحليل القرآني للحوادث » أن القوة لا تصنعُ الحقَّ ، ولكنَّ الحقَّ يصنعُ القوةَ ، والقوةُ دونَ حكمةٍ تدمرُ صاحبها ؛ لأنه لا يقبل ولا يُعقلُ أنْ يقعَ في مُلكِ الله ما لا يريدُ ، فلكلِّ واقعٍ حكمةٌ ، وليس كلُّ موقعٍ من بني البشر حكيماً ، فإرادةُ الله التي سمحتَ لِمَا حَدَثَ أنْ يحدثَ متعلقةٌ بالحكمةِ المطلقةِ ، فلكلِّ شيءٍ حقيقةٌ ، وما بلغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يعلمَ أنَّ ما أصابه لم يكن ليُخطئهُ ، وما أخطأهُ لم يكن ليصيبه ، وحكمته المطلقةُ متعلقةٌ بالخيرِ المطلقِ إنَّ الشرَّ المطلقَ لا وجودَ له ، بل هو يتناقضُ مع وجودِ الله ، فاللهُ عزوجل يوظفُ الشرَّ الذي في بعضِ النفوسِ ، نفوسِ المُعرضين عنه لخيرٍ كبيرٍ ، ربما لا تُدرِكُ حكمته عاجلاً

وقد بينت في موضوع « إيجابيات الأحداث الأخيرة » أن الحقائق المُرَّة التي هي أفضلُ ألفِ مرَّةٍ من الوهمِ المريحِ ، وأنَّ هناك خسائرَ لحقت وتلحقُ بالمسلمين من خلالِ الأحداثِ الأخيرةِ ، وأنَّ ثمةَ مكاسبٍ للطرفِ الآخرِ حقَّقها ، وقد يحققُ غيرها ، ولكنَّ السؤالَ المطروحَ : كيف نلتمسُ المكاسبَ تحت ركامِ الخسائرِ ؟ وما من شكٍّ في أنَّ لكلَّ معركةٍ خسائرَ ظاهرةً ومكاسبَ خفيةً ، والمتأملُ في التاريخِ يرى صوراً للنصرِ انبثقت من حطامِ المأساةِ ، في الأحداثِ الأخيرةِ سقطت مبادئُ القومِ ، وانهارت شعاراتهم ، وأخفقت مؤسساتهم وهيئاتهم ، فالحريةُ والديمقراطيةُ ،

والعدالة وحقوق الإنسان ، وما شابهها باتت مصطلحاتٍ محنّطةٍ من مخلفات الماضي .

وقد بينت في موضوع « الانتفاضة » أنه حينما تُسلب أرضُ شعبٍ ، وتُنهب ثرواته ، وتُنتهك حرمانه ، وتُدنّس مقدساته ، وتُداس كرامته ، وتُقهر إرادته ، وتُفسد عقائده ، وتفرغ قيمه ، ويُزور تاريخه ، ويُحمل على الفساد والإفساد ، وتُمارس عليه ألوانُ التجهيل والتجوير والتعذيب على يد أعدائه ، أعداء الله ، أعداء الحق ، أعداء الخير ، أعداء الحياة ، عندئذٍ لابد لهذا الشعب أن يتحرك ليسترّد حقّه في الحياة الحرة الكريمة .

وقد بينت في موضوع « الإرهاب » أن أعظم ما يملكه القوي أن ينهي حياة الضعيف ، فإذا أراد الضعيف أن يقدم أئمن ما يملك ، وهي حياته ، لزلزلة كيان القوي صار هذا الضعيف أقوى منه ، وقد قيل : بدأت الحرب بالإنسان ، ثم أصبحت بين آلتين ، ثم بين عقليين ، ثم انتهت بالإنسان .

وقد بينت في موضوع « زلزال آسيا » أن الله جلّ وعلا زود معظم البهائم بحاسةٍ سادسةٍ تشعرهم بالزلازل قبل وقوعه بوقتٍ كافٍ للنجاة منه ، هذا من الناحية الفيزيولوجية للحيوان ، أمّا من الناحية الإيمانية فالحيوان غير مكلف كالإنسان ، ولا علاقة له بالفساد في الأرض ، فهو لا يقيم حياته على قتل الآخرين ، ولا يبني غناه على إفقار الآخرين ، ولا يبني عزّه على إذلال الآخرين ، والحيوانات القويّة تأكل حتى تشبع ، فإذا شبع سمحت للآخرين أن يأكلوا ، فهي لا تسعى لإفقار الآخرين ،

ولا لإضلالهم ، ولا لإفسادهم ، ولا لإذلالهم ، ولا لإبادتهم .

وقد بينت في موضوع « المنهج القرآني في تقويم السلوك الإنساني » أننا إذا أردنا أن نستعيد دورنا القيادي في العالم ، وأن ننقل إلى الشعوب رسالة الإسلام الخالدة فعلياً أن نستجيب لله وللرسول إذا دعانا لما يحينا ، وأن نجعل الوحي مرجعاً لمنطقتنا النظرية ، والشرعية الغراء منهجاً لسلوكنا العملي ، عندئذ يتحقق وعد الله لنا بالاستخلاف ، والتمكين في الأرض .

وقد بينت في موضوع « قوة المؤمن » أن الحديث عن القوة النابعة من الضعف ، ليس دعوة إلى الرضا بالضعف ، أو إلى السكوت عليه ، بل هو دعوة لاستشعار القوة ، حتى في حالة الضعف ، لذلك يجب أن نبحث في كل مظنة ضعف ، عن سبب قوة كامنة فيه ، ولو أخلص المسلمون في طلب ذلك لوجدوه ، ولصار الضعف قوة ، لأن الضعف ينطوي على قوة مستورة ، يؤيدها الله في حفظه ورعايته ، فإذا قوة الضعف ، تهد الجبال وتدنك الحصون ، كما ترون وتسمعون ، فأنت قوي ، وهذا سر ضعفك ، وأنا ضعيف ، هذا سر قوتي . . . لذلك نستطيع أن نقابل القنبلة الذرية ، بقنبلة الذرية ، أي بترية جيل واع ملتزم ينهض بأمته ، ويعيد لها دورها القيادي بين الأمم .

وقد بينت في موضوع « السكينة » أنه لا سعادة بلا سكينة ، ولا سكينة بلا إيمان ، فالسكينة هي الغاية المثلى للحياة الرشيدة ، وهذه السكينة تزهر بغير عون من المال ، بل بغير مدد من الصحة ، يسعد بها الإنسان ،

ولو فَقَدَ كُلَّ شَيْءٍ ، ويشقى بِفَقْدِهَا ، ولو مَلَكَ كُلَّ شَيْءٍ ، هذه السكينة ليست مُلْكٌ أَحَدٍ فِيمَسْكُهَا أو يرسلها ، ولكنها في متناولِ كُلِّ واحدٍ مِنَ البشرِ ، إِذَا دَفَعَ ثَمَنَهَا .

وقد بينت في موضوع « أثر الإيمان في نزول الرحمة » أَنَّ للحسنة نوراً في القلبِ ، وضياءً في الوجهِ ، وقوةً في البدنِ ، وزيادةً في الرزقِ ، ومحبةً في قلوبِ الخلقِ ، وإنَّ للسيئةِ سواداً في الوجهِ ، وظلمةً في القلبِ ، وَهَنًا في البدنِ ، ونقصاً في الرزقِ ، وَبُغْضًا في قلوبِ الخلقِ .

وقد بينت في موضوع « أثر الإيمان في حياة الفرد » أَنَّ الإيمان ليس مجردَ إعلانِ المرءِ بِلِسَانِهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ ، وليس مجردَ قيامِ الإنسانِ بأعمالٍ وشعائرَ ، اعتادَ أَنْ يقومَ بها المؤمنونَ ، وليس مجردَ معرفةٍ ذهنيةٍ بحقائقِ الإيمانِ ، وبكلمةٍ مختصرةٍ ليس الإيمانُ مجردَ عملٍ لِسَانِيٍّ ، ولا عملٍ بدنيٍّ ، ولا عملٍ ذِهْنِيٍّ ، إِنَّمَا هو علاوةٌ على كُلِّ ذلكِ عملٌ نَفْسِيٌّ ، يبلغُ أغوارَ النفسِ ، ويحيطُ بِجَوَانِبِهَا كُلِّهَا ؛ مِنْ إدراكِ ، وإرادةٍ ، ووجدانٍ .

وقد بينت في موضوع « المعجزات والزمن » أَنَّهُ مِنْ رحمةِ الله بنا أَنَّ تلازُمَ الأسبابِ مع النتائجِ يُضْفِي على الكونِ طابعَ الثباتِ ، ويمهِّدُ الطريقَ لاكتشافِ القوانينِ ، ويعطي الأشياءَ خصائصها الثابتةَ ليسهلَ التعاملَ معها ، ولو لم تكن الأسبابُ متلازمةً مع النتائجِ ، ولو لم تكن النتائجُ بقدرِ الأسبابِ لأَخَذَ الكونُ طابعَ الفوضى والعشوائيةِ ، ولَتَأَهَّ الإنسانُ في سبيلِ المعرفةِ ، ولم ينتفعَ بعقلِهِ ، لكنْ مِنْ اعتقادِ أَنَّ الأسبابَ وحدها تخلقُ النتائجَ ، ثم اعتمدَ عليها فَقَدْ أَشْرَكَ وَمَنْ تركَ الأخذَ بالأسبابِ متوكِّلاً - في

زعمه - على الله فقد عصى ، لأنه لم يعبأ بهذا النظام الذي ينتظم الكون ، ولأنه طمع - بغير حق - أن يخرق الله له هذه السنن ، أما المؤمن الصادق فيأخذ بالأسباب من دون أن يعتقد أنها تصنع النتائج ، وبالتالي من دون أن يعتمد عليها ، يأخذ بها ، وكأنها كل شيء ، ويعتمد على الله ، وكأنها ليست بشيء ، معتقداً أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأسباب وحدها لا تقود إلى النتائج إلا بمشيئة الله ، وهذا التوحيد الإيجابي الذي يغيب عن كثير من المؤمنين .

وقد بينت في موضوع « إنسانية الإسلام » أن من ملك ناصية العلم ملك ناصية العالم ، وما يجري في العالم اليوم يؤكد هذه الرؤية ، فمن ملك العلم ملك القوة ، ومن ملك القوة فرض إرادته - وقد تكون ظالمة - على العالم ، فالحق عند الشاردين عن الله يعني القوة ، ليس غير ، والحق عند المؤمنين بالله هو ما جاء به الوحي في تنزيله ، وما بينه النبي ص عليه وسلم في سنته ، وينبغي أن يدعّم بالقوة ، ودعّمه بالقوة أمرٌ تكليفي ، وليس تكوينيًا .

وقد بينت في موضوع « في ذكرى مولد الرسول » أن محمداً - ﷺ - كان عابداً متحنثاً ، وقائداً فذاً ، سيد أمة من الفئات المتناثر ، وكان رجل حرب ، يضع الخطط ، ويقود الجيوش ، وكان أباً عطوفاً ، وزوجاً تحققت فيه المودة والرحمة والسكن ، وكان صديقاً حميماً ، وفرياً كريماً ، وجاراً تشغله هموم جيرانه ، وحاكماً تملأ نفسه مشاعر محكومييه ، يمنحهم من مودته وعطفه ما يجعلهم يفدونه بأنفسهم ، ومع هذا كله فهو قائم على أعظم دعوة شهدها الأرض ، وهي الدعوة التي

حَقَّقَتْ لِلإِنْسَانِ وجودَه الكاملَ ، وتغلغلَتْ في كيانِه كُلَّهُ ، ورأى الناسُ الرسولَ الكريمَ - ﷺ - تتمثِّلُ فيه هذه الصفاتُ الكريمةُ ، فصَدَّقُوا تلكَ المبادئَ التي جاء بها كُلُّها ، ورأوها متمثِّلةً فيه ، ولم يقرُّوها في كتابٍ جامدٍ ، بل رأوها في بَشَرٍ متحرِّكٍ ، فتحرَّكَتْ لها نفوسُهُم ، وهَفَّتْ إليها مشاعرُهُم ، وحاولوا أَنْ يقتبسوا قبساتٍ من الرسولِ الكريمِ - ﷺ - كُلِّ بقدرٍ ما يطيقُ ، فكان أكبرُ قدوةٍ للبشريةِ في تاريخِها الطويلِ ، وكان هادياً ومرتبياً بسلوكِه الشخصيِّ ، قبل أَنْ يكونَ بالكلمِ الطيبِ الذي ينطقُ به .

وقد بينت في موضوع « الإسراء والمعراج » أَنَّ النفسَ الإنسانيةَ مجبولةٌ في أصلِ فطرتها على الإحساسِ والشعورِ ، الشعورِ بلذَّةِ النعيمِ ، والشعورِ بألمِ العذابِ ، فهي مجبولةٌ على الركونِ إلى الأوَّلِ ، والفرجِ مِنَ الثاني ، وحينما يوطَّن الإنسانُ نفسه على تحمُّلِ كُلِّ أنواعِ الضَّرِّ والعذابِ ، وهو يؤدِّي رسالةَ رَبِّه ، مبتغياً بهذا وجهَه ورضوانَه ، لا يعني هذا أَنه لا يتألمُ للضرِّ ، ولا يستريحُ للنعيمِ ، فالنفسُ مهما تَسَامَتْ فلا تخرجُ عن دائرةِ بشرِيتها ، ولكنْ حينما يفضلُ الإنسانُ الضَّرَّ مهما تكنْ آلامُه على النعيمِ مهما تكنْ لذاتُه إرضاءً لوجهِ رَبِّه ، وأداءً للرسالةِ التي أُنيطَتْ بهِ ، عندئذٍ يستحقُّ جنةَ رَبِّه إلى أبدِ الأبدِ ، حيثُ يجدُ فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ ، ولولا أَنَّ النبيَّ ﷺ بَشَرٌ تجري عليه كُلُّ خصائصِ البشرِ لَمَا كَانَ سيِّدَ البشرِ .

وقد بينت في موضوع « خواطر إيمانية في ليلةِ القدر » أَنَّ اللهَ خلقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ ، وكرَّمه أعظمَ تكريمٍ ، سَخَّرَ له الكونَ تسخيرَ تعريفٍ وتفضيلٍ ، وهَبَه نعمةَ العقلِ ، وفطره فطرةً تنزعُ إلى الكمالِ ،

وأودع فيه الشهوات ليرقى بها صابراً وشاكراً إلى ربِّ الأرضِ
والسماواتِ ، ومنحه حرية الاختيار ليثمن عمله ، وأنزل له كتاباً أحلَّ له
فيه الطيبات ، وحرَّم عليه الخبائث ، كلُّ ذلك ليعرف ربَّه فيعبده ، ويسعد
بعبادته في الدنيا والآخرة .

وقد بينت في خطبة عيد الفطر السعيد أن الشريعة عدلٌ كلُّها ، رحمةٌ
كلُّها ، مصلحةٌ كلُّها ، حكمةٌ كلُّها ، فكلُّ قضية خرجت من العدلِ إلى
الجور ، ومن الرحمة إلى القسوة ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، ومن الحكمة
إلى خلافها ، فليست من الشريعة ، ولو أُدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويلٍ .

وقد بينت في موضوع « الصيام » أن الصوم عبادةٌ من أجلِّ العبادات ،
وقربةٌ من أشرفِ القربات ، وطاعةٌ مباركةٌ ، لها آثارها العظيمة والكثيرة ،
العاجلة والآجلة ؛ من تزكية النفوس ، وإصلاح القلوب ، وحفظ
الجوارح من الفتن ، والشروع ، وتهذيب الأخلاق ، وفيها من الإعانة
على تحصيل الأجر العظيم ، وتكفير السيئات المهلكة ، والفوز بأعلى
الدرجات .

وقد بينت في موضوع « حقائق عن الحج » أن يومَ عرفة يومُ المعرفة ،
ويوم عرفة يومُ المغفرة ، ويوم عرفة يومٌ تتنزَّل فيه إنه يومُ اللقاء الأكبر بين
العبدِ المنيبِ المشتاق ، وبين ربِّه الرحيمِ التواب ، بين هذا الإنسانِ
الحادثِ الفاني المحدودِ الصغير ، وبين الخالقِ الباقي الكبير ، وعندها
ينطلق الإنسانُ من حدودِ ذاته الصغيرة إلى رحابِ الكونِ الكبير ، ومن
حدودِ قوَّته الهزيلة إلى الطاقاتِ الكونيةِ العظيمة ، ومن حدودِ عمره

القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله الرحمات على العباد من خالق الأرض والسموات ، ومن هنا قيل : مَنْ وقفَ في عرفاتٍ ، ولم يغلب على ظنه أن الله قد غفر له فلا حجَّ له .

وقد بينت في موضوع « الاستطاعة في الحج » أن الحج عبادةٌ كبرى ، قوامها اتصالٌ متميزٌ بالله عز وجل ، وأساسها معرفةٌ وقُربٌ ، وبذلٌ وحُبٌ ، وسببها نزعُ أفنعة الدنيا المزيفة ، وتجاوزُ الخلقِ إلى الخالق ، وخرقُ النعمِ إلى المُنعم .

وقد بينت في موضوع « الذوق الإسلامي » أن الذوقَ والأدبَ ، والرقيَّ ، والحضارةَ ، والشفافيةَ ، والجمالَ ، والنظافةَ ، والنظامَ هي أصولٌ كبيرةٌ من أصولِ هذا الدِّينِ ، وإن الإسلامَ جاء لتنظيمِ الحياة وإدارتها والسموِّ بها ، فالإسلامُ هو الحياةُ الكاملةُ .

وقد بينت في موضوع « التنمية الأخلاقية » أن السعادةَ الحقيقيةَ لا تُجلبُ أبداً من الخارجِ ، وإنما هي شعاعٌ من نورٍ ، يولدُ ، ويكبرُ في داخلِ الإنسانِ ، ويضيءُ جوانبَ الحياةِ كُلِّها ، ويجعلها أكثرَ قيمةً ومنطقيةً ، وأكثرَ تهيوؤاً للنموِّ والتقدُّمِ والاستمرارِ ، وكلُّ ذلك مرهونٌ بأوضاعٍ تسودُ فيها الأحكامُ الأخلاقيةُ ، ويعلو فيها صوتُ الالتزامِ والاستقامةِ ، وترفرفُ في أرجائها إشراقاتُ النفسِ !

وقد بينت في موضوع « صلة الرحم » أن الرَّحِمَ العامَّةَ رحمُ الدِّينِ ، ويجبُ صلُّتها بملازمةِ الإيمانِ ، والمحبةِ للمؤمنين ، ونصرتهم ، والنصيحةِ لهم ، وتركِ أذيتهم ، والعدلِ بينهم ، والإنصافِ في

معاملتهم ، والقيام بحقوقهم الواجبة ، كالقيام على معالجة المرضى ، ومواساة الفقراء ، دون أن يمتنّ عليهم ، ونصرة المظلومين وغير ذلك من الحقوق المترتبة لأهل الإيمان .

وقد بينت في موضوع « تربية الأولاد في الإسلام » أن الأطفال غراسُ الحياة ، وقطوفُ الأمل ، وقُرّةُ عينِ الإنسان ، وزهورُ الأمةِ المتفتحة ، والبراعمُ الإنسانيةِ المتألّقة ، عليهم المعوّلُ في الحفاظِ على مكاسبِ الأمةِ ، واستعادةِ ماضيها المجيد ، وخوضِ معاركها الضاريةِ والمصيريةِ ضدّ أعدائها .

وقد بينت في موضوع « الامتحان الأكبر » أن أكبرَ خسارة أن يرى العبدُ غيره يساقُ في سعادةٍ ومسرّةٍ إلى جنّةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ ، لينعمَ بما تلذُّ به العينُ ، وما تشتهيهِ النفسُ ، ويطربُ له السمعُ ، ويسعدُ به القلبُ ، ثمَّ يقادُ هو في ذلّةٍ وصغارٍ ، ومهانةٍ وانكسارٍ إلى نارٍ وقودُها النَّاسُ والحجارةُ ، حيثُ العقابُ والعذابُ ، والبلاءُ والشقاءُ ، والنّكالُ والأغلالُ ، ممّا لا يخطرُ على البالِ ، ولا يوصفُ بحالٍ من الأحوالِ !

وقد بينت في موضوع « الخطاب الإسلامي » أن العالمَ الإسلاميَّ في أمسِّ الحاجةِ إلى خطابٍ دينيٍّ ينطلقُ من حقائقِ الدِّينِ النَّاصعةِ المأخوذةِ من مُحكَمِ الكتابِ ، والسُّنّةِ الثابتةِ ، بالفهمِ الصحيحِ ، وبمعرفةٍ مقاصدِ الإسلامِ الكبرى ، وهذا يُشارُ به إلى الانعتاقِ من سلطةِ النفسِ ، ومحدوديةِ التفكيرِ ، والوعيِّ بأصولِ الدّعوةِ ، وطرائقِ معالجةِ الأوضاعِ المتردّبةِ ، ومراعاةِ السننِ الشرعيةِ والكونيةِ في منهجِ التغييرِ والإصلاحِ .

وقد بينت في موضوع « تجديد الخطاب الديني » أن ما يجري في العالم الإسلامي اليوم من مؤتمرات وندوات تحت اسم التجديد في الخطاب الديني هو أسلوب التفافٍ لإلغاء الخطاب الديني ، أو لتفريغه من مضمونه ، حتى يصبح الدين متوافقاً مع مصالح القطب الواحد في السيطرة ونهب الثروات .



وبما أن الكمال لله وحده ، وبما أن كل إنسان ، يؤخذ منه ويرد عليه ، إلا صاحب القبة الخضراء سيدنا محمد ﷺ ، فإني أنتظر من الإخوة القراء - كما عودوني في كتاب النظرات ، وكتاب التأملات - تنفيذاً لوصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال : « أحب الناس إلي من رفع إلي عيوبي » ، أن يتفضلوا بإبداء ملحوظاتهم حول مضامين الكتاب وأدلتها ، ونصوصه واستنباطاتها ، وقصصه التاريخية ودلالاتها ، وموضوعاته العلمية وارتباطاتها ؛ لأخذ بها في الطبقات القادمة إن شاء الله تعالى ، فالكتاب لا يزيد على ومضات في الإسلام فإن أصبت فمن توفيق الله وفضله ، وإن لم أصب فمن تقصيري وضعف حيلتي .

فالحق فوق الجميع ، والمضامين فوق العناوين ، والحقيقة فوق الأشخاص ، فالمؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون .

يروى أن إماماً لقي غلاماً وأمامه حفرة ، فقال له : إياك يا غلام أن تسقط فقال له الغلام : بل إياك يا إمام أن تسقط ؛ إني إن سقطت سقطت

وحدي ، وإنك إن سقطت سقط معك العالم ، لذلك ما من أحد أصغر من أن ينقد ، وما من أحد أكبر من أن يُنقد .

ولا بد من أن أنه أيضاً بفضل بعض الإخوة الذين أجلهم وأحبهم ، والذين شاركوا في تصميم البرامج التي أفرغت فيها أصول الكتاب ، والذين نفذوها وطوروها ، والذين نقحوا النصوص ودققوها ، والذين راجعوا الأحاديث الشريفة وخرجوها ، والذين أخرجوا الكتاب وطبعوه ، وأخص بالشكر **دار المكتبي** للطباعة والنشر والتوزيع ، على حرصها أن يقترب الكتاب من درجة الكمال .

ولا يسعني إلا أن أدعو فأقول : جزى الله عنا سيدنا محمداً ﷺ ما هو أهله ، وجزى عنا أصحابه الكرام ما هم أهله ، وجزى عنا والدينا ، وأساتذتنا ، ومشايخنا ، ومن علمنا ، ومن له حق علينا ما هم أهله .

أعوذ بك يا رب . . . أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ، وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ، ألتمس به أحداً سواك ، وأعوذ بك من فتنة القول ، كما أعوذ بك من فتنة العمل ، وأعوذ بك أن أتكلف ما لا أحسن ، كما أعوذ بك من العجب فيما أحسن .

الأستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

موضوعات معاصرة

الاستخلاف في الأرض بين الوعد والشرط

عَنْ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى ^(١) لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى » ^(٢) ، وَقَالَ ﷺ : « الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ نَصَحَةٌ مُتَوَادُّونَ ، وَإِنْ افْتَرَقَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ، وَالْفَجَرَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَشَّةٌ مُتَخَاذِلُونَ ، وَإِنْ اجْتَمَعَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ » ^(٣) ، وَقَالَ ﷺ : « وَالْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، ثُمَّ شَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ » ^(٤) ، وَقَالَ ﷺ : « وَالْمُسْلِمُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، وَيُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ » ^(٥) ، وَقَالَ ﷺ أَيْضًا : « إِنْ سَلِمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ ، لَا يُسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ » ^(٦) .

- (١) [تداعى : أي دعا بعضه بعضاً إلى المشاركة في الألم] ، فتح الباري (٤٣٩ / ١٠) .
- (٢) البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٦) .
- (٣) الترغيب والترهيب للمنزري (٣٦١ / ٢) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١١٤ / ٦) .
- (٤) البخاري (٤٦٧) ، ومسلم (٢٥٨٥) ، وغيرهما عن أبي موسى .
- (٥) أبو داود (٢٧٥١) ، والنسائي (٨٦٨١) ، وابن ماجه (٣٦٨٣) ، وأحمد (٦٩٧٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .
- (٦) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣٣ / ٣) .

هذا وصفٌ دقيقٌ من قِبَلِ مبعوثِ العنايةِ الإلهيةِ لِمَا عليه المؤمنون ، أو لِمَا ينبغي أن يكونوا عليه في شتى أقطارهم وديارهم ؛ من تعاونٍ ، وتناصرٍ ، وتعاطفٍ ، فهُم كالجسد الواحد ، نَصَحَةٌ متوَادُّون ، وهم بنيانٌ واحدٌ ، يشدُّ بعضُهُ بعضاً ، وهم يدٌ على مَنْ سواهم ، سِلْمُهُم واحدةٌ ، وحربُهُم واحدةٌ ، هذا ما ينبغي أن يكونَ عليه المؤمنون في شتى أقطارهم وأمصارهم .

وأوصافُ المؤمنين في الكتابِ والسنةِ مقاييسُ دقيقةٌ نقيسُ بها إيماننا ، أو هي أهدافُ نضعها نصبَ أعيننا ، وينبغي أن نسعى إليها .

فلا بدَّ للمسلمِ الصادقِ أن يحملَ همومَ إخوانه المسلمين في مختلفِ أصقاعهم وأمصارهم ، و« مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ »^(١) ، بل إنَّ تطلُّعَ المسلمِ إلى أن يكونَ إخوانه في شتى أقطارهم ، أعزَّةَ كرماءَ ، يملكونَ أمرهم ، ومصيرهم لَهِيَّ علامةٌ من علاماتِ إيمانه ، وإنَّ حرصَ المسلمِ على أن يكونَ المسلمون متعاونين متناصرين لَهِيَّ علامةٌ من علاماتِ إيمانه ، وإنَّ حرصَ المسلمِ على أن يكونَ المسلمون متعاونين لَهِيَّ علامةٌ من علاماتِ إخلاصه ، والفرديةُ طُبعٌ ، والتعاونُ الجماعيُّ تكليفٌ ، والإنسانُ المؤمنُ يتعاونُ مع إخوانه المؤمنين بقدرِ طاعته لله ، وينسلخُ منهم ، ويؤكدُ فرديتهَ بقدرِ تفلُّته من منهجِ الله ، وحينما ينهى الإنسانُ نفسه عن خصائصِ طبعه التي هي في الأصلِ تُناقِضُ التكليفَ ، ليكونَ هذا التناقضُ ثمناً للجنة ، وحينما ينهى الإنسانُ نفسه عن خصائصِ

(١) الطبراني في الأوسط (٧٤٧٣) ، والحاكم (٧٨٨٩) عن حذيفة .

طبعه ، ويحملها على طاعة ربّه يكونُ حيثّذ قد أخذ بسببٍ من أسباب دخول جنة ربّه ، قال تعالى :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

[النازعات : ٤٠-٤١] ، وقال تعالى :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور : ٥٥] .

وقد أنجز الله وعده للمؤمنين يوم عبودته حقّ العبادة ، فأطاعوه ولم يعصوه ، وشكروه ولم يكفروه ، وذكروه ولم ينسوه ، فجعل الله منهم قادة للأمم ، بعد أن كانوا رعاة للغنم ، لكنّ الذي حدث أن قلب المسلمون لدينهم ظهر المجن^(١) ، قال الله في كتابه :

﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم : ٥٩] .

ومن دلائل نبوة النبي ﷺ أنه وصّف هذا الغيّ الذي توعّد الله به المقصّرين ، وبيّن أسبابه ، وكأنّه ﷺ بيّننا يرى ما نرى ، ويسمع

(١) قال ابن منظور في (لسان العرب ، مادة جنن) : [المجنّ الثّرس ، والجمع المجنّان ، بالفتح ، وفي حديث السّرقه : القطع في ثمن المجنّ ، وهو الثّرس ، لأنه يورث حامله ، أي يستره] ، وقال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٠٨/١) : [ومنه حديث علي رضي الله عنه ، كتب إليّ ابن عباس رضي الله عنهما : قلّبت لابن عمك ظهر المجنّ] ، هذه كلمة تُضرب مثلاً لمن كان لصاحبه على مودّة أو رعاية ، ثم حال عن ذلك] .

ما نسمعُ ، فعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ^(١) » ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْكُمْ غُثَاءٌ ^(٢) كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ^(٣) .

هذا وصفٌ دقيقٌ للغِي الذي تَوَعَّدَ اللَّهُ بِهِ الْمُقْصِرِينَ ، وَالْأُمَمُ الْيَوْمَ يَدْعُو بَعْضُهَا بَعْضًا إِلَى مَقَاتِلَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكُسِرَ شَوْكَتِهِمْ ، وَسَلَبَ ثِرْوَاتِهِمْ ، وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ ، وَاغْتِصَابِ أَرْضِيهِمْ ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، يَأْخُذُونَ مِنْهَا بِلَا مَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ ، فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا وَصَفْرًا ، وَيَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ بِلَا تَعَبٍ يَنَالُهُمْ ، أَوْ ضَرَرٍ يُلْحَقُهُمْ ، أَوْ بَأْسٍ يَمْنَعُهُمْ .

إِنَّ هَذَا الْوَهْنَ الَّذِي هُوَ سِرُّ الضَّعْفِ ، الَّذِي يَعِيشُ النَّاسُ بِهِ عِبِيدًا لِدُنْيَاهِمُ الزَّائِلَةِ ، عُشَاقًا لِأَوْضَاعِهِمُ الرَّاتِبَةِ ، تُحَرِّكُهُمْ شَهْوَاتُهُمْ وَشَبَهَاتُهُمْ ، وَتَسِيرُهُمْ رَغَائِبُهُمْ وَنَزَوَاتُهُمْ ، وَهَذَا هُوَ الْوَهْنُ ، حِينَمَا يَكْرَهُ

(١) [والمعنى : كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضاً إلى قصعتها التي يتناولون منها بلا مَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ ، فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا وَصَفْرًا ، كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ بِلَا نَعَبٍ يَنَالُهُمْ ، وَلَا ضَرَرٍ يُلْحَقُهُمْ ، أَوْ بَأْسٍ يَمْنَعُهُمْ] . (عون المعبود ١١/٢٧٢) .

(٢) [الغثاء - بالضم والمد - ما يجيء فوق السيل مما يحمله من الزبد والوسخ وغيره] ، (النهاية في غريب الأثر : ٣/٣٤٣) .

(٣) رواه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٢٢٤٥٠) .

الإنسان لقاءَ ربِّه ، و يترقَّب الموتَ كامناً في كلِّ اتجاهٍ ، فيفزَعُ من الهمسِ ، ويألم من اللَّمسِ ، يُؤثِّر حياةَ يموتُ فيها كلُّ يومٍ موتاتٍ ، على حياةٍ كريمةٍ عزيزةٍ أبديةٍ في جنَّةِ ربِّه ، فالعجبُ كلُّ العجبِ أن يكونَ النورُ بينَ أيديهم ، والرائدُ نصبَ أعينهم ، ثم هم يلحقون منهومين بركابِ الأممِ الشاردةِ عن الله ، في نهجهم وسلوكهم ، فلا يستطيعون رشاداً ، ولا يهتدون سبيلاً ، وحالهم لا يعدو ما وصفَ ذلك الشاعرُ بقوله :

كَالْعَيْسِ^(١) فِي الْبِيدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظَهْرِهَا مَحْمُولٌ

وَمِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَمِنْ خِلَالِ إِعْلَامِ اللَّهِ لَهُ ، أَنَّهُ ذَكَرَ مَا يَصِيبُ الْمُسْلِمِينَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مِنْ بَأْسَاءٍ وَضِرَاءٍ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ رَبِّهِمْ ، وَتَقْصِيرِهِمْ فِي طَاعَتِهِمْ لَهُ ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : « أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ : لَمْ تَظْهَرَ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشًا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا^(٢) ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَثُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطَرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذَ بَعْضُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ

(١) [الْعَيْسُ هِيَ الْإِبِلُ الْبَيْضُ مَعَ شُقْرَةٍ يَسِيرَةُ] ، (لسان العرب ، مادة عيس) .

(٢) انظر الآن إلى مرض السيدا ، والسرطان ، وغيرها من الأمراض المستعصية ، نسأل الله العافية والسلامة .

تَحْكُمُ أَثْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ» (١) .

إنها المعاصي والذنوب ، والمجاهرة بالفواحش والآثام ، والتعريضُ لسخطِ جبارِ السماوات والأرض ، فإنه ما نَزَلَ بلاءٌ إلا بذنبٍ ، ولا رُفِعَ إلا بتوبةٍ ، وإنه ما حصلَ البلاءُ العامُّ في بعضِ البلادِ ، ولا وَقَعَتِ المصائبُ المتنوعةُ ، والكوارثُ المروعةُ ، ولا فَشَتِ الأمراضُ المستعصيةُ التي لم يَكُنْ لها ذِكْرٌ في ماضينا ، ولا حُبِسَ القطرُ مِنَ السماءِ ، إلا نتيجةَ الإعراضِ عن طاعةِ الله عز وجل ، وارتكابِ المعاصي ، والمجاهرةِ بالمنكراتِ ، وكلِّما قَلَّ ماءُ الحياءِ قَلَّ ماءُ السماءِ .

والآن ننتقلُ عبرَ البُعْدِ الزمانيِّ إلى السابعِ عشر من رمضانَ عام اثنين لهجرةِ النبي ﷺ ، وعبرَ البُعْدِ المكانيِّ إلى بدرٍ ، وهو مكانٌ بينَ مكةَ والمدينةِ ، جَرَتْ فيه أولُ معركةٍ بينَ المسلمين والمشرَكين ، ولننظرَ إلى النبي ﷺ وقد وَقَفَ أمامَ قَليبٍ (٢) - بئرٍ مهجورة - طُرِحَتْ فيه جثثُ القتلى مِنَ صناديدِ قريشٍ ، ولنستمعَ إليه ﷺ وهو يخاطبُهم ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَرَكَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عَلَيْهِمْ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ : يَا أَبَا جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ ! يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلْفٍ ! يَا عُتْبَةَ بْنَ رَيْبَعَةَ ! يَا أُسَيَّةَ بْنَ رَيْبَعَةَ ! أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا

(١) سنن ابن ماجه (٤٠١٩) .

(٢) القليب : [البئر التي لم تُطَوَّ] ، (لسان العرب ، مادة قلب) ، وانظر النهاية لابن الأثير (٩٨/٤) .

وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا ، فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يَسْمَعُوا ؟ وَأَنْتَى يُجِيبُوا وَقَدْ جِئُوا ؟ قَالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا » ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا ، فَأُلْقُوا فِي قَلِيبِ بَدْرٍ ^(١) .

يا لها من كلماتٍ بليغاتٍ ، تلك التي خاطبَ بها رسولُ الله ﷺ القتلَى من كفارِ قريشٍ ، وقد أمرَ بطرحهم في قليبٍ - أي : بئرٍ - لدفعهم ، وذلك إثرَ انتصارِ المسلمين في أوَّلِ مواجهةٍ لهم مع أعدائهم ، انتصروا وهم قلةٌ قليلةٌ مُستضعفةٌ ، على كثرةٍ كثيرةٍ من صناديد قريشٍ ، وهم أشداءُ مستكبرون .

لقد كان جيشُ المسلمين في بدرٍ ضئيلَ العددِ ، قليلَ العددِ ، فأصحابُ رسولِ الله ﷺ الذين خرجوا معه لا يزيدون على ثلاثمئة ، بل ينقصون عن ذلك ، ولكنَّ الواحدَ منهم كَأَلْفٍ ، والألفُ من أعدائهم كَأَفٍّ ، فَهُمْ يَحِبُّونَ الْمَوْتَ ، كما يحب أعداؤهم الحياةَ ، لقد استعرض الرسولُ ﷺ جيشَه كما يفعل القادةُ قبيلَ المعركة ، لاستجلاء معنوياته ، فقال : « أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ . . . وإنما يريد الأنصارَ ، وذلك أنهم عددُ الناسِ ، فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَجَلٌ ، فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا لَحِثْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عَهْدَنَا وَمَوَائِقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فَاْمُضْ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ ، فَتَحْنُ مَعَكَ ، فَوَ الَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ

(١) رواه مسلم (٢٨٧٤) ، وغيره .

وَاحِدٌ ، وَمَا نَكَّرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا إِنَّا لَصَبْرٌ فِي الْحَقِّ ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ ، فَصِلْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ ، وَاقْطَعْ حِبَالَ مَنْ شِئْتَ ، وَعَادِ مَنْ شِئْتَ ، وَسَالِمِ مَنْ شِئْتَ ، وَخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ ، وَأَعْطِنَا مَا شِئْتَ ، وَمَا أَخَذْتَ مِنَّا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ ، فَلَعَلَّ اللَّهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ ^(١) .

هذا أنموذج من مقاتلي الجيش عشيّة موقعة بدرٍ ، إنَّهم على أهبة الاستعداد للتضحية بالغالي والرخيص ، والنفس والنفس ، دُعماً للحقِّ ، ولدين الحقِّ ، ولرسول الحقِّ ﷺ .

وأما عن نوعية القيادة التي قادت جيش المسلمين إلى النصر عشيّة موقعة بدرٍ فَإِلَيْكُمْ بعض ما روثه كتبُ السيرة : لقد كان جيشُ المسلمين - فضلاً عن ضالةِ العدد - في قِلَّةٍ مِنَ العدد ، فليس مع الرسول الكريم ﷺ وصحبه سوى سبعينَ بغيراً ، والمسافةُ بينَ المدينةِ وبدرٍ تَرْبُو على مئةٍ وستينَ كيلو متراً ، فأعطى النبيُّ الكريمُ ﷺ توجيهاً ؛ بأن يختصَّ كلُّ ثلاثةٍ براحلةٍ ، وقال ﷺ : « وَأَنَا وَعَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ عَلَى رَاحِلَةٍ ، فَكَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَانَتْ نَوْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ - دوره في السَّيْرِ - فقالا له : نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ - ليظلَّ راكباً - فقال : مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي عَلَى السَّيْرِ ، وَلَا أَنَا بِأَغْنَى مِنْكُمَا عَنِ الْأَجْرِ ^(٢) ، فمشى النبيُّ ﷺ وصاحباهُ راكبان ، فهذا الذي يمشي وصاحباهُ يركبان هو رسولُ الله ﷺ ، وقائدُ الجيش .

(١) السيرة النبوية (٣/ ١٦٢) ، وكتاب الثقات لابن حبان (١/ ١٥٨) .

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ١٠٠) ، وابن حبان (١١/ ٣٥) عن ابن مسعود .

فهل تُدهشنا بعدَ هذا شجاعةُ أصحابه ، وتضحياتهم ، وإقبالهم على الموت ، بعد أن سوَّى نفسه بهم في كلِّ شيء ، وهل يُدهشنا تعلُّقهم به ، وتفانيهم في محبَّته ، وقد كان لهم أباً رحيماً ، وأمّاً رؤوماً^(١) ، وأخاً ودوداً ، ونبياً ورسولاً ، ولقد صدقَ اللهُ العظيمُ إذ يقولُ في كتابه :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم : ٤] .

والآن نعودُ عَبْرَ البُعْدِ الزَّمَانِيِّ مِنَ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ مِنَ العامِ الثَّانِي لِلهَجْرَةِ إِلَى العَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ مِنَ العامِ التاسعِ عَشَرَ بَعْدَ الأَرْبَعِمِئَةِ وَالْأَلْفِ ، وَعَبْرَ البُعْدِ الْمَكَانِيِّ مِنْ أَرْضِ المَعْرَكَةِ فِي بَدْرٍ ، قُرْبَ المَدِينَةِ المَنَوَّرَةِ إِلَى فُسْطَاطِ^(٢) المُسْلِمِينَ ، مَدِينَةِ قُرْبِ الغُوطَةِ يُقَالُ لَهَا دِمَشْقُ ، هِيَ خَيْرُ بِلَادِ المُسْلِمِينَ لِلْمُسْلِمِينَ يَوْمئِذٍ ، وَالتِّي قَالَ عَنْهَا سَيِّدُ الخَلْقِ ، وَحَبِيبُ الحَقِّ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « إِنِّي رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ قَدْ انْتَرَعَ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي ، فَإِذَا هُوَ نُورٌ سَاطِعٌ ، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيْمَانَ إِذَا وَقَعَتْ الْفِتْنُ بِالشَّامِ »^(٣) .

هَذَا النُّصْرُ الْمُؤَزَّرُ العَزِيزُ الَّذِي فَرِحَ بِهِ ، وَيفرَحُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي كُلِّ عَصْرِ وَمَصْرِ ، وَالَّذِي نَحْنُ فِي أَمْسٍ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ الْيَوْمَ ، لِأَنَّا نَوَاجُهُ أَعْدَاءُ مَاتَ فِي ضَمَائِرِهِمْ ، وَضَمَائِرِ الَّذِينَ انْتَخَبُوهُمْ كُلِّ الْقِيَمِ الْإِنْسَانِيَّةِ ،

(١) [الناقة رؤوم ورائمة : عاطفة على ولدها ، وأزأَمها عليه : عطفها ، فترأمت هي عليه تعطفَتْ] ، (لسان العرب ، مادة رَأَم) .

(٢) [الفسطاط ضَرْبٌ مِنَ الأَبْنِيَةِ] ، (لسان العرب ، مادة فُسْطَاط) .

(٣) أخرجه أحمد (١٧٨١٠) عن عمرو بن العاص ، والحاكم في المستدرک (٥٥٥ / ٤) .

والأعراف الدولية ، وداسوا على حقوق الإنسان بحوافرهم ، وبنوا مجدهم على أنقاض الشعوب ، وغناهم على إفقارها ، وقوتهم على تدمير أسلحتها .

إنهم يصفون المالك الطريد المشرّد للأرض إرهابياً لا حق له ، والتمسك بدينه القويم أصولياً ، ويجعلون اللصّ الغالب على المقدسات ربّ بيت محترماً ، يملكون الأرض لا بالإحياء الشرعي ، ولكن بالإسائة الجماعية ، والقهر النفسي ، فيا ويلهم ، قال تعالى في كتابه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا أَمْرًا مُّثْلَ لَيْلَاءٍ أَوْ زَهْرًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] .

بل إن هؤلاء المستكبرين ربّما طالبوا الشعوب المستضعفة أن يلغوا جراحهم ، ويتسموا للغاصب ، وأن يعدّوا حقهم باطلاً ، وباطل غيرهم حقاً ، وفي مثل هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالُوا : وَكَأَيُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيِّكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ؟ قَالُوا : وَكَأَيُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيِّكُونُ » (١) .

هذا النصر المؤرّر العزيز ما سرّه ؟ ومن يصنعه ؟ وما العامل الحاسم فيه ؟ إنّه الله عز وجل ، استناداً إلى قوله تعالى :

(١) علل ابن أبي حاتم (٢٧٥٩) وفيه ضعف .

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، وقوله :

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

إذا كان الله مَعَكَ فَمَنْ عَلَيْكَ ؟ وإذا كان الله عَلَيْكَ فَمَنْ مَعَكَ ؟ والآن
أليس لهذا النصر الذي هو من عند الله قواعد ؟ أليست له شروط ؟ أليس له
ثمن ؟

إن هذه القواعد ، وتلك الشروط ، وهذا الثمن تتلخص كلها
بكلمتين ؛ الإيمان والإعداد ، أما الإيمان فقد قال تعالى :

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وأما الإعداد فقال

تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الروم : ٤٧] .

فالإيمان الذي يحمل صاحبه على الاستقامة والعمل الصالح وحده
شرط لازم غير كاف ، والإعداد وحده الذي يستنفذ الطاقات شرط لازم
غير كاف ، بل لابد من الإيمان الحق ، والإعداد الصحيح .

إن علاقة الإيمان بالنصر علاقة رياضية - أي ثابتة - توضحها الآية :

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِيرُونَ
يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال : ٦٥-٦٦] .

يتضح من خلال هذه الآية الكريمة أن معادلة النصر في حال قوة
الإيمان واحد إلى عشرة ، وفي حال ضعف الإيمان واحد إلى اثنين ، وفي

حال انعدام الإيمان يكون النصر للأقوى عدداً وعدةً ، وما يتبع ذلك ،
ذلك أن المعركة بين حَقَّين لا تكون ، لأن الحق لا يتعدّد ، والمعركة بين
حق وباطل لا تطول ، لأن الله مع الحق ، والمعركة بين باطلين
لا تنتهي ، وعندئذ تحدث عن العدد والعدد ، والخطط والحيل .

إن الإيمان يبدّل طبيعة النفس ، ويغيّر قيمها ومطامحها ، ويصعد
ميولها ورغباتها ، ويخفف من متاعبها وهمومها ، ويقوّي رجاءها
وأملها ، ويقلب أحزانها أفراحاً ، ومغارمها مغانم .

تؤكد هذه الحقيقة وصية سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى
سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « أمّا بعد ، فإني أمرُك ومن
معك من الأجناد بتقوى الله عز وجل على كلِّ حال ، فإن تقوى الله أفضلُ
العدة على العدو ، وأقوى المكيده في الحرب ، وأمرُك ومن معك أن
تكونوا أشدَّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش
أخوفُ عليهم من عدوهم ، فإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ،
ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، إن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا
كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة » ، هذا
هو الإيمان .

وأما الإعداد فهو وحده شرط لازم غير كافٍ أيضاً ، وهو أمر إلهي
قطعي الثبوت ، لقوله عز وجل :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، فالمؤمنون بمجموعهم مأمورون بإعداد
العدة ، ليواجهوا بها قوى البغي والكفر ، فكلمة ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ تعني

استنفاد الجهد ، لا بذلَ بعضِ الجهد ، والقوةُ التي ينبغي أن يُعدها المؤمنون جاءت في الآية مُنْكَرَةً تنكيرِ شمولٍ ، ليكونَ الإعدادُ شاملاً لكل القوى التي يحتاجها المؤمنون في مواجهة أعدائهم ؛ مِنْ قوّة في العدد ، وقوّة في العدد ، وقوّة في التدريب ، وقوّة في التخطيط ، وقوّة في الإمداد ، وقوّة في التموين ، وقوّة في الاتصالات ، وقوّة في المعلومات ، وقوّة في تحديد الأهداف ، وقوّة في دقة الرمي ، وقوّة في الإعلام ، بل إنّ كلمة « مِنْ » التي سَبَقَتِ القوّة جاءت لاستغراق أنواعِ القوّة ، واحدة إثرَ واحدة ، فلقد أفادت استقصاء أنواعِ القوَى ، لا اصطفاء بعضها ، وكلمة : ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ جاءت عطفاً للخاصّ المألوفِ وَقْتُ نزولِ القرآنِ على العامِّ الذي يستغرقُ كلّ الأزمانِ والبيئاتِ ، والتطوراتِ والتحدياتِ ، وهذا الإعدادُ يحققُ أهمَّ أهدافه ولو لم تقعِ المواجهةُ مع العدوِّ ، إنها رهبةُ القويِّ التي تُقذفُ في قلوبِ أعدائه ، لقوله : ﴿ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ، وقال تعالى :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران :

١٥١] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ »^(١) ، وحينما لا تَتَّبِعُ أمته سُنَّتَه مِنْ بعده ربما تُهْزَمُ بالرُّعْبِ مسيرةَ عامٍ .

بل إنّ النبي ﷺ أشارَ إلى أنَّ القوّة كلّ القوّة في إحكامِ الرمي ، وإصابة الهدف ، وهو مقياسُ خالدٍ للقوّة ، وهو عنصرٌ أساسيٌّ في كسبِ المعاركِ ، مهما اختلفت أنواعُ الأسلحةِ ، وتطوّرت مستوياتُها الفنيّةُ ،

(١) أخرجه البخاري عن جابر (٣٢٨) .

فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ :
 ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ، أَلَا إِنَّ لِقُوَّةَ
 الرَّمْيِ ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ ﴿١﴾ .

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَيْضًا قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ
 عَزَّ وَجَلَّ يُدْخِلُ بِالسَّهْمِ الْوَاحِدِ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ الْجَنَّةَ ؛ صَانِعُهُ يَحْتَسِبُ فِي صَنْعَتِهِ
 الْخَيْرَ ، وَالرَّامِي بِهِ ، وَمُنْبَلَّهُ ، وَارْمُوا ، وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ
 مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا ، لَيْسَ مِنَ اللَّهِو إِلَّا ثَلَاثٌ ؛ تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ ، وَمُلَاعَبَتُهُ
 أَهْلَهُ ، وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ وَنَبْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ الرَّمْيَ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا
 نِعْمَةٌ تَرَكَهَا ، أَوْ قَالَ : كَفَرَهَا ﴿٢﴾ .

دققوا في هذا الاستنباط من قوله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ فِي عِلْمِهِ لَمْ
 يَكْلَفْنَا أَنْ نَعِدَّ الْقُوَّةَ الْمَكَافِئَةَ لِأَعْدَائِنَا ، وَلَكِنْ كَلَّفْنَا أَنْ نَعِدَّ الْقُوَّةَ الْمَتَاحَةَ ،
 وَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِنَا ، وَاللَّهُ يَنْجِزُ وَعْدَهُ بِالنَّصْرِ .

كَمَا أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيْنَا أَنْ نَبْحَثَ فِي كُلِّ مِظَنَّةٍ ضَعْفٍ عَنْ سَبَبِ قُوَّةٍ
 كَامِنَةٍ فِيهِ ، وَلَوْ أَخْلَصَ الْمُسْلِمُونَ فِي طَلَبِ ذَلِكَ لَوَجَدُوهُ ، وَلِصَارَ
 الضَّعْفُ قُوَّةً ، لِأَنَّ الضَّعْفَ قَدْ يَنْطَوِي عَلَى قُوَّةٍ مُسْتَوْرَةٍ يُؤَيِّدُهَا اللَّهُ بِحِفْظِهِ
 وَرَعَايَتِهِ ، فَإِذَا قُوَّةُ الضَّعْفِ تَهَدَّى الْجِبَالَ ، وَتَدَكُّ الْحِصُونَ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح : ٧] .

(١) رواه مسلم (١٩١٧) .

(٢) رواه الإمام أحمد (١٧٣٥٩) في مسنده ، وأبو داود (٢٥١٣) والنسائي (٤٤٢٠) .

إن الحديث عن القوة النابعة من الضعف ليس دعوة إلى الرضا بالضعف ، أو السكوت عليه ، بل دعوة إلى استشعار القوة حتى في حالة الضعف ، فربما صَحَّتْ الأجسام بالعلل ، إذ ينتزع المسلمون من هذا الضعف قوة تحيلُ قوةَ عدوِّهم ضعفاً ، وينصرهم الله نصراً مُبيناً ، قال تعالى :

﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِيكُ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَلْوَارِيكُ ﴾ [الفصلر : ٥] .

هذه الحقائق المستنبطة من القرآن الكريم هي منهجُ الله لخلقهِ ، وتلك التوجيهات التفصيلية والتوضيحية التي جاءت في سنة نبينا محمد ﷺ ، وهذه المواقف الأخلاقية الرائعة والحكيمة التي وقفها المصطفى ﷺ أسوتنا وقدوتنا ، وتلك البطولات الفذة التي ظهرت من أصحابه الكرام ، أمناء دعوتِهِ ، وقادة ألويتِهِ ، هذه كلها نضعها بين أيدي أبناء أمتنا العربية والإسلامية ، وهي تخوض المعارك تلو المعارك مع أعدائها أعداء الحق والخير .

ولأنَّ البكاء لا يُحيي الميت ، ولأنَّ الأسف لا يردُّ الفائتَ ، ولأنَّ الحزن لا يدفع المصيبةَ ، ولكنَّ العملَ مفتاحُ النجاح ، والصدق والإخلاصُ مع متابعة الرسول ﷺ هي سُلَّمُ للفلاح ، قال تعالى :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

سرعة الضوء

يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة : ٥] .

إن القرآن يخاطب أناساً يعتمدون السنة القمرية ، حيث إن القمر يدور حول الأرض كل شهر دورة ، فلو قسنا بُعد مركزه عن مركز الأرض ، أي نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض ، وحسبنا محيط هذه الدائرة بُعد معرفة نصف قطرها ، لعرفنا عدد الكيلو مترات التي يقطعها القمر في دورته حول الأرض كل شهر ، ولو أخذنا طول محيط هذه الدائرة ، وضربناه في اثني عشر شهراً ، لعرفنا المسافة التي يقطعها القمر من الكيلو مترات في رحلته حول الأرض في العام ، ولو ضربناها في ألف لعرفنا ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام ، ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة : ٥] .

إن القمر يقطع في ألف عام ما يقطعه الضوء في يوم واحد ، بدليل أننا لو قسمنا ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام على ثواني اليوم ، وهي أربعة وعشرون ساعة ، تُضرب في ستين ، ثم في ستين أخرى ، لكانت هذه النتيجة هي زمن ما يقطعه الضوء في يوم واحد : ولو قسمنا المسافة على الزمن لظهر معنا الرقم التالي ، وهو مئتان وتسعة وتسعون ألفاً وسبعمئة واثنيان وتسعون كيلومتراً ونصف كيلومتر ، وهذه النتيجة تتفق تماماً مع سرعة الضوء المعلنة دولياً ، طبقاً لبيان المؤتمر

الدولي المنعقد في باريس ، مع العلم أنّ سرعة الضوء هي أهمّ قانونٍ عرفته البشرية في القرن العشرين ، وهذه السرعة هي أعلى سرعة في الكون ، فالشيء إذا سار بسرعة الضوء أصبح ضوءاً ، وأصبحت كتلته صفراً ، وحجمه لا نهاية له ، وعندئذ يتوقف الزمن ، فإذا سبق في سرعته سرعة الضوء تراجع الزمن ، وإذا قصر عن الضوء تراخى الزمن .

إنّ المسافة التي يقطعها القمر في مداره الخاص حول الأرض في ألف سنة قمرية تساوي المسافة التي يقطعها الضوء في يوم أرضي واحد ، وهذه هي النظرية النسبية التي يتبناها الغرب بها .

أما الآية الثانية ، وهي قوله تعالى :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤]

، فليس فيها قوله : مما تعدّون ، لأن هذه سرعة الملائكة ، وهي تتجاوز سرعة الضوء .

* * *

القمر

كلّنا يعلم أنّ القمر يدور حول الأرض في كلّ شهر قمرى مرة واحدة ، وأنّه يدور حول نفسه في وقتٍ مساوٍ تماماً لدورته حول الأرض ، لذلك لا نرى من القمر إلا وجهاً واحداً طوال الحياة ، لأنّه يدور حول الأرض ، وحول نفسه في وقتٍ واحد ، ويستكمل دورته حول نفسه في تسعة وعشرين يوماً ، وثمانى ساعات ، ويستكمل دورته حول الأرض في تسعة وعشرين يوماً وثمانى ساعات .

لكن الشيء الذي يلفت النظر أنَّ القمرَ يقطعُ في كلِّ يومٍ من دائرةٍ سيرِهِ من فلكِهِ حولَ الأرضِ ثلاثَ عشرةَ درجةً ، ويتأخَّرُ في شُرُوقِهِ عن اليومِ السابقِ تسعاً وأربعين دقيقةً كلَّ يومٍ ، ولولا هذا التأخُّرُ لبدا القمرُ بَدراً طوالَ الحياةِ ، ولكنَّ تأخُّرَهُ تسعاً وأربعين دقيقةً عن شُرُوقِهِ السابقِ كلَّ يومٍ هو الذي يُرينا القمرَ في مراتبٍ ، من هلالٍ ، إلى رُبُعٍ ، إلى بَدَرٍ ، إلى عُرْجونٍ ، إلى غيابٍ كاملٍ ، لذلك يقول ربُّنا سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] .

مَنْ الذي خَلَقَ وَأَبْدَعَ ، وجعلَ القمرَ يتأخَّرُ في شُرُوقِهِ كلَّ يومٍ تسعاً وأربعين دقيقةً عن اليومِ السابقِ ، حيث يبدو بهذا التأخُّرِ في هذه المراتبِ ، حتى أصبحَ القمرُ تقويمياً في كبد السماءِ ؛ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحسابِ ؟ إنه الله رب العالمين .

شيءٌ آخرٌ ، إنَّ كتلةَ القمرِ جزءٌ من ثمانين جزءاً من كتلةِ الأرضِ ، وتعاوِدُ الجاذبيَّةُ على سطحِ القمرِ سدسَ جاذبيَّةِ الأرضِ ، فالإنسانُ الذي يزنُ على الأرضِ ستينَ كيلو غراماً يزنُ على القمرِ عشرةَ كيلو غراماتٍ ، لذلك الجاذبيَّةُ فيه أَقَلُّ .

هناك أقمارٌ تدورُ حولَ نفسِها في بضعِ سنواتٍ ، هناك أقمارٌ تبتعدُ كثيراً ، وهناك أقمارٌ تقتربُ كثيراً ، ولكنَّ التفكيرَ السليمَ ، والتذكيرَ الدقيقَ هو أنَّه لو لم يكنِ القمرُ يدورُ حولَ نفسِهِ ، وحولَ الأرضِ في وقتٍ واحدٍ ، ولو لم يقطعُ في دورتهِ ثلاثَ عشرةَ درجةً ، ولولا تأخُّرُ شُرُوقِهِ

تسعاً وأربعين درجةً لَمَّا وُجِدَ تقويمٌ ، وَلَمَّا اسْتَفَدْنَا منه .

ماذا لو قَلَّتِ المسافةُ بينَ الأرضِ والقمرِ عَمَّا هي عليه الآن ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ [الرحمن : ٥] .

إِنْ بُعِدَ القمرُ عَنِ الأرضِ بِحُسْبَانٍ دَقِيقٍ ، فالمدُّ والجزرُ يَقَعَانِ بِتَأثيرِ القمرِ ، ولكنْ بِتَأثيرٍ محدودٍ ، فلو قَلَّتْ هذه المسافةُ لَارْتَفَعَ البحرُ ، ولغَطَّى اليابسةُ ، ثمَّ انْحَسَرَ عنها ، وكانت الحياةُ على اليابسةِ مستحيلةً ، ولو اقْتَرَبَ أَكْثَرُ من ذلكَ لَجَذَبَتْهُ الأرضُ ، وارتطمَ بها ، ولو ابتعدَ القمرُ عن الأرضِ أَكْثَرَ لانعدمَ المدُّ والجزرُ ، وللمدُّ والجزرُ في البحارِ وظيفةٌ خطيرةٌ ، فلو ابتعدَ أَكْثَرَ وأكْثَرَ لجذبتُهُ كواكبُ أخرى ، ولدارَتِ الأرضُ حولَ نفسها في أربعِ ساعاتٍ !! فيُصبحُ النهارُ ساعتين ، والليلُ ساعتين ، هذا كُلُّهُ مُنْطَوٍ تحتَ قوله تعالى :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ ﴾ .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ۝ ﴾ [يس : ٣٩] ، قَدَرْنَاهُ منازلَ ، ثم يقولُ :

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝ ﴾ [يس : ٤٠] ، ويقولُ في آيةٍ أخرى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۝ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] .

لا يخطرُ في بالِ أحدٍ ما امتدَّت به الحياةُ ألاَّ يبدو القمرُ ، قال تعالى :
﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ٢٩ ﴾ [لقمان : ٢٩] .

وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ تَعَالَى قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ :
﴿ نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾

[الفرقان : ٦١]

وقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
الشَّمْسَ سِرَاجًا ۚ ﴾ [نوح : ١٦٥] .

إنَّ تربةَ القمرِ تربةٌ عاكسةٌ للضَّوءِ ، وهذا مِنْ حكمةِ اللهِ تَعَالَى ، فضوءُ
القمرِ يُعَدُّ جزءاً مِنْ ثمانية عشر جزءاً مِنْ ضوءِ الشَّمْسِ ، وهو تقويمٌ
دقيقٌ ، جَعَلَهُ اللهُ فِي كَبِدِ السَّمَاءِ ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سَاعَةً يَوْمِيَّةً ، فَالشَّمْسُ
سَاعَةٌ ، والقمرُ تقويمٌ ، قال العليمُ الخبيرُ :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِئَعْلَمُوا عَدَدَ
الْيَمِينِ وَالْأَحْسَابِ ٥ ﴾ [يونس : ٥] .

هذه آياتُ اللهِ الكونيةُ تشهدُ له بالعظمةِ والوحدانيةِ ، وقد نعتتُ بهذه
النظريات أبقاق الغربِ في سنين خلتُ ، وهي مبثوثةٌ في القرآنِ منذ أربعة
عشر قرناً ، فأين تذهبُ أيُّها الإنسانُ ؟ وهل شردتَ عن التفكُّرِ فيها ؟

عَالَمِيَّةُ الْإِسْلَامِ ، وَعَوْلَمَةُ الْغَرْبِ (١)

عالميةُ الإسلامِ تعني أنَّ الإسلامَ لم يكنْ يوماً للعربِ ، ولم يكنِ القرآنُ يوماً لقريشٍ ، فهو منذُ اليومِ الأولِ يخاطبُ العشيرةَ الأقربينِ ، ويخاطبُ قريشاً ، والعربَ أجمعين ، بل يخاطبُ الناسَ كافةً بمبدأٍ واحدٍ ؛ ويطلبُ منهم الانتهاءَ إلى هدفٍ واحدٍ ، هو إخلاصُ العبوديةِ لله ، والخروجُ من العبوديةِ للعبادِ إلى العبوديةِ لربِّ العبادِ ، بل إنَّ هذه الحقيقةُ هي فحوى دعوةِ الأنبياءِ جميعاً ،

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

إنَّ هذا الدينَ ليس إعلاناً لتحريرِ الإنسانِ العربيِّ ، وليس رسالةً خاصةً بالعربِ ، إنَّ موضوعه هو الإنسانُ ، أيُّ إنسانٍ ، وإنَّ مجاله هو الأرضُ ، كلُّ الأرضِ ، فإنَّ اللهَ سبحانه ليس ربّاً للعربِ وحدهم ، ولا حتى لِمَنْ

(١) لفظ عالمية مصدر صناعي ، كما هو معروف في علم الصرف ، وهو لفظٌ عربيٌّ صرف ، ولفظ عولمة ليس له وجود في المعاجم العربية ، وإن كان على وزن فועلة ، كالحوقلة ، فيلحق بهذا الوزن ، غير أننا ألحقنا في العنوان كل لفظ بنظير من نُسب إليه ، فقلنا : عالمية الإسلام ، وعولمة الغرب ، حتى تجانسَ الغرابة اللفظية للعولمة معناها الغربي غير الأخلاقي .

يعتقون الإسلام وحدهم ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وهذا الدين يريدُ الله منه أَنْ يَرُدَّ الْعَالَمِينَ إِلَيْهِ ؛ وَأَنْ يَنْتَزِعَهُمْ مِنَ الْعِبَادِيَّةِ لِلْبَشَرِ ، وَمِنْ أَحْكَامِ يَشْرَعُهَا لَهُمْ نَاسٌ مِنَ الْبَشَرِ إِلَى الْعِبَادِيَّةِ لِخَالِقِ الْبَشَرِ ، وهذه هي العبادَةُ التي لا يمكن أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِلَّهِ ، وَمَنْ يَتَوَجَّهْ بِهَا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ يَخْرُجُ مِنْ دِينِ اللَّهِ ، مهما ادَّعى أَنَّهُ مِنْ هَذَا الدِّينِ بِمَكَانٍ ، ولقد نصَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ على أَنَّ الْإِتْبَاعَ هُوَ الْعِبَادَةُ ، فَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ : « أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَقَالَ : « يَا عَدِيُّ ! اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَتْنَ » وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ ﴿ بَرَاءَةٌ ﴾ ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ، قَالَ : أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ » (١) .

قال ربعي بن عامر رضي الله عنه لِرُسْتَمَ قَائِدِ جَيْشِ الْفُرْسِ فِي الْقَادِسيَّةِ ، وَهُوَ يَسْأَلُهُ قَبْلَ الْمَعْرَكَةِ : « مَا الَّذِي جَاءَ بِكُمْ ؟ فَيَجِيبُهُ رُبْعِيُّ : إِنَّ اللَّهَ ابْتَعَثَنَا لَنُخْرِجَ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَمِنْ ضَيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَتِهَا ، وَمِنْ جَوْرِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ » (٢) .

وقد أَكَّدَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ آيَاتُ الْإِنشَاءِ الْكَرِيمِ ، كَمَا بَيَّنَّتْهَا الْأَحَادِيثُ النَّبَوِيَّةُ ، وَالسُّلُوكُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ ، نَسْتَعْرِضُ بَعْضًا مِنْهَا :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [ص : ٨٧] .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) ، والطبراني في المعجم الكبير (٢١٨) .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٧٠ / ١) .

﴿إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦] .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان : ١] .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا : ٢٨] .

أما العولمة كما يريدوها ، ويروج لها دُعائها لا تعدو أن تكون تعبيراً معاصراً عن نزعة تسلطية قديمة ، صاحب كل قوة غاشمة على مدار التاريخ .

إنها تُضفي طلاءً من الذهب على الأغلال الحديدية ، وتتوارى خلف أقمعة زائفة من العبارات الجذابة ، والشعارات البراقة ، كالعدالة ، والديمقراطية ، والحرية ، والسلام العالمي ، والتعايش السلمي ، وحقوق الإنسان ، ومكافحة الإرهاب ... فهي علقم قديم في آنية جديدة .

ولعل من أبرز مظاهر هذه العولمة انهيار السدود بين الحضارات والثقافات ، وفرض الهيمنة الغربية في مختلف المجالات ، سياسة ، واقتصاداً ، وإعلاماً ، وفكراً ؛ توطئة للاستيلاء على ثروات الشعوب ، وشل قدراتها الوطنية ، ومسح هويتها ، وخصوصياتها الحضارية ، وتحويل أسواقها المحلية إلى أسواق استهلاكية ، تفتح الأبواب على مصاريحها أمام الشركات الأجنبية لترويج منتجاتها ، وتراكم أرباحها .

وقد رأينا من ذلك بدايات مؤسفة ، لا تخطئها العين ، تمثلت في شيوع التقاليد ، والأزياء ، وأنماط الحياة الغربية ، ومزاحمتها لمثيلاتها الوطنية مع ما يجلبه هذا الوافد الغربي من مفهومات بلاه وقيمها ، ولعل

هذا يوضح الصلة بين شيوع هذه المظاهر ، ومظاهر التخثُّث ، وضعف التدئين ، وانفراط عقد الأسرة ، وانتشار المخدرات ، والجريمة المنظمة .

ولقد وعى القوم دروس التاريخ فقدّموا القوة الناعمة - وهي المرأة - على القوة الضاربة ؛ لأنها أقل استغزازاً للآخرين ، وأقل ظهوراً لهم ، وأقدر على شل قدراتهم على المقاومة ، وأشدّ قتلاً لروح الاستبسال والمواجهة في صدورهم .

وإذا كان الأسلوب التقليدي لدى القوم قد تمثّل في حمل الآخرين على فعل ما تريد ، ولو باستخدام القوة المسلحة فإنّ الأسلوب الأمثل اليوم يتمثّل في حمل الآخرين على إرادة ما تريد ، والإقبال عليه عن طوعية واختيار ، وهذا يتوقّف بطبيعة الحال على حُسن تسويقه ، وجاذبية عرضه من ناحية ، كما يتوقّف على حجم الإغراء الذي تحمّله الجوائر التي تقدّم ثمناً لمن يتعاونون مع القوم من ناحية أخرى !

المشكل القائم حالياً لا يكمن في مبدأ العولمة ، وإنّما يكمن في نوعية هذه العولمة ، وخصوصياتها ، وبنائها ، فعولمة القطب الواحد فيها خصوصيات القطب القويّ الواحد ، كالاحتكار ، وإرادة الهيمنة ، وسلوكية الكيل بمكيالين ، بعيداً عن روح المشاركة ، والتنافس الحرّ الشريف ، ومن خصوصيات القطب الواحد قانون تضخيم الأرباح ، ولو على حساب الأرواح ، وعدم خضوع هذا النظام للشرائع الإلهية .

بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

ومما يجدر التنبيه إليه ضرورة الفصل بين العالمية التي جاءت بها شريعة الإسلام ، والتي تُبنى على الوازع الديني - حيث إنّ الإسلام دينٌ سماويٌّ ، وليس موضوعاً من الموضوعات البشرية - وما تحمله من رسالة حبٍّ ورحمةٍ إلى العالم أجمع ، وبين العولمة ، وما تعنيه من الهيمنة ، واستلاب الآخرين لحساب قوى الاحتكار العاتية ، بل لحساب حفنة من المتضلعين في دماء الآخرين وأموالهم .

إنّ العالمية الإسلامية التي تحيلُ العالمَ إلى قريةٍ كونيةٍ واحدةٍ ، يتمتع الإنسان فيها بحق الاختيار ، ويسود فيها البرُّ والقسطُ ، ويتقيأ الإنسان فيها ظلالَ العدلِ والرحمةِ ، وتُصان فيها حرمانُ المخالفين وحقوقُهم ، هذه العالمية يجبُ ألاّ تلبَسَ في ذهننا بالعولمة التي يدعو لها حملةُ المشروع الغربيِّ ، والتي تحيلُ العالمَ إلى غابةٍ عالميةٍ واحدةٍ ، يأكلُ القويُّ فيها الضعيفَ ، ويزدادُ فيها الأغنياءُ غنىً ، والفقراءُ فقراً .

إنّ الاتجاهَ إلى العالمية برسالةٍ حضاريةٍ عادلةٍ لا حرجَ فيه ، ولا تثريبَ على دعايته ، ولكنَّ الحرجَ كلّ الحرجِ إنما يكمنُ في روح الهيمنة ، والجشع ، والأنانية ، والابتزاز الذي تحمله هذه العولمة الجامحة ، كما يدعو إليها أباطرة العولمة ، وقراصتها من غير ضابطٍ من دينٍ ، أو خلقٍ ، فليس الحرجُ في التوجُّه إلى العالمية في ذاته ، والتعامل مع الكيانِ البشريِّ كأمةٍ واحدةٍ ، وإنما يكمنُ الحرجُ في المشروع الذي يحمله القائمون على هذا التوجُّه ، عندما لا يروُنَ في الآخرين إلا أحجاراً

على رقعة الشطرنج ، يعبثون بمقدراتهم ومصائرهم كما يشاؤون ، الأمر الذي لا تُقام به دنيا ، ولا يصلح به دين ، ولا يزداد به العالم إلا شقاءً فوق شقاء .

إننا - نحن المسلمين - نحملُ مشروعاً حضارياً رائداً ، لُحمتُهُ الربّانيةُ ، وسُده البرُّ والقسط ، نبذله إلى العالمين ما داموا لا يقاتلوننا في الدّين ، ولا يصادرون علينا حقنا في أن نبسط دعوتنا إلى الآخرين .

فليس على دعاة الدّين الحق ، والرسالة الخاتمة من حرج أن يطوفوا بدعوتهم في المشارق والمغارب ، يُوطّئون للحق مهاداً ، وينشرون له أعلاماً في إطار قاعدة : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، تحت خيمة الربّانية التي ترعى حقوق المُوافقين والمُخالفين ، حتى يتفياً العالم ظلال هذه الرحمة العامة ، يفيء إليها من هجير الظلم ، ورمضاء الأثرة ، والجشع ، والأنانية ، ويجد له موقعا في سفينة الإسلام ، التي تمخر به عباب هذه الفتن المتلاطمة ؛ حتى ترسو على شاطئ النجاة في الآخرة .

إن هذه العولمة في إطارها اللاديني الجامح لتحمل في طياتها بذور إخفاقها ، وعوامل انهيارها ؛ فإنه لا دوام لظلم ، ولا بقاء لتعسف ولا جور ، لقد حدّثنا القرآن الكريم عن دول قامت ، ثم زالت ، وعن حضارات صالت ، ثم انهارت ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۖ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۖ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۖ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ۖ الَّذِينَ طَعُوا فِي أَلْبَادِ ۖ فَآكُرُوا فِيهَا أَفْسَادَ ۖ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴾ [الفجر : ٦-١٤] .

وقال : ﴿ وَقَوْمٌ نَوحَ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ٣٨ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ٣٩ ﴾ [الفرقان : ٣٧-٣٩] .

وقال سبحانه : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ٣٨ وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمْنٌ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٤٠ ﴾ [العنكبوت : ٣٨-٤٠] .

قال أحدُ حُكماءِ الرومان حين وقَفَ على أطلالِ روما : « إِنَّ أَوَّلَ رَجُلٍ تَسَبَّبَ فِي خَرَابِ الإمبراطوريةِ هو الذي بدأَ يقدِّم لها الأسلاب والغنائم » ؛ لأنه هو الذي أثارَ لدى أهلها شهوةَ النَّهبِ ، والسيطرةِ ، وحرَّكَ شياطينَ الأثرةِ ، والأنانيةِ الكامنةِ وراءَ جلودِهِم ، وقديماً قال نابليون : « إِنَّ الإمبراطورياتِ تموتُ دائماً بمرضِ التَّخمةِ » ، أي : إنَّ جوفَها يعجزُ عن هضمِ ما تلتهمُهُ من الأقاليمِ والشعوبِ ! .

ومما قيل في العولمة : « هي نظامُ دولةٍ أو بضعِ دولٍ على هذه الكرة الأرضيةِ ، أمَّا ما تَبَقَّى منها فهو دولٌ سابحةٌ في هذا النظامِ الغريبِ ، بعضها يعومُ على السطحِ بصعوبةٍ ، وعليه أن يثبتَ ، وباستمرارٍ ، حَسَنَ النيةِ ، والطاعةِ ، والالتزامِ ، ومع ذلك فهو دائماً مخطئٌ ، ومطلوبٌ منه أن يُكفِّرَ عن ذنوبه ، وبعضُها الآخرُ غارقٌ في القاعِ إلى أجلٍ غيرِ مسمًى ، وأصبحَ كُلُّ ما يتماشى مع رغباتِ تلكِ الدولِ الكبرى ديمقراطيةً وعدلاً ،

وكل ما يحقق مصالحها هو حقوق إنسان ، وحضارة بشرية ، ولم يعد مستغرباً أن تصدر لوائح تحدّد فيها قيمة الإنسان لدى شعب ، وما يقابلها لدى الشعوب الأخرى كأسعار العملات .

هذا العدو الجديد الذي ظهر في التسعينيات هو ديننا الإسلامي الحنيف ، دين الأخلاق ، والعدل ، والمحبة ، الذي تمّ تشويهه إعلامياً ، وثقافياً ، وتربوياً ، ليغدو دين القتل ، والتطرف ، والإرهاب ، فكلما حدث اضطراب في منطقة ما من العالم وُجّهت أصابع الاتهام للإسلام ، ولو لم يكن للمسلمين وجود في تلك المنطقة ، وكلّ عملية تخريب ، أو عمل إرهابي منفعده هو مسلم ، حتى يثبت العكس ، وغالباً ما يثبت العكس ، أما الاتهام فيبقى كما هو ، وبالتوازي حُورب الإسلام الصحيح من خلال تغذية التطرف ، واستخدامه في ضرب الإسلام والمسلمين ، والآن يُصوّر هذا التطرف الذي جرّت نتيجته من خارج الأمة الإسلامية على أنه الإسلام الحقيقي ، وذلك إمعاناً في نشويه صورته الناصعة ، وإسرائيل أبرع من شَوْه هذه الصورة ، وأيّة صورة حقيقية أخرى» (١) .

هذا وإنّ الأهم من هذا كلّهُ أن نبعث في هذه الأمة روح المواجهة لهذه الأعاصير ، وأن نستثير مذخور طاقاتها الإيمانية والجهادية ، وأن نرشد توجيه هذه الطاقات على طريق المحافظة على الهوية ، واستئناف ما توقّف من مسيرتها الحضارية .

(١) مقاطع من كلمة السيد رئيس الجمهورية العربية السورية الدكتور بشار الأسد ، في مؤتمر القمة الإسلامي الذي عقد بالدوحة .

مفهوم النصر

ومفهوم النصر من المفهومات التي التبس أمرها على معظم المسلمين ، بل وعلى بعض المتحمسين لدعوته المباركة ، الأمر الذي أدى إلى اختلافهم في أحكامهم ومواقفهم إزاء الأحداث الجارية ، والمشهودة في عالمنا الإسلامي .

فمنهم من يظن أن النصر هو تحقيق الأهداف الاجتماعية ، أو الاقتصادية ، أو السياسية ، أو العسكرية ، مما يسعى إليه المؤمنون ، فإذا بلغوا هذه الأهداف فهم منتصرون ، وإلا فهم منهزمون !

وهذا فهم قاصر ، لانغماسه في الحسابات المادية البحتة دون النظر إلى غيرها .

ومنهم من يتوهم أن النصر هبة إلهية ، يمن الله بها على من يشاء من عباده ، من غير اشتراط الاستحقاق لهذا النصر ، أو الاستعداد ، والتهيؤ له ! وهذا فهم خاطئ ، لأنه مخالف لسنة الله الكونية ، قال تعالى :

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء : ١٢٣] ، ولكن :

﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ولكن في إطار الصراع بين المؤمنين وأعدائهم قد يستفحل الجور ، وقد ينتصر الظلم ، وقد يظهر البغي والفساد ، فأين نصر الله ؟ النصر قد يكون مبدئياً ، وقد يكون واقعياً .

النصر المبدئي

يكون المسلم منصوراً نصراً مبدئياً حين يسعى لتنفيذ أوامر الله

ونواحيه ، في جميع ما جاءت به الشريعة ، وفي جميع الظروف والأحوال ، في جميع الأوقات والأماكن ، في حدود ما لديه من إمكانيات .

وبعبارة أخرى ، يكون المسلم منصوراً نصرأ مبدئياً حين يكون قائماً بأمر الله ، لا من القاعدين ، ساعياً للدفاع عن المبدإ ، لا من الخاملين المخلفين ، شاهداً لأحداث الأمة ، لا من المنعزلين .

فحسب المسلم نصرأ أن يحمل رسالة السماء إلى الناس ، أما هدايتهم فأمرها بيد الله تعالى ، وحسبه نصرأ أن يعمل على إصلاح المجتمع ، أما صلاحه فأمره بيد الله تعالى ، وحسبه نصرأ أن يقاوم الظلم ، أما زوال الظلم فأمره بيد الله تعالى ، وحسبه نصرأ أن يكافح لاسترداد الأرض المغتصبة ، وثورات الأمة المنهوبة ، أما ردّها فأمرها بيد الله تعالى ، وحسبه نصرأ أن يجاهد حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله في الأرض ، أما إطفاء الفتنة وهيمنة الحق فأمره بيد الله تعالى .

وميزة هذا النصر أنه حتمي ، يتحقق لمجرد سعي المسلم له ، أيّا كانت النتائج الواقعية التي يتمخض عنها سعيه وجهاده ، وميزته أنه إرادتي مقدور عليه ، فكل مسلم يستطيع تحقيقه ، ويستطيع تجنب الهزيمة ، وميزته أن المسلم يستطيع إحرازه حتى لو وقف أعداء الإسلام بكامل قواهم لقتاله وحربه ، كما هي الحال اليوم :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥٢] .

النَّصْرُ الْوَاقِعِيُّ

إِنَّ النَّصْرَ الْوَاقِعِيَّ هُوَ الْفَوْزُ الْمَشْهُودُ الَّذِي يَحْرُزُهُ الْمُسْلِمُ فِي عَالَمِ الْوَاقِعِ ، فِي مَضْمَارِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ لِتَكُونَ هِيَ الْعَلِيَا .

يَكُونُ الْمُسْلِمُ مُنْتَصِراً حِينَ يَحَقِّقُ فِي الْوَاقِعِ مَكْسَباً سَعَى إِلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ يِنَالُ هَدَفاً جَاهِداً مِنْ أَحْلِهِ ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَحْرُزُ الْمُسْلِمُ كَلَامَ الْحُسَيْنِيِّينَ ، نَصِراً مُبْدِئياً ، وَنَصِراً وَاقِعياً .

إِلَّا أَنَّ النَّصْرَ الْوَاقِعِيَّ يَتَوَقَّفُ عَلَى الْإِعْدَادِ الْمَادِيِّ ، وَالْإِمْدَادِ الْإِلَهِيِّ ، إِعْدَادِ الْعِدَّةِ ، وَطَلَبِ النَّصْرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا مَا كَانَ يَفْعَلُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي جِهَادِهِ مَعَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، وَهَذَا مَا يَلْزُمُنَا فِي جِهَادِنَا مَعَ الْجَاهِلِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ .

وَالْإِعْدَادُ الْمَادِيُّ يَسْتَلْزِمُ اسْتِنْفَارَ كُلِّ طَائِفَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَنْسِيقَ قُوَاهِمُ الْبَشَرِيَّةِ الْمَادِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ ، حَيْثُ تَمْتَلِئُ نَفُوسُهُمْ عَزِيمَةً ، وَحَيَوِيَّةً ، وَإِيمَاناً ، وَثَبَاتاً ، وَتَنْطَلِقُ جَوَارِحُهُمْ بِذَلَاً وَعَطَاءً وَقُوَّةً وَمُضَاءً ، مَعَ تَجَرِيدِ النِّيَّةِ لِلَّهِ ، وَعَقْدِ الثِّقَةِ الْمَطْلُوقَةِ بِهِ .

وَلَوْ قُيِّضَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْرِفُوا مَعْنَى الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ :

﴿وَأَعِذُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وَأَنْ يُحْلِلُوهَا التَّحْلِيلَ

الدَّقِيقَ لَعَرَفُوا أَنَّ الْمَعْلُومَاتِيَّةَ الْيَوْمَ وَالِاتِّصَالَاتِ هِيَ مِنْ وَسَائِلِ الْقُوَّةِ ، وَلَعَرَفُوا أَنَّ عِلْمَ الْفِيزِيَاءِ ، وَالْكِيمِيَاءِ ، وَالرِّيَاضِيَّاتِ ، وَالْفَلَكَ هِيَ مِنْ وَسَائِلِ الْقُوَّةِ ، وَلَعَرَفُوا أَنَّ عِلْمَ النَّفْسِ ، وَعِلْمَ الْاجْتِمَاعِ ، وَعِلْمَ التَّرْبِيَةِ مِنْ وَسَائِلِ الْقُوَّةِ ، وَأَنَّ عِلْمَ الْحَيَوَانِ ، وَعِلْمَ النَّبَاتِ ، وَعِلْمَ طَبَقَاتِ

الأرض ، وعلوم الوراثة ، والهندسة الوراثية من وسائل القوة ، إلى ما هنالك من علوم أتقنها الغربيون فأحكموا سيطرتهم على العالم ، وأنزلوا عليه إرادتهم ، وثقافتهم ، وعولمتهم ، ولا حرج علينا مطلقاً أن نأخذ ما في رؤوسهم ، وأن ندع ما في نفوسهم ، فثقافة أمة هي ملك البشرية جمعاء ، لأنها بمثابة عسل استخلص من زهرات مختلف الشعوب على مر الأجيال ، وهل يعقل إذا لدغتنا جماعة من النحل أن نقاطع عسلها ؟

ومن وسائل قوة المسلمين تشخيص الباطل ، والقدرة على تعريته ، والمصابرة على تكذيبه ، وعدوانه ، ومجابهة مكره ، وكيديه ، وعنايه ، واليقين أنه إلى زوال ، لقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] ، وقوله سبحانه :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم : ٤٦] ، ثم الكفر بالباطل ، وكشف أكاذيبه ، ونزع أفنعه ؛ لأن الكفر به شرط للإيمان بالله ، قال تعالى :

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾

[البقرة : ٢٥٦]

فإذا علم الله صدق نية المؤمنين المجاهدين في سبيله ، وثبات عقيدتهم ، وتحرز نفوسهم ، وشوقهم إلى لقائه ، وحنينهم إلى نعيمه ، عندئذ يتوفر لهم الإمداد الإلهي ، فيبطش الله بالمجرمين بطشته الكبرى ، ويحقق النصر المؤمنين :

﴿فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوْا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] ،
 ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُوْمُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر : ٥١] ،
 ﴿وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّٰهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّٰهِ نَصِيرًا﴾ [النساء : ٤٥] .

وإن نصرّة المؤمنين والمظلومين قد تبطؤ لحكمة بالغّة يعلمها الله تعالى ، وربما لا تدركها عقولنا ، أو لخيرٍ عظيمٍ أدّخره لهم ، أو ليعلم الثابتين منهم على عقيدتهم ، الصابرين على آلامهم ، والمؤففين بعهدهم ، الصادقين في تضحياتهم ، لتكون هذه الصفوة المؤمنة حريصة على حماية النصر المرتقب ، الذي لم تنله إلا بالدماء الزكية ، والأرواح الطاهرة ، ولتكون قادرة على تحمّل أعبائه في إقامة الحق ، وبسط العدل ، ونشر حرية العبادة ، وإشاعة الخير بين الناس ، وتحريرهم من عبودية الطواغيت ، وقطع دابر الفتنة والفساد في الأرض ، قال تعالى :

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [مريم : ٨٤] ، وقال :

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٠] وَرِيدُ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص : ٤-٥] .

* * *

قصة عبد الله بن سلام

هاهو الصحابيُّ الجليلُ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ يحدثنا عن قصته فيقول :
 « لما سمعتُ بظهورِ النبيِّ ﷺ ، أخذتُ أتحرّى عن اسمِهِ ، ونسبِهِ ، وصفاتِهِ ، وزمانِهِ ، ومكانِهِ ، وأطابقُ بينها وبينَ ما هو مسطورٌ عندنا في

الكتب ، حتى استيقنتُ مِنْ نَبَوَّتِهِ ، وثبتُّ مِنْ صدقِ دعوتِهِ ، ثم كنتُ ذلك عن اليهود ، وعقلتُ لساني عن التكلُّم فيه ، إلى أنْ كانَ اليومُ الذي خرجَ فيه الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ مِنْ مَكَّةَ قاصداً المدينةَ ، فلما بلغَ يثربَ ، ونزلَ بقباءَ ، أقبلَ رجلٌ علينا ، وجعلَ ينادي في الناسِ معلناً قدومه ، وكنتُ ساعتيذُ في رأسِ نخلةٍ لي أعملُ فيها ، وكانت عمّتي خالدةُ بنتُ الحارثِ جالسةً تحتَ الشجرةِ ، فما إنْ سمعتُ الخبرَ حتى هتفتُ : اللهُ أكبرُ ، اللهُ أكبرُ ، فقالتُ لي عمّتي حينَ سمعتُ تكبيري : خيِّبك اللهُ ، واللهِ لو كنتَ سمعتَ بموسى بنِ عمرانَ قادماً ما فعلتَ شيئاً فوقَ ذلك !! فقلتُ لها : أيُّ عمّةٍ ، إنه - واللهِ - أخو موسى بنِ عمرانَ ، وعلى دينِهِ ، وقد بُعثَ بما بُعثَ به ، فسكتتُ ، وقالت : أهو النبيُّ الذي كنتم تخبروننا أنه يُبعثُ مُصدّقاً لِمَنْ قَبْلَهُ ، ومتممّاً لرسالاتِ ربِّهِ ؟ فقلتُ : نعم ، قالت : فذاك إذنَ ، ثم مضيتُ من تَوّي إلى رسولِ الله ﷺ ، فرأيتُ الناسَ يزدحمون ببابِهِ ، فزاحمتُهُم حتى صرتُ قريباً منه ، فكان أولُ ما سمعته منه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » ، فجعلتُ أتفرّسُ فيه ، وأتملّئُ منه ، فأيقنتُ أنّ وجهَهُ ليس بوجهِ كذابٍ ، ثم دنوتُ منه ، وشهدتُ أنّه لا إلهَ إلا اللهُ ، وأنَّ محمداً رسولُ الله ، فالتفتُ إليّ ، وقال : (ما اسمُكَ ؟) فقلتُ : الحصينُ بنُ سلامٍ ، قال : بلْ عبدُ الله بنُ سلامٍ ، فقلتُ : نعم ، عبدُ الله بنُ سلامٍ ، والذي بعثك بالحقِّ ما أحبُّ أنْ لي به اسماً آخرَ بعدَ اليومِ ، ثم انصرفتُ مِنْ عِنْدِ رسولِ الله ﷺ إلى بيتي ، ودعوتُ زوجتي ، وأولادي ، وأهلي إلى الإسلامِ ، فأسلموا

جميعاً ، وأسلمت معهم عمتي خالدة ، وكانت شيخخة كبيرة .

يقول عبدُ الله بنُ سلام : ثم رجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ ، وقلتُ له : يا رسولَ الله ! إنَّ اليهودَ قومٌ بهتانٍ وباطلٍ ، وإنِّي أُحِبُّ أنْ تدعَوْ وجوهَهُم إليك ، وأنْ تسترنيَ عنهم في حجرةٍ من حجراتِكَ ، ثم تسألَهُم عن منزلتي عندهم ، قبل أنْ يعلمُوا بإسلامي ، ثم تدعَوْهم إلى الإسلامِ ، فإنَّهُم إنْ علِمُوا أنني أسلمتُ عابوني ، ورموني بكلِّ ناقصةٍ ، وبهتُوني ، فأدْخَلَنِي النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي بَعْضِ حُجْرَاتِهِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ يَحْضُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَيَحْبِّبُ إِلَيْهِمُ الْإِيمَانَ ، وَيَذَكِّرُهُمْ بِمَا عَرَفُوهُ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَمْرِهِ ، فَجَعَلُوا يَجَادِلُونَهُ بِالْبَاطِلِ ، وَيَمَارُونَهُ فِي الْحَقِّ ، وَأَنَا أَسْمَعُ ، فَلَمَّا يَشَسَّ مِنْ إِيْمَانِهِمْ قَالَ لَهُمْ : (مَا مِنْزَلَةُ الْحَصِينِ بْنِ سَلَامَ فَيْكُمْ ؟) فَقَالُوا : سَيِّدُنَا ، وَابْنُ سَيِّدِنَا ، وَحَبْرُنَا ، وَعَالِمُنَا ، وَابْنُ حَبْرِنَا وَعَالِمِنَا ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ أَفْتَسْلِمُونَ ؟ قَالُوا : حَاشَا لِلَّهِ ، مَا كَانَ لِيَسْلَمَ ، أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ أَنْ يُسْلَمَ ، فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ ، وَقُلْتُ : يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ اتَّقُوا اللَّهَ ، وَاقْبَلُوا مَا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ، فَوَاللَّهِ إِنْكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَتَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَكُمْ فِي التَّوْرَةِ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ ، وَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَوْمِنُ بِهِ ، وَأُصَدِّقُهُ ، وَأَعْرِفُهُ ، فَقَالُوا : كَذَبْتَ ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَشَرُّنَا ، وَابْنُ شَرِّنَا ، وَجَاهِلُنَا وَابْنُ جَاهِلِنَا ، وَلَمْ يَتْرَكُوا عِيباً إِلَّا عَابُونِي بِهِ ، فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ : أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بِهِتَانٍ وَبَاطِلٍ ، وَإِنَّهُمْ أَهْلُ غَدْرِ وَفَجْورٍ ؟ ^(١) .

(١) هذه القصة أخرجها بألفاظها ابن هشام في السيرة النبوية (ص : ٤٩-٥٠) .

وقد أخرج البخاري عن أنس قال : « بلغ عبد الله بن سلام مقدّم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (خبرني بهنّ أنفأ جبريل) ، قال : فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال رسول الله ﷺ : (أما أول أشرط الساعة فنارٌ تحشُرُ الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت ، وأما الشبه في الولد : فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبّحها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها) ، قال : أشهد أنك رسول الله ، ثم قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بُهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله البيت ، فقال رسول الله ﷺ : (أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟) قالوا : أعلمنا ، وابن أعلمنا ، وأخيرنا ، وابن أخيرنا ، فقال رسول الله ﷺ : (أفرأيتُمْ إن أسلم عبد الله ؟) قالوا : أعاده الله من ذلك ، فخرج عبد الله إليهم فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرّنا وابن شرّنا ، ووقعوا فيه ^(١) .

وعن عبد الله بن سلام قال : « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل ^(٢) الناس إليه ، وقيل : قدم رسول الله ﷺ ، قدم رسول الله ﷺ ،

(١) البخاري (٣١٥١) .

(٢) قال المباركفوري في تحفة الأحوذى (١٥٨/٧) : [انجفل الناس إليه أي ذهبوا مسرعين إليه ، يقال : جفل ، وأجفل ، وانجفل] .

قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا اسْتَبْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا وَالنَّاسُ نِيَامًا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ « (١) .

هذه الحقائق الناصعة المستنبطة من كتاب الله ، وسنة رسوله ، ومن السيرة النبوية ، والتي تضيء سبيل النصر والصبر معاً ، أضعها بين أيدي إخواننا في الأراضي المحتلة ، فلعل الله ينفعنا بها جميعاً .



القمح وفوائده

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ القمحَ لبني البشرِ غذاءً كاملاً ، ولكن عناية الله سبحانه وتعالى جَعَلَتْ هذا القمحَ ينبتُ في كل بقاع الأرض ، ينبتُ في السهول ، وينبتُ في الجبال ، وينبتُ في الأغوار ، وينبتُ في الأجواء الباردة ، وينبتُ في الأجواء الحارة ، وينبتُ في الأجواء المعتدلة ، وفي كل لحظة من لحظات الزمن هناك قمحٌ على وجه الأرض ينبتُ ، ولكن الإبداع الإلهي في هذه الثمرة أنه جَعَلَهَا كاملةً الغذاء ، ففيها غلافٌ خارجيٌّ يزن تسعةً في المئة من مجموع وزنها ، يُسمَّى عند الناس النخالة ، وفيها قشرة رقيقة تنطوي على مادةٍ آزوتية لا تزيدُ على ثلاثة في المئة من وزنها ، وفيها الرُّشِيمُ الكائنُ الحي الذي ينبتُ إذا توافرت له شروط الإنبات ، ووزنه لا يزيدُ على أربعة في المئة من وزن حبة القمح ،

(١) الترمذي (٢٤٨٥) ، ابن ماجه (١٣٣٤) ، أحمد (٢٣٨٣٥) .

والأربعة والثمانون في المئة نشاءٌ خالصٌ ، ماذا نفعل نحن ؟ ننزعُ عن القمحِ غلافها ، وغشائها ، ولا يبقى لنا إلا النشاءُ الخالصُ ، أما هذا الغلافُ الذي يسمّيه الناسُ نُخالةً ، ففيه ستةٌ فيتامينات ، (ب ١ ، ب ٢ ب ٣ ، ب ٤ ، ب ٥ ، ب ٦) ، وفيتامينات أخرى في هذا الغلافِ .

وفي هذا الغلافِ مادةٌ فسفوريةٌ هي غذاءٌ للدماغِ والأعصابِ ، وفيه حديدٌ يَهَبُ الدمَ قوةً ، وحيويةً ، ويُعِينُ على اكتسابِ الأوكسجينِ مِنَ الرئتين ، وفيه الكلسيوم ، الذي يبني العظامَ ، ويقوِّي الأسنانَ ، وفيه السيليكون ، الذي يقوِّي الشعرَ ، ويزيدُه قوةً ولمعاناً ، وفيه اليودُ الذي ينشِطُ عملَ الغدّةِ الدَرَقِيَّةِ ، ويضفي على آكلِهِ السكينةَ والهدوءَ ، وفيه البوتاسيوم ، والصوديوم ، والمغنيزيوم ، تدخلُ هذه المعادنُ كُلُّها في تكوينِ الأنسجةِ ، والعصاراتِ الهاضمةِ ، أما نحن فننزعُ عن حَبّةِ النَمَحِ قشرَها ، ونرميها للبهائمِ ، ونأكلُ هذا النشاءَ الصافيَ ، الذي هو كما وَصَفَهُ بعضُ الأطباءِ بأنه غراءٌ جيّدٌ للمعدةِ ، وهو يذمُّه بهذا الوصفِ ، وهذا الإبداعُ الإلهي لنا ، أن نأكلَ القمحَ بقشريه ، حتى نستفيدَ مِنْ هذه الموادِّ التي أودَعَهَا اللهُ في قشرةِ القمحِ .

إذا غُلِيَتْ هذه القشورُ بالماءِ الساخنِ كانتْ مهدئةً للسعالِ ، والزكامِ ، وإذا شُرِبَ هذا الماءُ المغليُّ كان قابضاً للأمعاءِ ، وكان دواءً لتقرُّحاتِ المعدةِ ، وللزحارِ ، وغذاءً للجِلْدِ ، ووقايةً له من أمراضِهِ ، وعلى راسِها الإكزيما .

لذلك حينما نأكلُ كما أرادَ اللهُ لنا أن نأكلَ ، وحينما نطبّقُ سنّةَ النبيِّ

عليه الصلاة والسلام في الأكل ، نضمن لأنفسنا الصحة ، والبعد عن الأمراض .

عَنْ أَبِي حَازِمٍ قَالَ : سَأَلْتُ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ فَقُلْتُ : « هَلْ أَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّعِيَّ ^(١) ؟ فَقَالَ سَهْلٌ : مَا رَأَى ^(٢) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّعِيَّ ، مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ . قَالَ : فَقُلْتُ : هَلْ كَانَتْ لَكُمْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنَاحِلُ ؟ قَالَ : مَا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُنْخَلًا مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ حَتَّى قَبِضَهُ ، قَالَ : قُلْتُ : كَيْفَ كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ الشَّعِيرَ غَيْرَ مَنْخُولٍ ؟ قَالَ كُنَّا نَطْحَنُهُ ، وَنَنْفُخُهُ فَيَطِيرُ مَا طَارَ ، وَمَا بَقِيَ ثَرَيْنَاهُ ^(٣) فَأَكَلْنَاهُ » ^(٤) .

وورد في الأثر أَنَّ أَوَّلَ بدعةٍ ابتدعها المسلمون بعد وفاة رسول الله ﷺ نخل الدقيق .

* * *

(١) جاء في تحفة الأحوذى (٢٣ / ٧) : [والنقي بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء يعني الحواري ، بضم الحاء ، وتشديد الواو ، وفتح الراء ، وهو الذي نُخِلَ مرةً بعد مرةً حتى يصير نظيفا أبيض] .

(٢) في تحفة الأحوذى (٢٣ / ٧) : [أي ما رآه ، فضلا عن أكله ، ففيه مبالغة لا تخفى] .

(٣) قال ابن حجر في الفتح (٥٥٠ / ٩) : [ثريانه أي بللناه بالماء] .

(٤) البخاري (٥٠٩٧) ، ابن ماجه (٣٣٣٥) .

إدارة الوقت

لقد عَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ قيمةَ الوقتِ ، فجعله ظرفاً لبطولاتٍ تعجزُ عن صنعها الأممُ والشعوبُ ، حتَّى أقسمَ اللهُ في عليائه بِعُمْرِهِ الثمينِ ، فقال تعالى :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(١) [الحجر : ٧٢] ، وعَرَفَ أصحابه الطيبين قيمةَ الوقتِ فعرفوه ، فجعلَ منهم أبطالاً ، وَحَمَلَتْ أَحَدَهُمْ عَلَى أَنْ يَقُولَ : « والله لو كُشِفَ الغطاءُ ما ازدادت يقيناً ، ولو علمتُ أن غداً أجلي ما قدرتُ أن أزيد في عملي »^(٢) .

في القرآن الكريمِ سورةٌ قصيرةٌ ، « كان الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذَا التَّقَا لَمْ يَتَفَرَّقَا إِلَّا أَنْ يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ هَذِهِ

(١) جاء في لسان العرب (مادة عمه) [الْعَمَةُ : التَّحِيرُ والتَّرَدُّدُ . . . وقيل : الْعَمَةُ التَّرَدُّدُ في الضلالة والتحير في مُنازعةٍ أو طريقٍ ؛ قال ثعلب : هو أن لا يعرف الحُجَّةَ ؛ وقال اللحياني : هو تَرَدُّدُه لا يدري أين يتوجه ، وفي التزويل العزيز : ونذرهم في طُغيانهم يَعْْمَهُونَ ؛ ومعنى يعمهون : يتحIRON . . . قال ابن الأثير : الْعَمَةُ في البصيرة كالعمى في البصر . ورجل عَمَةٍ عامَةٍ أَي يَتَرَدَّدُ مُتَحِيرًا لا يهتدي لطريقه ومذْهَبه ، والجمع عَمَهُونَ وَعَمَّةٌ . وقد عَمِه ، وَعَمَّةٌ يَعْْمُهُ عَمَّهَا ، وَعُمُوها ، وَعُمُوها ، وَعَمَّهَانَا إِذَا حَادَّ عَنْ الْحَقِّ] .

(٢) حاشية السُّنْدِي على سنن النسائي (٩٦/٨) مِنْ قول علي رضي الله عنه .

السورة ، ثم يسلم أحدها على الآخر «^(١)» ، وكان الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : « لو تدبّر الناس هذه السورة لوسعتهم »^(٢) .

هذه السورة ترسمُ منهجاً كاملاً للحياة البشرية ، كما يريدُها خالقُ البشرية ، فعلى امتدادِ الزمانِ في جميعِ العصورِ ، وعلى امتدادِ المكانِ في جميعِ الدهورِ ، ليسَ أمامَ الإنسانِ إلا منهجٌ واحدٌ رابحٌ ، سالكٌ إلى جنةِ الخلدِ ، وكلُّ ما وراءَ ذلك فهو ضياعٌ ، وخسارةٌ ، وشقاءٌ .

لعلكم تسألون : ما هذه السورة ؟ إنها سورةُ العصرِ ، قال تعالى :

﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر : ١-٢] .

لقد أقسمَ اللهُ جلَّ جلالهُ بمطلقِ الزمنِ ، العصرِ ، لهذا الإنسانِ الذي هو في حقيقتهِ زمنٌ ، فهو بضعةُ أيامٍ ، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعةُ منه ، وما من يومٍ ينشقُّ فجره إلا وينادي : يا ابنَ آدمَ ، أنا خلقٌ جديدٌ ، وعلى عملِكَ شهيدٌ ، فتزوّدْ مني ، فإني لا أعودُ إلى يومِ القيامةِ .

لقد أقسمَ اللهُ بالزمنِ للإنسانِ أنه في خُسْرٍ ، بمعنى أن مضيَّ الزمنِ وحده يستهلكُ عُمرَ الإنسانِ الذي هو رأسُ ماله ، ووعاءُ عمله الصالحِ الذي هو ثمنُ الجنةِ التي وُعدَ بها ، وهل الخسارةُ في العُرفِ التجاريِّ إلا أن تُضَيَّعَ رأسُ مالِكَ من دون تحقيقِ الربحِ المطلوبِ ، لكنَّ الإنسانَ إذا استثمرَ الوقتَ فيما خُلِقَ له ، يستطيع أن يتلافى هذه الخسارةَ ، وذلك

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٣/١٠) وقال : رواه الطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح .

(٢) تفسير ابن كثير (٥٤٨/٤) .

بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، قال تعالى :

﴿وَالْعَصْرَ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] .

أولاً : الإيمان ، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ .

إنَّ الإيمانَ هو اتصالُ هذا الكائنِ الإنسانيِّ الصغيرِ ، الضعيفِ الفاني ، المحدودِ ، بالأصلِ المطلقِ الأزليِّ الباقي ، الذي صدرَ عنه هذا الوجودُ ، وعندئذٍ ينطلقُ هذا الإنسانُ من حدودِ ذاته الصغيرةِ ، إلى رحابةِ الكونِ الكبيرِ ، من حدودِ قوتهِ الهزليةِ ، إلى عظمةِ الطاقاتِ الكونيةِ المخبوءةِ ، من حدودِ عمره القصيرِ ، إلى امتدادِ الآبادِ التي لا يعلمها إلا اللهُ ، هذا الاتصالُ يمنحُ الإنسانَ القوةَ ، والامتدادَ ، والانطلاقَ ، ويمنحه كذلك السعادةَ الحقيقيةَ التي يَلْهَثُ وراءها الإنسانُ ، وهي سعادةٌ رفيعةٌ ، وفرحٌ نفيسٌ ، وأنسٌ بالحياةِ ، كأنسِ الحبيبِ بحبيبه ، وهو كَسْبٌ لا يعدله كسبٌ ، وفقدانه خسرانٌ لا يعدله خسرانٌ ، وعبادةٌ إلهٍ واحدٍ ترفعُ الإنسانَ عن العبوديةِ لسواه ، فلا يذلُّ لأحدٍ ، ولا يحني رأسه لغيرِ الواحدِ القهارِ ، فليس هناك إلا قوةٌ واحدةٌ ، ومعبودٌ واحدٌ ، وعندئذٍ تنتفي من حياةِ الإنسانِ المصلحةُ ، والهوى ، ليحلَّ محلُّها الشريعةُ والعدلُ .

والاعتقادُ بكرامةِ الإنسانِ عند الله ، وهو من لوازمِ الإيمانِ ، يرفعُ من قيمتهِ في نظرِ نفسه ، ويثيرُ في نفسه الحياءَ من التدنِّي عن المرتبةِ التي رَفَعَهُ اللهُ إليها .

ثانياً : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ .

ولأن الإيمان حقيقة إيجابية متحركة ، كان العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان ، فما إن تستقر حقيقة الإيمان في ضمير المؤمن حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها ، في صورة عمل صالح ، فلا يمكن أن يظل الإيمان في نفس المؤمن خامداً لا يتحرك ، كامناً لا يتبدى ، فإن لم يتحرك الإيمان هذه الحركة الطبيعية فهو مزيّف ، أو ميت ، شأنه شأن الزهرة ، ينبعث أريجها منها انبعاثاً طبيعياً ، فإن لم ينبعث منها أريج فهو غير موجود .

إن العمل الصالح ليس فلتة عارضة ، ولا نزوة طارئة ، ولا حادثة منقطعة ، إنما ينبعث عن دوافع ، ويتجه إلى أهداف ، ويتعاون عليه المؤمنون .

وإن الإيمان ليس انكماشاً ، ولا سلبية ، ولا انزواء ، ولا تقوقعاً ، بل هو حركة خيرة نظيفة ، وعمل إيجابي هادف ، وعمارة متوازنة للأرض ، وبناء شامخ للأجيال ، يتجه إلى الله ، ويليق بمنهج الله ، ورحم الله عمر بن عبد العزيز إذ يقول : « إن الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما ، ويأخذان منك ، فخذ منهما » .

كلما اتسعت رقعة العمل فشملت أعداداً كبيرة من البشر حتى دخلت فيه الأمم والشعوب ، وكلما امتد أمد العمل وطال حتى توارث ثماره أجيال وأجيال ، وكلما تغلغل العمل في كيان الإنسان كله ؛ المادي والنفسي ، والاجتماعي والروحي ، حتى تحقق به وجود الإنسان ،

وتألفت من خلاله إنسانيته ، وكان كما أريد له أن يكون .

إذاً كلما اتسعت رقعة العمل ، وعمَّ خيرُهُ ، وطالَ أمدُهُ ، واشتدَّ تأثيرُهُ ، كان أعظمَ عندَ الله .

هذه صفاتُ العملِ الصالحِ ، فالنبي ﷺ أخرجَ الناسَ مِنَ الظلماتِ إلى النورِ ، وَمِنْ دَرَكَاتِ الجاهليةِ إلى أعلى مراتبِ الإنسانيةِ ، وغيرَ وجهِ التاريخِ البشريِّ كله إلى اليومِ ، وإلى ما شاءَ اللهُ ، في ثلاثِ وعشرينَ سنةً ، أقامَ فيها ديناً جديداً ، وربَّى جيلاً فريداً ، وأنشأَ أمةً مثاليةً ، وأسسَ دولةً عالميةً ، في هذا الزمنِ اليسيرِ ، مع كلِّ الصعوباتِ والعوائقِ التي اعترضتْ سبيله من أولِ يومٍ .

ويزدادُ ثقلُ العملِ في ميزانِ الحقِّ ، وتتضاعفُ قيمتهُ ومثوبتهُ عندَ الله كلما كثرتِ العوائقُ في سبيله ، وعظمتِ الصوارفُ عنه ، وقَلَّ المُعينُ عليه .

ويزدادُ ثقلُ العملِ في ميزانِ الحقِّ ، وتتضاعفُ قيمتهُ ومثوبتهُ عندَ الله حينما تفسدُ المجتمعاتُ ، وتضطربُ الأحوالُ ، فيجورُ الأمراءُ ، ويتجبرُّ الأقوياءُ - كما ترون - وترفُّ الأغنياءُ ، ويداهنُ العلماءُ ، وتشيعُ الفاحشةُ ، ويظهرُ المنكرُ ، ويختفي المعروفُ ، وفي الحديثِ عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْعِبَادَةُ فِي الْهَرَجِ ، كَهَجْرَةِ إِلَيَّ » (١) .

هنا محلُّ الإشارةِ إلى أنَّ الإنسانَ إذا رُزِقَ التوفيقَ في إنفاقِ وقتهِ يستطيعُ أن يُطيلَ عمره إلى ما شاءَ الله بعد موته ، فيحيا وهو ميتٌ ،

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٩٤٨) ، والترمذي رقم (٢٢٠١) .

ويؤدّي رسالته وهو تحت التراب ، ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ ، إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ »^(١) ، فكيف إن لم يكن له عمل أصلاً ، ووافته المنية على ذلك .

وفي حديث آخر تَضَمَّنَ تفصيلات لهذه الثلاث ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ »^(٢) .

وفي صحيح مسلم : « من سن في الإسلام سنن حسن فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » ، ومن سن في الإسلام سن سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »^(٣) .

فَوَيْلٌ ، ثم ويلٌ ، ثم ويلٌ ، لِمَنْ انْقَضَتْ آجَالُهُمْ ، وضلّالاتهم ، وآثامهم باقية من بعدهم ، وهنيئاً ، ثم هنيئاً ، ثم هنيئاً لِمَنْ كانوا تحت الثرى ، والناس مهتدون بهديهم ، سعداء بأعمالهم .

قال صاحبُ الحِكَمِ العطائية : « رَبِّ عُمْرٍ اتَّسَعَتْ آمَادُهُ ، وَقَلَّتْ أَمْدَادُهُ ، وَرَبِّ عُمْرٍ قَلِيلَةٌ آمَادُهُ ، كَثِيرَةٌ أَمْدَادُهُ ، مَنْ بورك له في عُمَرِهِ

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٤٢) وابن خزيمة في صحيحه (٢٤٩٠) .

(٣) مسلم (١٠١٧) .

أدرك في يسيرٍ مِنَ الزَمَنِ مِنَ اللَّهِ تعالى ما لا يدخلُ تحتَ دوائرِ العبارةِ ، ولا تلحقُه الإشارةُ»^(١) .

ثالثاً : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ .

لأنَّ النهوضَ بالحقِّ عسيرٌ ، والعوائقُ كثيرةٌ ، والصوارفُ عديدةٌ ، فهناك هوى النفوسِ ، ومنطقُ المصلحةِ ، وظروفُ البيئةِ ، وضغوطُ العملِ ، والتقاليدُ ، والعاداتُ ، والحرصُ ، والطمعُ ، عندئذٍ يأتي التواصي بالحق ، لأنَّ المرءَ بالإيمانِ والعملِ الصالحِ يكملُ نفسه ، وبالتواصي بالحقِّ يكملُ غيره ، وبما أنَّ كيانَ الأمةِ مبنيٌّ على الدينِ الحقِّ الذي جاءنا بالنقلِ الصحيح ، وأكَّده العقلُ الصريحُ ، وأقرَّه الواقعُ الموضوعيُّ ، وتطابقَ مع الفطرةِ السليمةِ ، فلا بدَّ أن يستمرَّ هذا الحقُّ ، ويستقرَّ ، حتى تشعرَ الأمةُ بكيانها ، ورسالتها ، فالتواصي بالحقِّ قضيةٌ مصيريةٌ ، فما لم تتنامَ دوائرُ الحقِّ في الأرضِ ، تنامتْ دوائرُ الباطلِ ، وحاصرتهُ ، فالتواصي بالحقِّ يعني الحفاظَ على وجوده ، والأداءَ لرسالته .

رابعاً : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ .

لقد شاءتْ حكمةُ الله جل جلاله أن تكونَ الدنيا دارَ ابتلاءٍ بالشَّرِّ والخيرِ ، ودارَ صراعٍ بين الحقِّ والباطلِ ، لذلك كان التواصي بالصبرِ ضرورةً للفوزِ بالابتلاءِ ، والغلبةِ في الصراعِ ، فلا بدَّ مِنَ التواصي بالصبرِ

(١) الحكم العطائية رقم (٢٥٩-٢٦٠) .

على مغالبة الهوى ، وعناد الباطل ، وتحمل الأذى ، وتكبد المشقة ،
لذلك يعدُّ الصبر وسيلةً فعالةً لتذليل العقبات ، ومضاعفة القدرات ،
وبلوغ الغايات ، قال تعالى :

﴿ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] .

إن العبرة ليست في إنفاق الوقت ، بل في استثماره ، فالوقت إذا
أنفقناه ضائع ، أما إذا استثمارناه فسينمو ، ويؤتي ثماره في مستقبل
حياتنا ، وللأجيال القادمة .

إذا كيف يُنفق المسلم الزمن إنفاقاً استثمارياً ، لئلا تُحقق به الخسارة ؟
إن هذا ما يسمّى في المصطلح الحديث إدارة الوقت .

الوقت في حياة المسلم عبادة ممتدة ، أما الوقت في الثقافة الغربية ،
والنظريات المادية فإنه لا يخرج عن نطاق المثل الشائع : « الوقت هو
المال » ، وإذا وازنّا هذه العبارة بقول الحسن البصري رحمه الله تعالى :
« أدركت أقواماً كان أحدهم أشحَّ على عمره منه على دراهمه ودنانير » ،
نستنتج أن الوقت عند المسلم أغلى من المال ، ذلك أن المسلم يدرك أن
المال يمكن تعويضه ، ولكن الوقت لا يمكن تعويضه .

« حينما يحرق الإنسان مبلغاً كبيراً من المال يُحكم عليه بالسفَه ،
ويُحجّر على تصرفاته ، ولأنه مرَّكبٌ في أعماق الإنسان أن الوقت أثمن
من المال ، بدليل أنه يبيع بيته الذي يسكنه ، ولا يملك شيئاً سواه ،
ليُجري بثمانه عملية جراحية ، متوهماً أنها تزيد في حياته سنوات عدة ،

فالوقتُ عندَ كلِّ إنسانٍ أثنى منَ المالِ ، وبناءً على هذه المُسَلِّمةِ فإنَّ الذي يُتلفُ وقتهُ أشدُّ سَفَهًا منَ الذي يُتلفُ ماله .

إنَّ إدارةَ الوقتِ هي فعلٌ ما ينبغي ، على الوجهِ الذي ينبغي ، في الوقتِ الذي ينبغي ، والوقتُ من ذهبٍ ، بل أغلى منَ الذهبِ ، بل لا يُقدَّرُ بثمنٍ ، إنه أنت ، ويُعدُّ الوقتُ أحدَ أربعةِ مواردٍ أساسيةٍ في مجالِ الأعمالِ ؛ هي : الموادُ ، والمعلوماتُ ، والأفرادُ ، ثم الوقتُ الذي يُعدُّ أكثرَها أهميةً ، لأنَّه كلما تَحَكَّم الفردُ في وقتهُ بمهارةٍ وإيجابيةٍ استطاعَ أن يستثمره في تحقيقِ أقصى عائدٍ ممكنٍ منَ المواردِ الأخرى ؛ حيثُ إنَّ الفردَ عندما يديرُ وقتهُ بشكلٍ فعَّالٍ هو في الحقيقة يديرُ نفسه ، وعبادتهُ ، وعمله ، ودينه إدارةً فعَّالةً ، وكَي نكونَ واقعيينَ ، إنَّ لم يكنْ بالإمكانِ استثمارَ كلِّ الوقتِ ، فعلى الأقلِّ يمكنُ أن نستثمرَ أكبرَ قدرٍ منه .

ومعَ هذه الأهميةِ الكبيرةِ للوقتِ ، فإنَّ أكثرَ العناصرِ والمواردِ هدرًا ، وإنَّ أقلَّها استثمارًا ، سواء منَ الجماعاتِ ، أو منَ الأفرادِ هو الوقتُ ، ويعودُ هذا لأسبابٍ عدَّةٍ ، أهمُّها عدمُ الإدراكِ الكافي للخسارةِ الكبيرةِ المترتبةِ على سوءِ إدارتهِ .

الوقتُ مَوْرِدٌ نادرٌ ، لا يمكنُ تجميعُه ، ولأنَّه سريعُ الانقضاءِ ، وما مضى منه لا يرجعُ ، ولا يعوّضُ بشيءٍ ، كان الوقتُ أنفَسَ وأثمنَ ما يملكُ الإنسانُ ، وترجعُ نفاسَتُه إلى أنه وعاءٌ لكلِّ علمٍ ، ولكلِّ عملٍ ، ولكلِّ عبادةٍ ، فهو في الواقعِ رأسُ المالِ الحقيقيِّ للبشريِّ فرادى وجماعات .

ومنَ هذا المنطلقِ يعدُّ الوقتُ أساسَ الحياةِ ، وعليه تقومُ الحضارةُ ،

فصحيحٌ أن الوقت لا يمكن شراؤه ، ولا بيعه ، ولا تأجيله ، ولا استعارته ، ولا مضاعفته ، ولا توفيره ، ولا تصنيعه ، ولكن يمكن استثماره وتوظيفه ، أولئك الذين لديهم الوقت لإنجاز أعمالهم ، ولديهم أيضاً الوقت لمعرفة ربهم ، وعبادته ، والتقرب إليه ، عرفوا قيمته ، هم يستثمرون كل دقيقة من وقتهم ، ولذا إدارة الوقت لا تنطلق إلى تغييره ، أو تعديله ، أو تطويره ، بل إلى طريقة استثماره بشكلٍ فعالٍ ، ومحاولة تقليل الوقت الضائع هدرًا من دون فائدة .

يؤكد العلماء منذ زمنٍ قديم أن الوقت يمرُّ بسرعةٍ محدّدة وثابتة ، فكلُّ ثانية أو دقيقة ، وكلُّ ساعة تشبه الأخرى ، وأن الوقت يسيرُ إلى الأمام على نحوٍ متتابع ، وأنه يتحركُ وفق نظامٍ معيّن مُحكم ، لا يمكن إيقافه ، أو تغييره ، أو زيادته ، أو إعادة تنظيمه ، وبهذا يمضي الوقت بانتظامٍ نحو الأمام ، دون أيّ تأخيرٍ أو تقديم ، ولا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال إيقافه أو تراكمه أو إلغاؤه أو تبديله أو إحلاله ، إنه موردٌ محدّد يملكه الجميع بالتساوي ، مع أن الناس لم يُولدوا بقدراتٍ أو فُرصٍ متساوية ، فإنهم جميعاً يملكون الأربع والعشرين ساعةً نفسَها كلَّ يومٍ ، والاثنين والخمسين أسبوعاً كلَّ عامٍ ، وهكذا فإن جميع الناس متساوون في ناحية المدة الزمنية ، سواء أكانوا من كبار الموظفين أم من صغارهم ، من أغنياء القوم أم من فقرائهم ، لذلك فالمشكلة ليست في مقدار الوقت المتاح لكلٍّ من هؤلاء ، ولكن في كيفية إدارته واستخدامه ، وهل يستخدمونه بطريقة جيدة ومفيدة في إنجاز الأعمال المطلوبة منهم ، أو يهدرونه ، ويضيعونه في أمور قليلة الفائدة ؟

إن إدارة الوقت هي تحديد هدف ، ثم تحقيقه ، قال تعالى :

﴿ أَفَنُيَمِّشُ مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [٢٢] [الملك :

٢٢] ، ولا شك أن من يمشي إلى هدف وغاية واضحة أهدى ممن يخبط خبط عشواء ، هذه حقيقة .

الوقت نعمة عظيمة ، تؤكد السنة المطهرة ما جاء في القرآن الكريم من أن الوقت من نعم الله على عباده ، وأنهم مأمورون بحفظه ، مسؤولون عنه ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ ^(١) فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصَّحَّةُ ، وَالْفَرَاغُ » ^(٢) ، ومعنى قوله ﷺ : « كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ » ، أي : الذي يوفق لذلك قليل ، فقد يكون

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١١ / ٢٣٠) : [والغبن بالسكون وبالتحريك ، وقال الجوهري : هو في البيع بالسكون ، وفي الرأي بالتحريك ، وعلى هذا فيصح كل منهما في هذا الخبر ، فإن من لا يستعملهما فيما ينبغي فقد غبن ، لكونه باعهما ببخس ، ولم يحمد رأيه في ذلك ، قال ابن بطال : معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغا حتى يكون مكفيا صحيح البدن ، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن ، بأن لا يترك شكر الله على ما أنعم به عليه ، ومن شكره امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، فمن فرط في ذلك فهو المغبون ، وأشار بقوله : كثير من الناس إلى أن الذي يوفق لذلك قليل . . . وقال الطيبي : ضرب النبي ﷺ للمكلف مثلا بالتاجر الذي له رأس مال ، فهو يتبع الربح مع سلامة رأس المال فطريقه في ذلك أن يتحرى فيمن يعامله ويلزم الصدق والصدق ، لئلا يغبن ، فالصحة والفراغ رأس المال ، وينبغي له أن يعامل الله بالإيمان ، ومجاهدة النفس ، وعدو الدين ، ليربح خيري الدنيا والآخرة . . . وعليه أن يجتنب مطاوعة النفس ، ومعاملة الشيطان ، لئلا يضيع رأس ماله مع الربح ، وقوله في الحديث : « مغبون فيهما كثير من الناس » كقوله تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » ، فالكثير في الحديث في مقابله القليل في الآية] ، بتصرف يسير .

(٢) رواه البخاري (٦٠٤٩) ، والترمذي (٢٣٠٤) وغيرهما .

الإنسان صحيحاً ، ولا يكون متفرغاً لشُغله بالمعاش ، وقد يكون مستغنياً ، ولا يكون صحيحاً ، فإذا اجتمعا - الصحة والفراغ - فغلب على الإنسان الكسل عن الطاعة فهو المغبون ، والغبن أن تشتري بأضعاف الثمن ، وأن تباع بأقل من ثمن المثل .

الوقت مسؤولية كبرى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ » (١) .

الوقت وعاء العبادة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج ونحوها عبادات محددة بأوقات معينة ، لا يصح تأخيرها عنها ، وبعضها لا يقبل إذا أدي في غير وقته ، فهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوقت ، الذي هو في الحقيقة الظرف أو الوعاء الذي تؤدي فيه .

ومما ورد عن النبي ﷺ في الحث على أداء العبادات في وقتها قوله حين سئل : « أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الصَّلَاةُ لَوْ قَتَلَهَا ، وَبَرُّ الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » (٢) .

الوقت في حياة النبي عليه الصلاة والسلام

كان عليه الصلاة والسلام من أشد الناس حرصاً على وقته ، وكان لا يمضي له وقت من غير عمل لله تعالى ، أو فيما لا بد له لصلاح نفسه ،

(١) رواه الترمذي عن أبي برزة الأسلمي (٢٤١٧) .

(٢) البخاري (٥٠٤) ، ومسلم (٨٥) عن ابن مسعود .

يقول عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه يصفُ حالَ النبي ﷺ : « كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى مَنْزِلِهِ جَزْأً دُخُولُهُ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ : جُزْءٌ لِلَّهِ ، وَجُزْءٌ لِأَهْلِهِ ، وَجُزْءٌ لِنَفْسِهِ ، ثُمَّ جَزْأً جُزْءُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَامَّةِ بِالْخَاصَّةِ »^(١) .

وفي السُّنَّةِ النبويةِ الشريفةِ إشاراتٌ إلى أهميةِ الوقتِ ، فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اِغْتَنِمْ خُمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »^(٢) .

بل في حديثٍ رائعٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ »^(٣) .

وللإمام ابنِ القيم - رحمه الله تعالى - قولٌ رائعٌ في قيمةِ الوقتِ في حياةِ المسلمِ ، يقول : « فالعارفُ ابنُ وقتهِ ، فَإِنْ أَضَاعَهُ ضَاعَتْ عَلَيْهِ مَصَالِحُهُ كُلُّهَا ، فَجَمِيعُ الْمَصَالِحِ إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنَ الْوَقْتِ ، فَمَتَى أَضَاعَ الْوَقْتَ لَمْ يَسْتَدْرِكَهُ ، فَوْقَتِ الْإِنْسَانُ هُوَ عَمْرُهُ فِي الْحَقِيقَةِ ، وَهُوَ مَادَةُ حَيَاتِهِ الْأَبَدِيَّةِ فِي النِّعَمِ الْمَقِيمِ ، وَمَادَةُ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَهُوَ

(١) ابن سعد في الطبقات الكبرى (١/٤٢٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٥٦/٢) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/٣٤١) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٧٧/٧) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/١٢٥) .

(٣) مسند أحمد (١٣٠٠٤) .

يمرّ أسرع من مرّ السحاب ، فما كان من وقته لله ، وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته ، وإن عاش فيه عيش البهائم ، فإذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأمانى الباطلة ، وكان خير وقته ما قطعه بالنوم والبطالة ، فموت هذا خير له من حياته ، وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل منها ، فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله ^(١) .

ومن جهل قيمة الوقت فسيأتي عليه موقفان خطيران ، يتذكر فيهما هذه القيمة العظيمة .

أما الموقف الأول فساعة الاحتضار ، حين يودّع الدنيا ، ويستقبل الآخرة ، ويتمنى لو منح مهلة من الزمن ، وأخر إلى أجل قريب ، ليصلح ما أفسد ، وليتدارك ما فات ، قال تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءُمُورُكُمْ وَلَا ءَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ [المنافقون : ٩-١٠] ، ويأتي الرد الإلهي :

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [المنافقون : ١١] .

أما الموقف الثاني ففي الآخرة ، حيث توفى كل نفس ما عملت ، وتجزى بما كسبت ، ويدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، هناك يتمنى أهل النار لو يعودون إلى دار التكليف ، ليعملوا عملاً صالحاً ،

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص ٢٠١) ، بتصرف يسير .

ولكن هيهات هيهات ، فقد انتهى زمن العمل ، وجاء زمن الجزاء ، قال تعالى :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ .

القرآن يحذّر من الغفلة أشدّ التحذير ، قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَأَن لَّهُمْ لُحُومٌ مَّائِيَّةٌ وَلَا يُفْقَهُونَ شَيْئًا مِّنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

آفةٌ أخرى تصيبُ الناسَ ؛ إنها التسويفُ ، يقول أحدهم : غداً ، وبعْدَ غدٍ ، وسوف أتوبُ ، وبعْدَ انتهاء العام الدراسي ، وبعْدَ تأسيسِ المحلِّ ، وبعْدَ الزواجِ ، قال الحسن البصري رحمه الله : « إِيَّاكَ والتسويفَ ، فإنَّك بيومِكَ ، ولستَ بعْدِكَ ، فإنْ يكنْ غدٌ لك ، فكُنْ في غدٍ كما كنتَ في اليومِ ، وإنْ لم يكنْ لك غدٌ ، فلنْ تندمَ على ما فرَّطْتَ في اليومِ » .

وقيل لعالمٍ جليلٍ حكيمٍ : أَوْصِنَا ، فقال : « احذروا (سوف) ،
فإنها جندٌ من جنودِ إبليس » .

وَاللّٰهُ دَرُّ مَنْ قَالَ :

تَزُودُ مِنَ التَّوَى فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الْفَجْرِ

فَكَمْ مِنْ سَلِيمٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
وَكَمْ مِنْ فَتَى يُمْسِي وَيُصْبِحُ آمِنًا وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهُوَ لَا بَدْرِي

* * *

قصة عبد الله بن رواحة

عبد الله بن رواحة ، صحابي جليل ، القائد الثالث في معركة مؤتة ؛
تروي بعض السير ، أنه حين قُتل زيد ، القائد الأول ، ثم قُتل جعفر ،
القائد الثاني ، وجاء دوره في القيادة ، وكان شاعراً ، تردّد قليلاً في حمل
الراية ، وقال هذين البيتين :

يا نفسُ إلا تُقتلي تُموتِي هذا حِمَامُ الموتِ قد صَلِيَتْ
وما تَمَنَيْتِ فقد أُعْطِيَتْ إنْ تفعلي فَعَلَهُمَا هُديتِ

روى ابن إسحاق عن الزبير قال : (فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن
رواحه الراية ، ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل يستنزل نفسه ويتردد
بعض التردد ، ثم قال :

أقسمت يا نفس لتنزلنه لتنزلنَّ أو لتكرهِنَّه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة مالي أراك تكرهين اجنه
قد طال ما قد كنت مطمئنة هل أنت إلا نطفة في شنه

ثم أخذ الراية ، وقاتل بها حتى قُتل ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام
مع أصحابه فقال :

« أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ، ثُمَّ أَخَذَهَا
جَعْفَرٌ فَقَاتَلَ بِهَا حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ، ثُمَّ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَقَاتَلَ بِهَا

حَتَّى قُتِلَ شَهِيداً ، لَقَدْ رُفِعُوا لِي فِي الْجَنَّةِ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ عَلَى سُرُرٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَرَأَيْتُ فِي سَرِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ اِزْوَاراً عَنْ سَرِيرِ صَاحِبِيهِ ، فَقُلْتُ : بِمَ هَذَا ؟ فَقِيلَ لِي : مَضِيّاً وَتَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ بَعْضَ التَّرَدُّدِ وَمَضَى ^(١) .

قرأت البيتين ، وعددت الزمن ، فكان الزمن عشر ثوانٍ فقط .
أرايتم إلى هذا التردد الذي لا يزيد على عشر ثوانٍ ، كيف أنه هبط بمنزلة صاحبه في الجنة ، مع أنه بذل حياته في سبيل الله ، إن هذه القصة - إن صحّت - تؤكد قيمة الوقت في حياة المسلم .

* * *

والشمس تجري لمستقر لها

يقول الله تعالى :

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] .

إن الشمس هي الزمان ، وهي سبب حصوله ، ومُنشعب فروعه ، وأصوله ، وكتابه بأجزائه وفصوله ، لولاها ما اتسقت أيامه ، ولا انتظمت شهوره وأعوامه ، ولا اختلف نوره وظلامه ، ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ^(٢) .

إن الشمس نجم عادي ، يقع في الثلث الخارجي لشعاع قرص المجرة

(١) مجمع الزوائد (٦/ ١٦٠) ، وقال : أخرجه الطبراني عن رجل من الصحابة ، وانظر حلية الأولياء لأبي نعيم (١/ ١٢٠) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٥/ ٣١) ، وتفسير القرطبي (١٠/ ٣٦٨) .

اللبنية ، وهي تجري بسرعة (٢٣٠) كلم في الثانية حول مركز المجرة اللبنية ، الذي يبعد عنه ثلاثين ألف سنة ضوئية ، ساجبة معها الكواكب السيارة ، التي تتبعها ، إذ تكمل دورة كاملة حول مجرتها ، فمنذ ولادتها التي ترجع إلى خمسة مليارات سنة تقريباً أكملت الشمس وما تبعها من نجوم ثمانى عشرة دورة حول المجرة اللبنية ، التي تجري نحو تجمع أكبر هو كدس المجرات ، الذي يجري نحو تجمع أكبر هو كدس المجرات العملاق ، والكدس المجموعة الكبيرة ، فكل جرم في الكون يجري ويدور حول جرم آخر ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ ۚ﴾ [الطاف : ١١] ، أي : كل نجم يدور حول نجم آخر ، ويرجع إلى مكان انطلاقه النسبي ، وهذه الحقيقة الواضحة تنتظم الكون كله ، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ﴾ .

إن مستقر الشمس هو أجلها المسمى ، والمقدر لها من العزيز العليم ، أي : الوقت الذي فيه ينفد وقودها فتنتفخ ، وهذا المعنى لمستقر الشمس نستنتجه من الآية الكريمة التالية ، قال عز وجل :

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد : ٢] .

وقد تكررت هذه الآية الكريمة ست مرات^(١) في كتاب الله ، ربما كي

(١) وهذه المواضع هي :

١- ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي

لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد : ٢] .

٢- ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ [فاطر : ١٣] .

نتوقف عند الإعجاز العلمي الكامن فيها ، فحتى القرن التاسع عشر كانت المعلومات الفلكية تقول بأزلية النجوم ، أما تقدير العزيز العليم فهو أن للشمس أجلاً مسمى ككل المخلوقات ، ولم يكشف علم الفلك إلا في القرن العشرين أن النجوم تولد ، وتنمو ، وتكبر ، وتهرم ، وتموت ، وقد أشار القرآن الكريم إلى موت الشمس بالتحديد ، قال تعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١] .

إن تكوير الشمس يعنى موتها^(١) ، ويقدر علماء الفلك أن عمر الشمس الحالي هو أربعة مليارات سنة ونيّف ، ويبقى فيها من الطاقة ما يمكنها من أن تضيء لمدة ستة مليارات سنة أخرى ، فينبغي ألا نقلق ، وبعد ذلك تكون قد استنفدت وقودها ، فتدخل في فئة النجوم الأقزام ، ثم تموت ،

٣- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرِ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [لقمان : ٢٩] .

٤- ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ [يس : ٣٨] .

٥- ﴿ لَا الشَّمْسُ يَلْعَىٰ لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] .

٦- ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ لِّأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر : ٥] .

وهناك آية أخرى ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٣] .

(١) قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية (٤٧٦/٤) : [والصواب من القول عندنا في ذلك أن التكوير جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله تعالى (كورت) جمع بعضها إلى بعض ، ثم لُفَّتْ ، فُرِّمِي بها ، وإذا فُعل بها ذلك ذهب ضوءها] .

وبموتها تنعدم إمكانية الحياة على كوكب الأرض ، وينتهي الزمن بالنسبة للأرض ، بمعنى من معانيه^(١) .



(١) قال ابن القيم في بدائع الفوائد (٣/ ٧٠٠) ، وفي كتابه مفتاح دار السعادة (٢/ ١٦٣-١٦٤) : [واجتمع جماعة من الكبراء والفضلاء يوما فقرأ قارئ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣﴾ ، حتى بلغ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ ٤ ، وفي الجماعة أبو الوفاء بن عقيل فقال له قائل : يا سيدي هب أنه أنشَر الموتى للبعث والحساب ، وزوَّج النفوس بقرنائها للثواب والعقاب ، فما الحكمة في هدم الأبنية ، وتسيير الجبال ، ودك الأرض ، وفطر السماء ، ونثر النجوم ، وتخريب هذا العالم ، وتكوير شمسِه ، وخسف قمرِه ؟ فقال ابن عقيل على البديهة : إنما بنى لهم هذه الدار للسكنى والتمتع ، وجعلها وما فيها للاعتبار والتفكير ، والاستدلال عليه بحسن التأمل والتذكر ، فلما انقضت مدة السكنى ، وأجلاهم عن الدار ، وخرَّبها لانتقال الساكن منها ، فأراد أن يعلمهم بأن في إحالة الأحوال ، وإظهار تلك الأحوال ، وإبداء ذلك الصنع العظيم بيانا لكمال قدرته ، ونهاية حكمته ، وعظمة ربوبيته... وعظم شأنه ، وتكذيبا لأهل الإلحاد ، وزنادقة المنجمين ، وعباد الكواكب ، والشمس ، والقمر ، والأوثان ، ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، فإذا رأوا أن منار آلهتهم قد انهدم ، وأن معبوداتهم قد انتشرت ، والأفلاك التي زعموا أنها وما حوتُه هي الأرباب المستولية على هذا العالم قد تشققت ، وانفطرت ظهرت حينئذ فضائحهم ، وتبين كذبهم ، وظهر أن العالم مربوب محدث مدبر ، له رب يصرفه كيف يشاء ، تكذيبا لملاحدة الفلاسفة القائلين بقدومه ، فكم لله من حكمة في هدم هذه الدار ، ودلالة على عظيم قدرته ، وعزته ، وسلطانه ، وانفراذه بالربوبية ، وانقياد المخلوقات بأسرها لقهره ، وإذعانها لمشيئته ، فبارك الله رب العالمين] .

بتصرف يسير .

أسباب هلاك الأمم

مما يؤكد أهميّة المرجعية الموحدة للأمم الواحدة ، التي ينبغي أن تركز في تحقيق أهدافها على صحة المعتقد ، وسلامة المنهج ، والعناية بمصالح الأمة الكبرى ، ومقاصد الشريعة العظمى ، باعتدال في الرؤى ، وتوازن في النظر ، وأسلوب عالٍ في الطرح والحوار ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

هذه الآية تشير إلى المرجعية الواحدة للأمم الواحدة .

هذه الأحداث التي هزت العالم ألا تنتظمها قوانين وسنن إلهية لا تتبدل ، ولا تتغير ؟ قال تعالى :

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣] .

فما هي أسباب هلاك الأمم في ضوء القرآن الكريم وسنة النبي عليه أتم الصلاة والتسليم ؟

من أبرز أسباب هلاك الأمم : كثرة الفساد ، وكثرة الخبث ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾

[الإسراء : ١٦]

قال علماء التفسير : « أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا بطاعة الله وتوحيده ، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوا به ، ففسقوا ، أي : خرجوا عن طاعة أمر ربهم ، وعصوه ، وكذبوا رسله ، فحقَّ عليها القول ، أي : وجب عليها الوعيد ، فدمرناها تدميراً ، وقد أكدَّ الله التدمير بمصدره للمبالغة في شدة الهلاك الواقع بهم ، فإنَّ قال قائلٌ : إنَّ الله سبحانه أسندَ الفسق في هؤلاء القوم بخصوص المترفين دون غيرهم في قوله تعالى :

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ .

مع أنه ذكرَ عمومَ الهلاك للجميع ، قال المفسرون : « هناك جوابان :

الجواب الأول : أنَّ غيرَ المترفين تبع لهم ، كما قال الله تعالى :

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب : ٦٧] .

والجواب الثاني : أنَّ بعضهم إنَّ عصى الله ، وبغى ، وطغى لم ينكر عليه الآخرون هذه المعصية وهذا الفسق والفجور ، فإنَّ الهلاك عندئذٍ يعم الجميع .

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وكما جاء في الحديث الصحيح عن أم المؤمنين زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَرِعَا يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَنِلٌّ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ ، وَحَلَقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا ، قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ : فَمُلْتُ :

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ ^(١) .

فأول أسباب هلاك الأمم : كثرة الفساد في الأرض ، وكثرة الخبث ، قال تعالى في كتابه :

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [٤١] .

سبب آخر من أسباب هلاك الأمم : الكفر بنعم الله عز وجل ، وعدم القيام بواجب شكرها ، قال تعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [١١٢] .

سبب ثالث من أسباب هلاك الأمم من خلال القرآن والسنة : ظهور النقص والتطيف في الكيل والميزان ، ومنع حق الله ، وحق عباده ، ونقض العهود والمواثيق ، والإعراض عن أحكام الله تعالى ، هذه كلها مجتمعة في حديث شريف يبين المرحلة التي وصلنا إليها .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ، لَمْ تَظْهَرَ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشًا فِيهِمُ الطَّاغُوتُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

(١) البخاري (٣١٦٨) ، مسلم (٢٨٨٠) .

إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمُتُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ
أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا ، وَلَمْ
يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ،
فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمُ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا
مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ » (١) .

وكان النبي ﷺ معنا يرى تقصير الأمة الإسلامية .

ومن أسباب هلاك الأمم : التنافس في الدنيا ، والرغبة فيها ،
والمغالبة عليها :

عَنْ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّ عَمْرَو بْنَ عَوْفٍ الْأَنْصَارِيَّ وَهُوَ
حَلِيفُ لِبْنِي عَامِرِ بْنِ لُؤْيٍ وَكَانَ شَهِدَ بَدْرًا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ :
« فَوَ اللَّهِ لَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ
الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا ،
وَتُهْلِكُكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ » (٢) .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ
الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » (٣) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّاكُمْ وَالشُّحَّ ،

(١) سنن ابن ماجه (٤٠١٩) .

(٢) البخاري (٢٩٨٨) ، مسلم (٢٩٦١) ، الترمذي (٢٤٦٢) ، ابن ماجه (٣٩٩٧) .

(٣) مسلم (٢٥٧٨) ، أحمد (١٤٥٠١) .

فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمَرَهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا... « (١) .

ومن أسباب هلاك الأمم : التعامل بالرِّبَا ، وانتشار الزنا : فإن هذا مما يخرَّب البلاد ، ويهلك العباد ، ويوجبُ سخطَ الربِّ عزَّ وجل .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الرِّبَا وَالزَّنا إِلَّا أَحَلُّوا بِأَنفُسِهِمْ عِقَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » (٢) .

قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءُكَ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . وانتشار الزنا سببٌ لظهور أمراضٍ لم تكن في الأمم السابقة ، « لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا » ، عددُ المصابين بمرض الإيدز في العالم يتجاوز أربعين مليوناً .

ومن أسباب هلاك الأمم : تقصيرُ الدعاة في واجبِ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر ، وتقصيرُ الأمراء في إزالة المنكرات .

عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ

(١) أبو داود (١٦٩٨) ، النسائي (١١٥٨٣) ، أحمد (٦٤٨٧) .

(٢) أحمد (٣٨٠٩) .

فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي هُمْ أَعَزُّ مِنْهُمْ وَأَمْنَعُ لَا يُغَيِّرُونَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ» (١) .

وعن الثَّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَثَلُ الْمُدَّهِنِ (٢) فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً ، فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا ، وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلَاهَا ، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا فَتَأَذُّوْا بِهِ ، فَأَخَذَ فَأَسَا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ ، فَاتَوَّهُ ، فَقَالُوا : مَا لَكَ ؟ قَالَ : تَأَذَّيْتُمْ بِي ، وَلَا بُدَّ لِي مِنْ الْمَاءِ ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ ، وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ» (٣) .

والتعبير الحديث : نحن جميعاً في قارب واحد .

قال الإمام الغزالي : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو النطب الأعظم في الدين ، وهو الذي بعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه ، وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفتنة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد : وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإننا لله وإنا إليه راجعون » .

ومن أسباب هلاك الأمم : ترك الجهاد ، والإخلاد إلى الأرض .

(١) ابن ماجه (٤٠٠٩) .

(٢) قال ابن حجر في فتح الباري (٢٩٥ / ٥) : « قوله : مثل المدھن - بضم أوله وسكون المهملة وكسر الهاء بعدها نون - أي : المَحَابِي - بالمهملة والموحدة - والمدھن والمدھن واحد ، والمراد به من يرائي ، ويضيع الحقوق ، ولا يغير المنكر » .

(٣) البخاري (٢٥٤٠) .

عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعَيْنَةِ ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ »^(١) .

الآخذُ بأذنانِ البقرِ ، والرضا بالزرع علامةٌ على الإخلاقِ إلى الأرضِ ، والانغماسِ في الملذَّاتِ ، وتركُ الجهادِ هو سببُ الذلِّ والهوانِ .

ومن أسبابِ هلاكِ الأممِ : مخالفةُ أمرِ النبي ﷺ ، قال تعالى :

﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٦ ﴾ [النور : ٦٣] .

وقال الله عز وجل :

﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

أي : ما دامت سنةُ النبي ﷺ قائمةً في حياتهم ، في علاقاتهم ، في كسبِ أموالهم وإنفاقِها ، وفي تجارتهم ، في بيعهم وشرائهم ، في علاقاتهم ، في أفراحهم ، في أتراحهم ، في حلهم وسفرهم ، ما دام منهجُ النبي ﷺ مطبقاً في حياتهم فهُمْ في مأمنٍ من عذابِ الله ، وفي مأمنٍ آخر ، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

وفي حديثٍ طويلٍ عن ابنِ عمرَ قال : قال رسولُ الله ﷺ : « »

(١) أبو داود (٣٤٦٢) .

وَجُعِلَ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» (١) .

ومن أسباب هلاك الأمم : الغلو في الدين ، والغلو هو التنطع ، ومجاوزة الحد ، فعن عبد الله بن مسعود قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ، قَالَهَا ثَلَاثًا » (٢) .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ » (٣) .

إن هؤلاء المستكبرون ربّما طالبوا الشعوب المستضعفة أن تلحق جراحها ، وأن تبسم للغاشم ، وأن تعدّ حقّها باطلاً ، وباطل المعتدي حقّاً ، في مثل هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « . . . كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ؟ قَالُوا : وَكَائِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ، وَرَأَيْتُمُ الْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ؟ قَالُوا : وَكَائِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ ؟ قَالُوا : وَكَائِنْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ . . . » (٤) .

(١) أحمد (٥١١٤) .

(٢) مسلم (٢٦٧٠) ، أبو داود (٤٦٠٨) ، أحمد (٣٦٥٥) .

(٣) ابن ماجه (٣٠٢٩) ، أحمد (٣٢٤٨) .

(٤) علل ابن أبي حاتم (٢٧٥٩) ، عن أبي أمامة ، وفيه ضعف .

إننا نريد حلاً لهذا الوضع المؤلم ، فهل من ورقة عمل تُوضَع بين أيدي المسلمين ؟

أول نقطة في ورقة العمل العودة إلى القرآن والسنة للعلم والعمل معاً ، لا بد من العلم لِثقل هذه المرحلة التي نحيها الآن ، حتى لا نُؤذي من حيث نريد الإصلاح ، وحتى لا نفسد من حيث نريد الإصلاح ، لا بد من فهم العلماء الربانيين ، لا بد من فهم صحيح ، وعمل صادق ، ولا سيما أن الجهل قد يودي بصاحبه إلى الشرك ، وإلى الإفساد من حيث لا يشعر ، ولا يريد ، هذه النقطة الأولى في ورقة العمل .

النقطة الثانية : تجديد الإيمان ، نحن لا نظن أن الأمة قد نبذت الإيمان بالكلية ، ولكن نقول : الإيمان يزيد وينقص ، ويتجدد ويبلو ، يقول عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلُقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوْبُ - أي : كما يَبْلَى الثَّوْبُ - فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ » (١) .

نحن في أمس الحاجة إلى تجديد للإيمان ، لأن الإيمان يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، نحتاج إيماناً يعرّفنا برّبنا ، نحتاج إيماناً يجدد في قلوبنا التوكل على الله ، والثقة بالله وحده ، والرجاء فيه وحده ، والاعتماد عليه وحده ، واليقين فيه وحده ، نحتاج إيماناً إن استقر في قلوبنا نطق به ألسنتنا ، وصدّقته أعمالنا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى

(١) الحاكم في المستدرک (٥) عن عبد الله بن عمرو .

صَوَرَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ^(١) .

النقطة الثالثة : في ورقة العمل التي ينبغي أن تكون بين أيدينا : الأخوة
الإيمانية بالعقيدة الصحيحة ، وبالأخوة الصادقة أقام النبي ﷺ دولة :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

وَعَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى^(٢) .

أين الأخوة الإيمانية ؟ أين أمة الجسد الواحد ؟ نخشى أن ينظر المسلم إلى وضع إخوانه المؤمنين فيهِزَّ كَتَفَيْهِ ، ويمضي وكأن الأمر لا يعنیه ، لا من قريب ولا من بعيد ، ما دام هو آمناً في سِرْبِهِ ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه .

النقطة الرابعة : في ورقة العمل : تحويل العلم إلى عمل ، العلم ما عُمِلَ به ، العلم في الإسلام وسيلة وليس غايةً ، فَإِنَّ الْعِلْمَ إِذَا خَالَفَ الْعَمَلَ بُذِرَتْ بِذَوْرِ النِّفَاقِ فِي الْقُلُوبِ ، قال تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ^(٣) [الصف : ٢-٣] .

ينبغي أن نحول المنهج العلمي الرباني إلى واقع عملي يتألق في دنيانا سموًا ، وروعةً ، وحركةً ، وبناءً ، أن نتحرك في هذه المرحلة إلى

(١) مسلم (٢٥٦٤) ، أحمد (٧٨١٤) .

(٢) البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

الدعوة إلى الله ، نريد أن نُسمع العالمَ كلَّه عظمة هذا الدين ، وحقيقة هذا الدين ، فقم أيها الموحّد ودثر العالمَ كلَّه ببردتك ذاتِ العَبَقِ الطاهر ، قم وضمِّ العالمَ كلَّه إلى صدرك ، وأسمِعه خفقات قلبك الذي وحدَ الله جلَّ وعلا ، قم واسقِ الدنيا كأسَ الفطرة ، فطرة التوحيد التي فطر الله الناسَ عليها .

نريدُ الآن من كلِّ مسلمٍ غيورٍ أن يبذلَ الغالي والرخيصَ ، والنفسَ والنفيسَ لدينِ الله تبارك وتعالى ، فإن لم تعمل الآن ، وإن لم تحمل الآن همومَ أمّتك ، وإن لم تتحرك الآن لنصرة دينك فمتى تتحرك ؟ لا تأكلُ ملءَ بطنك ، ولا تنمَ ملءَ عينيك ، ولا تضحكُ ملءَ فمك ، وكأنَّ الأمرَ لا يعينك .

النقطة الخامسة : في ورقة العمل : أن نجدد الثقة المطلقة بوعدِ الله الصادق ، بأن الله سبحانه وتعالى سوف ينصر دينه ، دققوا في هذه الآية : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

الآن دققوا :

﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۚ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ٦٥] . هذا وعدٌ من الله عزَّ وجلَّ للمستضعفين ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ

فِيهِ الْآبَصَرُ ﴿ [إبراهيم : ٤٢-٤٣] . إنها آيةٌ تهديدٍ ووعيدٍ ، ولكن أعظم ما فيها شفاءٌ لقلوبِ المظلومين ، وتسليَةٌ لخواطرِ المكَلُومين ، فكم ترتاحُ نفسُ المظلومِ ، ويهدأُ خاطره حينما يسمعُ هذه الآيةَ ، ويعلمُ علمَ اليقينِ أنَّ حقَّه لا يضيعُ ، وأنه سوف يُقتَصَرُ له ممَّن ظَلَمه ، ولو بعد حينٍ ، وأنه مهما أَفَلَّتِ الظالمُ من العقوبةِ في الدنيا فإنَّ جرائمَه مسجلةٌ عندَ مَنْ لا تخفى عليه خافيةٌ ، ولا يعزُبُ عن شيءٍ ، فالموعدُ يومَ الجزاءِ والحسابِ ، يومَ العدالةِ ، يومَ يُؤْخَذُ للمظلومِ من الظالمِ ، ويُتَمَتَّصُ للمقتولِ من القاتلِ ، يومَ تُجْزَى كُلُّ نفسٍ بما كسبت ، لا ظلمَ اليومَ ، ولكن اللهَ يمهِّلُ الظالمَ حتى إذا أخذه لم يفِلتهُ :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِیَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْآبَصَرُ ﴿١٢﴾ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، أي : تبقى أبصارُهم مفتوحةً مبهوتةً ، لا تتحركُ الأجفانُ من الفزعِ والهلعِ ، ولا تطرفُ العينُ من هولٍ ما ترى .

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] . أي : مسرعين ، لا يلتفتون إلى شيءٍ ممَّا حولهم ، وقد رفعوا رؤوسهم في ذلٍّ وخشوعٍ ، لا يطفرون بأعينهم من الخوفِ والجزعِ ، وقلوبُهم خاويةٌ خاليةٌ ، من كلِّ خاطرٍ من هولِ الموقفِ .

ما أعظمَ بلاغةَ القرآنِ ! وما أروعَ تصويرَه للمواقفِ ! حتى كأنك ترى المشهدَ ماثلاً أمامك .

تخيَّلوا وأنتم تقرؤون هذه الآيةَ مصيرَ الطغاةِ الظلمةِ الذين انتهكوا أعراضَ المسلمين ، وسفكوا دماءَ الأبرياءِ ، وقتلوا الأطفالَ ، وشرّدوا النساءَ ، وهدموا المساجدَ والمنازلَ ، وردموا الآبارَ ، وجرفوا المزارعَ .

تذكروا مَنْ عاثَ في الأرضِ فساداً ، ومن أذاقَ إخواننا في فلسطينِ صنوفَ العذابِ والقهرِ والظلمِ ، تذكروا أَنَّ اللهَ فوقهم ، وأنه سوفَ يقتصرُ منهم ، ويرينا فيهم ما يثلجُ الصدورَ ، إن شاء الله تعالى ، ويتحققَ لنا وعدُ اللهِ سبحانه وتعالى :

﴿ قَالِیْمَ الدِّینِ ءَامَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ یَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَابِكِ یَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا کَانُوا یَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٦] . هذا الواقعُ الأليمُ الذي تحولت فيه الأمةُ إلى قصعةٍ مستباحةٍ من کلِّ أممِ الأرضِ أخبرنا عنه النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ، كما في الحديثِ الصحيح عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا » .

تصوّرَ منظرَ الطيورِ حينما یقدّم لها الطعامُ بعدَ جوعٍ شديدٍ ، تصوّرَ مشهدَ الطيورِ وهي تتقاتلُ ، وتتقاذفُ ليلتقط كلُّ طائرٍ نصيبه من هذه القصعةِ ، انظر إلى الكلامِ النبويِّ بعین التدبیر ، عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ یَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ یَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنْ كُنْتُمْ غُثَاءً كُثْنَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ ^(١) .

إن نظرةً متأملّةً في العقودِ الماضيةِ نرى من خلالها نقلةً تراجعيةً كبيرةً

(١) رواه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٢٢٤٥٠) .

إلى الوراء قد تمت بالنسبة إلى دول المنطقة العربية ، ترافقت مع ظهور مفهومات جديدة مختلفة ، وخاصة في العقد الماضي ، وفي مقدمتها مفهوم النظام الدولي الجديد ، أو ما يسميه البعض العولمة ، فالإسلام تجاوز منذ ظهوره الحدود الجغرافية ، والقوميات ، والثقافات المختلفة ، ولكنه لم يُلغها ، بل أكد على الالتزام بالوطن والأمة ، بانياً ذلك على أسس سليمة مختلفة عن مفهومات العولمة .

ويمكن أن تكون العولمة حالة مليئة بالإيجابيات إذا استندت إلى ما استند إليه الإسلام من العدل والمساواة ، إضافة إلى مبادئه السمحة الأخرى .

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ الْخُثَعِمِيَّةِ قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ ، وَاخْتَالَ ، وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ ، وَاعْتَدَى ، وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الْأَعْلَى ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا ، وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبَلَى ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا ، وَطَغَى وَنَسِيَ الْمُبْتَدَأَ وَالْمُنْتَهَى ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتَلُ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتَلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعَ يَقُودُهُ ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوَى يُضِلُّهُ بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبَ يَذِلُّهُ » (١) .

* * *

وظيفة الكائنات الحية في التربة

ثمة شيء لا يكاد يُصدَّق ، إنَّ متراً مكعباً من التربة التي نستخدمها للزراعة فيه ما يزيد على مئتي ألف من الديدان العنكبية ، وعلى مئة ألف من الحشرات فقط في متر مكعب ، وعلى ثلاثمئة من ديدان التربة العادية ، وعلى آلاف الملايين من الجراثيم والكائنات المتناهية في الدقة ، وإنَّ غراماً واحداً من هذه التربة يحوي عدّة مليارات من البكتريا ، وهي مخلوقات متناهية في الدقة ، وهي على شكل عُصَيَات ، وعلى شكل كُرَيَات ، على شكل لَوَالِبَ ، بعضها يحتاج إلى الأكسجين ، وبعضها لا يحتاج ، بعضها عارٍ ، وبعضها له أهداب تمكّنه من الحركة ، إنَّ هذا المصنّع العجيب ذو حركة دائمة يقوم بمهامٍ هي من أكثر المهمات غموضاً واستغلاًقاً حتى اليوم .

هذه الكائنات ما وظيفتها ؟ يعرف العلماء بعض الوظائف ، أمّا وظائفها كاملة فما تزال سراً حتى الآن ، هذا المصنّع ذو حركة دائمة يقوم بعملياتٍ من أكثرها أهميّة ونفعاً للإنسان .

لو أنّ الجنسَ البشريّ كلّهُ أُبِيدَ عن آخره لَبَقِيَتِ الحياةُ مستمرةً ، أمّا هذه الكائنات لو أُبِيدَتْ لَانْتَهتِ الحياةُ في سطح الأرض كلّهُ ، فربما كان وجودُ هذه الكائناتِ أخطرَ من وجودِ الإنسانِ ، لأنَّ كلّ شيءٍ نأكله على نحوٍ مباشرٍ ، أو غيرٍ مباشرٍ إنما أصلُهُ من النباتِ الأخضرِ ، تتساقطُ الأوراقُ فتأتي الرياحُ ، وتوزّعُ هذه الأوراقُ المتساقطة على أنحاءِ التربةِ كلّها ، وتأتي ملياراتُ الكائناتِ المجهرية فتلتهمُها ، فإذا التهمتْها تصبُحُ

غذاءً صالحاً لكائناتٍ أكبرَ منها ، هي وحيداتُ الخلية ، فإذا التهمتُها تصبحُ غذاءً صالحاً لكائناتٍ أرقى منها ، هي البكتريا ، يتم هذا على ثلاثِ مراحلٍ ، وهذه العملياتُ الحيويّةُ تحتاجُ إلى الهواءِ ، فمن أين يأتي الهواءُ داخلَ التربةِ ؟

وظيفةُ الديدانِ أن تفتحَ أنفاقاً في التربةِ ، فالديدانُ والقورصُ والحيواناتُ التي تعيشُ في باطنِ التربةِ مهمتها فتحُ هذه الأنفاقِ .

إن هذه الديدانَ تلتهمُ الترابَ ، وتفترزُ السمادَ ، ولا يعلمُ إلا اللهُ كم من الأطنانِ تنتجُها الديدانُ في الهكتارِ الواحدِ ، وكم من أطنانِ الأسمدةِ تنتجُها الديدانُ في الكيلو متر المربعِ الواحدِ ، إنه كونٌ عظيمٌ ، وخالقٌ عظيمٌ ، وشرعٌ حكيمٌ ، فأين نذهب ؟ ما الذي يصرفُنا عن اللهِ سبحانه وتعالى ، وعن تطبيقِ أمرِهِ !؟

هذه بعضُ الحقائقِ المذهلةِ في مترٍ مكعبٍ من التربةِ ، قال تعالى :

﴿وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء : ٨٥] .

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

في الغرامِ الواحدِ عدّةُ ملياراتٍ من البكتريا ، والذي يجري تحتَ الترابِ لا يعلمه إلا اللهُ ، إنها معاملٌ ، وكائناتٌ ، وعملياتٌ كيماويّةٌ معقّدةٌ ، ومعادلاتٌ ، ونحن لا ندري ، ليس لنا إلا أن نقطفَ الثمارَ ، ونأكلَها ، وأن نجنيَ الخضراواتِ ، ونأكلَها ، وأن نحصدَ المحاصيلَ ، ونأكلَها ، وعلى اللهِ الباقي ، قال تعالى :

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

خَلَقَ اللهُ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا ، وَمَا فَوْقَهَا ، وَمَا تَحْتَهَا ، وَمَا عَلَيْهَا مِنْ
أَجَلٍ أَنْ نَعْرِفَهُ ، فَإِذَا عَرَفْنَاهُ فَقَدْ حَقَّقْنَا الْهَدَفَ مِنْ خَلْقِنَا ، وَإِنْ لَمْ نَعْرِفْهُ فَيَا
حَسْرَةً عَلَيْنَا ، قَالَ سُبْحَانَهُ :

﴿يَحْزَنُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس : ٣٠] .

* * *

الجهاد في فلسطين

هذه صرخة قلب مجروح ، إنه نداء من أم من فلسطين ، تقول لولدها ، وهو في ريعان الشباب : يا بُنَيَّ ؛ الشهادة في سبيل الله شرف ، الشهادة في سبيل الله وسام ، وأنا اليوم مسرورة بك ، لأنني سأغدو أم شهيد ، ثم تقول : أناشد أخواتي الفلسطينيات أن يقفن من وراء أبنائهن ، وأزواجهن ، وإخوانهن ، وآبائهن يشاركنهن في الجهاد بالصبر ، والثبات ، وتربية الأبناء على موائد القرآن ، ليس حفظاً فحسب ، ولكن تطبيقاً ، وعملاً ، وأن تُشرق بالإيمان قلوبهن ، هذا الإيمان الذي سيدفعهن حتماً إلى مقارعة أعداء الله ، فإذا غرسنا بذرة الخير في الطفل فسوف يعرف ما له ، وما عليه ، وسيعرف كل معاني الخير ، ويتعلق بها ، وليس لنا خير في هذه الدنيا سوى ديننا ، الذي هو عصمة أمرنا كله ، وبعد ذلك لا يصعب عليه شيء ، وسيحمل سلاحه ، ويحمي هذا الدين .

أناشدكن يا أخواتي ، يا نساء فلسطين الصابرات الصامدات ، ألا تبخلن على الله بفِلذات أكبادكن ، فوالذي نفسي بيده الله أرحم منا بهم ، فلا تبخلن على أبنائكن بالجنة ، التي وعدّها الله للشهداء والمجاهدين ، فهذه فرحتنا نحن ، وأبنائنا ، وإخواننا ، وأزواجنا ، وآباؤنا أن نفوز بإحدى الحسنيين .

ذَكَرْتَنَا هَذِهِ الْأُمُّ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي دَخَلَتْ أَحَدًا ، وَهِيَ تَقُولُ : « مَا فَعَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ فَاسْتَقْبَلَهَا مَنْ يُخْبِرُهَا بِاسْتِشْهَادِ وَلَدِهَا ، فَتَقُولُ : مَا فَعَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ مَعَ أَنَّ فَوَادَهَا يَنْبِضُ أَسَى وَحْزَنًا عَلَى وَلَدِهَا ، وَلَكِنْ هَدَفَهَا وَأَمَلَهَا وَعُيُونُهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِالْهَدَفِ الْأَسْمَى ، وَيَأْتِيهَا آخِرُ لِقَا لِقَوْلِ لَهَا : لَقَدْ اسْتُشْهِدَ زَوْجُكَ ، فَتَقُولُ : مَا فَعَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ وَثَالِثٌ يَقُولُ لَهَا : لَقَدْ اسْتُشْهِدَ أَخُوكَ ، وَتَجِيبُ : مَا فَعَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ؟ وَتَأْتِي لِتُكْحَلَ عَيْنِهَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ حَيٌّ يَرْزُقُ ، فَتَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَتَدْمَعُ عَيْنَاهَا ، إِنَّهَا دَمَوْعُ الْإِيمَانِ ، وَالْوَفَاءِ لِهَذَا الدِّينِ ، وَلصَاحِبِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ ، إِنَّهَا دَمَوْعُ الْحُبِّ وَالتَّضَحِّيَةِ ، تَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، وَتَقُولُ : كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَا أَبَالِي إِذَا سَلِمْتَ بِمَنْ هَلَكَ » (١) .

ذَكَرْتَنَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ بِالْخِنْسَاءِ ، الَّتِي اسْتَقْبَلَتْ أَرْبَعَةً مِنْ أَوْلَادِهَا
شُهَدَاءَ ، فَقَالَتْ كَلِمَتَهَا الرَّائِعَةَ الشَّهِيرَةَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَّفَنِي
بِاسْتِشْهَادِهِمْ جَمِيعاً ، وَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ أَنْ يَجْمَعَنِي مَعَهُمْ فِي مَسْتَقَرِّ رَحْمَتِهِ » .

ذَكَرْتَنَا هَذِهِ الْمَرْأَةُ بِأَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ،
حِينَمَا جَاءَهَا وَلَدُهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يَقُولُ لَهَا : « يَا أُمُّاهُ لَا أَخَافُ مِنْ
الْقَتْلِ ، وَلَكِنَّهُمْ لُؤْمَاءُ ، فَإِنْ قَتَلُونِي صَلِّبُونِي ، فَقَالَتْ : يَا بُنَيَّ اذْهَبْ ،
فَإِنَّ الشَّاةَ لَا يَضُرُّهَا سِلْحُهَا بَعْدَ ذُبْحِهَا » .

بطولة أخرى .

زهرۃ ندیۃ فوآحۃ ، وغصنُ بانٍ غضّ ، وقطرۃ ندی فی فجرِ یوم

(۱) انظر تاريخ الطبري (۷۴ / ۲) .

رَبِيعِيّ ، تربطُ الحزامَ الناسفَ على الخاصرةِ الفتيةِ ، وتغطيه بثوبِ الإباءِ ، ورفضِ الضيمِ ، وتنسلُّ من بينِ طوابيرِ الجُفَاةِ ، غلاظِ الأكبادِ ، المُدَجَّجِينَ بالسلاحِ ، من مُجرِميِ العدوِّ ، تنسلُّ مُودَّعةً الأرضَ بأخمصِ قَدَمَيْهَا ، سائرةً وبكلِّ ثقةٍ إلى الموتِ والتمزيقِ ، رافضةً إتاحةَ الفرصةِ للعاطفةِ ، وللذكرياتِ ، ولخفقاتِ القلبِ أنْ تعبثَ بخطواتها المُتروِّيةِ ، السائرةِ إلى النهايةِ التي تقطعها من كلِّ صلةٍ بهذا العيشِ ، وأمانيه وأحلامه ، وأمها وأبيها ، وإخوتها ، وأخواتها ، وصديقاتها ، والحديقةِ ، واللعبةِ ، ضاربةً ، وفي آخر لحظةٍ مثلاً يُخْتَدَى ، وقُدوةٍ خالدةٍ ، قائلةً لأُمِّها : غداً يَأْتِيكَ خطابٌ مِنِّي .

فإلى أصحابِ الزُنُودِ السُّمْرِ ، والعصلاتِ المفتولةِ ، أليس عاراً وشناراً ، وفضيحةً ، وذبحاً للرُّجولةِ ؛ أنْ تنهضَ طفلةَ بريئةٍ وادعةٍ ، نظرتْ إلى الموقفِ بعَيْنِ جَرَدَتِهَا مِنْ كُلِّ أنانيةٍ وطمعٍ ، فَقَدَّرَتْ أَنَّهُ لَا بَدْ مِنْ عملٍ شيءٍ لِمَجْدِ هذه الأُمّةِ ودينها ، وكأنّها تقولُ للكرامِ الأحرارِ ، العظماءِ مِنْ أبناءِ أمتها : هذا هو لَحْمِي وَعَظْمِي ، وَعَصَبِي وَدَمِي ، وَخَصَلَاتُ شَعْرِي ، أَجْعَلُهُ لثاماً يَغْطِي وَجْهَ القاعدينَ عَنِ البذلِ ، الْمُؤَثِّرِينَ لِلدَّعةِ والرَّاحةِ .

قال معاذُ بْنُ عَفْرَاءَ : « يا رسولَ الله ، ما يُضْحِكُ الرَّبَّ مِنْ عَبْدِهِ ؟ قال : غَمَسُهُ يَدُهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِراً ، قال : فَأَلْقَى دِرْعاً كَانَتْ عَلَيْهِ ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ » (١) .

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٢٢٣/٤) ، وتاريخ الطبري (٣٣/٢) ، والسيرة النبوية لابن هشام (١٧٥/٣-١٧٦) .

عن أبي إسحاق السبيعي قال : سمعتُ رجلاً سأل البراء بن عازب :
« أَرَأَيْتَ لو أَنَّ رجلاً حَمَلَ على الكَتِيبَةِ ، وهم ألفٌ ، أَلْقَى بِيَدِهِ إلى
التَّهْلُكَةِ ؟ قال البراءُ : لا ، ولكنَّ التَّهْلُكَةَ أَنْ يَصِيبَ الرجلُ الذَّنْبَ فيلْقَى
بِيَدِهِ إلى التَّهْلُكَةِ ، ويقول : لا توبةَ لي » (١) .

« ولم يُنْكَزْ أبو أيُّوبَ الأنصاريُّ ، ولا أبو موسى الأشعريُّ أَنْ يَحْمَلَ
الرجلُ وَحْدَهُ على العسكرِ الجَرَّارِ ، وَيُثْبِتَ حتى يُقْتَلَ » (٢) .

وقصة أبي أيوب في القسطنطينية معروفة مشهورة ، فعَنْ أَسْلَمَ أَبِي
عِمْرَانَ التَّجِيبِيَّ قَالَ : « كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ
الرُّومِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرُ ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ
بْنُ عَامِرٍ ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
عَلَى صَفِّ الرُّومِ ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ ، فَصَاحَ النَّاسُ ، وَقَالُوا :
سُبْحَانَ اللَّهِ ! يُلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؟ فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ :
يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَتَاوَلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ
الْآيَةُ فِينَا - مَعَشَرَ الْأَنْصَارِ - لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ ، فَقَالَ
بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ
أَعَزَّ الْإِسْلَامَ ، وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ ، فَلَوْ أَقْمَنَّا فِي أَمْوَالِنَا ، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ
مِنْهَا ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا : ﴿ وَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ ، فَكَانَتْ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ عَلَى الْأُمَرَاءِ ،

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٤٠٨/٥) ، وفتح الباري (١٥٨/٨) .

(٢) المحلى لابن حزم (٢٩٤/٧) .

وإِصْلَاحُهَا ، وَتَرْكُنَا الْغَزْوَ ، فَمَا زَالَ أَبُو أُيُوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ »^(١) .

وفي بعض المصادر أن البراء بن مالك أمر أصحابه أن يحملوه على ترس على أسنة رماحهم ، ويلقوه في الحديقة ، فافتحهم إليهم ، وشد عليهم ، وقاتل حتى فتح باب الحديقة ، وجرح يومئذ بضعة وثمانين جرحاً .

وقد جاء في صحيح مسلم من حديث صهيب في قصة أصحاب الأخدود ، قول الغلام للملك : « إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمُرُكَ بِهِ ، قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جَذَعٍ ، ثُمَّ تَحْذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ تَضَعُ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قُلْ : بِاسْمِ اللَّهِ ، رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ ارْمِنِي ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جَذَعٍ ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِاسْمِ اللَّهِ ، رَبِّ الْغُلَامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَضَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ ، فَمَاتَ ، فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ ، فَأَتَى الْمَلِكُ ، فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذْرُكَ ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ »^(٢) .

فهذا الغلام قد أُرشدَ الملك إلى الطريقة التي يتحقق بها قتله ، ثم نفذها الملك ، وتحقق بها ما رمى إليه الغلام من المصلحة العظيمة

(١) رواه أبو داود (٢٥٠٨) ، والترمذي (٢٩٧٢) .

(٢) صحيح مسلم (٣٠٠٥) .

العامة ، من إيمان الناس كلهم بالله ، بعدما بلغهم خبره ، وما أجرى الله له من الكرامة .

وفي حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « الَّذِينَ يَلْقَوْنَ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ فَلَا يَلْفِتُونَ وَجُوهَهُمْ حَتَّى يُمُتَّلُوا ، أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ^(١) فِي الْعَرْفِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ ، إِنْ رَبُّكَ إِذَا ضَحِكَ إِلَى قَوْمٍ فَلَا نَجَاسَةَ عَلَيْهِمْ »^(٢) .

كما روى ابن أبي شيبه عن مُدْرِكِ بْنِ عَوْفٍ الْأَحْمَسِيِّ قَالَ : « كُنْتُ عِنْدَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ التُّعْمَانِ بْنِ مُقَرِّنٍ ، فَسَأَلَهُ عُمَرُ عَنِ النَّاسِ ، فَقَالَ : أُصِيبَ فُلَانٌ ، وَفُلَانٌ ، وَآخَرُونَ لَا أَعْرِفُهُمْ ، فَقَالَ عُمَرُ : وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُهُمْ ، فَقَالُوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَجُلٌ تَسَرَّى نَفْسُهُ ، فَقَالَ مُدْرِكُ بْنُ عَوْفٍ : ذَاكَ وَاللَّهِ خَالِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، زَعَمَ النَّاسُ أَنَّهُ أَلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَقَالَ عُمَرُ : كَذَبَ أَوْلَيْكَ ، وَلَكِنَّهُ مِمَّنْ اشْتَرَى الْآخِرَةَ بِالدُّنْيَا »^(٣) .

وقال محمد بن الحسن الشيباني في السير : « أَمَا مَنْ حَمَلَ عَلَى الْعَدُوِّ فَهُوَ يَسْعَى فِي إِعْزَازِ الدِّينِ ، وَيَتَعَرَّضُ لِلشَّهَادَةِ الَّتِي يَسْتَفِيدُ بِهَا الْحَيَاةَ الْأَبَدِيَّةَ ، فَكَيْفَ يَكُونُ مُلْقِيًا نَفْسَهُ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؟ ثُمَّ قَالَ : لَا بَأْسَ بِأَنْ

(١) [يتلبطون معناه هنا يضطجعون ، والله أعلم] ، الترغيب والترهيب (٢٠٩/٢) ، وقال ابن الأثير : [أي يتمرغون] ، النهاية في غريب الحديث (٢٢٦/٤) ، وقال ابن منظور في لسان العرب ، مادة لبط : [أي يتمرغون ، ويضطجعون] .

(٢) مصنف ابن أبي شيبه (٢٠٧/٤) ، والطبراني في الأوسط (٢٥٧/٤) ، والترغيب والترهيب (٢١٣٠) للمنزدي .

(٣) مصنف ابن أبي شيبه (٣٣٧٨٩) ، وسنن البيهقي الكبرى (٤٥/٩) .

يَحْمِلُ الرَّجُلُ وَحْدَهُ ، وَإِنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُقْتَلُ ، إِذَا كَانَ يَرَى أَنَّهُ يَصْنَعُ شَيْئًا ، فَيَقْتُلُ أَوْ يَجْرَحُ أَوْ يَهْزِمُ ، فَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَمَدَحَهُمْ عَلَى ذَلِكَ « (١) .

وقيل لأبي هريرة : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ هِشَامَ بْنَ عَامِرٍ لَمَّا التَقَى الصَّفَّانِ حَمَلَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ ، وَأُلْقِيَ بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : « وَمِمَّ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ » « (٢) .

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ فِي « مَسْأَلَةِ حَمْلِ الْوَاحِدِ عَلَى الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الْعَدُوِّ أَنَّ الْجُمْهُورَ صَرَّحُوا بِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لِفَرِطٍ شَجَاعَتُهُ ، وَظَنَّهُ أَنَّهُ يُزْهِبُ الْعَدُوَّ بِذَلِكَ ، أَوْ يُجَرِّئُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ فَهُوَ حَسَنٌ » (٣) .

وَمَتَى كَانَ مُجَرَّدَ تَهَوُّرٍ فَهُوَ مَمْنُوعٌ ، وَلَا سَيِّمًا إِنْ تَرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ إِضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ .

وَمِنَ التَّضْلِيلِ وَالتَّحْيِيزِ فِي الْمَصْطَلَحِ أَنْ يُسَمَّى هَذَا « إِرْهَابًا » ، إِذَا كُنَا سُنْجَارِي الصِّيغَةِ الْعَالِمِيَّةِ فِي إِدَانَتِهِ ، أَمَّا إِذَا صَحَّ لَنَا تَقْسِيمُ الْإِرْهَابِ إِلَى إِرْهَابٍ مَذْمُومٍ ، وَإِرْهَابٍ مَحْمُودٍ ، فَهَذَا مُمْكِنٌ ، وَلَيْكُنِ الدِّفَاعُ عَنِ الْأَوْطَانِ ، وَالْأَعْرَاضِ ، وَالْأَدْيَانِ مِنَ الْإِرْهَابِ الْمَحْمُودِ :

(١) انظر المبسوط للسرخسي (١٥٤/٢٤) ، ذكر القرطبي في تفسيره نحوه عن بعض المالكية (٣٦٣/٢) .

(٢) تفسير الطبري (٣٢١/٢) ، وابن كثير (٢٤٨/١) .

(٣) فتح الباري (١٨٥/٨) .

﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، والمسألة بكلِّ حال هي مسألة مُضْطَلَح .

إنَّ الحديثَ عن القوة النابعة مِنَ الضَّعْفِ ليس دعوةً إلى الرُّضَى بالضَّعْفِ ، أو السكوتِ عنه ، بل هو دعوةٌ لاستشعارِ القوَّةِ حتى في حالة الضَّعْفِ ، إذاً يجبُ أنْ نبحثَ في كلِّ مظنةٍ ضعفٍ عن سببِ قوَّةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أخلصَ المسلمون في طلب ذلك لوجدوه ، ولصار الضعفُ قوَّةً ، لأنَّ الضعفَ ينطوي على قوَّةٍ مستورةٍ يؤيِّدها اللهُ بحفظه ورعايته ، فإذا قوَّةُ الضعفِ تهذُّ الجبالَ ، وتذكُّ الحصونَ ، أنتَ قويٌّ ، وهذا سرُّ ضعفك ، وأنا ضعيفٌ ، وهذا سرُّ قوتي !

لقد أَرْسَلَ عبدُ اللهِ بنُ المُباركِ إلى الفضيلِ بنِ عِيَّاضٍ رسالةً يَنْصَحُهُ فيها بالجهادِ ، وكان الفضيلُ عَابِداً زَاهِداً وَرِعاً ، وكان ابنُ المُباركِ مجاهداً لا تَفُتُّرُ هِمَّتُهُ فِيهِ ، فقال فيما نصَّح به ، ونِعَمَ ما به نصَّح^(١) :

يَا عَابِدَ الْحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ بِالْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَخُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يَتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّيْحَةِ تَتَعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَابِرُونَ رَهْجٌ^(٢) السَّنَابِكُ^(٣) وَ الْغُبَارُ الْأَطْيَبُ

(١) سير أعلام النبلاء ، للذهبي (٤١٢/٨) ، وتفسير ابن كثير (٤٤٨/١) .

(٢) [الرَّهْجُ الْغُبَارُ] ، النهاية في غريب الحديث (٢٨١/٢) .

(٣) [السُّنْبُكُ طَرَفُ الْحَافِرِ ، وَجَانِبَاهُ مِنْ قُدَمٍ ، وَالْجَمْعُ سَنَابِكُ] ، (لسان العرب ، مادة سنبك) .

وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالٍ نَبِيًّا
لَا يَسْتَوِي وَغَبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي
هَذَا كِتَابِ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا
قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تُلْهَبُ
لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يَكْذِبُ

فَمَا سُبُلُ الْجِهَادِ الْمُتَاحَةِ لَنَا دَعْمًا لِجِهَادِ إِخْوَتِنَا فِي الْأَرَاضِي الْمُحْتَلَّةِ ؟

مِنْ مَوْقِعٍ مَعْلُومَاتِيٍّ وَرَدَّ الْإِخْصَاءُ التَّالِي : إِنَّ شَرَكَةَ وَاحِدَةً مِنْ شَرَكَاتِ
الدُّخَانِ فِي بَلَدٍ يَدْعُمُ الْعَدُوَّ تَرْبِخُ مِنْ مَبِيعَاتِهَا لِلْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ ثَمَانِينَ
مِلْيُونَ دُولَارٍ يَوْمِيًّا ، يَعُودُ عَلَى الْكِيَانِ الصَّهْيُونِيِّ مِنْهَا تِسْعَةُ مِلْيَيْنِ دُولَارٍ
كُلَّ يَوْمٍ بِحَسَبِ اتِّفَاقٍ بَيْنَهُمَا .

فَمَا الْقَوْلُ فِي أَرْبَاحِ بَقِيَّةِ شَرَكَاتِ السَّجَائِرِ ، وَشَرَكَاتِ الْمَطَاعِمِ
الْمُنْتَشِرَةِ فِي شَتَّى بَقَاعِ الْعَالَمَيْنِ الْعَرَبِيِّ وَالْإِسْلَامِيِّ ، وَشَرَكَاتِ
الْمَشْرُوبَاتِ الْغَازِيَةِ الَّتِي تَحَقِّقُ أَرْبَاحًا فَلَكِيَّةً ، وَشَرَكَاتِ السِّيَّارَاتِ ، الَّتِي
يَتَصَدَّرُ الْإِعْلَانُ عَنْهَا مَعْظَمَ الْمَحَطَّاتِ الْفَضَائِيَّةِ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ ؟

لَوْ لَمْ تَتَلَقَّ تَوْجِيهًا مِنْ قِيَادَةِ بَلَدِكَ بِضُرُورَةِ الْمَقَاطَعَةِ ، وَالتَّمَسُّ لَهَا
الْعُذْرَ إِذَا شِئْتَ ، أَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَمْتَنِعَ ذَاتِيًّا عَنْ شِرَاءِ بَضَاعَةٍ مِنْ صُنْعِ بَلَدٍ
يَدْعُمُ الْعَدُوَّ الْمَجْرَمَ بِأَسْلِحَةٍ فَتَاكِئَةٍ يُبِيدُ بِهَا الشَّعْبَ الْفِلَسْطِينِيَّ ، وَتَسْأَلُ
بَعْدَهَا : مَاذَا نَفْعُ لِنُصْرَةِ إِخْوَتِنَا فِي فِلَسْطِينَ ؟ وَهَلْ تَنْظُرُ أَنَّ أَحَدًا يُجْبِرُكَ
عَلَى شِرَاءِ هَذِهِ الْبَضَائِعِ ؟ أَوْ يَسْأَلُكَ : لِمَ لَمْ تَشْتَرِ ؟ هَذَا نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ
لِدَعْمِ جِهَادِ إِخْوَتِكَ فِي الْأَرَاضِي الْمُحْتَلَّةِ ، وَهُوَ مُتَاحٌ لَكَ .

يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : « مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا

في سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَارِيًّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا » (١) .

أَلَا تَسْتَطِيعُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ أَنْ تَقْتَطِعَ مِنْ مَالِكَ مِبْلَغًا تُرْسِلُهُ فِي قَنَاةٍ نَظِيفَةٍ ، آمِنَةٍ ، بَعْدَ الْبَحْثِ عَنْهَا ، إِلَى إِخْوَتِكَ فِي الْأَرَاضِي الْمَحْتَلَّةِ . وَقَدْ هُدِّمَتْ بِيُوتُهُمْ ، وَدُمِّرَتْ مَمْلَكَاتُهُمْ ، وَجُرِّفَتْ مَزَارِعُهُمْ ، وَأُتْلِفَتْ أَدْوِيَّتُهُمْ ، وَأُعْذِمَ رِجَالُهُمْ رَمِيًّا بِالرَّصَاصِ ، وَسِيقَ أَبْنَاؤُهُمْ إِلَى السَّجُونِ وَالْمَعْتَقَلَاتِ ، وَقُطِعَتْ عَنْهُمْ الْكَهْرَبَاءُ ، فَتَلِفَتْ مَذَخَرَاتُهُمْ الْغَذَائِيَّةُ ، وَقُطِعَتْ عَنْهُمْ الْمِيَاهُ ، فَشَرَبُوا الْمِيَاهَ الْمَالِحَةَ ، أَتَهْنَأُ فِي حَيَاتِكَ ، وَأَنْتَ مُعَافَى فِي أَهْلِكَ وَوَلَدِكَ ، آمِنًا فِي بَيْتِكَ ، عِنْدَكَ قُوَّةٌ يَوْمُكَ ، وَإِخْوَتُكَ فِي الْأَرَاضِي الْمَحْتَلَّةِ يَعَانُونَ مَا يَعَانُونَ ؟ تَسْمَعُ بِأُذُنِكَ أَخْبَارَهُمْ ، وَتَرَى بِعَيْنَيْكَ أَحْوَالَهُمْ ، إِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلْ هَمَّهُمْ ، وَلَمْ تَتَحَرَّكْ نَحْوَهُمْ ، فَأَنْتَ أَوَّلَا لَسْتَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، بِدَلِيلِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ لَا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ لَا يُصْبِحُ وَيُمْسِي نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، وَلِإِمَامِهِ ، وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ » (٢) .

وَإِذَا ظَنَنْتَ أَنَّ الَّذِي أَصَابَهُمْ لَنْ يَصِيكَ فَأَنْتَ وَاهِمٌ ، لِأَنَّ أَطْمَاعَ أَعْدَائِنَا لَا تَقْفُ عِنْدَ حَدٍّ ، وَكُتُبُ زَعْمَائِهِمْ تَصْرُحُ بِأَطْمَاعِهِمْ ، مِنْ دُونِ مُوَارَبَةٍ (٣) ، أَوْ حِيَاءٍ ، وَتَقُولُ بَعْدَهَا : مَاذَا أَفْعَلُ ؟ لَيْتَنِي أَكُونُ مَعَهُمْ فَأَفُورَ

(١) البخاري (٢٦٨٨) ، ومسلم (١٨٩٥) عن زيد بن خالد الجهني .

(٢) الطبراني في المعجم الصغير عن حذيفة بن اليمان (٩٠٧) .

(٣) مواربة ، أي من غير دهاء ، [والمواربة مأخوذة من الإرب ، وهو الدهاء] (لسان العرب ، مادة ورب) ، وهذا لأن الأعداء يعملون الآن على مرأى من العالم كله ، فكيدهم يئن كالشمس في الظهيرة .

فوزاً عظيماً ، يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « مَنْ خَلَفَ غَازِيَا فِي أَهْلِهِ فَقَدْ غَزَا »^(١) .

أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ عَدَدًا كَبِيرًا مِنْ أَبْنَاءِ إِخْوَتِنَا فِي الْأَرَاضِي الْمُحْتَلَّةِ يَدْرُسُونَ فِي جَامِعَاتٍ عَرَبِيَّةٍ وَأَجْنِبِيَّةٍ ، قُطِعَتْ عَنْهُمْ الْإِمْدَادَاتُ مِنْ أَهْلِهِمْ بِسَبَبِ سِيَاسَةِ الْحِصَارِ وَالْإِفْقَارِ ، الَّتِي يَمَارِسُهَا الْعَدُوُّ الصَّهْيُونِيُّ عَلَيَّ أَهْلِنَا فِي فَلَسْطِينَ ؟ وَهَلْ تَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا خَلَفْتَ هَؤُلَاءِ الْأَهْلَ فِي أَبْنَائِهِمْ بِخَيْرٍ ، فَلَكَ مِثْلُ أَجْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَتَقُولُ بَعْدَهَا : مَاذَا أَفْعَلُ ؟ لِيَتَنِي أَكُونَ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا .

أَلَا يَقْتَضِي انْتِمَاؤُكَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي حِينَمَا اسْتَجَابَتْ لِرَبِّهَا جَعَلَهَا اللَّهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، وَالَّتِي حِينَمَا قَصَّرَتْ فِي آدَاءِ رِسَالَتِهَا تَطْبِيقًا وَدَعْوَةً ذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ، وَلَقِيتُ الْغَيَّ الَّذِي تَوَعَّدَهَا اللَّهُ بِهِ ، حَيْثُ أَضَاعَتِ الصَّلَاةَ ، وَاتَّبَعَتِ الشَّهَوَاتِ ، أَلَا يَقْتَضِي انْتِمَاؤُكَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي لَا يُذْرَى أَوَّلُهَا خَيْرٌ أَمْ آخِرُهَا ، أَنْ تَشَارِكَ إِخْوَانَكَ فِي فَلَسْطِينَ مُصَابِهِمْ ، فَتُلْغِي كُلَّ أَلْوَانِ الْبَذَخِ ، وَالتَّرَفِ ؟ عَلِمَا أَنَّ هَذَا السُّلُوكَ يَتَنَافَى مَعَ مَنْهَجِ الْمُؤْمِنِ ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي أَحْسَنِ حَالٍ ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ جِيرَانُكَ الْمُؤْمِنُونَ فِي أَسْوَأِ حَالٍ ، فَهَذِهِ الْحَفَلَاتُ الَّتِي تَقَامُ فِي رَدْمَاتِ الْفَنَادِقِ ، وَفِي أَبْهَاءِ الْمَطَاعِمِ ، وَفِي حَدَائِقِ الْمَزَارِعِ ، وَالَّتِي تَبْذُلُ فِيهَا الْأَمْوَالُ الطَّائِلَةُ فِي مَنَاسِبَاتٍ ، وَفِي غَيْرِ مَنَاسِبَاتٍ ، فَتَحَوَّلَ هَذِهِ الْأَمْوَالُ الطَّائِلَةُ لِمَنْ هُذِمَتْ بِيُوتُهُمْ ، وَقُتِلَ رِجَالُهُمْ ، وَأُسِرَ شَبَابُهُمْ ، وَهُمْ قَابِعُونَ فِي الْعَرَاءِ ،

(١) البخاري (٢٦٨٨) ، ومسلم (١٨٩٥) عن زيد بن خالد الجهني .

لا يجدون مَنْ يَنْصِفُهُمْ ، ولا مَنْ يَرْحَمُهُمْ ؟ أَلَمْ يَصِلْكَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحِمِهِمْ ، وَتَوَادُّهِمْ ، وَتَعَاطِفِهِمْ ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى »^(١) ؟ وتقول بعد هذا : ماذا أفعل ؟ ويا ليتني كنت معهم فَأَنْوَزَ فوزاً عظيماً!

جاءَ في حاشية الدسوقي : « مَنْ كَانَ يَمْلِكُ فَضْلَ طَعَامٍ ، وَرَأَى جَائِعاً ، وَتَرَكَهُ حَتَّى مَاتَ ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الطَّعَامِ مُتَأَوِّلاً ، أَيْ يَظُنُّهُ لَا يَمُوتُ ، فَإِنَّهُ يَدْفَعُ دِيَّتَهُ مِنْ عَاقِلَتِهِ - أَقَارِبِهِ - وَإِنْ كَانَ عَامِداً فَقَدْ جَاءَتْ رِوَايَتَانِ فِي الْمَذْهَبِ : إِحْدَاهُمَا : أَنَّهُ يَدْفَعُ دِيَّتَهُ مِنْ مَالِهِ الْخَاصِّ ، وَالرَّوَايَةُ الثَّانِيَةُ : أَنَّهُ يُقْتَصُّ مِنْهُ عَلَى أَنَّهُ قَاتِلٌ »^(٢) .

بَقِيَ بَابٌ رَابِعٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجِهَادِ الْمُفْتَحَةِ أَمَامَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَّا ؛ هُوَ بَابُ الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ ، وَالتَّضَرُّعِ لَهُ ، وَالتَّذَلُّلِ عَلَى أَعْتَابِهِ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟ »^(٣) ، أَفَلَا تَمْلِكُ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ أَنْ تَتَوَبَّ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ، ثُمَّ تَدْعُو اللَّهَ بِصِدْقٍ ، وَتَضَرَّعَ ، وَإِخْلَاصٍ لِإِخْوَانِكَ فِي فِلَسْطِينَ ، أَنْ يَنْصَرِّهَ عَلَى أَعْدَائِهِمْ ، أَعْدَاءِ اللَّهِ ، وَأَعْدَاءِ الْحَقِّ ، وَأَعْدَاءِ الْخَيْرِ ، وَأَعْدَاءِ الْبَشَرِيَّةِ ، أَعْدَاءِ الْحَيَاةِ ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي

(١) البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٥) ، وغيرهما .

(٢) حاشية الدسوقي (٢٤٢/٤) ، بتصرف يسير .

(٣) البخاري (١٠٩٤) ، ومسلم (٧٥٨) ، وغيرهما .

البلاد ، فأكثرُوا فيها الفسادَ ؟ فاسألِ اللهَ في دعائك أنْ يُصَبَّ عليهم سَوَطُ عَذَابٍ ، إِنَّ رَبَّكَ لِبَالِمِ رَصَادٍ .

قال تعالى :

﴿ وَفَضَّلْنَا إِيَّاكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَنُفَسِّدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝١٦٦ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ۝١٦٧ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝١٦٨ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۝١٦٩ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ۝١٧٠ ﴾ [الاسراء : ١٠٤-١٠٧] .

وقال سبحانه :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۝٤٢ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

وقال :

﴿ لَا يَغْنَثُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝١٩٦ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٩٧ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ۝١٩٨ ﴾ [آل عمران : ١٩٦-١٩٨] .

ثمَّ إنني لأَسْمَحُ لنفسي أنْ أذكرَ حقيقةً مرَّةً لِتَضْحُوكَ الرؤوسُ مِنْ وَهْمٍ مُرِيحٍ : هؤلاء الأعداءُ ؛ الأقاربُ ، والأباعدُ ، حققوا شروطاً صعبةً جداً ، بنوا بها قوتهم ، خلالِ مئاتٍ مِنَ السنينَ ، فأملوا بسببِ قوتهم إرادتهم ، وثقافتهم على بقيَّةِ الشعوبِ ، فأفسدوها ، وجعلوا أعزَّةَ أهلها أَذَلَّةً .

ونحنُ المسلمون يجب علينا من خلال الأمر القرآني لنا أن نعدَّ لهم ما نستطيع من قوة ، بمفهوم القوة الواسع ، فأُسْرُنَا ينبغي أن تتَماسَكَ ، وأمهاتنا ينبغي لهنَّ أن يَتَفَرَّغْنَ لتربية أولادهنَّ ، وطالِبُنَا ينبغي أن يتفَوَّقَ ، ومُعَلِّمُنَا ينبغي له أن يَحْمِلَ رسالة سامية يسعى لتحقيقها ، وعامِلُنَا ينبغي أن يُتَقَنَّ ، وفلاحُنَا ينبغي أن يَرْتَبِطَ بأرضه ليزرعها ، وموظَّفُنَا ينبغي أن نعطيَه حقَّه ، وينبغي له أن يتفانى في خدمة دافعي الضرائب ، وقاضِينَا ينبغي أن يعدل ، وعامِلُنَا ينبغي أن يُؤثِّرَ خدمة أمته على حظوظه من الدنيا ، وداعِيتُنَا ينبغي أن ينصح ، لا أن يمدح ، وضابطُنَا ينبغي له أن يوقن أنَّ المعركة مع العدوَّ قادمة لا محالة ، وأنَّ حديث العدوَّ عن لسلام مراوغة ، وكذب ، وكسب للوقت ، ليس غير ، وثرواتنا ينبغي أن تُستَخرَجَ ، ومصانِعُنَا ينبغي أن تتَطَوَّرَ ، وأرضنا ينبغي أن تُستَصلَحَ ، ومياهُنا ينبغي أن يُرشدَ استهلاكُها ، وهذا لا يكون إلا بإيمان بالله ، يَحْمِلُنَا على طاعته ، وإيمان باليوم الآخر يَحْمِلُنَا على ألاَّ يظلمَ بعضنا بعضاً ، وأن نطلبَ جزاءَ جُهدِنا وجهادِنا في الجنة ، وهذا نوعٌ من الجهاد ، لا تُقَطَّفُ ثمارُه عاجلاً بل آجلاً ، وحينَ تقولُ لطالبٍ : واصلْ دراستك ، وكنْ متفوقاً ، وخطِّطْ لسنواتٍ قادمة ، لتكونَ شيئاً مذكوراً في حياة الأُمّة ، ومستقبلها لا سَتَثْقَلُ هذا ، وآثَرَ سماعِ الأخبار ، وأن يكونَ مُنْفَعِلاً لا فاعِلاً ، إنَّ بعضَ الاندفاعِ قد يُضاعِفُ المعاناةَ بدلاً من حلِّها .

وها هنا يبرزُ معنى (الجهادِ) بمفهومِهِ الواسع الذي هو بذلُ أقصى الوُسْعِ ، وغايته ، واستفراغُ الطاقة في تحصيلِ المراد ، وإنَّ الغفلةَ عن المستقبل ستَجْعَلُنَا مشغولين أبداً بإطفاءِ الحرائقِ هنا وهناك عن العملِ

الجاد الذي يخففُ المعاناةَ عن أجيالنا اللاحقة .

وإن علاج الجرح المفتوح على أهميته يجب ألا ينسينا التفكير في مستقبل أجيالنا التي سوف تتساءل : هل تركنا لها شيئاً آخر غير الجراح ؟ ! ينبغي أن يفكر الفرد الواحد في الموقع الذي يُفرغ فيه طاقته ، ويؤدي من خلاله دوره ورسالته ، وبتحديد هدفه يبدأ بالمسير إليه ، وبخطى ثابتة يقطع مراحل منه ، فيكون قد رسم الهدف ، وحدد الطريق ، وبدأ السعي . . وهذا يوصل وفق السنة الربانية إلى الهدف ، ومن ثم تتزايد الأعداد الإيجابية التي تمارس دورها على نحو صحيح ، بدلاً من أن تكون هذه الأعداد تسأل فقط : ماذا نعمل ؟ ثم لا تعمل شيئاً .

ولا ينبغي أن يكون تفكير الفرد الواحد دائماً هو أن يرفع المعاناة عن الأمة كلها ، فالواحد القادر على رفع المعاناة كلها هو الله عز وجل .

فيكفي أن يستفرغ المرء جهده ، وطاقته ، ولا يدخر منها شيئاً في موقع معين ، ثم لا يضيره أن تتحقق النتائج على يد غيره بعد وضع الأساس وبدء البناء .

إن رفع المعاناة عن الأمة يتطلب عدداً كبيراً من المؤمنين الواعين المخلصين المضحين في جميع الميادين ، وهذا ما يجب السعي إليه ، ولأن ينجح فرد في إعداد مجموعة من المواطنين إعداداً إيمانياً ، وعلمياً ، وعقلياً ، وخلقياً ، ونفسياً ، واجتماعياً ، وجسدياً أحب وأنفع من أن يُلقَى بنفسه في أتون نارٍ تقول : هل من مزيد ، إن النجاح يكمن في أن يستخدم المرء عقله قبل يده ، كما يفعل أعداؤنا .

الأندلسُ فلسطينُ العربِ الأولى ، دَهَمَهَا الخَطْبُ ، وفَعَلَ بها الفِرَنجَةُ ما يفعله الصهاينةُ اليومَ بالشعبِ الفلسطينيِّ ، فقال أحدُ شعرائها ، وهو أبو البقاء الرنديّ يَسْتَصْرِخُ المسلمين في المشرقِ ، وكأنَّ التاريخَ يعيدُ نفسه .

يَا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عُثْبَانُ
وَحَامِلِينَ سُيُوفَ الْهِنْدِ مُرْفَهَةً كَأَنَّهَا فِي ظِلَامِ النَّفْعِ نِيرَانُ
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَا لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عِزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ
كَمْ يَسْتَعِيثُ بَنَا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ قَتَلَى وَأَسْرَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْشَانُ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ فِي ثِيَابِ الذَّلِّ أَلْوَانُ
يَا رَبِّ أُمٍّ وَطِفْلٍ حِيلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تَفَرَّقَ أَزْوَاجٌ وَأَبْدَانُ
وَطِفْلَةٌ مِثْلُ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَمُرْجَانُ
يَقُودُهَا الْعِلْجُ^(١) لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً وَالْعَيْنُ بِأَكِيَّةٍ وَالْقَلْبُ حَبْرَانُ
لِمِثْلِ هَذَا يَبْكِي الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ

ومن الإعدادِ لعدونا الذي أُمِرْنَا بِهِ التعرفُ إلى أفكارِهِ وتصوراتِهِ ، وأهدافِهِ القريبة والبعيدة ، فمن هذا المُنْطَلَقِ قال شارون لصحفيٍّ صهيونيٍّ يهودي سنة (١٩٨٢) : « إِنَّهُ لَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ مِنْ تَرْوِمَانِ الَّذِي قَتَلَ نَصْفَ مليونِ يابانيٍّ بِقُبُورَئِهِ جَمِيلَتَيْنِ ، وربما سَيَكْرَهُنِي الْعَالَمُ ، وَسَيَخْشَانِي

(١) جاء في (لسان العرب مادة عِلْج) : [والعِلْجُ : الرجل من كفَّارِ الْعَجَمِ . . . والأُنثَى عِلْجَةٌ . . . والعِلْجُ : الكافر ؛ ويقال للرجل القوي الضخم من الكفار : عِلْجٌ] .

بَدَلًا مِنْ أَنْ أَشْتَكِيَ إِلَيْهِ ، وَرَبَّمَا يَخَافُ مِنْ ضَرْبَاتِي الْجَنُونِيَّةِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَعْجَبَ بِرُوحِي الْجَمِيلَةِ ، وَلِيرْتَجِفَ مِنِّي ، وَلِيَعَامِلَ بِلَدِّي كَبَلَدِ مَجَانِينَ ، وَلِيَقْلُ : إِنَّا مَتَوَحِّشُونَ ، وَإِنَّا نُمَثِّلُ خَطَرَ الْمَوْتِ لَجَمِيعِ الْجِيرَانِ ، وَإِنَّا جَمِيعًا غَيْرُ أَسْوِيَاءَ ، وَنَسْتَطِيعُ أَنْ نَغْرَسَ أَرْزَمَةً فَظِيْعَةً إِذَا قُتِلَ طِفْلٌ وَاحِدٌ مِنَّا ، وَأَنْ نَفْجَرَ بِسَبَبِ ذَلِكَ آبَارَ الْبَتْرُولِ فِي جَمِيعِ الشَّرْقِ الْأَوْسَطِ ! » .

وَقَدْ قَالَ مَدْنُوبٌ لَصَحِيفَةٍ ، وَهِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ أَشْهُرِ ثَلَاثِ صَحُفٍ فِي بَلَدٍ يَدْعُمُ أَعْدَاءَنَا : « لَا تَوْجَدُ قِيَمَ ، وَلَا أَخْلَاقَ ، وَإِنَّمَا هِيَ الْقُوَّةُ ، وَالْقُوَّةُ وَحْدَهَا ، وَمِنْذُ خَمْسَةِ آلَافِ سَنَةٍ ، وَالْقَوِيُّ يَفْرُضُ مَا يَرِيدُ ، وَكَلَّمَا أَمْعَنَّا فِي الْقُوَّةِ كَسَبْنَا أَكْثَرَ ، فَنَحْنُ حِينَمَا اسْتَأْصَلْنَا الْهِنُودَ الْحَمَرَ ، وَالْإِنْجِلِيزُ حِينَ اسْتَأْصَلُوا سَكَانَ أَسْتْرَالِيَا الْأَصْلِيِّينَ نَجَحْنَا فِي حَسْمِ الْمَعْرَكَةِ ، لَكِنَّ الْبَيْضَ فِي جَنُوبِ إِفْرِيقِيَا لَأَنَّهُمْ كَانُوا أَرْحَمَ ، وَلَمْ يَسْتَاصِلُوهُمْ بِالْكُلِّيَّةِ انْقَلَبُوا عَلَيْهِمْ ، وَانْتَصَرُوا فِي النِّهَايَةِ » .

أَرَأَيْتُمْ إِلَى الْفِكْرِ الَّذِي يَنْطَلِقُ مِنْهُ أَعْدَاؤُنَا ، وَمَنْ يُدْعِمُهُمْ ؟

وَنَحْنُ نَقُولُ اسْتِنَادًا إِلَى الْحَقِّ الَّذِي هُوَ وَحْيُ السَّمَاءِ : إِنَّ الْقُوَّةَ لَا تَصْنَعُ الْحَقَّ ، وَلَكِنَّ الْحَقَّ يَصْنَعُ الْقُوَّةَ ، وَالْقُوَّةُ مِنْ دُونِ حِكْمَةٍ تَدْمُرُ صَاحِبَهَا ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَالْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢] .

إِنَّ نَتَائِجَ الظُّلْمِ لَا يُمْكِنُ ضَبْطُ حَسَابَاتِهَا ، وَلَا تَقْدِيرُ رَدُودِ أَفْعَالِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ رَدُودَ فِعْلِ الْمُقَهْوَرِينَ ، وَالْمُظْلُومِينَ كَشَطَايَا الْقَنَابِلِ ، تَطِيشُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ، وَتَصِيبُ مِنْ غَيْرِ تَصْوِيبٍ .

إنَّ ردودَ أفعالِ المظلومين ، والموتورين لا يمكنُ التحكُّمُ في مداها ولا اتِّجاهِها ، وإنَّها تطيشُ متجاوزةً حدودَ المشروعِ والمعقولِ ، مخترقةً شرائعَ الأديانِ ، وقوانينَ الأوطانِ ، وتكفِّرُ أوَّلَ ما تكفِّرُ بهذه القوانينِ التي لم تضمن لها الحمايةَ أولاً ؛ فلذا لن تقبلَها حاميةٌ لأعدائها .

إنَّ العلاجَ الأوَّلَ والحقيقيَّ هو نزعُ قَتِيلِ الظلمِ ، الذي يشحنُ النفوسَ بالكراهيةِ والمَقَتِ ، ويُعمي البصائرَ والأبصارَ عن تدبُّرِ عواقبِ الأمورِ ، والنظرِ في مشروعاتِها أو نتائجها .

حين ينتظرُ الناسُ طويلاً قبل أن ينالوا حقوقَهم فَمِنَ المُرجَّحِ أَنَّهُم سيتصرفون في فترةِ الانتظارِ بطريقةٍ يصعبُ توقُّعُها .

والدليلُ على صِدْقِ هذا الكلامِ أَنَّهُم قالوا بلسانِ كبيرِ مجرميهم : ليستْ مشكلتنا اليومَ مشكلةَ أَمْنٍ ، بل هي مشكلةُ بقاءٍ ، لذلك جاءتْ ضربتهم ضربةً مَن فَقَدَ صَوَابَهُ .

إنَّ مَن لا يمتلكُ الفِكرَ المضادَّ للإرهابِ لا يستطيعُ أن يكفحَ الإرهابَ ، ولا أن يتحدثَ عنه ، ولا نستطيعُ أن نرى الإرهابَ الأصغرَ ، ونَتَعَامَى عن الإرهابِ الأكبرِ ، وأيُّ طَرَحٍ للإرهابِ في العالمِ ، ولا تكونَ دولة صهيون محوره الرئيسي فهو طَرَحٌ ناقصٌ غيرُ موضوعي .

* * *

قصة صلاح الدين الأيوبي

في غمرة الألم الساحق ، والاقتراب من اليأس القاتل ، وفي غفلة عن ماضي هذه الأمة المشرق ، ينبغي أن أضع بين يدي القراء صورة مشرقة من ماضينا ، لا أسوقها تغنياً بها ، فالاكتفاء بالتغني بالماضي من صفات الأغبياء ، بل لتكون باعثاً للأمل في النفوس ، ودافعاً لعملٍ مُثمر ، نستعيد به مجد أمتنا ، وتألق حضارتنا .

يوم تم فتح مدينة القدس من قبل المسلمين بقيادة البطل صلاح الدين ، وتم تحريرها من أيدي الغزاة الطامعين ، وها نحن أولاء نرى القلوب قد امتلأت بالفرح ، والوجوه قد عمتها البشور ، ونسمع الألسنة ، وقد لهجت بالشكر ، لقد علت الرايات ، وعُلقت القناديل ، ورفعت الأذان ، وتلى القرآن ، وصفت العبادات ، وأقيمت الصلوات ، وأديمت الدعوات ، وتجلت البركات ، وانجلت الكربات ، وزال العبوس ، وطابت النفوس ، وفرح المؤمنون بنصر الله .

وها نحن أولاء ندخل المسجد الأقصى ، فإذا المسلمون ، وفيهم صلاح الدين وجنوده يجلسون على الأرض ، لا تتفاوت مقاعدُهم ، ولا يمتاز أميرهم من أحدٍ منهم ، قد خشعت جوارحهم ، وسكنت حركاتهم ، هؤلاء الذين كانوا فرساناً في أرض المعركة ، استحالوا رهباناً خُشعاً ، كأن على رؤوسهم الطير ، في حرم المسجد ، وها هو ذا خطيب المسجد ، محيي الدين القرشي ، قاضي دمشق يصعد المنبر ، ويلقي خطبته ، ولو أُلقيت على رمال البيد لتحركت ، وانقلبت فرساناً ، ولو

سَمِعَتْهَا الصَّخُورُ الصُّمُّ لَانْبَثَقَتْ فِيهَا الْحَيَاءُ ، لَقَدْ افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٤٥] .

وها نحنُ أولاءِ نستمعُ إلى فقراتٍ من خطبته : « أَيُّهَا النَّاسُ ، بَشِّرُوا بِرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ ، الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقَصْوَى ، وَالدرجَةُ الْعُلْيَا ، لِمَا يَسِّرُهُ اللَّهُ عَلَى أَيْدِيكُمْ ، مِنْ اسْتِرْدَادِ هَذِهِ الضَّالَّةِ مِنَ الْأُمَّةِ الضَّالَّةِ ، وَرَدِّهَا إِلَى مَقَرِّهَا مِنَ الْإِسْلَامِ ، بَعْدَ ابْتِذَالِهَا فِي أَيْدِي الْمُعْتَدِينَ الْغَاصِبِينَ قَرِيباً مِنْ مِثْلَةِ عَامٍ ، وَتَطْهِيرِ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَدْنَى اللَّهُ أَنْ يُرْفَعَ ، وَيُذَكَّرَ فِيهِ اسْمُهُ ، مِنْ رَجَسِ الشِّرْكِ وَالْعُدْوَانِ » .

ثم قَالَ مُحَذِّراً : « إِيَّاكُمْ ؛ عِبَادَ اللَّهِ أَنْ يَسْتَرْلِكُمُ الشَّيْطَانُ ، فَيُخَيِّلَ إِلَيْكُمْ أَنَّ هَذَا النِّصْرَ كَانَ بِسَيُوفِكُمْ الْحَدَادِ ، وَخِيُولِكُمُ الْجِيَادِ . . لَا وَاللَّهِ ، وَمَا النِّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ . . فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ ، بَعْدَ أَنْ شَرَّفَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا الْفَتْحِ الْجَلِيلِ ، أَنْ تَقْتَرِفُوا كَبِيرَةً مِنْ مَنَاهِيهِ ، انصَرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ . . خُذُوا فِي حَسْمِ الدَّاءِ ، وَقَطِّعْ شَافَةَ الْأَعْدَاءِ » .

وها نحنُ أولاءِ نَخْرُجُ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، وَنَلْتَقِي بِأَحَدِ الْفِرَنْجَةِ الَّذِينَ شَهِدُوا فَتْحَ الْقُدْسِ ، وَهَا هُوَ ذَا يَحْدُثُنَا ، يَقُولُ : « إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يُؤْذُوا أَحَدًا ، وَلَمْ يَنْهَبُوا مَالًا ، وَلَمْ يَقْتُلُوا مُسَالِمًا ، وَلَا مُعَاهِدًا ، وَإِنَّ مَنْ شَاءَ مِنَّا خَرَجَ ، وَحَمَلَ مَعَهُ مَا شَاءَ ، وَإِنَّا بِنِعْمَةِ الْمُسْلِمِينَ مَا فَضَّلَ مِنْ أَمْتَعَتِنَا ، فَاسْتَرَوْهَا مِنَّا بِأَثْمَانِهَا ، وَإِنَّا نَغْدُو ، وَنَرُوحُ آمِنِينَ مَطْمَئِنِّينَ ، لَمْ نَرَ مِنْهُمْ إِلَّا الْخَيْرَ وَالْمَرْوَةَ ، فَهُمْ أَهْلُ حَضَارَةٍ وَتَمَدُّنٍ ، وَصَدَقَ مَنْ قَالَ : مَا عَرَفَ التَّارِيخُ فَاتِحًا أَرْحَمَ مِنْهُمْ » .

يقول الله عز وجل في محكم كتابه :

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، فمن يدري أن هذه المحنة الشديدة التي يمرُّ بها المسلمون وراءها منحةٌ ثمينةٌ من ربِّ العالمين ، وأن هذه الشدة التي نزلت بالمؤمنين وراءها سدةٌ إلى الله ربِّ العالمين ، وأن كبيرَ مُجرمي العدوِّ سخره الله دون أن يريد ، ودون أن يشعر ؛ لتوحيد المسلمين ، وشخذِهمهم ، وبثِّ روحِ البطولةِ والتضحية فيهم ، وأن كبيرَ مُجرمي العدوِّ سخره الله دون أن يريد ، ودون أن يشعر ؛ لِنَعُودَ إلى ديننا ، وإلى قرآننا ، وإلى سُنَّةِ نبيِّنا ، لنُصْحُوْا بعدَ غفلةٍ ، ولنقومَ بعدَ قُعودٍ ، ولنتحرَّكَ بعدَ سكُونٍ ، ولنتعاونَ بعدَ تنافسٍ ، ولنصطلحَ بعدَ خِصامٍ .

ولأنَّ الإيمانَ بالله لا يكونُ إلا بعدَ أن نكفَرَ بالطاغوتِ ، لقد أعاننا أعداؤنا بجرائمهم التي يَشِيبُ لِهَوْلِهَا الولدانُ ، أن نكفَرَ بهم ، وبحضارتهم ، وبمنجزاتهم ، وأن نلتفتَ إلى ديننا وحضارتنا ، وأبناء جلدتنا .

عُدَاتِي لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فَلَا أَذْهَبَ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا هُمْ يَحْشَوْنَ عَنِّي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَاکْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ وَعَدَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ ، وفي هذا آياتٌ كثيرةٌ مستفيضةٌ ، قال تعالى :

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] ، وقال عز وجل :

﴿ إِذْ سَتَعِثُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٩] ، وقال سبحانه :

﴿ قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ [التوبة : ١٤] ، وقال عز وجل :

﴿ حَقَّ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وقال تعالى :

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وقال :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

فإذا استوفينا الشروط المَعْنَوِيَّةَ والمَادِّيَّةَ ، وَعَبَدْنَا اللَّهَ حَقَّ الْعِبَادَةِ وَفَى اللَّهُ بِوَعْدِهِ لَنَا ، وبِوَعْدِهِ لِلْكَفَّارِ ، فَنَحْنُ بَيْنَ وَعْدِ اللَّهِ بِالنَّصْرِ ، وَشَرْطِ تَحَقُّقِهِ ، فَلْنَرَا جَعِ أَنْفُسَنَا ، وَلْنَتَّبِ إِلَى اللَّهِ ، عسى الله أن يَمُزِّنَا بِنَصْرِهِ ، وَيُؤَيِّدَنَا بِتَأْيِيدِهِ ، وَيُكْفِ عَنَّا بِأَسَ الكَافِرِينَ ، وَيُؤَمِّدَ يَنْزَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ ، يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ، وهو العزيزُ الْحَكِيمُ .

* * *

التحليل الإسلامي للحوادث

هناك مقولة توحيدية تملأ النفس أمناً ورضى ، وهي أن كل شيء وقعَ أَرادَهُ اللهُ ، وأن كل شيء أَرادَهُ اللهُ وَقَعَ ؛ لأنه لا يمكنُ ولا يُعْقَلُ أن يقعَ في مُلْكِ اللهِ ما لا يريدُ ، فلكلِّ واقعٍ حكمةٌ ، وليس كلُّ مُوقِعٍ مِن بني البشر حكيماً ، فإرادةُ اللهِ التي سمحتَ لِمَا حَدَثَ أن يحدثَ متعلقةٌ بالحكمةِ المطلقةِ ، أي : إن الذي حَدَثَ لو لم يحدثَ لكانَ نقصاً في حكمةِ اللهِ ، ولكانَ اللهُ مُلُوماً ، فلكلِّ شيءٍ حقيقةٌ ، وما بلغَ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يعلمَ أن ما أصابَهُ لم يكنَ لِإِخْطِئِهِ ، وما أَخْطَأَهُ لم يكنَ ليصيبِهِ ، وحكمتهُ المطلقةُ متعلقةٌ بالخيرِ المطلقِ ، قال تعالى :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

لم يقل : بيدك الخير والشر .

إن الشرَّ المطلقَ لا وجودَ له ، بل هو يتناقضُ مع وجودِ اللهِ ، فاللهُ عزوجل يوظفُ الشرَّ الذي في بعضِ النفوسِ ، نفوسِ المُعْرِضِينَ عنه لخيرٍ كبيرٍ ، ربما لا تُدرِكُ حكمتهُ عاجلاً ، ولا أدلَّ على ذلك من حديثِ الإفكِ ، إذ اتَّهِمَتِ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، بِنْتُ الصَّدِّيقِ ، وزوجةُ

رسول الله ﷺ ، اتَّهَمْتُ فِي أَثْمَنِ مَا تَمْلِكُ الْأَنْثَى ، فَكَانَ التَّفْسِيرُ التَّوْحِيدِيُّ الْقُرْآنِيُّ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِآيَاتِكِ غُصْبَةً مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [النور : ١٨] .

والتفسير التوحيدى للحوادث لا يُلغِي المسؤولية ، لذلك قال تعالى :

﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] .

إن القضية الأساسية في التعامل مع الأحداث الجسام ليست تصديق وقوعها ، أو عدم تصديقه ، فطبيعة العصر من حيث التواصل الإعلامي ، وثورة المعلومات المتفجرة ، واجتماع الأمم والشعوب في غرفة إعلامية واحدة ، يُلغِي موضوع التصديق ، أو عدم التصديق ، ولكن العبرة في التعامل مع الأحداث الجسام وتحليلها التحليل الصحيح ، ثم اتخاذ موقف ، والانطلاق لعمل من خلال هذا الموقف ، ولنضرب على ذلك مثلاً .

لو أن صاحب سيارة في أثناء قيادته لها تألق ضوء الزيت في لوحة البيانات التي أمامه ، فالمشكلة ليست في تصديق التألق ، أو عدم تصديقه ، لقد رأى تألقه بأَمِّ عَيْنِهِ ، ولكن المشكلة في فهم هذا التألق ، وتحليله ، والسلوك الذي يُبنى على هذا الفهم والتحليل ، فلو فهم التألق على أنه ضوء تزيني ، فتابع السير ، لاحترق المحرك ، وتكلف لإصلاحه مبلغاً كبيراً ، وتعطل سيره إلى هدفه ، أما إذا فهم هذا التألق على أنه ضوء تحذيري ، فإنه يوقف السيارة ، ويضيف الزيت ، فيسلم محرك السيارة

من الاحتراق ، ويتابع سيره إلى هدفه ، فليست العبرة لا في التصديق وعدمه ، بل في فهم الحدث وتحليله .

والآن إلى التحليل الإسلامي ، والإضاءة القرآنية لما حدث ، ولما يحدث ، ولما سوف يحدث ، آيات قرآنية لا تحتاج إلى تفسير ، قال عز وجل :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وقال عز من قائل :

﴿ وَكَأَن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴾

[الحج : ٤٨]

و(ثم) في قوله : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ تفيذ التراخي .

قال عز وجل :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۖ ﴿٤١﴾ وَفَرِيدٌ أَن تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَسْتَضِعُّوهُ فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۖ ﴿٤٢﴾ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ يَجُودُ هُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

[القصص : ٦٤]

وقال تعالى :

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ - في الخندق - ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۚ ﴿١١﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۚ ﴿١٢﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ

وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١١٦﴾ [الأحزاب : ١١٠-١١١] ،
وقال سبحانه :

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلِيَسَّكُمْ
شِيعًا وَيُزَيِّقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصْرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ﴾ [الأنعام :
٦٥] ، وقال :

﴿ أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ
إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] ، وقال :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾

[الشورى : ٣٠]

* * *

إيجابيات في الأحداث الأخيرة

من السهل جداً أن نعاين السُّلبيات ، وما أكثرها في الأحداث الأخيرة ، ولكن ليس من السهل ، وليس متاحاً لكل إنسان أن يكتشف الإيجابيات فيها ، لأنها تحتاج إلى بُعد نظر ، وإلى قوة بصيرة ، وهذا ليس متاحاً لمعظم الناس ، يُضاف إلى ذلك أنه من منطلق العقيدة الإسلامية الصحيحة أن كل شيء وقعَ إرادته الله ، بمعنى أنه سمح به فقط ، فلا يُقبل ، ولا يُعقل أن يقع في مُلك الله ما لا يريد ، وأن كل شيء إرادته الله وقع ، فهو فعال لما يريد ، وأن إرادته متعلقة بالحكمة المطلقة ، لأن كمال الله مطلق ، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق ، ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِسْمِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

يُضاف إلى ذلك أن لكل واقع حكمة ، ولو كان الموقع غير حكيم ، لأن الله جلت حكمته يوظف الشر الذي تنضح به نفوس المعرضين للخير المطلق ، ولأن الشر المطلق لا وجود له في الكون ، بل هو يتناقض مع وجود الله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَكَ شِيعًا يَسْتَخِفُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص : ٤] .

دققوا : ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

يوظف الشرُّ الذي تنضح به نفوسُ المعرضين للخيرِ المطلق ، وبناءً على هذا فسنحاول تلُمُسَ الحكمةِ الربانيَّةِ في الأحداثِ الأخيرة ، منطقيين من قوله عز وجل في كتابه :

﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَنَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

من الحقائقِ المؤرَّةِ التي هي أفضلُ ألفِ مرَّةٍ من الوهمِ المريحِ أن هناك خسائرَ لحقت ، وتلحقُ بالمسلمين من خلال الأحداثِ الأخيرة ، وأن ثمة مكاسبَ للطرفِ الآخرِ حقَّقها ، وقد يحققُ غيرها ، ولكنَّ السؤالَ المطروحَ : كيف نتلمسُ المكاسبَ تحت ركامِ الخسائرِ ؟ وما من شكٍّ في أن لكل معركةٍ خسائرَ ظاهرةً ومكاسبَ خفيَّةً ، والمتأملُ في التاريخ يرى صوراً للنصرِ انبثقت من حطامِ المأساةِ ، إذا تفاءلوا ، « وكان النبي ﷺ يعجبه الفأل الحسنُ ، ويكره الطيرة »^(١) .

في الأحداثِ الأخيرةِ سقطت مبادئُ القوم ، وسقطت شعاراتهم ، وأخفقت مؤسساتهم وهيئاتهم ، فالحريةُ والديمقراطيةُ ، والعدالةُ وحقوقُ الإنسان ، وما شابهها باتت مصطلحاتٍ محنَّطةٍ من مخلفات الماضي ، وكادت هذه القيمُ الغربيَّةُ البراقةُ تصرفُ النفوسَ عن قيمِ الدِّينِ الأصيلةِ ، وتخطفُ الأبصارَ عن مضامينِ وحيِّ السماءِ ، فلما سقطت مبادئُ القومِ وقيمهم لم يبقَ في ساحةِ القيمِ إلا قيمُ الدِّينِ ، ولم يبقَ من

(١) ابن ماجه (٣٥٣٦) عن أبي هريرة .

خُلِقَ إِلَّا خُلِقَ أَهْلُ الْإِيمَانِ ، كما أَنَّ الْأَحْدَاثَ الْأَخِيرَةَ وَسَّعَتْ دَائِرَةَ الْمُقْتِ لِلْغَرْبِ الْبَعِيدِ وَلِمَبَادِئِهِ وَلِحَضَارَتِهِ ، وَكَثُرَتْ مِنْ سَوَادِ الرَّاغِبِينَ لِأَفْكَارِهِ وَمَبَادِرَاتِهِ ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْمَفْهُومَاتِ وَالْأَنْمَاطِ وَالسَّلُوكِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ سَيَعَادُ النَّظَرُ فِيهَا ، أَعْنِي تِلْكَ الَّتِي صُدِّرَتْ إِلَيْنَا مِنَ الْغَرْبِ عَلَى مَسْتَوَى الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، وَعَلَى مَسْتَوَى الْأُسْرَةِ وَالْعِلَاقَاتِ وَالنَّشَاطَاتِ ، فَالْمُقْتِ لِلْغَرْبِ الْبَعِيدِ سَيَسِيرِي عَلَى مَقْتِ صَادِرَاتِهِمُ الْفِكْرِيَّةِ ، وَأَنْمَاطِ حَيَاتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَا مَجَالَ الْيَوْمِ وَلَا غَدًا لِمَنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ لِلْغَرْبِ عَامَّةً عَلَى أَنَّهُ قِبْلَةُ الْفِكْرِ ، وَنَمُودُجُ الْقِيَمِ ، فَقَدْ كَشَفَتْ حَقِيقَةُ الْقَوْمِ ، وَأَنَّ الْأَوَّانَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَعْتَزُّوا بِقِيَمِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَأَنْمَاطِ حَيَاتِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ .

وَأَمَّا الْآلَةُ الْعَسْكَرِيَّةُ فَلَيْسَتْ كَمَا يُقَالُ لِحَفْظِ الْعَدْلِ وَالسَّلَامِ ، بَلْ لِلتَّدْمِيرِ وَالْإِحْتِلَالِ ، فَلَا تَفَرُّقَ بَيْنَ مَدَنِيٍّ وَعَسْكَرِيٍّ .

إِنَّ الْآلَةَ الْإِعْلَامِيَّةَ تَلَبَّسَتْ بِالْكَذِبِ وَالتَّزْوِيرِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِالْعُقُولِ ، وَقَدْ اتَّضَحَ لِلْمُسْلِمِينَ مِنْ خِلَالِ الْأَحْدَاثِ الْأَخِيرَةِ أَنَّ الْجِهَادَ بِمُضَامِينِهِ الشَّمُولِيَّةِ وَالْعَمِيقَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ رَدًّا فَعْلِيًّا مُرْتَجَلًا عَلَى خَطَرٍ طَارِيٍّ ، إِنَّمَا هُوَ سُلُوكٌ مُسْتَمِرٌّ لِكُلِّ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ ، بِصَرْفِ النَّظَرِ عَنِ الظُّرُوفِ الْمَحِيطَةِ .

فَالْجِهَادُ الْأَسَاسِيُّ : هُوَ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْهَوَى ، ذَلِكَ أَنَّ الْمَهْزُومَ أَمَامَ شَهَوَاتِهِ وَأَمَامَ حَظْوْظِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَاوِمَ عَدُوًّا ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد : ١١] .

فما لم تكن مشاريع التغيير منطلقة من داخل النفس فإنها لا تنجح إطلاقاً .
 والجهاد الثاني : هو الجهاد الدعوي ، ذلك أن الإنسان الذي لا يعلم من هو ، ولا يعلم سر وجوده ، ولا غاية وجوده ، ولا يعرف ربه ، ولا يعلم مراده منه ، ولا يعلم حقيقة الحياة الدنيا الفانية ، ولا عظم الآخرة الباقية ، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يقاوم عدواً ، أخذاً من قوله تعالى :
 ﴿ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « وجاهدكم به أي بالقرآن »^(١) ، فالجهاد الكبير إنما هو الدعوة والبيان بالحجة والبرهان ، وأعظم حجة وبيان هو هذا القرآن ، إنه حجة الله على خلقه ، ومعه تفسيره وبيانه الذي هو السنة الصحيحة .

والجهاد الثالث : هو الجهاد البنائي ، وهو أن كل مسلم في موقعه عليه أن يطور علمه وخبرته ، وأن يتقن عمله ويحسنه ، وأن يضع إنجازاته هذا في خدمة المسلمين ، فإذا كانت الأمة الإسلامية بحاجة إلى واحد يموت من أجلها فهي في أمس الحاجة إلى ألف إنسان يعيش من أجلها ، أخذاً من قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فالمؤمنون بمجموعهم مأمورون بإعداد العدة لمواجهة بها قوى البغي والعدوان ، فكلمة : ﴿ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ تعني استنفاد الجهد لا بذل بعض

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٢) .

الجهد ، والقوة التي ينبغي أن يُعدها المؤمنون جاءت منكراً تنكير شمول ، ليكون الإعداد شاملاً لكل القوى التي يحتاجها المؤمنون في مواجهة أعدائهم ، من قوة في العدد ، وقوة في العدد ، وقوة في التدريب ، وقوة في التخطيط ، وقوة في الإمداد ، وقوة في التمويل ، وقوة في الاتصالات ، وقوة في المعلومات ، وقوة في تحديد الأهداف ، وقوة في دقة الرمي ، وقوة في الإعلام ، بل إن كلمة ﴿مِنْ﴾ التي سبقت القوة جاءت لاستغراق أنواع القوة واحدة إثر واحدة .

لقد أفادت الآية استقصاء أنواع القوى ، لا اصطفاء بعضها ، وكلمة : ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ جاءت عطفاً للخاص المألوف وقت نزول القرآن على العام الذي يستغرق كل الأزمان والبيئات والتطورات والتحديات ، وهذا الإعداد يحقق أهم أهدافه ، ولو لم تقع المواجهة مع العدو ، إنها رهبة القوي تُقذف في قلوب أعدائه ، لقوله تعالى :

﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

هذا فضلاً عن البناء العلمي والاقتصادي والاجتماعي ، وهذا كله مما يعنيه الجهاد البنائي ، فإذا تحقق جهاد النفس والهوى ، وتحقق الجهاد الدعوي ، وتحقق الجهاد البنائي ، وكان جهداً يومياً مستمراً ، وجهداً واعياً مخلصاً ، عندئذ وبعد تحقق هذه الشروط الثلاثة يُنتظر أن ينجح الجهاد القتالي .

إن من المكاسب الخفية في الأحداث الأخيرة تقاربنا ووجدتنا ، ولاشك أن المسلمين يعيشون حالة من الفرقة لا يحسدون عليها ، ولكن الأحداث إذا ما استثمرت توحد كلمتهم ، وتجمع شملهم ، فالخطر

يحيط بهم جميعاً ، والمخطّط يستهدفهم جميعاً ، وفرقتهم وتناقضهم أمضى سلاح يلعب به أعداؤها الصهاينة ، وحينما تجتمع أو تتقارب تبدأ في السير على الطريق الصحيحة لمقارعة أعدائها ، ولاشك أن عاطفة المسلم في المشرق حينما تلتقي مع عاطفة المسلم في المغرب كان هذا شيئاً عظيماً ، وهذا ما بدأنا نلمسه في هذه الأحداث الأخيرة ، والمؤمل أن تتنامى هذه المشاعر ، وأن تستثمر .

ومن المكاسب الخفية للأحداث الأخيرة التفكير الجماعي والمشورة ، والتفكير للخروج من الأزمة غانمين ، وليس مجرد سالمين ، هذه إيجابية طالما غفل عنها المسلمون ، إذ اعتادوا على التفكير الأحادي ، والمشاريع الفردية ، وهذه مع أهميتها لابد من أن تكون جماعية ، فقد قال الله عز وجل :

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة : ٢] .

والتعاون والمشاورة الجماعية من سمات المسلمين ، ومن خصائص دينهم .

لقد كان لهذه الأزمات أثر في تحريكها وتقريب وجهات النظر ، والمأمول أن تزيد هذه الإيجابية ، وأن تستثمر ، وأن يتم التعاون على الخير ، والمشورة لصالح الإسلام وقضايا المسلمين .

ومن مكاسب المسلمين من خلال هذه الأحداث الأخيرة أنها أحييت في نفوسهم مشاعر العزة بالإسلام ، فقد كانت الضربة من القسوة حيث أيقظت نيام المسلمين ، وأدكت مشاعر الغافلين ، وبات المسلمون في

شَتَّى أَقْطَارِهِمْ يَشْعُرُونَ بِأَنَّهُمْ وَخَدَهُمِ الْهَدَفُ الْحَاضِرُ وَالْمُسْتَقْبَلُ ، وَتَجَدَّدَتْ مَفْهُومَاتُ الْوَلَاءِ وَالْبِرَاءِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَحْسَنَ الْمَفْرُطُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحَاجَتِهِمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالْعُودَةِ إِلَى الدِّينِ ، وَلَقَدْ كَانَ صِلْفُ الْقَوْمِ سَبَبًا فِي إِشْعَالِ هَذَا الْفَتِيلِ .

وَمِنْ مَكَاسِبِ الْمُسْلِمِينَ فِي الْأَحْدَاثِ الْأَخِيرَةِ أَنَّ الْفُرْصَةَ مُوَاتِيَةً لِلدَّعْوَةِ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ ، وَكُشِفَ مُحَاوَلَةُ الْأَعْدَاءِ لِتَشْوِيهِ صُورَةِ الْإِسْلَامِ ، وَنَبِيِّ الْإِسْلَامِ ، وَبِلَادِ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْفُرْصَةُ مُنَاسِبَةٌ لِدَّعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ لِلتَّمَسُّكِ بِدِينِهِمْ ، فَقَدْ بَاتَتْ الْآذَانُ مَهَيَّأَةً لِسَمَاعِ هَذَا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى ، فَهَلْ يَسْتَثْمِرُ الْمُسْلِمُونَ عَامَّةً وَالدَّعَاةُ وَالْعُلَمَاءُ وَالْمَفْكَرُونَ خَاصَّةً هَذِهِ الْفُرْصَةَ الْمُوَاتِيَةَ لِلدَّعْوَةِ ؟

إِنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ دَعْوَةٌ إِلَى الثَّوَابِتِ ، طَالَبَ بَعْضُهُمْ بِالتَّنَازُلِ عَنْ بَعْضِ الْحَقُوقِ بِحُجَّةِ اسْتِيعَابِ الْعَاصِفَةِ ، وَكَانَ الْبَعْضُ يَعْتَقِدُ بِأَنَّهُ بِذَلِكَ يَنْحَنِي لِلْعَاصِفَةِ ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْرَقُوا بَيْنَ الْإِنْحِنَاءِ لِلْعَاصِفَةِ وَاقْتِلَاعِ الْجُذُورِ مِنَ الْأَرْضِ حَتَّى قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ الْعَاصِفَةُ ، عِنْدَمَا تَقْتُلِعُ الْأُمَّةَ مِنْ جُذُورِهَا فَأَيُّ رِيحٍ خَفِيفَةٍ سَوْفَ تَأْخُذُهَا إِلَى الْمَجْهُولِ ؟ عِنْدَمَا تَكُونُ هُنَاكَ عَوَاصِفُ فَنَحْنُ بِحَاجَةٍ أَكْثَرَ إِلَى التَّمَسُّكِ بِالثَّوَابِتِ وَالْمَبَادِئِ الَّتِي هِيَ جُذُورُنَا ، فَالْعَاصِفَةُ مَهْمَا اسْتَمَرَّتْ سَوْفَ تَنْتَهِي ، وَعِنْدَمَا نَحَاوِلُ الْوُقُوفَ بَعْدَ غِيَابِ الْعَاصِفَةِ لَنْ نَسْتَطِيعَ الْوُقُوفَ إِنْ لَمْ تَكُنْ لَنَا جُذُورٌ ، وَبِالتَّالِي عِنْدَمَا تَكُونُ هُنَاكَ عَوَاصِفُ فَيَجِبُ أَنْ نَتَمَسَّكَ أَكْثَرَ بِالثَّوَابِتِ ، فَالْعَوَاصِفُ تَأْتِي وَتَذْهَبُ ، أَمَّا الثَّوَابِتُ إِذَا ذَهَبَتْ فَلَنْ تَعُودَ ، عِداً عَنْ أَنَّ هَذِهِ الْعَوَاصِفَ مُتَبَدِّلَةٌ بِتَبْدِيلِ الْمَصَالِحِ » .

إنَّ من أشدَّ آفاتِ المسلمين فتكاً بهم جزئيةُ النظرِ ، ومحدوديةُ الفهمِ للدينِ ، كلُّ أخذٍ جانباً ، واستغرقَ فيه حتى صار لا يرى غيره ، وأصيب بالعمى عن رؤيةٍ غيرِ ما هو فيه ، وقد يستفحلُ هذا الداءُ فلا يرى هؤلاء ، في الميدانِ أحداً غيرَهم ، يتصرفون حيثنذ على أنهم الذين يمثلون وحدهم المسلمين ، وأنهم وحدهم الذين يحملون الراية ، وعلى الآخرين أن يتبعوهم ، وينقادوا إليهم ، ومن أسبابِ هذا الداءِ الانغلاقُ على النفسِ ، والجهلُ بواقعِ المجتمعِ ، وبواقعِ المسلمين ، والجهلُ بما عند الآخرين ، وعدمُ التواصلِ والتحاوُرِ معهم .

أوجهُ الخطابِ لكلِّ مسلمٍ : أنت أيها المسلم مدعوٌّ إلى المساهمةِ في استثمارِ هذه الأزمةِ ، فماذا قدَّمتَ ؟ هل ساهمتَ بكلمةٍ طيبةٍ ؟ هل تقدَّمتَ بمقترحٍ مفيدٍ ؟ هل فكَّرتَ في مشروعٍ نافعٍ للأمةِ ، هل أعنتَ ملهوفاً ؟ هل دعوتَ من قلبٍ مخلصٍ لمكروبٍ ؟ أي نوعٍ من المساهمةِ قدَّمتَ لنفسك ولأمتك ؟ هل تصدَّقَ ، وهل يصحُّ أن تقول : لا أستطيعُ عملَ شيءٍ ، هل ترضى أن تكون رقماً هامشياً في أمتك ؟ هل يكفيك أن تديرَ موجاتِ المذيعِ بحثاً عن آخرِ الأخبارِ ، ثم ماذا ؟ أو تنظرَ بسلبيةٍ إلى المشاهدِ الداميةِ عن إخوانك المؤمنين ، وهم يُقتلون ، وتُحتلُّ أرضُهم ؟ إنَّها دعوةٌ إلى المساهمةِ ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾

[فصلت : ٤٦]

والإسلام مسؤوليتنا جميعاً ، وكيد الأعداء يستهدفنا جميعاً ، وحقوق المسلمين علينا جميعاً .

الانتفاضة

إذا كانت مكة محطَّ حجِّ بيت الله الحرام فماذا عن مسرى سيد الأنعام ؟
إنه المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله ، ولا يعلم إلا الله ماذا يجري
حوله من جرائم يندى لها جبين الإنسانية ، ويفرق من هولها وحوشُ
الغاب .

قَتْلُ امرئٍ في غايَةِ جَرِيْمَةٍ لَا تُغْتَفَرُ وَقَتْلُ شَعْبٍ مُسْلِمٍ مُسْأَلَةٌ فِيهَا نَظَرُ
الحقيقةُ أَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ نَشْكُرَ أَطْفَالَ الانتفاضةِ ، بل الواجبُ على كل
مسلمٍ أَنْ يقدِّمَ لَهُمُ الشُّكْرَ ؛ حيثُ جعلوا لنا قضيةً نستطيعُ أَنْ نتوَحَّدَ
حولَها ، ونتحدَّثَ عنها ، ونحزَنَ مِنْ أَجلِها ، ونتجمَعَ بسببِها ، لقد
رفعونا عن كثيرٍ مِنْ همومِنا الصغيرةِ التي كانت تستنزِفُنا في ما مضى .

إنَّ الانتفاضةَ مباركةٌ ، لأنها حرَّكَتِ القضيةَ داخلَ فلسطينَ ، وداخلَ
الأرضِ المحتلة ، فقد أصبحَ اليهودُ يشعرونَ حقًّا بعقدهِ ، فهذه الأرضُ
ليستَ بلا شعبٍ - كما قيلَ لهم - فهُمُ يفاجئُونَ أَنَّهُ يخرجُ عليهم شابٌّ مِنْ
الأرضِ نفسِها في فلسطينَ ، هو أكثرُ حماساً منهم لهذهِ الأرضِ ، وأكثرُ
تضحيةً ، وأكثرُ إصراراً ، وأكثرُ صدقاً في حمايتها ، والشعورِ بقداستها ،
حتَّى الصَّبِيَّةُ الصغارُ أصبحوا يدافعون عنها بهذه الطريقةِ التي لم تكن

مألوفة في التاريخ كله ، لقد حافظت الانتفاضة على معنوية المسلم وشعوره بالانتماء ، وشعوره بالعطاء ، وكونه يتقي الله قدر المستطاع ، ويبدل كل جهده في البلاء ، هذه الانتفاضة جعلت العالم كله ، وليس العالم العربي والإسلامي فحسب ؛ يعيد حساباته ، ويفهم قضية المسلمين ، لقد كانت الانتفاضة اختراقاً جيداً للكيان الصهيوني ، فمن خلال مشاهدة الناس للأطفال ، وهم يتلقون الرصاص الحي بصدورهم ، ورؤوسهم ، وليس في أيديهم إلا الحجارة ، شعروا أن هناك مشكلة حقيقية ، هؤلاء الأطفال ما تحركوا عبثاً ، وما تصدّوا لعباً ، فحينما تُسلب أرض شعب ، وتُنهَب ثرواته ، وتُنتهك حرماته ، وتُدنس مقدساته ، وتُداس كرامته ، وتُفهر إرادته ، وتُفسد عقائده ، وتُفرغ قيمه ، ويُزور تاريخه ، ويُحمل على الفساد والإفساد ، وتُمارس عليه ألوان التجهيل والتجويع والتعذيب على يد أعدائه ، أعداء الله ، أعداء الحق ، أعداء الخير ، أعداء الحياة ، عندئذ لا بد لهذا الشعب أن يتحرك ليستردّ حقه في الحياة الحرة الكريمة .

وكانت الانتفاضة فرصة لتعبير الناس عن مشاعرهم ، ونفض الغبار عن قلوبهم ، وتجديد الولاء لدينهم وأمتهم ، وتوحيد همومهم حول قضيتهم الكبرى ، والقضاء على الاهتمامات الجانبية ، والخلافات الجزئية ، ومحاولة مخاطبة الأمة كلها ، ومخاطبة العالم من ورائها بالقضية العادلة .

وإن كل قطرة دم تُراق من طفل فلسطيني ينبغي أن نشعر أنها تُمتص من أجسادنا ، ومن أولادنا ، ومن أهلنا ، وأن كل شهيد يذهب هو من أقرب

الناس إلينا ، ولا يجوزُ أبداً أن يكونَ نَفْسُنَا قصيرا ، حيثُ إنه إذا طال علينا الأمدُ بدأ الناسُ يتساءلون : إلى متى ، ولماذا ؟ ثم بعدها ينشغلون بهمومهم ، وقضاياهم الخاصة ، وأسْرِهِمْ ، وتجاراتهم ، ووظائفهم ، ويغفلون عن أولئك المرابطين في الثغورِ على مدى الزمان ، وهؤلاء الصبية الصغارُ الذين قاموا بهذا العملِ رفعوا عبثاً ومسئوليةً كبيرةً عن المسلمين في كل مكانٍ ، وتصدّوا لواجبٍ لا يستطيع غيرُهم أن يتصدّى له ، فكونُهم يلجؤون إلى هذه الوسيلة البسيطة الساذجة العادية التي تدلّ على أن الانتفاضة انتفاضة عفوية ، انتفاضة القهر ، والحرمان ، والأذى ، والطغيان ، وأنّ الإنسان قد وصلَ إلى درجة لا يصبرُ عليها ، فقد بَلَغَ السيلُ الزُبى^(١) ، وجاوزَ الحزامَ الطَّبِين^(٢) ، وبلغَ السكينُ العظمَ .

لا تَسْقِنِي مَاءَ الْحَيَاةِ بِذَلِكَ بَلْ فَاسْقِنِي بِالْعِزِّ كَأَسَ الْعَلَمِ
أما وقد قام هؤلاء الصغارُ بواجبهم ، وأسألوا من دِمَائِهِمْ ، وبذلّوا من

(١) [بلغ السيل الزبى هي جمع زُبْيَة ، وهي حفرة تحفر للأسد إذا أرادوا صيده ، وأصلها الرابية لا يعلوها الماء ، فإذا بلغها السيلُ كان جارفاً مجحفاً ، يضرب لما جاوز الحد] ، (مجمع الأمثال (٩١ / ١) .

(٢) [والطَّبِينُ والطَّبْنِي : حَلَمَاتُ الضَّرْعِ التي فيها اللَّبَنُ من الحُفِّ والظِّلْفِ والحافِرِ والسَّبَاعِ ، وقيل : هو لذوات الحافِرِ والسَّبَاعِ كاللَّذِي للمرأة ، وكالضَّرْعِ لِغَيْرِهَا ، والجمع من كلِّ ذلك أَطْبَاءُ] ، لسان العرب ، مادة طبي ، [ومنه حديث عثمان : قد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطَّبِين ، هذا كناية عن المبالغة في تجاوز حد الشر والأذى ، لأن الحزام إذا انتهى إلى الطَّبِين فقد انتهى إلى أبعد غاياته ، فكيف إذا جاوزَه] ، النهاية في غريب الحديث والأثر (١١٥ / ٣) ، وانظر (مجمع الأمثال للميداني (١٦٦ / ١) .

أرواحهم ، فإنه لا يسعُ المسلمين إلا الإصرارُ على دعم هؤلاء بكلِّ صُورِ
 الدَّعم ، وأنْ نضعَ كلَّ إمكاناتنا دعماً لا لِقَضِيَّتهم ، بل لِقَضِيَّتنا ، عَرَباً
 ومسلمين ، فقضيُّنا أصبحَ : نكون أو لا نكون ، نكون مجتمعين على
 الحقِّ ، ولا نكون متفرِّقين بالمصالح والأهواء .

* * *

الإرهاب

يتحدّث أعداؤنا الصهاينة عن الإرهاب ، ولاسيما في هذه الأيام ، حيثُ واتَّهَمَ الظروفُ ، ونحن نقول لهم : إنه مولودُ خرجَ مِنْ رَحِمِ الغطرسةِ والظلمِ والاستخفافِ بكرامةِ الشعبِ الفلسطينيِّ ، وثمرَةُ مُرَّةٍ لشجرةٍ غَرَسَهَا الأقوياءُ المستكبرون في نفوسِ المقهورين .

لقد دخلتِ الانتفاضةُ الفلسطينيةُ تاريخَ الجهاد والنضال ، مخلّفةً الآلاف من القتلى والجرح والمعوقين نسأل الله أن يتقبَّلَ عملهم ، وأن يحشرهم مع الشهداء والصالحين .

وما زالت المجزرةُ مستمرةً في فلسطين ، يصلُ إلى اليهودِ الدعمُ غيرُ المحدودِ ، ويصلُ إلى الفلسطينيين النصْحُ بضبطِ النفسِ ، فَمَنْ يَنْسَى مشاهدَ الذبحِ في صبرا وشاتيلا وقانا ، والتي تَسْتَمِطِرُ دموعَ الصَّخْرِ ، فلماذا لم تَحْظَ تلك المآسي بحظّها الحقيقيّ مِنْ الاهتمام كغيرها ؟

تعلّمنا الأحداثُ التي نشهدها كلَّ يومٍ في الأرضِ المحتلة أن القوةَ البشريةَ مهما عَظُمَتْ فهي محدودةٌ ، وأن العلمَ مهما اتَّسعَ فهو قاصرٌ ، وأن الإنسانَ المتغطرسَ مصيره القَصْمُ ، فعن أبي هريرةَ قال : قال رسولُ الله ﷺ : قال الله عزَّ وجلَّ : « الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ،

فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» (١) .

وفي رواية مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْعِزُّ إِزَارُهُ ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ ، فَمَنْ يَنَازِعُنِي عَذِّبْتُهُ » (٢) .

إِنَّ اعتمادَ القوةِ وحدها ، والحلولَ الأمنيةَ وحدها لا يحققُ الهدفَ ما لم يكن مصحوباً بدرجةٍ عاليةٍ من الاستماعِ الجيِّدِ إلى الطرفِ الآخرِ ، وتفهُّمِ دقيقٍ للرأيِ الآخرِ ، ومراعاةٍ مصالحِهِ وخصوصيَّاتِهِ ، والحفاظِ على كرامتِهِ ، وما لم تُحلَّ مشكلاتُ المظلومين والمضطهدين في العالمِ فإنَّ المشكلةَ تبقى قائمةً ، بل وربما تفاقمَتْ ، فالقوةُ لا تصنعُ الحقَّ ، ولكنَّ الحقَّ يصنعُ القوةَ ، والقوةُ مِنْ دونِ حكمةٍ تدمرُ صاحبَهَا ، قال تعالى :

﴿ فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ [الحشر : ٢٠] ، فعدُّ الذين يغادرون الأرضَ المحتلة خوفاً وهلعاً ، عائدتين مِنْ حَيْثُ أَتَرْنَا لَا يُصَدِّقُ ، فهو يزيدُ على المليون .

لو حددنا مفهومَ الإرهابِ فلا يُؤخَذُ المقاومُ بالمجرمِ ، ولا الصالحُ بالطالحِ ، ولا المَحِقُّ بالمُبْطِلِ ، ولا يُؤخَذُ العملُ المشروعُ بالعملِ المحظورِ ؟!

ولو حددنا مفهومَ الإرهابِ عندئذٍ تستفيدُ الشعوبُ المظلومةُ مِنْ هذا

(١) رواه أبو داود (٤٠٩٠) ، وابن ماجه (٤١٧٤) ، وأحمد (٧٣٧٦) .

(٢) مسلم (٢٦٢٠) .

التحديد ، حيث يصبح كلُّ ما هو خارجٌ عن إطارِ مفهومِ الإرهابِ المتَّفَقِ عليه لا يُدرَجُ اسمُهُ ، ولا يُلاحَقُ على أنه مِنَ الإرهابيين .

ولو حدّدنا مفهومَ الإرهابِ لانتعَشت حركاتُ التحرُّرِ في العالم - وما أكثرها - في جهادها ، ونضالها للتحرُّرِ من هيمنةِ المستعمرِ ، وطغيانه ، واستعباده .

ولو حدّدنا مفهومَ الإرهابِ ، واتَّفَقَ عليه بين الطرفين المتنازِعَينِ لامتنعَ القويُّ أن يمارِسَ الإرهابَ على أوسعِ نطاقٍ باسمِ محاربةِ الإرهابِ .

فأعداؤنا الصهاينةُ لو فَعَلُوا ، وحدّدوا طبيعةَ الإرهابِ الذي ينبغي أن يُدَانَ ويُحَارَبَ لأدّانوا أفعالهم ، وحاربوا أنفسهم بأنفسهم .

فنحن نتحدّى أعداءنا الصهاينةَ أن يُخرجوا لنا تعريفاً للإرهاب ، مِن دون أن يكونوا هم أوّلَ المتلبّسين به قَبْلَ غيرهم ، وَمِن دون أن يكونوا قد اقترفوه ، ومارسوه في أقبحِ صُورِهِ وأشكاليهِ قَبْلَ غيرِهِم .

إنَّ تحديدَ مفهومِ الإرهابِ يُظهِرُ جهادَ ومقاومةَ الشعبِ الفلسطينيِّ ضدَّ الصهاينةِ المعتدين على أنه جهادٌ مشروعٌ ، لا يندرجُ تحتَ مفهومِ الإرهابِ الممنوعِ ، لأجل ذلك هُم لا يريدون تحديدَ مفهومِ الإرهابِ الذي ينبغي أن يُحَارَبَ ، ليبقى ما هو محرّمٌ على غيرهم مباحاً لهم ، وليبقى شعارُ محاربةِ الإرهابِ شعاراً مَطَّاطاً يَمَكِّنُ الصهاينةَ مِنَ العدوانِ على الفلسطينيين كلما لاحَ لهم أهميّةُ ذلك بالنسبةِ لأمْنِهِم ومصالحِهِم الذاتيةِ .

إِنَّ عَلَى الَّذِينَ يَتَصَدَّقُونَ لَمَّا يُسَمَّوْنَ إِرْهَاباً أَنْ يَسْأَلُوا أَنْفُسَهُمْ : لِمَاذَا يُقَدِّمُ هَؤُلَاءِ الشَّبَابُ عَلَى الْمَوْتِ ؟ وَسَيَجِدُ هَؤُلَاءِ الصَّهَابَةُ أَنْفُسَهُمْ بِحَاجَةٍ إِلَى وَقْفَةٍ شُجَاعَةٍ تَخْلُصُهُمْ مِنْ مَسْلَسِلِ الدُّعْرِ الْمَتَتِّظِرِ ، وَمَسْلَسِلِ عِدَاوَاتِ الْمُقَهَّورِينَ .

إِنَّ نَتَائِجَ الظُّلْمِ لَا يُمْكِنُ ضَبْطُ حَسَابَاتِهَا ، وَلَا تَقْدِيرُ رَدُودِ أَعْمَالِهَا ، وَذَلِكَ أَنَّ رَدُودَ فِعْلِ الْمُقَهَّورِينَ وَالْمُظْلُومِينَ كَشَطَايَا الْقُنَابِلِ تَطِيشُ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ، وَتَصِيبُ مِنْ غَيْرِ تَصْوِيبٍ .

إِنَّ رَدُودَ أَعْمَالِ الْمُظْلُومِينَ وَالْمُوتَرِينَ لَا يُمْكِنُ التَّحَكُّمُ فِي مَدَاهَا وَلَا اتِّجَاهِهَا ، وَإِنَّهَا تَطِيشُ مُتَجَاوِزَةً حُدُودَ الْمَشْرُوعِ وَالْمَعْقُولِ ، مُخْتَرِقةً شَرَائِعَ الْأَدْيَانِ ، وَقَوَانِينَ الْأَوْطَانِ ، وَتَكْفُرُ أَوَّلَ مَا تَكْفُرُ بِهِ هَذِهِ الْقَوَانِينِ الَّتِي لَمْ تَوْفَّرْ لَهَا الْحِمَايَةُ أَوَّلًا ؛ فَلِذَا لَنْ تَقْبَلَهَا حَامِيَةٌ لِأَعْدَائِهَا ، فَإِنَّ الْعِلَاجَ الْأَوَّلَ وَالْحَقِيقِيَّ هُوَ نَزْعُ فَتِيلِ الظُّلْمِ الَّذِي يَشْحَنُ النُّفُوسَ بِالْكَرَاهِيَةِ وَالْمَقْتِ ، وَيَعْمِي الْبَصَائِرَ وَالْأَبْصَارَ عَنْ تَدَبُّرِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ ، وَالنَّظَرِ فِي مَشْرُوعِيَّتِهَا أَوْ نَتَائِجِهَا .

وَإِنَّ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ، وَهُمْ الصَّهَابَةُ سَيَظَلُّونَ فِي حَيْرَةٍ عِنْدَمَا يَتَعَامَلُونَ مَعَ مَنْ يُلْغِي حَيَاتَهُ مِنْ حِسَابِ الْأَرْبَاحِ ، وَيَسْجُلُ نَفْسَهُ كَأَوَّلِ رَقْمٍ فِي قَائِمَةِ الضَّحَايَا .

إِنَّ أَعْظَمَ مَا يَمْلِكُهُ الْقَوِيُّ أَنْ يَنْهِيَ حَيَاةَ الضَّعِيفِ ، فَإِذَا أَرَادَ الضَّعِيفُ أَنْ يَقْدِمَ أَثْمَنَ مَا يَمْلِكُ ، وَهِيَ حَيَاتُهُ لِيُزَلِّزَ كَيَانَ الْقَوِيِّ صَارَ هَذَا الضَّعِيفُ أَقْوَى مِنْهُ ، وَقَدْ قِيلَ : بَدَأَتِ الْحَرْبُ بِالْإِنْسَانِ ، ثُمَّ أَصْبَحَتْ بَيْنَ الْتَيْنِ ،

ثم بين عقليين ، ثم انتهت بالإنسان .

إنَّ الحديثَ عنِ القوةِ النابعةِ مِنَ الضَّعْفِ ليس دعوةً إلى الرضى بالضَّعْفِ ، أو السكوتِ عنه ، بل هو دعوةٌ إلى استشعارِ القوةِ حتى في حالة الضَّعْفِ ، إذاً يجب أنْ نبحثَ في كلِّ مِظَنَّةٍ ضَعْفٍ عن سببِ قوةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أخلصَ المسلمون في طلبِ ذلك لوجدوه ، ولصارَ الضَّعْفُ قوةً ، لأنَّ الضَّعْفَ ينطوي على قوةٍ مستورةٍ يؤيِّدها اللهُ بحفظه ورعايته ، فإذا قُوَّةُ الضَّعْفِ تَهْدُ الجبالَ ، وتدنُّ الحِصونَ ، قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح : ٤] ، عندئذٍ ينتزعُ المسلمون من هذا الضَّعْفِ قوةً تُحيلُ قوةَ عدوِّهم ضعفاً ، وينصُرهم اللهُ نصراً مبيناً ، ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص : ٥] .

هذه الحقائق نضعها بين أيدي إخواننا في الأراضي المحتلة ، وإننا لنعجبُ ، ونحن نرى سَفَاحِي صبرا وشاتيلا وقانا قد صاروا قادةً دولٍ ، مع أنَّهم يحملون ميدالياتٍ ذهبيةً في الإرهاب .

ولماذا يختارُ إعلامُ الأعداءِ الإرهابَ الذي ينبغي أنْ يهتمَ به المقهورون ، والإرهابَ التي ينبغي أنْ ينسوه ؟ وكأنَّ الإرهابَ لا يكون إرهاباً إلا إذا كان في اتجاهٍ مُعيَّنٍ .

إنَّ أعداءَنَا الصهاينةَ وهم يطرحون شعاراتِ الحريةِ والعدلِ وحقوقِ الإنسانِ وغيرها يمارسونها بصورةٍ انتقائيةٍ مصلحيةٍ ، ولا يتعاملون معها كقيمةٍ جوهريةٍ حقيقيةٍ ثابتةٍ إيماناً بها ، بل انتفاعاً منها ، وإنَّ مظاهرَ القوةِ

لا تعني التَّناهي ولا الإحاطة ، ولكنَّ غرورَ البشرِ يجهلُ هذه الحقيقة ،
وتُسكِرُهُ نشوةُ القوة ، فيقول :

﴿ مَنْ أَشَدُّ مَنَاقِفَةً أَوْ لَرَبْرَواتِ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾

[فصلت : ١٥]

فالحذرَ الحذرَ الشديدَ من الوقوعِ في فخاخِ تُنصَّبُ لأبناءِ أُمَّتِنَا السَّريَّةِ
والإسلامية ، قد يوقعهم فيها ذهولُ الصدمة ، أو ثورةُ الحماسِ .

إنَّ أكثرَ ما نحتاجُ إليه في أمورٍ كثيرةٍ من حياتنا هو التوازنُ ،
والانطلاقُ من الثوابِ الراسخة ، مِن غيرِ أنْ يُفقدنا التأثيرُ بالأفعالِ وردودِ
الأفعالِ الرؤيةَ الصحيحةَ ، ولا نحتاجُ إلى كبيرِ عناءٍ لنكتشفَ أنَّ كثيراً من
خطايانا وأخطائنا كانت نتيجةَ جُنوحٍ في النظرةِ بعيداً عن التوازنِ والاعتدالِ
المطلوبِ .

إنَّ للمشاعرِ حقَّها في أنْ تغلبي وتَفُورَ ، أمَّا الأفعالُ فلا بدَّ أنْ تكونَ
مضبوطةً بهديِ المنهجِ الربَّانيِّ ، ومقاصدِ الشرعِ وصوابِ المصلحةِ ،
ولا يكونَ ذلكُ إلا بالرجوعِ إلى العلماءِ الربَّانيينِ الورعينِ ، الذين
لا يجاملونَ مصالحَ الخاصَّةِ ، ولا يتملِّقونَ عواطفَ العامةِ ، وقد كانَ
العلماءُ على تعاقبِ العصورِ صِمامَ أمانٍ عندما تطيشُ الآراءُ ، وتضطربُ
الأُمُورُ ، قال عز وجل :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾

[النساء : ٨٣]

ولذا فإنَّ من أعظمِ ما يوصى به في مثلِ هذه الأحداثِ العامةِ كَبَحْ

جَمَاحِ الانفعالات ، حيث لا تنفع الاجتهاداتُ الخاصَّةُ ، بل ربما جنى بعضها أَوَّلَ ما يجني على المسلمين ومصالحهم ، وأن يكونَ عند المسلمين خاصة مع حرارة الانفعال وشدة التأثير تبصُّرٌ في معالجة الأمور ، فينبغي ألا يخرجنا التأثيرُ إلى التَّهَوُّرِ ، ولا الحماس إلى الطَّيْشِ ، وإنَّ الحماسَ طاقةٌ فاعلةٌ مُنتِجةٌ إذا وُجِّهَتْ في الطريق الرشيد ، وإنَّ العبرة ليست بِتَنْفِيسِ المشاعرِ ، وتفريغِ العواطفِ ، ولكنَّ العبرةَ بتحقيقِ المصالحِ ، ودَرْءِ المفاسِدِ ، فنحن بحاجةٌ ماسَّةٌ إلى النقد البناء ، ولكي نكونَ بنَّائين في نقدنا لا بد لنا أن نكونَ موضوعيين في تفكيرنا ، والموضوعيةُ تتطلَّبُ منا أن ننظرَ إلى أيِّ موضوعٍ مِن أكثرَ من زاوية ، وضمَّنَ أكثرَ مِن ظَرْفٍ ، وبالتالي نُحلِّلهُ بأكثرَ مِن طريقةٍ ، ونصلُ مِنْ ثَمَّ إلى أكثرَ من احتمالٍ ، أو على الأقلِّ للاحتمالِ الأقربِ إلى الصحةِ ، أو الاحتمالِ الأفضلِ ، وعندما نقول : نقد بناء ، ورأي موضوعي ، فهذا يعني بالضرورة النَّظَرَ بصورةٍ متكاملةٍ للقضايا حيث نرى الإيجابيات كما نرى السلبيات ، وبذلك نتمكَّن من زيادةِ الإيجابياتِ على حسابِ السلبياتِ ، وهذا هو جوهرُ أيِّ تطويرٍ ، قال تعالى :

﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

* * *

زلزال آسيا

في زحمة الأحداث وتسارع المتغيرات ، وفي خضم تداعيات النوازل والمستجدات ، وكثرة الأطروحات والتحليلات يلحظ المتأمل الغيور غياباً أو تغييباً للرؤية الشرعية ، والنظر في فقه السنن الكونية ، حتى حصل من جرّاء ذلك ضلال أفهام ، وتشويش وحيرة عند كثير من أهل الإسلام .
الماء نعمة ونعمة ، يريده الله أن يكون نعمة فيكون نعمة ، ويريده الله أن يكون نعمة فيكون نعمة .

من النعم العظيمة التي منّ الله تعالى بها على الإنسان نعمة الماء العذب ، فالماء العذب أفضل شراب ، وأعظم صدقة ، ورحمة الله لخلقه ، وحيث وجد الماء وجدت الحياة .

قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء : ٣٠] .

إن الحياة على وجه الأرض ؛ حياة الإنسان ، وحياة الحيوان ، وحياة النبات ، قوامها الماء ، فالماء هو الوسيط الوحيد الذي يحمل الأملاح ، والمواد الغذائية منحلة فيه إلى الكائن الحي ، ولولا الماء لما كانت حياة على وجه الأرض .

لذلك يتفضل الله به علينا ، فيهطل في كل ثانية من السماء إلى الأرض

على مستوى الكرة الأرضية ستة عشر مليون طن من الماء .

ويشكّل الماء سبعين بالمئة من مساحة اليابسة ، وسبعين بالمئة من وزن الإنسان ، كما أن للماء دوراً كبيراً في سير التفاعلات الكيميائية داخل أجسام النباتات ، والحيوانات ، والإنسان ، وذلك من أجل الحصول على الطاقة .

وللماء دورٌ في تغيير سطح الأرض من القوام الصخري إلى القوام الترابي من خلال عمليات الحث .

ولقد ذكر الله تعالى الماء في القرآن الكريم منكرًا « ماء » ثلاثاً وثلاثين مرة ، وذكره معرّفًا « الماء » ست عشرة مرة .

وذكر الله تعالى أن إنزاله الماء من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها هو دليلٌ وآية على وجوده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسْحَرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٤] .

وينبغي أن يكون موقف المؤمن من الماء كما ورد في الحديث القدسي الصحيح عن زيد بن خالد الجهني أنه قال : « صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي ، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : بِنَرٍّ كَذَا

وَكَذَٰلِكَ كَافِرٌ بِي ، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكِبِ » (١) .

إِنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَتِهِ هَذِهِ الْمَلُوحَةُ الَّتِي نَجَدُهَا فِي الْبَحَارِ ، حَيْثُ يَقُولُ الْعُلَمَاءُ : « إِنَّ فِي كُلِّ لَيْتِرٍ وَاحِدٍ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ سَبْعَةٌ وَعِشْرِينَ غَرَامًا مِنَ الْمِلْحِ ، وَإِنَّ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ يَسْتَهْلِكُ فِي السَّنَةِ مَا يَزِيدُ عَلَى خَمْسِينَ مَلْيُونًا طَنًّا مِنْ مِلْحِ الْبَحْرِ ، وَإِنَّ نِسْبَةَ الْمِلْحِ فِي مِيَاهِ الْبَحْرِ تَعَادِلُ ثَلَاثَةً وَنِصْفًا بِالمِئَةِ مِنْ مَجْمُوعِ مِيَاهِ الْبَحْرِ ، بَلْ إِنَّ فِي الْكِيلُومِتْرِ الْمَكْعَبِ ، (وَهُوَ مَكْعَبٌ ضِلْعُهُ كِيلُو مِتْر) مِنْ مِيَاهِ الْبَحْرِ أَرْبَعَةٌ وَثَلَاثِينَ مَلْيُونًا طَنًّا مِنَ الْمِلْحِ .

لَوْ اسْتُخْرِجَ مِلْحُ الْبَحَارِ وَجُفِّفَ ، وَوُضِعَ عَلَى الْيَابِسَةِ - عَلَى قَارَاتِهَا الْخَمْسِ - وَلَمْ نَغَادِرْ مَكَانًا إِلَّا وَفَرَّشْنَا عَلَيْهِ هَذَا الْمِلْحَ الَّذِي اسْتُخْرِجْنَاهُ مِنْ مِيَاهِ الْبَحَارِ ، لَبَلَغَ ارْتِفَاعُ الْمِلْحِ الْمَجْفَفِ عَلَى سَطْحِ الْيَابِسَةِ كُلِّهَا مِثْلَهُ وَثَلَاثَةً وَخَمْسِينَ مِتْرًا .

وَوَصَفَ اللَّهُ الْمَاءَ عَلَى أَنَّهُ مُبَارَكٌ ، أَيُ : إِنَّهُ كَثِيرُ الْخَيْرِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ [ق : ٩] .

وَامْتَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَاءَ الَّذِي فِيهِ قَوَامُ حَيَاتِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٦﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ١٠-١١] .

(١) البخاري (٨١٠) ، ومسلم (٧١) عن زيد بن خالد الجهني .

وذكر الله إحدى فوائد الماء الكبرى ، وهي التطهير ، قال تعالى :
﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾

[الأنفال : ١١]

وأمرنا الله بالوضوء بالماء عند كل صلاة ، والاعتسالة بالماء عند كل جنابة ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة : ٦] .

وقد أمرنا رسول الله ﷺ بالاعتصاف في استعمال الماء ، وعدم الإسراف فيه ، فقد مرَّ بسعد رضي الله عنه وهو يتوضأ ، فقال : « مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ ؟ فَقَالَ : أَفِي الْوُضُوءِ إِسْرَافٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَإِنْ كُنْتُ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ » (١) .

وعن أبي الدرداء « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِنَهْرٍ وَمَعَهُ قَعْبٌ - أَي : إِنَاءٌ - فَتَوَضَّأَ ، وَفَضَلَتْ فَضْلَةً فَرَدَّهَا فِي النَّهْرِ ، وَقَالَ : يُبَلِّغُهُ اللَّهُ قَوْمًا يَنْفَعُهُمْ بِهِ » (٢) .

وقد بين النبي ﷺ أَنَّ التَّصَدَّقَ بِسَقْيِ الْمَاءِ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ ، فعن سعد رضي الله عنه أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : « أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْجَبُ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الْمَاءُ » (٣) .

(١) ابن ماجة (٤٢٥) عن عبد الله بن عمرو .

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٤٦٩) عن أبي الدرداء .

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٩) .

وقد بين النبي ﷺ فقال : « الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ : الْمَاءِ ، وَالْكَلْبِ ، وَالنَّارِ » (١) .

وقد نهى النبي ﷺ عن تلويثه ، إذ نهى عن البول في الماء الراكد ، فعَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ « نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الْمَاءِ الرَّائِدِ » (٢) .

وقد نهى عن التعذيب بالحرمان من الماء .

وقد يكون تقتير الماء على الناس عقاباً لهم ، قال تعالى :

﴿ وَالْوَّاسِقُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ۖ لَنُفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١٦-١٧] .

وقال تعالى أيضاً : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

ومما يؤكد أن تقتير الأمطار لا يمكن أن يكون تقتير عجز كتقتير البشر ، ولكنه تقتير تربية وتأديب ، فقد ورد عن وكالة الفضاء الأوروبية أن مرصد الفضاء الأوروبي العامل بالأشعة تحت الحمراء رصد غيمة من البخار في الفضاء الخارجي ، يمكن لها أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم الواحد بالمياه العذبة وهذا مصداق قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] .

وأما معنى التقتير التربوي أو التأديبي ففي قوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ سَظَّ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثَ فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُزَلُّ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ .

(١) أبو داود (٣٤٧٧) ، ابن ماجه (٢٤٧٢) .

(٢) مسلم (٢٨١) .

ومن خصائص الماء التي تدلّ على علم الله ورحمته بالإنسان :

١ - أن البناء الذريّ الفريد للماء يجعل جزيئاته مترابطة بعضها ببعض في شبكة فراغية متماسكة ، ولولا هذا لاستحال وجود الماء على شكل سائلٍ وصلبٍ على سطح الأرض ، ولاستحالت الحياة .

٢ - من المعلوم أنّ درجة غليان الماء مرتفعة ، وذلك لقوة ترابط ذراته ، لذلك فهو يمتصّ قدرة حرارية كبيرة لكي يتبخّر ، وإنّ كلّ غرام من الماء السائل يحتاج إلى خمسمئة وأربعين حريرة ، ليتحوّل إلى بخارٍ ، وهذه الخاصّة تعطي الماء دوراً فريداً في نقل القدرة من مكانٍ إلى آخر ، فالماء الذي يتبخّر من المحيطات تسوقه الرياح ماثٍ ، بل وبضع آلاف من الكيلومترات إلى أماكن باردة ، فعند تبرّد البخارٍ وتحبّبه وتساقطه على شكل قطرات مطرٍ ينشر معه الطاقة التي امتصّها في أثناء تبخّره ، فيساهم في رفع درجة الحرارة في تلك المناطق ، وتلطيف حرارة الجو ، والجدير بالذكر أنه يتبخّر كلّ عام خمسمئة وعشرون ألف كيلو متر مكعب من الماء .

٣ - وهناك خاصّة فريدة أخرى للماء ، تتمثّل في أنه كأيّ عنصرٍ يتمدّد بالحرارة ، وينكمش بالبرودة ، لكنه في الدرجة أربع فوق الصفر تنكس هذه القاعدة المطّردة في كلّ العناصر في الأرض ، فيتمدّد بالتبريد بدل أن ينكمش ، فتقلّ كثافته في أثناء تجمّده فيطفو على سطح الماء ، وربما لا يكاد الإنسان يُصدّق أنّ حياة الكائنات على سطح الأرض متوقّفة على هذا الاستثناء من قانون الانكماش بالتبريد ، ولولا هذا الاستثناء لتجمّدت

البحارُ ، وانعدم التبخرُ ، وتوقفت الأمطارُ ، ويسسَ النباتُ ، وهلكَ الحيوانُ ، وانتهت حياة الإنسان .

٤ - الماء يرتفع بنفسه في الأوعية الشعرية في الأشجار ، وتعرف هذه الخاصّة بالخاصّة الشعرية ، فيحملُ الماءُ من خلالها الغذاءَ إلى الخلايا النباتية حتى ارتفاعاتٍ عالية ، كما أنها هي المسؤولة عن تحريك الماء في المساماتِ والفراغاتِ والأقنية والشقوقِ الدقيقة في التربة والصخورِ نحو الأعلى ، ممّا يسهّل على جذورِ النباتاتِ الحصولَ على الماءِ في المناطقِ الجافةِ والصحراوية .

٥ - يُعدُّ الماءُ من أقوى العناصرِ المُذيبة ، وهذه الخاصّة أساسية في كونِ الماءِ المطهرَ الأولَ ، والمذيبَ في الأرضِ .
هذا عن كونِ الماءِ نعمةً ، فماذا عن كونه نقمةً ؟

أفاق العالم يومَ الأحدِ الواقع في السادس والعشرين من الشهرِ الأخيرِ من العامِ المنصرمِ على حدثٍ لم يسبق أن وقعَ مثله منذ ثلاثمئة عامٍ تقريباً ، وهو زلزالُ آسيا ، فالأضرارُ التي نتجت عنه تفوقُ حدَّ الخيالِ ، وهذا الزلزالُ يعدُّ واحداً من أكبرِ التحوّلاتِ في القشرة الأرضية ، فهناك القاعدةُ الصخريةُ الصلبةُ للأرضِ التي ترتكزُ عليها القاراتُ والمحيطاتُ ، هذه القاعدةُ الصخريةُ للأرضِ فيها صدوعٌ قسمتها إلى اثني عشرَ لوحاً ، قال تعالى :

﴿وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّتَعِ﴾ [الطارق : ١٧٢] .

لقد تصادمَ اللوحُ الصخريُّ الذي ترتكز عليه قارةُ آسيا ، مع اللوحِ

الصخريّ الذي ترتكز عليه قارة أستراليا ، وهذا التصادم أدى إلى ترحح الألواح الصخرية التي هي القاعدة الصلبة للكرة الأرضية ، فانتفت جزرٌ ، وظهرت جزرٌ ، وانشطرت جزرٌ ، تحركت جزيرة سومطرة ، ومساحتها أكبر من مساحة سورية ، وهي أقرب النقاط إلى موقع الزلزال ، وأكثرها تأثراً به ، تحركت عن موقعها تجاه الجنوب بنحو ثلاثين كيلومتراً ، وقصر اليوم أجزاء من الثانية ، واهتزت الأرض حول محورها ، وقد قُدرت قوة هذا الزلزال التفجيرية بمليون قبلية ذرية ، وريختر عالمُ الزلازل المعروف بقياسه تسع درجات ، فكانت قوة هذا الزلزال بمقياس ريختر تسع درجات وثمانية أعشار الدرجة ، وهي فوق النهاية العظمى لمقياسه .

أما أمواج المدّ البحريّ التي نتجت عن هذا الزلزال فقد سارت من المحيط الهادي إلى المحيط الهندي بسرعة تقترب من ألف كيلو متر في الساعة ، وقد قطعت ألفاً وستمئة كيلومتر في ساعة ونيّف ، وتناقصت سرعتها إلى سبعين كيلو متراً عند الشواطئ ، وكأن هذا المدّ خرج من أعماق المحيط الهادي مستهدفاً شواطئ المحيط الهندي ، لحكمة أرادها الله لا تخفى عن العقلاء ، ولو أنه انطلق قريباً من اليابسة لهلك من بني البشر الملايين ، وهذا من لطف الله جلّ جلاله ، وقد بلغ ارتفاع أمواج هذا المدّ من عشرة أمتار إلى أربعين متراً ، حيث إن هذه الأمواج قادرة على أن تقتلع صخرة تزن عشرين طناً ، وتحملها مسافة طويلة ، وهي قادرة على إغراق ناقلات النفط ، وهي من البواخر العملاقة ، وتحطيم القطارات وسكك الحديد ، وتحطيم السفن ونقلها وتجميعها في

اليابسة ، وبعضها استقرَّ على أسطح المنازل ، وأمواجُ هذا المدِّ قادرةٌ على اقتلاع الجسور ، والإطاحة بالمنشآت ، وتدمير المدن بأكملها ، والجدير بالذكر أنَّ سواحل هذه البلاد التي تضررت بهذا الزلزال من أجمل السواحل في العالم ، فالطبيعة هناك ساحرة ، والجو دافئ في الشتاء ، وصالحٌ للسباحة والتعري ، وجميع المتع الحسية التي تحرّمها التشريعات السماوية والأرضية متوافرة هناك ، والمنشآت السياحية هناك من فئة العشر نجوم التي تليق بصفوة أغنياء العالم ، وقد رأى نزلاء هذه المنشآت هذه النجوم العشر ظهراً في أثناء الزلزال ، قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آمْنًا زَيْلًا أَوْ تَحَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس : ٢٤-٢٥] .

ويُتَوَقَّعُ أن يصلَ عددُ القتلى من البشر الذين تُكشَفُ جثثهم تباعاً إلى مئتي ألفِ جثة ، وبعضهم يتوقع أن يصلَ العددُ إلى ثلاثمئة ألفٍ ، بل إن هناك مَنْ يتوقع أن يصلَ العددُ إلى خمسمئة ألفٍ ، عدا الذين يحتاجون إلى إسعافٍ أوليٍّ خلالَ أيامٍ معدودةٍ ، وعدا خمسة ملايين مشردٍ الذين دمرَ الزلزالُ مساكنهم ، والذين لا يجدون الماء الصالح للشرب ، ولا الغذاء ، ولا الدواء ، ولا المأوى ، ويُتَوَقَّعُ أن يموتَ مثلُ هذا العدد - لا سمح الله ولا قدر - عن طريق الأوبئة الناتجة عن تفسخ الجثث .

وقد قُدِّرَت الخسائرُ الماديةُ الأوليةُ بخمسين مليار دولار ، ولا يمكن

أن تستعيدَ هذه البلادَ الذي دمرها الزلزالُ نشاطها السياحيَّ قبل عشرِ سنواتٍ قادمةٍ .

هذا الإلهُ العظيمُ يُعَصِّى ؟! ألا يُخَطِّبُ ودَّه ؟! ألا تُرجى جنته ؟! ألا تُتَّقَى نارُه ؟! .

لكنَّ الذي يلفت النظرَ في هذا الزلزالِ أنه لم يُعثرَ بعد مُضيِّ اثني عشرِ يوماً على بدءِ الزلزالِ ، لم يُعثرَ على جثةِ حيوانٍ بريٍّ واحدٍ على الشواطئِ التي تضررت بالزلزالِ ، وقد نقلتُ هذا الخبرَ إذاعةً عُرِفَتْ بالدقة العلمية ، ويؤكد ذلك أنَّ أهلَ قريةٍ من قرى السواحلِ التي تضررت بالزلزالِ نجوا بأكملهم من الهلاكِ بسببِ أنهم رأوا البهائم تنطلقُ مذعورةً قبل وقوعِ الزلزالِ فقلَّدها فنجوا .

ما تعليلُ ذلك ؟ يقولُ علماءُ الأحياءِ : « إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا زَوَّدَ معظمَ البهائمِ بحاسةٍ سادسةٍ تشعرهم بالزلزالِ قبل وقوعه بوقتٍ كافٍ للنجاةِ منه ، هذا من الناحيةِ الفيزيولوجيةِ للحيوانِ ، أمَّا من الناحيةِ الإيمانيةِ فالحيوانُ غيرُ مكلفٍ كالإنسانِ ، ولا علاقةٌ له بالفسادِ في الأرضِ ، فهو لا يقيمُ حياته على قتلِ الآخرين ، ولا يبيني غناه على إفقارِ الآخرين ، ولا يبيني عزَّه على إذلالِ الآخرين ، والحيواناتُ القويَّةُ تأكلُ حتى تشبع ، فإذا شبعَت سمحتُ للآخرين أن يأكلوا ، فهي لا تسعى لإفقارِ الآخرين ، ولا لإضلالِهِم ، ولا لإفسادِهِم ، ولا لإذلالِهِم ، ولا لإبادتِهِم .

أمَّا في بلادٍ قويَّةٍ تمت الهجرةُ إليها ، ويتحدث أولو الأمرِ فيها كثيراً عن الحرية ، فقد تمَّ إبادةُ الملايين من سكانها الأصليين قبل مئتي عامٍ ، ولو كان للحيواناتِ هيئةٌ أممٍ لَمَّا أَكَلَتْ أُمَّهَمُ القويَّةُ حقوقَ أُمَّهَمُ

الضعيفة ، ولو كان للحيوانات مجلس أمنٍ لما فُرضَ الحصارُ الاقتصادي على بعض الشعوب المقهورة حتى يموت الناس من الجوع ، إرضاءً لمن يملك حقَّ النقض في المجلس ، والحيوانات لا تعرفُ التطهير العرقي ، فعن أبي هريرة قال : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَذْرِي الْقَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ ، وَلَا يَذْرِي الْمَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قَتِلَ » (١) .

وفي مجتمع الحيوان لا تجدُ حيواناً يذوبُ قلبه في جوفه مما يرى ، ولا يستطيع أن يغيّر ، إن تكلم قتلوه ، وإن سكت استباحوه ، ولا تعرفُ هذه الحيواناتُ تجارة الرقيق الأبيض ، ففي كلِّ عامٍ تُقتنصُ سبعمئة ألف امرأة من البلاد النامية لتعمل في الدعارة في البلاد المتقدمة ، إرضاءً لنزوات أغنيائها ، والحيوانات لا تعرفُ الشذوذ الجنسي ، كما في بلادٍ يقصدها أغنياء العالم للاستجمام ، ويهيأ لهم في هذه المنتجعات ثمانمئة ألف طفلٍ للفجور بهم ، وفي بلدٍ يعتمد في الدرجة الأولى على تصدير الأغنام إلى شتى بقاع الأرض تمّ إعدامُ عشرين مليون رأسٍ من الغنم ربيعاً بالرصاص ، وتمّ دفنها ؛ حفاظاً على السعر المرتفع الذي يحقق لتجار الأغنام هناك ربحاً فلكياً .

والحيوانات لا تعرفُ إتلاف كميات من الزبدة يصل حجمها إلى حجم أكبر أهرامات مصر حفاظاً على السعر المرتفع .

والحيوانات لا تعرفُ إتلاف المحاصيل الزراعية حفاظاً على أسعارها المرتفعة ، وتسميمها خوفاً من أن يأكلها الفقراء مجاناً ، فيقل الطلب على

شرائها ، وفي المقابل هناك شعوب فتكت بها المجاعات ، وهم في أمس الحاجة إلى اللحوم والألبان والمحاصيل .

والحيوانات القوية لا ترسل نفاياتها الذرية إلى الحيوانات الضعيفة حتى تسبب لها الأمراض السرطانية بشكل وبائي لآلاف السنين .

والحيوانات التي تصنع الأدوية لا تجربها على حيوانات من جنسها فتدراً بها الخطر عن نفسها .

قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

يقول الإمام علي رضي الله عنه : « رُكِبَ المَلَكُ من عقلٍ بلا شهوة ، ورُكِبَ الحيوانُ من شهوة بلا عقل ، ورُكِبَ الإنسانُ من كليهما ، فإذا سَمَا عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ، وإن سَمَت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان » .

إن الإنسان غزا الفضاء ، وغاص في الأعماق ، وحول التيارات الخمس عن طريق الاتصالات إلى قرية ، ثم إلى بيت ، ثم إلى غرفة ، ثم إلى سطح مكتب .

إن هذا الإنسان الذي صنع مُدُنًا ومعاملَ ومطارات ، وسفنًا تمخرُ عباب المحيطات ، وصنع طائرات أسرع من الصوت ، وصنع قطارات تحملها وسائل هوائية ، وصنع الحاسوب الذي يقرأ بلايين الحروف في الثانية ، واخترع الإنترنت التي حيث أزالَت السدود والحدود بين الشعوب والحضارات .

هذا الإنسان الذي أرسل الأقمار الصناعية ، وصنع القنوات الفضائية ، وصنع القنابل الذرية ، والنووية ، والحرارية ، وصنع القنابل التي تعطل الاتصالات ، والقنابل التي تعطل الطاقات ، وصنع القنابل العنقودية ، والانشطارية ، والذكية ، والخارقة الحارقة . . . هذا الإنسان الذي صنع كل ذلك لا يستطيع أن يتنبأ بوقوع الزلزال ولا قبل ثانية واحدة إلا إذا تنبه إلى اختفاء الحيوانات ، فلعلها ترشده من خلال اختفائها إلى الخطر الداهم الذي سيدمره .

قال تعالى :

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

[البقرة : ٢٥٥]

ولا يسعنا في هذا البلد الطيب إلا أن نتوجه إلى أسر الضحايا من كل الملل والنحل ، ودون تفریق ، ولا سيما سكان البلاد الأصليين بالتعازي الحارة ، سائلين الله جلّ وعلا أن يُلهم من بقي من هذه الأسر الصبر والسلوان .

إن من الخطأ الكبير أن يتوهم الإنسان أن كل من أهلكه الله في هذا الزلزال مذنب يستحق الهلاك ، هذا تعميم ، والتعميم من العمى ، فكل يموت على نيته ، وعلى ما عاش عليه ، يقول عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَنْزَلَ سَطَوَاتِهِ - قهره وبطشه - عَلَى أَهْلِ نِقْمَتِهِ ، فَوَافَتْ أَجَالَ قَوْمٍ صَالِحِينَ ، فَأَهْلَكُوا بِهَلَاكِهِمْ ، ثُمَّ يُنْعَثُونَ عَلَى نِيَّتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ .

فهذا المصاب الجلل الذي أصاب سكان السواحل في جنوبي شرقي آسيا ، هو ابتلاء للمؤمنين ، وما أكثرهم ، قال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥-١٥٦] .

وهو عقاب للمذنبين ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

وهو تحذير وإنذار للناجين من غير المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [الرعد : ٣١] .

ولكن إنصافاً للحقيقة ينبغي أن نذكر أنه في أثناء طوفان الظلم والقتل اليومي للأبرياء أو اعتقالهم ، وهدم المنازل ، ونهب الأموال ، هذا الظلم اليومي الحادث لم يشهد تاريخ البشرية له مثيلاً ، في المناطق الساخنة من العالم ، ولاسيما في العراق وفلسطين ، جاء زلزال آسيا ليوقظ الشعور الإنساني لدى الأمم والشعوب ، فبادرت إلى تقديم المساعدات العينية والمالية من كل حذب وصوب ، وساهم بلدنا الطيب أيضاً في هذا العمل الإنساني ، وأكدت هذه المساعدات أن الإنسان هو الإنسان ، كما فطره الله ، وأن الإنسان أخو الإنسان ، وأن الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله .

المدخل الأول لفهم هذا الحدث

لو أن سائق سيارة ، في أثناء قيادته لسيارته رأى تألق ضوء أحمر في

لوحة البيانات التي أمامه ، فالمشكلة ليست في تصديق التألق ، أو عدم تصديقه ، لقد رأى تألق هذا الضوء بأَمِّ عَيْنِهِ ، ولكن المشكلة في فَهْم هذا التألق ، وتحليله ، والسلوك الذي يُبنى على هذا الفهم والتحليل ، فلو فَهَمَ التألق على أنه ضوءٌ تزييني ، فتابع السير ، فاحترق المحرك ، وتكلف لإصلاحه مبلغاً كبيراً ، وتعطل السير ، وأُلغِيَ الهدف ، أما إذا فَهَمَ هذا التألق على أنه ضوءٌ تحذيريٌّ أوقف السيارة ، وأضاف الزيت ، وسلمَ المحرك من الاحتراق ، وتابع بعد ذلك السير ، وتحقق الهدف ، فالعبرة لا في التصديق وعدمه ، بل في فَهْم الحدث وتحليله .

فإذا كان زلزال آسيا الضوء الأحمر فالمشكلة ليست تصديق وقوعه أو عدم التصديق ، فما من إنسانٍ من ستة آلاف مليونٍ إلا وقد علم بهذا الزلزال ، وشاهد صورَه المأساوية ، ولكن المشكلة في فهمه في ضوء الإيمان بالله ، وفي ضوء وحى السماء ، لا من خلال العولمة والشرك ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ أَشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر : ٤٥] .

أي : إنك إذا قدمت تحليلاً إيمانياً توحيدياً وفق كتاب الله وستة رسوله ، رَفَضَهُ الذين لا يؤمنون بالآخرة ، أما إذا قدمت تحليلاً أرضياً شركياً قَبِلَهُ معظمُ الناس .

مدخل آخر لفهم هذه الأحداث

يقول سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : « ثلاثة أنا فيهن رجلٌ

- أي : بطلٌ - وفيما سوى ذلك فأنا واحدٌ من الناس ؛ ما صليتُ صلاةً فشغلتُ نفسي بغيرها حتى أفضيتها ، ولا سمعتُ حديثاً من رسول الله ﷺ إلاّ علمتُ أنه حقٌّ من الله تعالى ، ولا سِرْتُ في جنازةٍ فحدّثتُ نفسي بغير ما أقول حتى أنصرفَ منها .

ولنأخذ الثالثة : « ولا سِرْتُ في جنازةٍ فحدّثتُ نفسي بغير ما أقول حتى أنصرفَ منها » ، فإذا كان هذا الميثُ في النعشِ يقول بلُغةِ الحال لا بلُغةِ المقال ، ويسمعه سيدنا سعدٌ بأذنِ الحال ، لا بأذنِ المقال . . . فماذا يقول هذه الزلزالُ بلسانِ الحالِ لبني البشرِ ؟

ينادي هذا الزلزالُ أهلَ الأرضِ ، فيقول : إذا كان كلُّ هذا الهولِ الذي وقع إنما هو زلزالُ الدنيا ، فماذا أعددتُم أيّها البشرُ للنجاةِ من زلزالِ الآخرة ؟ ويذكّرهم بقوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾ [الحج : ٢-١] .

امرأةٌ حملت رضيعها ، وانطلقت من البيتِ مذعورةً إلى الشارع ، وفي الشارع نظرت إلى رضيعها ، فإذا هو حذاءٌ زوجها ، ﴿ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : ٢] .

وينادي هذا الزلزالُ المحبطين من المسلمين ، الذين استسلموا ، وخضعوا واستكانوا لقوى البغي والعدوانِ ، ويثسوا من رحمةِ الله ، ظنوا أنّ الله تخلى عنهم ، ولن ينصرهم ، يذكّرهم بقوله تعالى :

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٢٩] إِنْ يَمَسُّكُمْ
فَرَجٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَجٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نُذُورٌ لِّهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿آل عمران : ١٣٩-١٤٠﴾ .
ويقول أيضاً :

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا
يَرْجُونَ﴾ [النساء : ١٠٤] .

وينادي هذا الزلزال الغافلين ، الذين غفلوا عن وعيد الله ، وغفلوا عن
الموت ، وغفلوا عن الدار الآخرة .

﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ﴾ [الحشر : ٢] .

ويذكرهم بقوله تعالى :

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل : ٤٥] .

يصف أحد السائحين الناجين غفلته فيقول : فجأة سمعتُ صوتاً
مخيفاً ، ثم فجأة ابتدأ الماء يتسرب من تحت باب الغرفة ، وفي أقل من
دقيقة وصل الماء إلى صدري ، ثم غبت عن الوعي ، وهكذا الساعة
لا تأتيهم إلا بغتة .

وينادي هذا الزلزال المتخاذلين عن الإصلاح الاجتماعي ، وعن
الدعوة إلى الخير ظناً منهم أن صلاحهم الفردي يعذرهم أمام الله ،
وينقذهم من العقوبات الدنيوية والأخروية ، يذكرهم بقوله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود : ١١٧] .

فالضمان أن نكون مصلحين ، لا أن نكون صالحين .

وينادي هذا الزلزال المتحررين ، الذين شوّهوا معنى الحرية ، وظنّوها تفلتاً من كلّ قيد أخلاقي ، ومن كلّ قيد ديني شرعي ، ومن كلّ قيد اجتماعي ، فيؤكد لهم أن الفساد يغرق سفينة المجتمع ، ويهدّد أمن الجميع ، فالعذاب إذا نزل لا يستثني ، ويذكرهم بقوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وينادي هذا الزلزال المترفين ، الذين كان الناس لهم تبعاً ، أمروا أن يستقيموا ففسقوا ، فدمرهم الله ، ودمر من أعانهم على فسادهم وإفسادهم من التابعين لهم ، ويذكرهم بقوله تعالى :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [١٦] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [١٧] [الإسراء : ١٦-١٧] .

وينادي هذا الزلزال الدول التي لم تبعاً بشرائع السماء ، والتي نوهمت أن السياحة الجنسية أقصر طريق لجني الأرباح ، وتكديس الثروات ، حيث افتخر أحد المسؤولين عن السياحة في تلك البلاد قبل أيام من الزلزال ، بأنه لا يوجد في بلده فتاة عذراء واحدة ، والزلزال يذكرهم بقوله تعالى : ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِنَتَكُمْ عَلَى الْغَلَاءِ إِنَّ أَرْدَنَ تَحَصُّنًا لِّبَنَغْوَا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [النور : ٣٣] .

موضوعات قرآنية

المنهج القرآني في تقويم السلوك الإنساني

إن هناك تلازماً ضرورياً حتمياً بين التدئين الصحيح والخُلُق القويم ، فقد حدّد النبي ﷺ الغاية الأولى مِنْ بعثته ، والمنهج الأول لدعوته ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ »^(١) ، فالهدف الأول لدعوته ، هو إرساء البناء الأخلاقي للفرد والمجتمع ، لأنّ هذا البناء الأخلاقي ثمنُ سعادة الدنيا والآخرة ، والمُتَّبِعُ لنصوص القرآن الكريم ، ولنصوص السنة المطهرة الصحيحة يَجِدُ ذلك التلازم الضروري بين التدئين الصحيح والخُلُق القويم ، وأعني بالتدئين الصحيح الاتباع ، قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّكْرِ ﴿١﴾ فذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾

[الماعون : ١-٢] ، وقال سبحانه :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص : ٥٠] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَّا قَالَ : « لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ »^(٢) .

(١) أخرجه الإمام أحمد (٨٩٣٩) ، والحاكم (٦٧٠/٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٩٢/١٠) .

(٢) أخرجه أحمد (١٢٤٠٦) .

وقال ﷺ : « الْإِيمَانُ وَالْحَيَاءُ قُرْنَا جَمِيعاً ، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ » (١) .

الإيمانُ أساسُ الفضائلِ ، وَلِجَامُ الرذائلِ ، وقِوَامُ الضمائرِ ، وقد بيَّن النَّبِيُّ ﷺ في أحاديثه الصحيحة أن أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلَاماً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ، وَأَنَّ أَكْمَلَهُمْ إِيْمَاناً أَحْسَنُهُمْ خُلُقاً ، وَأَنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ أَحْسَنَهُمْ خُلُقاً ، وَأَنَّ مِنْ أَقْرَبِ الْمُؤْمِنِينَ مَجْلِساً إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْسَنَهُمْ خُلُقاً ، وَأَنَّ خَيْرَ مَا أُعْطِيَ الْإِنْسَانُ خُلُقٌ حَسَنٌ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ ، بَلْ إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الْآخِرَةِ ، وَالْخُلُقُ الْحَسَنُ يُذِيبُ الْخَطَايَا كَمَا يُذِيبُ الْمَاءُ الْجَلِيدَ ، وَالْخُلُقُ السَّيِّئُ يُفْسِدُ الْعَمَلَ كَمَا يُفْسِدُ الْخَلُّ الْعَسَلَ .

هذه سنَّةُ ﷺ القوليةُ ، فماذا عن سنَّته العملية ؟

إنَّ النَّبِيَّ ﷺ هو النموذجُ الأسمى لاجتماعِ المبدأ والسلوكِ ، وتطابقِ المعتقدِ مع القولِ ، وتطابقِ القولِ مع العملِ ، فإنَّ أعظمَ المسلمين منه قرباً ﷺ أولئك الذين ضاقتِ المسافةُ بين سلوكهم ومبادئ الإسلامِ ، وقيَمِهِ ، وتشريعاته ، وآدابه .

أما هذا التردِّي الأخلاقي الذي تُعاني منه المجتمعاتُ المعاصرةُ لم يكن جديداً في تاريخِ البشرية ، فالتاريخُ يُعيدُ نفسه ، وإليكم الدليل .

لقد ذَكَرَ اللَّهُ لَنَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ قِصَصَ شُعُوبٍ كَثِيرَةٍ فِي الْمَاضِي

(١) أخرجه الحاكم (٧٣/١) ، وابن أبي شيبة في المصنف (٢١٣/٥) ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٤٥/١) ، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤٠/٦) .

الغابر ، مُشَابِهَةً لِلْعَدِيدِ مِنْ شُعُوبِ الْيَوْمِ ، وَأَخْبَرَ الْقُرْآنُ عَنْ تَخْلُفِهَا
الْأَخْلَاقِي ، وَلَكِنَّهُ أَشَادَ بِعَظَمَةِ عِمَارَتِهَا لِلْأَرْضِ ، فَمِنْ تِلْكَ الشُّعُوبِ قَوْمُ
عَادٍ .

قال الله تعالى مشيراً إلى عظمة عمرانهم ، وقوتهم المادية :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَابِيَةً تَبْنُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴾

[الشعراء : ١٢٨-١٢٩]

أما عن قوتهم العسكرية والقتالية فقال :

﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٠] .

وتحدث القرآن عن غطرستهم فقال تعالى :

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾

[فصلت : ١٥]

وقد أشار القرآن الكريم إلى تفوق عادٍ في شتى الميادين ، فقال
تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِمْرًا ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

الْبَلَدِ ﴿٨﴾ [الفجر : ٦-٨] .

وكذلك ثمودُ سبقوا الناسَ في خرقِ الجبالِ ، وجوبها ، ونحتِ

المساكنِ وتجميلِها ، وبناءِ القصورِ في السهولِ ، قال تعالى :

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ [الفجر : ٩] ، وقال سبحانه :

﴿ وَنَحْنُ نَحْنُ مِنَ الْجِبَالِ يُؤْتَا فَرِهِينَ ﴿١١٩﴾ [الشعراء : ١٤٩] ، وقال :

﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَنَحْنُ نَحْنُ مِنَ الْجِبَالِ يُؤْتَا ﴿٧٤﴾ [الأعراف : ٧٤] .

وقد وَصَفُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ قَوْمِي عَادٍ وَثَمُودَ بِالذِّكَاءِ ، والفهم ، والاستبصار ، فقال تعالى :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِينِهِمْ وَزَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨] .

وقد ذَكَرَ الْقُرْآنُ بِشَكْلِ عَامِّ عِظْمَةِ الْعَدِيدِ مِنَ الشُّعُوبِ السَّالِفَةِ وَالْمَاضِيَةِ فِي الْعِمْرَانِ وَالْقُوَّةِ ، فقال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم : ٩] .

وعلى النقيضِ مِنْ ذَلِكَ نَجِدُ أَنَّ تِلْكَ الشُّعُوبَ السَّالِفَةَ كَانَتْ مَنْحَطَّةً أَخْلَاقِيًّا ، سَاقِطَةً دِينِيًّا ، أَوْ بَيْسَاطَةً بِالْغَةِ ، كَانَتْ مُفْسِدَةً لِلْأَرْضِ وَلِلنَّاسِ ، مُهْلِكَةً لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادِ ، فَمِثْلًا ، قَالَ تَعَالَى عَنْ عَادٍ وَثَمُودَ وَفِرْعَوْنَ :

﴿ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الفجر : ١١-١٢] ، وعن قومِ نُوحٍ أَنَّهُمْ كَانُوا أَطْغَى مِنْ عَادٍ وَثَمُودَ :

﴿ وَقَوْمٌ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا أَظْلَمَ وَأَطْغَى ﴾ [النجم : ٥٢] ، وفي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَادًا وَثَمُودَ وَمَنْ لَحِقَهُمْ كَانُوا طَغَاءً وَمَجْرَمِينَ ، بَغْضُ النَّظَرِ عَنْ تَفَوُّقِهِمُ الْعِمْرَانِيَّ أَوِ الْحَرْبِيَّ .

إِذَا لَيْسَ هُنَاكَ عِلَاقَةٌ بَيْنَ التَّفَوُّقِ الدِّينِيِّ وَالْأَخْلَاقِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَالتَّنْطُورِ الْعِمْرَانِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

فَكَمْ مِنْ شُعُوبٍ بَلَغَتْ الذَّرْوَةَ فِي الْبِنَاءِ ، وَالتَّعْمِيرِ ، وَالْقُوَّةِ

العسكرية ، ولكنها تسفلت في الدين والأخلاق أيما تسفل ، ثم سقطت حضارتها العمرانية العظيمة منهاراً إلى الأبد بسبب فسادها ، ومن يقرأ ما سطرُوا لا يجد أحداً منهم يذكرُ اللهَ إلا قليلاً ، أما أصنامُهم ، وآلهتهم فلا تكاد تُحصى .

ولكن قد يسأل سائلٌ : ما الفائدةُ من تلك القصصِ ؟ فتلك شعوبٌ قديمةٌ هلكَتْ وانتَهَتْ ، نقول : مَنْ لا يفهم الماضي فلن يفهم الحاضرَ ، وَمَنْ لا يعتبر من أخطاء غيره فلا بدَّ أن يقعَ فيها .

وقصصُ القرآنِ الكريمِ عن الشعوبِ القديمةِ ليست عبثاً ، فما دام اللهُ جلَّ جلاله قد ذَكَرَ تلكَ الأقوامَ القديمةَ في قرآنٍ يُتلى إلى يومِ القيامةِ فلا بد من فائدةٍ عظيمةٍ ، قال تعالى :

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

فهذا الذِّكْرُ من أجلٍ ألا تبهرَ الشعوبُ الضعيفةُ اليومَ بالغربِ ، بقوته العسكرية ، ومنشأته العمرانية ، وتقذُّمه الخطيرِ في شتى الميادين ، لثلاث تراه مardاً ، قوياً ، جباراً يفعلُ ما يريدُ .

ولكن أليست هذه الأممُ أمثال عادٍ وثمودَ تأكلُ حقوقَ الأممِ من خلال هيئةِ الأممِ ؟ أليست هذه الأممُ أمثالُ عادٍ وثمودَ تسلبُ أَمْنَ الشعوبِ من خلالِ مجلسِ الأمنِ ؟ أليست هذه الأممُ المسيطرةُ أمثالُ عادٍ وثمودَ تبني مجدَها على أنقاضِ الشعوبِ ؟ أليست هذه الأممُ المسيطرةُ أمثالُ عادٍ وثمودَ تبني غناها على إفقارِ الآخرين ؟ لقد طغَتْ ، وبغَتْ ، تغطرسَتْ ، ونسيَتْ وعيدَ الله لها ، قال تعالى متوعداً إيَّاهم ومثلهم :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وقال :

﴿ لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ [١٩٦] مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦-١٩٧] .

لقد قالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةً ﴾ ، وكذلك تقول بعض الدول العظمى ، أو بعض الدول التي تعتمد على دول عظمى ، والله يقول لهؤلاء جميعاً ، قداماء ومُحدثين :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [نمل : ١٥] .

لو كنا نقرأ القرآن كل يومٍ لَعَلِمْنَا أَنَّ شعوباً كثيرةً كعادٍ وثمودَ وغيرها قد تفوقت في عمران الأرض كما يتفوق الغرب اليوم ، ولكنها ضلّت ، وأضلّت ، وفسدّت ، وأفسدت ، وطغت ، وبغت وشردت عن عبادة خالقها ، وانحطت أخلاقها .

إن الإسلام ليس ضد العلم والعمل ، بل يأمر بهما ، ولكنه ضد الكفر وعبادة الطواغيت ، والعلو في الأرض بغير الحق ، والفساد والظلم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وإهلاك الحرث والنسل .

ولكن ماذا كانت نتيجة عادٍ وثمود ؟ وهي النتيجة التي تنتظر كل قوم كعادٍ وثمود ، قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴾ [٥] وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَلَيْهِتِ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُتْبَجَارُ نَغْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ [الحاقة : ٨٥] ، وقال سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا
أَتْنَاهَا أَمَرْنَا لِيَالًا أَوْ بَرَاهِنًا فَبَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] .

وكمثلٍ معاصرٍ من عاد وثمرودَ ، هذا الكيانُ الصهيوني الذي سَلَبَ
أرضَ شعبٍ ، ونَهَبَ ثرواته ، وانتَهَكَ حُرُمَاتِهِ ، ودَنَسَ مقدَّساتِهِ ، وداسَ
كرامته ، وقهرَ إرادته ، وأفسَدَ عقائده ، وفرَّغَ قيمه ، وزوَّرَ تاريخه ،
وحَمَلَهُ على الفسادِ والإفسادِ ، ومَارَسَ عليه ألوانَ التجهيلِ ، والتجويعِ ،
والتعذيبِ .

ثم إنَّ تصاعدَ العدوانِ الوحشيِّ من قِبَلِ القيادةِ المجرمةِ للكيانِ
الصهيونيِّ على الشعبِ الفلسطينيِّ ، والأمةِ العربيةِ ، وعلى مواقعنا في
لبنانَ ، يدفعُ المنطقةَ إلى حافةِ الحربِ وأُتُونِها ، فهل يُعَقَّلُ أن تُسْتَخْدَمَ
أحداثُ الطائراتِ المقاتلةِ العملاقةِ لقصفِ شعبٍ أعزَلَ ، لا يملكُ إلا
الحجارةَ ؟! لقد وَصَفَ أحدُ الصحفيين أحدَ الطغاةِ المجرمين بأنه ثورٌ
هائجٌ ، مُصَابٌ بِجُنُونِ البقرِ .

لقد شَرَّفَ اللهُ الأمةَ العربيةَ ببعثةِ النبيِّ الأعظمِ ﷺ ، فاستجابتُ لله
وللرسولِ حينما دعاها لما يُحْيِيها ، وجعلتُ الوحيَ مَرَجِعاً لمعتقدِها ،
والشريعةَ الغراءَ منهجاً لحياتِها ، والقيمَ الخلقيةَ التي جاء بها القرآنُ هدفاً
لطموحاتها ، عندئذٍ أنجزَ اللهُ لها وَعْدَهُ بالنصرِ والتأييدِ والاستخلافِ
والتمكنِ ، فامتدَّتِ الدولةُ الإسلاميةُ التي عاصمتُها دمشقُ ، من الصينِ
إلى إسبانيا ، تنشرُ تعاليمَ الإسلامِ المستندةَ إلى مبادئِ التسامحِ والعدلِ
والإخاءِ والمساواةِ .

إذا أردنا أن نستعيد دورنا القيادي في العالم ، وأن ننقل إلى الشعوب رسالة الإسلام الخالدة فعلينا أن نستجيبَ لله وللرسول إذا دَعَانَا لِمَا يَحْيِينَا ، وأن نجعلَ الوحيَ مرجعاً لمنطلقاتنا النظرية ، والشريعةَ الغراءَ منهجاً لسلوكنا العملي ، عندئذ يتحقق وعدُ الله لنا بالاستخلاف ، والتمكين في الأرض .

* * *

أثر القرآن في تقويم سلوك النبات

إذا كان أثر القرآن في تقويم سلوك الإنسان ظاهراً للعيان فإن أثر القرآن في تقويم سلوك النبات من أكبر المعجزات ، فهذا باحثٌ عربيٌّ عَرَفَ بإنتاجه العمليّ الغزير على المستويين العربي والدوليّ ، وهو أستاذٌ جامعيّ ، له وزنه ، اختصاصه في علم فزلة النبات ، وقد اشتهر بتجاربه العلمية الرائدة ، فمن تجاربه التي ربما لا تُصدّق ، إلّا أنّ الواقع أثبتّها ، أنه في عام (١٩٩٧ م) نَصَبَ أربعةَ بيوتٍ مَحْمِيَةٍ في حديقة كُلِّيَةِ العلوم في جامعته ، وزرَعَ فيها قمحاً من نوع مُعَيَّن ، هذه البيوتُ مُوحَدَةٌ بحجمِها ، مَلَأَهَا بِكَمِيَّاتٍ متساويةٍ نوعاً وكمّاً مِنَ التراب الزراعي ، وغَرَسَ فيها عدداً موحداً من بذور الحِنْطَةِ على عمقٍ واحدٍ ، وتمّ تسميدها جميعاً بِكَمِيَّاتٍ متساويةٍ مِنْ سَمَادٍ مُعَيَّن ، وسمّى اسمَه ، وسُقِيَتْ جميعاً بِذَاتِ العددِ مِنَ السقيا ، وبكميات متساوية من الماء ، ثم اختار إحدى طالباته لتقرأ السورَ القرآنيةَ التاليةَ : يس ، والفاتحة ، والإخلاص ، وآية الكرسي ، مرتين في الأسبوعِ على البيتِ الأوّلِ ، ولمدّة أربعة أشهرٍ ،

وكلّف طالبة أن تأتي بنبات ، وأن تمزّقه ، وأن تقطع أوصاله ، وأن تُسمعه كلمات قاسية أمام نبات البيت الثاني ، مرتين في الأسبوع ، ولمدة أربعة أشهر ، وفي البيت الثالث كلّف طالبة ثلاثة بضرب النبات وكيّه ، وتعريض وريقاته للتمزيق والقصّ مرتين في الأسبوع ، ولمدة أربعة أشهر .

فثمة بيت قرئ على نباته سور من القرآن ، وبيت عُذّب أمامه نبات ، وبيت ثالث تلقى نباته التعذيب ، والبيت الرابع ترك لينمو نمواً طبيعياً ، وأطلق عليه اسم البيت الضابط ، فماذا كانت النتيجة ، وقد عُرضت في مؤتمر علمي ؟ كانت النتيجة أن نبات البيت الأول الذي تلي عليه القرآن الكريم ازداد طوله أربعة وأربعين بالمئة على طول نبات البيت الرابع الضابط ، وازدادت غلته مئة وأربعين بالمئة على غلة البيت الرابع الضابط ، أما البيت الثاني والثالث الذي تحمّل أحدهما التعذيب ، أو رأى التعذيب فقد تدنّى طول نباتاته خمسة وثلاثين بالمئة نقصاً ، ونزل إنتاجه إلى ثمانين بالمئة نقصاً أيضاً .

يقول هذا الباحث : النباتات كمخلوقات الله الأخرى تشعر ، وتسمع ، وتستجيب سلباً أو إيجاباً لما حولها من مؤثرات خارجية .

والآن إلى القرآن الكريم . . . قال تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وقال تعالى :

﴿ لَوْ أَرَدْنَا هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ عَلَى جَبَلٍ ﴾ - فكيف لو كان على نبات حيّ -

﴿لَرَأَيْتُمْ خَشِيعَةً مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر : ٢١] ، وقال سبحانه تعالى :

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ٦ ﴿فَإِيَّاءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن : ٧-٦] .

فإذا كان هذا شأن النبات مع القرآن الكريم ، فهل يُعقل أن يغفل الإنسان وهو المخلوق المكرّم ، والمعنيّ الأول من هذا القرآن ، هل يُعقل أن يغفل عن هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ، حتّى يصدّق على المسلمين قوله تعالى :

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان : ٣٠] .

* * *

موضوعات إيمانية

قوة المؤمن

الله وحده هو القويُّ ، ولا قويَّ سواه ، وكلُّ قوّةٍ في الأرضِ في
الذواتِ والأشياءِ مُستمدّةٌ من قوّةِ الله ، تأييداً ، أو استدراجاً ، أو
تسخيراً ، لحكمةٍ بالغةٍ عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

« الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ »^(١) .

كن عضواً في جمعية الأقياء ، ولا تكن رأساً في قطيع النعاج .
قد تبدو ضعيفاً ؛ لأنك قررت أن تكون ضعيفاً ، فعش كما تريد ،
لكن لا بد أن تعلم أن بإمكانك أن تصبح قوياً ، وأن تتعافى من شعورك
بالضعف .

إن الأقياء بالحق هم السعداء ، وإن الضعفاء بالباطل هم التعتساء !
واعلم يقيناً أن الشيء الذي تنوّه أنك لا تستطيعه هو الشيء الذي
لا تريد أن تكونه .

(١) مسلم (٢٦٦٤) .

القوة مطلبٌ أساسيٌّ ، وإلا فلا قيمة للحياة من دون قوة .

إن القوة مصدرٌ للثقة ، والثقة لا توجد إلا في قلوب الأقوياء .

وإذا أردت القوة الحقيقية فابحث عن قوة لا تحتاج إلى غيرها كي تتقوى بها ، إنها قوة الله عز وجل .

وهذا دليلٌ على أن الجبن والخور ، والاستكانة والاستسلام ، والانهازية والذل ، وجميع المفردات في قاموس الضعف مرفوضة في حياة الأقوياء ؛ فأنت كائنٌ لم تُخلق لتكون مسلوب الإرادة ، بارد الهممة .

تأمل دعاء رسول الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ ، وَغَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ » (١) .

إن عليك ألا تتردد في الانتساب « لعضوية نادي الأقوياء » ، فلديك عملاقٌ ينام بين جنبيك ؛ فابحث عنه حتى لا تموت ، وأنت تعيش بين الأحياء !

ليس مَنْ مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء

تأمل في البعوضة : إنها لا تبدو بالنسبة إليك شيئاً مذكوراً ؛ لكنها أقوى منك ، حينما تصر من دون كلل أو ملل ، في البحث عن منفذ في جلدك .

(١) أبو داود (١٥٥٥) ، وله أصل في الصحيحين .

لكن السؤال المهم في الموضوع : كيف نبحث عن القوة ، ونحن ضعفاء ؟

إن الحديث عن القوة النابعة من الضعف ليس دعوة إلى الرضا بالضعف ، أو السكوت عليه ، بل هو دعوة لاستشعار القوة حتى في حالة الضعف ، إذن يجب أن نبحث في كل مظنة ضعف عن سبب قوة كامنة فيه ، ولو أخلص المسلمون في طلب ذلك لوجدوه ، ولصار الضعف قوة ، لأن الضعف ينطوي على قوة مستورة يؤيدها الله في حفظه ورعايته ، فإذا قوة الضعف تهد الجبال ، وتذك الحصون ، كما ترون وتسمعون .

أنت قوي ، وهذا سرُّ ضعفك ، وأنا ضعيف ، وهذا سرُّ قوتي !

لذلك نستطيع أن نقابل القنبلة الذرية بقنبلة الذرية ، أي : بتربية جيل واع ملتزم ينهض بأمته .

إن أشكال القوة متنوعة ، وإن أبعادها مختلفة ، ومن الصعب الحديث عنها جميعاً ، ولكن نشير إلى أشهر هذه القوى تفصيلاً حيناً وإجمالاً حيناً آخر .

١ - التوحيد قوة

التوحيد هو في الواقع تحرير للإنسان ، من كل عبودية ، إلا لربه الواحد الديان ، الذي خلقه فسواه وكرمه ، التوحيد تحرير لعقله من

الخرافات والأوهام ، التوحيدُ تحريرٌ لضميره من الخضوع والذلّ والاستسلام ، التوحيدُ تحريرٌ لحياته من تسلُّط الأرباب والمتألّهين ، التوحيدُ يُعينُ على تكوين الشخصية المُتَزِنَةِ التي تَوَضَّعَتْ في الحياة وَجْهَتُهَا ، وتَوَحَّدَتْ غَايَتُهَا ، وتحدَّدَ طريقُهَا ، فليس لها إلا إلهٌ واحدٌ ، تتَّجِهُ إليه في الخلوة والجلوة ، وتدعوه في السَّراء والضراء ، وتعملُ على ما يُرضيه في الصغيرة والكبيرة ، ففي القرآن :

﴿ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

[يوسف : ٢٩] .

التوحيد يملأ نفسَ صاحبه أمناً وطمأنينةً ، فلا تستبدُّ بها المخاوف التي تتسلَّطُ على أهلِ الشرك ، فقد سدَّ الموحِّدُ منافذَ الخوفِ التي يفتحها الناسَ على أنفسهم ، الخوفَ على الرزق ، والخوفَ على الأجل ، والخوفَ على النفس ، والخوفَ على الأهل والأولاد ، والخوفَ من الإنس ، والخوفَ من الجن ، والخوفَ من الموت ، والخوفَ ممَّا بعدَ الموت .

أما المؤمنُ الصادقُ ، الموحِّدُ فلا يخافُ إلا اللهَ ، ولا يخشى إلا اللهَ ، ولهذا تراه آمناً إذا خاف الناسُ ، مطمئناً إذا قلقَ الناسُ ، هادئاً إذا اضطربَ الناسُ .

وقال تعالى :

﴿ فَلَا تَنْدَعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

التوحيدُ مصدرٌ لقوةِ النفسِ ، إذ يمنحُ التوحيدُ صاحبه قوةً نفسيةً

هائلة ، حيث تمتلئ نفسه من الرجاء بالله تعالى ، والثقة به ، والتوكل عليه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والاستغناء به عن خلقه ، فهو راسخ كالجبل ، لا تُزعزعه الحوادث ، ولا تُزعزعه الكوارث .

ولما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق ، وطغى في ولايته وتجبّر ، كان الحسن البصري أحد الرجال القلائل الذين بيّنوا للناس الحق والحقيقة ، وصدّعوا بكلمة الحق دون خوف أو وجل ، فعلم الحجاج بذلك ، فماذا فعل ؟ دخل الحجاج إلى مجلسه ، وهو يميّز من الغيظ ، وقال لجلّاسه : تبّا لكم ، سحقا ، يقوم عبد من عبيد أهل البصرة ، ويقول ما شاء أن يقول ، ثم لا يجد فيكم من يرّده ، أو ينكر عليه ، والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء ، ثم أمر بالسيف والنطع - إذا كان يريد قطع رأس إنسان بمكان فيه أثاث فاخر حتى لا يلوث الدم الأثاث يأتون بالنطع ، والنطع قطعة قماش كبيرة ، أو قطعة جلد ، ثم أمر بالسيف والنطع فأحضّر ، ودعا بالجلاد فمّثل واقفا بين يديه ، ثم وجّه إلى الحسن بعض جنده ، وأمرهم أن يأتوا به ، ويقطعوا رأسه ، وانتهى الأمر ، وما هو إلا قليل حتى جاء الحسن ، فشخصت نحوه الأبصار ، ووجفت عليه القلوب ، فلما رأى الحسن السيف والنطع والجلاد حرّك شفّتيه ، ثم أقبل على الحجاج ، وعليه جلال المؤمن ، وعزّة المسلم ، ووقار الداعية إلى الله ، فلما رآه الحجاج على حاله هذه هابه أشدّ الهيبة ، وقال له : ها هنا يا أبا سعيد ، تعال اجلس هنا ، فما زال يوسّع له ويقول : ها هنا ، والناس لا يصدّقون ما يرون ، طبعا طلب ليقتل ، والنطع جاهز ، والسياف واقف ، وكل شيء جاهز لقطع رأسه ، فكيف يستقبله

الحَجَّاجُ ، ويقولُ له : تعالِ إلَيَّ هنا يا أبا سعيد ، حتَّى أُجَلِّسَهُ على فراشِهِ ، ووضَعَهُ جنبَهُ ، ولما أخذَ الحَسَنُ مَجَلِسَهُ التَّفَتَ إلَيهِ الحَجَّاجُ ، وجعلَ يَسْأَلُهُ عن بَعْضِ أُمُورِ الدِّينِ ، والحَسَنُ يَجِيبُهُ عن كُلِّ مَسْأَلَةٍ بِجَنَانٍ ثابِتٍ ، وبيانٍ ساحِرٍ ، وعِلْمٍ واسعٍ ، فقالَ له الحَجَّاجُ : أنتَ سيِّدُ العِلْماءِ يا أبا سعيد ، ثم دعا بِغَالِيَةٍ - وهي نوعٌ من أنواعِ الطَّيْبِ - وطَيَّبَ لَه بِهَا لِحْيَتَهُ ، وودَّعَهُ ، ولما خَرَجَ الحَسَنُ مِن عِنْدِهِ تَبِعَهُ حَاجِبُ الحَجَّاجِ ، وقالَ لَه : يا أبا سعيد ، لَقَدْ دَعَاكَ الحَجَّاجُ لِغَيْرِ مَا فُعِلَ بِكَ ، دَعَاكَ لِيَقْتُلَكَ ، والذي حَدَّثَ أَنَّهُ أَكْرَمَكَ ، وإِنِّي رَأَيْتُكَ عِنْدَمَا أَقْبَلْتَ ، ورَأَيْتَ السَّيْفَ والنَّطْعَ قَدْ حَرَّكَتَ شَفَتَيْكَ ، فَمَاذَا قُلْتَ ؟ فقالَ الحَسَنُ : لَقَدْ قُلْتُ : يا وَلِيِّ نِعْمَتِي ، ومَلاذِي عِنْدَ كُرْبَتِي ، يا مُؤْنِسِي فِي وَحْشَتِي . . . اجْعَلْ نِقْمَتَهُ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ ، كما جَعَلْتَ النَّارَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ .

وقد استنصحه والي البصرة مرّةً ، وقد جاءه من الخليفة توجيةً ؛ إنْ نَفَّذَهُ أَغْضَبَ اللَّهَ ، وإنْ لَمْ يَنْفِذْهُ أَغْضَبَ الْخَلِيفَةَ ، وعزله من الولاية ، قالَ لَه : اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَمْنَعُكَ مِنْ يَزِيدَ ، وَلَكِنْ يَزِيدُ لَا يَمْنَعُكَ مِنَ اللَّهِ .

٢ - المعرفة والعلم قوة

أما المعرفة والعلمُ فهما قوّةٌ هائلةٌ ؛ فالمعرفةُ تعطيك طاقةً لا تتقيّدُ بحدودِ الزمانِ أو المكانِ ، وتُكسِبُ صاحبَها علوًّا ومُتَزَلَّةً ، وتمهّدُ الطريقَ أمامَهُ لِلرَّفْعَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[المجادلة : ١١] .

دخل سليمان بن عبد الملك الحَرَمَ ، ومعه الوزراء ، والأمراء ،
والحاشية ، وقادة الجيش ، وكان حاسِرَ الرأسِ ، حافيي القدمين ، ليس
عليه إلا إزارُهُ ، ورداءُ ، شأنُهُ كَشَانِ أَيِّ حَاجٍّ من المسلمين ، ومن خلفِهِ
وَلَدَاهُ ، وهما غلامان كَطَلْعَةِ البذر بهاءً ، وكأَكمامِ الوردِ نظارةً وطيبًا ،
وما إن انتهى خليفَةُ المسلمين ، وأعظمُ مُلوكِ الأرضِ من الطَّوَافِ حَوْلَ
البيتِ العتيقِ ، حتى مالَ على رجلٍ من خاصَّتِهِ ، وقال : مَنْ عالمُ مَكَّةَ ؟
قالوا : عطاءُ بن أبي رباح ، قال : أروني عطاءَ هذا ، فأشرفَ عليه ،
فوجده شيخاً حَسِيئاً ، أَسْوَدَ البَشَرَةَ ، مُقْلَقَلِ الشَّعْرِ ، أَفْطَسَ الأنفِ ، إذا
جلسَ بدا كالغرابِ الأسودِ ، كأنَّ رأسَهُ زبيبةٌ ، مشلولاً نصفُهُ ، لا يملك
من الدنيا درهماً ولا ديناراً ، فقال سليمانُ : أنتَ عطاءُ بنُ أبي رباحِ الذي
طَوَّقَ ذِكْرُكَ الدنيا ؟ قال : يقولون ذلك ، قال : بماذا حصلتَ على هذا
الشرفِ ؟ قال : باستغنائي عن دنيا الناسِ ، وحاجَّتِهِمْ إلى عِلْمِي الذي
انقطعتُ له ثلاثين عاماً ، قال سليمانُ : يا أيها الحُجَّاجُ لا يفتي في
المناسكِ إلا عطاءُ .

وحدثَ بعد اللقاءِ الأولِ أن اختلفَ سليمانُ وأبناؤُهُ في مسألةٍ من
مسائلِ الحجِّ ، فقال : خذوني إلى عطاءِ بن أبي رباح ، فأخذوه إلى
عطاءٍ ، وهو في الحَرَمِ ، والناسُ متحلِّقون حوله ، فأراد أن يجتازَ
الصفوفَ ، ويتقدَّمَ إليه ، وهو الخليفةُ ، فقال عطاءُ : يا أميرَ المؤمنين ،
خذ مكانَكَ ، ولا تتقدَّمِ الناسَ ؛ فإنَّ الناسَ سيقولون : إلى هذا المكانِ ، فلمَّا

أتى دورهُ سألهُ المسأَلَةُ فأجابهُ ، فقال سليمانُ لأبنائهُ : يا أبنائي ، عليكم بتقوى الله ، والتفقه في الدين ، فوالله ما ذللتُ في حياتي إلا لهذا العبد ، لأن الله يرفع مَنْ يشاء بطاعته ، وإن كان عبداً حبشياً ، لا مالَ ولا نسبَ ، ويذلّ مَنْ يشاء بمعصيته ، وإن كان ذا نسبٍ وشرفٍ . . . ثم قال سليمانُ لأحدٍ ولديه : هذا الذي رأيته يا بني ، ورأيتَ ذُلنا بين يديه هو وارث عبد الله بن عباس ، الصحابي الجليل الذي أوتيَ فهمًا في القرآن الكريم ، وكان مؤسوعةً في كلِّ العلوم ، ثمَّ أُرْدَفَ يقول : يا بني ، تعلّم العلم ، فبالعلم يشرفُ الوضعُ ، وينبهُ الخاملُ ، ويعلو الأرقاءُ إلى مراتبِ الملوك .

ولذلك قيل : رُتِبَةُ العلمِ أعلى الرُتَبِ ، تعلّموا العلمَ ، فإن كنتم سادةً فُتِمَ ، وإن كنتم وسطاً سُدْتُمْ ، وإن كنتم سُوقَةً عِشْتُمْ .

وفي هذا العصرِ ياتمرُّ صنّاعُ القرارِ في أقوى دُولِ العالمِ بأولي الخبرة من العلماء ، فهم الذين يحكمون العالمَ حقيقةً .

٣ - العبادةُ الخالصةُ قوّةٌ

كان رجلٌ من أصحابِ النبي ﷺ يقالُ له جُلَيْبِيبٌ ، رجلٌ فقيرٌ معدومٌ ، عليه أسمالٌ^(١) باليةٌ ، جائعُ البطنِ ، حافي القدمِ ، مغمورُ النسبِ ، لا جاةَ ولا مالَ ولا عشيرةَ ، ليس له بيتٌ يأوي إليه ، ولا أُناتٌ

(١) قال في لسان العرب (سمل) : « سَمَلَ الثوبُ يَسْمَلُ سَمُولًا أَخْلَقَ . . . السَّمَلُ الْخَلْقُ مِنَ الثِّيابِ » .

ولا متاع ، يشرب من الحياض العامة بِكَفِّهِ مع الواردين ، ويناوم في المسجد ، وسادته ذراعته ، وفراشه البطحاء ، وكان في وجهه دمامة ، لكنه صاحب ذكرٍ لرَبِّه ، وتلاوةٍ لكتابِ مَولاه ، لا يغيبُ عن الصفِّ الأول في الصلوات والغزوات ، ويكثرُ الجلوسَ عند النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ ذاتَ يومٍ : يا جُلييبُ ألا تتزوجُ ؟ فقال : يا رسولَ الله ، ومن يزوجُني ؟! فقال رسولُ الله ﷺ : أنا أزُوجُكَ يا جُلييبُ ، فالتفت جُلييبُ إلى الرسولِ ﷺ فقال : إذا تجدُنِي كاسداً يا رسولَ الله . . فقال الرسولُ ﷺ : غيرَ أنك عند الله لست بكاسدٍ ، ثم لم يزل النبي ﷺ يتحينُ الفرصَ حتى يزُوجَ جُلييباً . . . فجاء في يومٍ من الأيام رجلٌ من الأنصارِ قد توفيَ زوجُ ابنته ، فجاء إلى النبي ﷺ يعرضُها عليه ليتزوجَها النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : نعم ، ولكن لا أتزوجُها أنا!! فردَّ عليه الأبُ : لمن يا رسولَ الله!! فقال ﷺ : أزُوجُها جُلييباً . . فقال ذلك الرجلُ : يا رسولَ الله ، تزُوجُها لجُلييبٍ ، يا رسولَ الله ، انتظرُ حتى أستأمرَ أمَّها!! ثم مضى إلى أمَّها ، وقال لها : إن رسولَ الله ﷺ يخطبُ إليك ابنتك ، قالت : نعم ونعمين برسولِ الله ﷺ ، ومن يرُدُّ النبي ﷺ ؟! فقال لها : إنه ليس يريدُها لنفسه!! قالت : لمن ؟ قال : يريدُها لجُلييبٍ!! قالت : لجُلييبٍ!! لا لعمُرُ الله ، لا أزُوجُ جُلييباً ، وقد منعناها فلاناً وفلاناً . . . فاغتمَّ أبوها لذلك ، ثم قام ليأتي النبي ﷺ ، فصاحت الفتاة من خدرِها ، وقالت لأبويها : مَنْ خطبني إليكما ؟ قال الأبُ : خطبك رسولُ الله ﷺ . . قالت : أفترُدَّانِ على رسولِ الله ﷺ أمره . . . ادفعاني إلى رسولِ الله ، فإنه لن يضيِّعني! قال أبوها : نعم . . ثم ذهبَ إلى

النبي ﷺ ، وقال : يا رسول الله شأنك بها . . . فدعا النبي ﷺ جليبيبا ، ثم زوجه إياها ، ورفع النبي ﷺ كفيه الشريفتين ، وقال : اللهم صبّ عليهما الخير صبّا ، ولا تجعل عيشهما كذا كذا !! ثم لم يمض على زواجهما أيام حتى خرج النبي ﷺ مع أصحابه في غزوة ، وخرج معه جلييب ، فلما انتهى القتال اجتمع الناس ، وبدأوا يتفقّدون بعضهم بعضاً ، فسألهم النبي ﷺ ، وقال : هل تفقدون من أحد ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، نفقد فلاناً وفلاناً ، وينسون جلييباً في غمرة الحديث ؛ لأنه ليس لامعاً ولا مشهوراً ، فقال ﷺ : ولكنني أفقد جلييباً . . فنقوموا نلتمس خبره ، ثم قاموا ، وبحثوا عنه في ساحة القتال ، وطلبوه مع القتلى ، ثم مشوا فوجدوه في مكان قريب ، وقد استشهد . . فوقف النبي ﷺ على جسده المقطّع ، ثم قال : أنت مني ، وأنا منك ، أنت مني ، وأنا منك . . ثم تربّع النبي ﷺ جالساً بجانب هذا الجسد ، ثم حمل هذا الجسد ، ووضعه على ساعديه ﷺ ، وأمرهم أن يحفروا له قبراً . . قال أنس : فمكثنا - والله - نحفر القبر ، وجلييب ما له فراش غير ساعد النبي ﷺ . . قال أنس : فعُدنا إلى المدينة ، وما كادت تنتهي عدتها حتى تسابق إليها الرجال يخطبونها . .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

إن الفقر والخمول ما كان في يومٍ من الأيام عائقاً في طريق التفوّق والوصول .

إِنَّ قِيَمَتَكَ فِي مَعَانِكَ الْجَلِيلَةِ ، وَصِفَاتِكَ النَّبِيلَةِ ، لَا فِي دِرْهِمِكَ
وَدِينَارِكَ ، وَلَا فِي بَيْتِكَ وَمَتَاعِكَ .

٤ - الدِّعَاءُ قُوَّةٌ

هَلْ مِنْ وَضِعٍ أَوْضَعُ مِنْ أَنْ يَجِدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي فَمِ حَوْتٍ أَزْرَقٍ يَزِيدُ
وَزْنَهُ عَلَى مِئَةِ وَخَمْسِينَ طَنًّا ؟ ! مِنْهَا خَمْسُونَ طَنًّا لَحْمًا ، وَخَمْسُونَ طَنًّا
دِهْنًا ، وَخَمْسُونَ طَنًّا عَظْمًا ، وَفِيهِ تَسْعُونَ بَرْمِيلاً مِنْ زَيْتِ السَّمَكِ ،
وَوَجْبَتُهُ الصَّغِيرَةُ بَيْنَ الْوَجْبَتَيْنِ أَرْبَعَةُ أَطْنَانٍ مِنَ السَّمَكِ ، وَرَضْعَةٌ وَلِيدُهُ
ثَلَاثُمِئَةِ كِيلُو مِنَ الْحَلِيبِ ، وَيَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَقِفَ عَلَى قَدَمِيهِ فِي فَمِهِ .

لَوْ وَجَدَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ فِي فَمِ الْحَوْتِ كَمْ نِسْبَةُ احْتِمَالِ النِّجَاجِ ، هِيَ
مَعْدُومَةٌ يَقِينًا ، لَكِنْ سَيَدُنَا يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِحِكْمَةٍ تَعْلِيمِيَّةٍ أَرَادَهَا اللَّهُ
جَلَّ جَلَالُهُ سَمَحَ لِحَوْتٍ عَظِيمٍ أَنْ يَلْتَقِمَ نَبِيَّهِ الْكَرِيمَ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَإِنْ يُوسُفُ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿ ١٤٠ ﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
الْمُدْحَضِينَ ﴿ ١٤١ ﴾ فَالْقَمَّةَ الْخَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿ ١٤٢ ﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿ ١٤٣ ﴾ لَلَبِثَ فِي
بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿ [المافات : ١٣٩-١٤٤] .

﴿ فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ ﴾ ٨٧ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿

[الأنبياء : ٨٧-٨٨] .

وَقَدْ يَقُولُ قَائِلٌ : إِنْ هَذَا اسْتِثْنَاءٌ لِنَبِيِّ كَرِيمٍ ، وَنَقُولُ لَهُ : هِيَ قِصَّةٌ
وَقَعَتْ ، لَكِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ حِينَمَا قَالَ :

﴿وَكَذَلِكَ نُشَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٨] .

جعلها قانوناً ينتفع به كلُّ المؤمنين الصادقين .

فالدعاء سلاحُ المؤمن ، فإذا أردتَ أن تكونَ أقوى الناس فادعُ القويَّ
تكن قوياً .

٥ - الاعتزاز بالله قوة

رُستم قائدُ فارس ، وتحت يديه مئتان وثمانون ألفاً من الجنود . يقولُ
لسعد بن أبي وقاص القائد المسلم : « أرسل إليَّ من جنودك رسولاَ
أكلّمه ، فأرسلَ له سعد - رضي الله عنه - ربيعي بن عامر ، وعمره ثلاثون
سنة ، من فقراء الصحابة ، قال سعد : اذهب ، ولا تغَيِّر من مظهرك
شيئاً ، لأننا قومٌ أعزّنا الله بالإسلام ، ومهما ابتغينا العزةَ بغيره أذلّنا الله ،
فخرج ربيعي بفريسه الهزيل ، وثيابه الرثة ، ورمحه البسيط ، فلما سمعَ
رستم أن وافدَ المسلمين سوف يدخلُ عليه جمعٌ حولَه الأسرة الحاکمة ،
والوزراء ، والجنود ، واستعدّوا ليُرهبوا هذا الوافدَ ، لعلّه يتلعثم ، فلا
يستطيع الكلام ، فلما جلسَ رستم قال : أدخلوه عليّ ، فدخل يقودُ
فرسه ، واعتمدَ برمحه على بُسطهم ؛ ليُظهر لهم أن الدنيا حقيرة . وأنها
رخيصةٌ ، وأنها لا تساوي عند الله شيئاً ، ومن علاماتِ رُخصتها وحقارتها
أن أعطاهم إياها ، وجعل سعد بن أبي وقاص ينأى على الثرى ، فلما
وقفَ أمامه قالوا : اجلس ، قال ربيعي : ما أتيك ضيفاً ، وإنما أتيك
وافداً ، فقال رستم : - والترجمان بينهما - ما لكم أيّها العربُ ، ما علمنا

- وأقسمَ بآلهته - قوماً أذلاً ولا أقلَّ منكم ، أنتم أهلُ جِعْلانٍ^(١) ، تطاردون الإبلَ في الصحراءِ ، فما الذي أتى بكم ؟

قال ربعيُّ : نعم أيها الملكُ ، كنا كما قلتَ وزيادةً ، كنا أهلَ جهالةٍ ، نعبُدُ الأصنامَ ، يقتلُ القريبُ قريبه على شاةٍ ، ولكنَّ اللهَ ابتعثنا لنُخرجَ العبادَ من عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العبادِ ، ومن ضيقِ الدنيا إلى سعةِ الآخرةِ ، وللقصةِ تنمة .

اجعل لربك كل عرك يستقيم ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عرك ميت

٦ - الإصرارُ قوَّةٌ

قال أحدُ الفلاسفةِ : إنَّ القرارَ الذي يتخذه الإنسانُ في شأنِ مصيره قلماً تنقُضُهُ الأيامُ ، إنَّ كان صادراً حقاً عن إرادةٍ وإيمانٍ .

روى لي عالمٌ جليلٌ : أنه كان في صعيدِ مصرَ إنساناً أميًّا في الخامسة والخمسين من عمره ؛ لا يعرفُ السماءَ من الأرضِ ، ولا الطولَ من العرضِ ، وقد ذهب ابنُه الشابُّ إلى الأزهرِ في القاهرةِ ، وبعد سنواتٍ عدَّةٍ عاد ابنُه إلى قريته خطيباً لمسجدها ، جلس أبوه في المسجدِ يستمعُ

(١) قال ابن منظور في اللسان (جعل) : « والجعل : دابة سوداء من دواب الأرض ، قيل : هو أبو جعفران ، بفتح الجيم ، وجمعه جِعْلانٌ ، وقد جَعَلَ الماءُ ، بالكسر ، جَعَلًا ، أي : كثر فيه الجِعْلانُ ، وماء جَعِلٌ ومُجْعِلٌ : مات فيه الجِعْلان والسخنافس ، وتهافت فيه ، وأرض مُجْعِلَةٌ : كثيرة الجِعْلان ، وفي الحديث : كما يُذهِبُهُ الجَعْلُ بأنفه ؛ هو حيوان معروف كالخُنْفَساء » .

إلى خطبة ابنه ، وبدل أن يمتلىء قلبه فرحاً بما وصل إليه ابنه من علم ودعوة ، امتلاً قلبه حزناً وحسرة على عمره الذي أمضاه في الجهل والغفلة ، واتخذ قراراً مصيرياً ، وركب حمارته^(١) متجهاً بها من صعيد مصر إلى القاهرة ، واستغرقت الرحلة عشرات الأيام ، ولما وصل إلى القاهرة... سأل : أين الأزعر ؟ فقليل له : أي أزعر ؟ إنه الأزهر ، فالتحق به ، وتعلم القراءة والكتابة ، ثم قرأ القرآن ، ثم طلب العلم... وما زال يطلب العلم حتى انتهى به طلب العلم إلى أن يكون شيخ الأزهر ، وما مات إلا وهو شيخ الأزهر ، وهو أعلى منصب ديني في مصر ، وشيخ الأزهر في مصر بمرتبة رئيس للوزراء .

٧ - الجمال قوة

المرأة - في الأصل - جميلة ، ومحبة إلى زوجها ، وجمالها قوة كبيرة ، لا تحتاج إلى دليل ، ولا إلى شرح طويل ، ولكنها قوة حيادية ، يمكن أن توظف في الخير ، كما يمكن أن توظف في الشر ، فيمكن بجمالها أن تكون أداة إغواء ، وإفساد ، وانهلال ، كما يمكن بجمالها أن تكون أداة ترويض ، وإصلاح ، واكتمال .

وقد أدرك الغربيون هذه الحقيقة ، فكانوا يجبروننا بالقوة المسلحة على أن نفعل ما يريدون ، لكنهم الآن - من خلال البث الفضائي -

(١) قال ابن منظور (أثن) : « الحمار يقع على الذكر والأنثى ، والأنثى ، والجمارة الأنثى خاصة » ، وقال الرازي في مختار الصحاح (حمر) : « وربما قالوا للأنثى : حمار » .

يجبروننا بالقوة الناعمة أن نريد ما يريدون ، وقالوا : وراء كل رجل عظيم امرأة ، وأحياناً : لولاها لكان رجلاً عظيماً ، إنها قوة في الخير إذا استقامت ، وقوة في الشر إذا انحرفت .

قال الرافعي : « إن خير النساء من تضيفُ إلى جمالها جمالَ أخلاقها ، ويكونُ عقلُها جمالاً ثالثاً ، فهذه المرأة إن أصابت الرجل الكفءَ يَسِرَتْ عليه ، ثم يَسِرَتْ عليه ، ثم يَسِرَتْ عليه ، إذ تعدّ نفسها إنساناً يريدُ إنساناً ، ولا تعرض نفسها متاعاً يريدُ شارياً » .

٨ - العفة قوة

نبي كريم بن كريم بن كريم ، يوسف عليه السلام ، كان طفلاً أثيراً عند أبيه سيدنا يعقوب ، ائتمر إخوته عليه ، وجعلوه في غيابة الجُبِّ ليتخلصوا منه - والقصةُ معروفة - ومرّت بالبئر قافلة ، واستخرجته من البئر ، وباعته بثمانٍ بخسٍ ، وانتهى به البيعُ ليكونَ عبداً في قصرٍ عزيزٍ مصرَ ، وكان آيةً في الجمالِ ، فدعته امرأةُ العزيزِ إلى نفسها ، فاستعصم ، وقال :

﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وانتهى به الأمرُ إلى أن صار أقوى رجلٍ في مصرَ ، صار عزيزَ مصرَ ، قال تعالى :

﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْرِفْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضْمِعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾

٩ - التسبيحُ قوَّةٌ

التسبيحُ قوَّةٌ وسبيلٌ إلى الفرجِ من دونِ حاجةٍ إلى وسائلٍ بشريةٍ تتقوى بها لتعينك على قضاءِ حوائجك ، يقول الله تعالى عن يونس في أثر قوَّة التسبيح :

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَّيْتُ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[الصافات : ١٤٣-١٤٤]

١٠ - الاستغفارُ قوَّةٌ

قال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾ . [نوح : ١٠-١٢] .

وفي حديث ابن عباس : « مَنْ أَكْثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ » (١) .

١١ - التقوى قوَّةٌ

قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [العلاق : ٢-٣] .

(١) الحاكم في المستدرک (٧٦٧٧) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

١٢ - الاستقامة قوة

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(٣٠)
تَحْنُ أُولِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ^(٣١) ﴿ نَزَّلْنَا مِنْ عَفْوَ رَحِيمٍ ﴾ [فصل : ٣٠-٣٢] .

يقول جلّ جلاله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ومجمل القول :

الشرفُ كلُّ الشرفِ ليس في الدُّورِ ، ولا القصورِ ، ولا في الأموالِ ،
ولا في الأولادِ ، ولا في الهيئاتِ ، ولا في الدُّوَاتِ ، الشرفُ أن تكونَ
عبداً لربِّ الأرضِ والسمواتِ ، الشرفُ أن تكونَ من أولياءِ الله ، الذين
يعملون الصالحاتِ ، ويجتنبون المحرّماتِ .

١٣ - الإيمانُ قوةٌ مطلقةٌ

ماشطة بنت فرعونَ ، هي تلك المرأةُ الصالحةُ ، التي كانت تعيش هي
وزوجها في ظلِّ مُلكِ فرعونَ ، زوجها مقربٌ من فرعونَ . وهي خادمةٌ
ومربيةٌ لبناتِ فرعونَ ، فمنَّ اللهُ عليهما بالإيمانِ . . . وعلمَ فرعونُ بإيمانِ
زوجها فقتله ، فلم تزلِ الزوجةُ تعملُ في بيتِ فرعونَ تمشطُ شعرَ بناته ،
وتنفقُ على أولادها الخمسةِ ، وفي يومٍ وهي تمشطُ شعرَ ابنةِ فرعونَ وقع

المشط من يدها فقالت : بسم الله ، فقالت ابنةُ فرعونَ : الله . . . أبي ؟ فصاحت الماشطةُ بابنةِ فرعونَ : كلاً . . بل اللهُ ربِّي وربُّك وربُّ أبيك ، فتعجبت البنتُ أنْ تعبدَ ماشطتها غيرَ أبيها ، فأخبرته ، فعجبَ فرعونُ أنْ يوجدَ في قصره مَنْ يعبدُ غيرهَ ، فدعا بها ، وقال لها : من ربُّك ؟ فقالت : ربِّي وربُّك الله ، فاشتعلَ غيظاً ، وأمرَ بقدرٍ من نحاسٍ مملوءٍ بالزيتِ المغليِّ ، وأوقفها أمامَ القدرِ ، فلما رأتِ العذابَ أيقنتُ إنما هي نفسٌ واحدةٌ تخرجُ ، وتلقى اللهَ تعالى ، وعلمَ فرعونُ أنْ أحبَّ الناسِ إليها أولادُها الخمسةُ الأيتامُ الذين تكدحُ لهم وتطعمهم ، فأرادَ أنْ يزيدَ عذابها فأمرَ بإحضارِ أطفالِها الخمسةِ ، فلما رأوا أمَّهُم تعلقوا بها يبكون ، فانكبَّت عليهم تقبلُّهم وتبكي ، وأخذتُ أصغرهم ، وضمتُّه إلى صدرها ، وألصقتهُ ثديها ، فلما رأى فرعونُ المنظرَ سألَ أمَّهُم : ألكِ ربٌّ غيري ؟ قالت : اللهُ ربِّي وربُّك ، فأمرَ برميِ أكبرهم في القدرِ ، فجزَّه الجنودُ ، ودفعوه إلى الزيتِ المغليِّ ، والغلامُ يصيحُ بأُمِّه ويستغيثُ ، ويسترحمُ الجنودَ ، ويتوسَّلُ إلى فرعونَ ، ويحاولُ الفكَّاكَ والهَرَبَ ، وينادي إخوته الصغارَ ، ويضربُ الجنودَ بيديه الصغيرتين ، وهم يصفعونَه ويدفعونه ، وأُمُّه تنظرُ إليه وتودِّعُه ، فما هي إلا لحظات حتى أُلقيَ الصغيرُ في الزيتِ المغليِّ ، والأُمُّ تبكي ، وإخوته يغطُّون أعينهم بأيديهم الصغيرة ، حتى ذابَ لحمُه من على جسده النحيلِ ، وطَفَّتْ عظامُه البيضاءً فوق الزيتِ فنظر إليها فرعونُ ، وقال لها : ألكِ ربٌّ غيري ؟ قالت : اللهُ ربِّي وربُّك ، وأمرها بالكفرِ ، فأبَّتْ عليه ذلك ، فغضبَ فرعونُ ، وأمرَ بولدها الثاني ، فسحبَ من عند أمِّه ، وهو يبكي ، ويستغيثُ ، وأُلقيَ في

القدر ، فما هي إلا لحظات حتى طفت عظامه البيضاء ، واختلطت بعظام أخيه ، والأمُّ ثابتةٌ على دينها ، موقنةٌ بقاء ربِّها ، ثم قال لها : ألك ربُّ غيري ؟ قالت : اللهُ ربِّي وربُّك ، ثم أمرَ فرعونُ بالولدِ الثالثِ فسُحِبَ ، وفُعلَ به ما فُعلَ بأخويه ، والأمُّ ثابتةٌ على دينها ، فأمرَ فرعونُ أن يُطرحَ الرابعُ في الزيتِ ، فأقبلَ الجنودُ إليه ، وكان صغيراً يتعلَّقُ بثوبِ أمِّه ، فلما جذبَه الجنودُ بكى ، وانطرح على قدمي أمِّه ، ودموعُه تجري على رجليها ، فحاولت أن تحمله لتودِّعه ، وتقبِّله قبل أن يفارقها ، فحال الجنودُ بينه وبينها ، وحملوه من يديه الصغيرتين ، وهو يبكي ، ويستغيثُ ، ويتوسَّلُ بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ ، وهم لا يرحمونه ، وما هي إلا لحظاتٌ حتى غرقَ في الزيتِ المغليِّ ، وغابَ الجسدُ ، وانقطعَ الصوتُ ، وعَلَّتْ عظامه الصغيرةُ البيضاءُ فوق الزيتِ ، والأمُّ تنظرُ إلى عظامه ، وقد رحل عنها إلى دارٍ أخرى ، وهي تبكي لفراقه ، إذ طالما ضمَّته إلى صدرها ، وأرضعته من ثديها ، وطالما سهرت لسهره ، وبكت لبكائه ، بقي الرضيعُ الذي يلتقم ثديها . . . فجاهدت الأمُّ نفسها أن تتجلَّدَ ، وتتماسك ، وهنا سألتها فرعونُ : ألك ربُّ غيري ؟ فسكتت ، وتضعضت . . . وهنا حدثت المعجزةُ التي أخبر عنها رسولُ الله ﷺ : لقد أنطقَ اللهُ هذا الرضيعَ ، فقال : اثبتي يا أمي . . . أنتِ على الحقِّ . . . فقالت الأمُّ لفرعونَ : اللهُ ربِّي وربُّك ، فأمرَ فرعونُ الجنودَ فانطلقوا إليها ، وتدافعوا نحوها ، وانتزعوا الخامسَ الرضيعَ من بين يديها ، وكان قد التقمَ ثديها ، فلما انتزع منها ، صرخ الصغيرُ ، وبكت المسكينةُ ، وألقى في الزيتِ ، وفي فمه بقايا من حليبها ، وفي يده شعرة من شعرها ،

وعلى ثيابه بقيةً من دَمِهَا ، وذهب الأولادُ الخمسةُ ، وعن قريبٍ ستكونُ معهم ، ولم يبقَ إلَّا هي ، فأقبلوا إليها كالكلابِ الضارية ، ودفعوها إلى القِدرِ ، فلما حملوها ليقذفوها في الزيتِ نظرتُ إلى فرعونَ ، وقالت له : اجعل عظامي وعظامَ أولادي في قبرٍ واحدٍ^(١) .

كانت هذه الماشطةُ تستطيعُ أن تحُولَ بينها وبين هذا العذابِ بكلمةٍ كفرٍ تُسمِعُها فرعونَ ، لكنها علمت أن ما عندَ الله خيرٌ وأبقى ، فللهِ دَرُ هذه الماشطةِ . . فما أقوى إيمانها ! وما أعظم ثباتها ! وحينما لا يملكُ الإنسانُ سلاحاً يحمي به نفسه ، أو يواجهُ به عدوّه ، ويثبتُ على مبدئه ، ولا يتضعضُ أمام الطغيانِ ، يكون قد انتصرَ انتصاراً مبدئياً ، يقطعُ ثماره في اليومِ الآخرِ .

ولقد رأى النبي ﷺ ليلةَ الإسراءِ شيئاً من نعيمها فحدث أصحابه به وقال : « لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَزْتُ بِرَائِحَةِ طَيِّبَةٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ يَا جِبْرِيلُ ؟ فَقَالَ لِي : هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ بِنْتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادِهَا »^(٢) .

وعند البخاري أن رسولَ الله ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لِأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا - أَيِ مَا بَيْنَ الْمُسْرِقِ وَالْمَغْرَبِ - وَلَمَلَأَتْهُ رِيحاً ، وَلَنَصِيفُهَا ، يَعْنِي خِمَارَهَا ، عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »^(٣) .

(١) انظر القصة بالفاظها في مسند أحمد (٢٨٢٢) ، وصحيح ابن حبان (٢٩٠٣) ، فتح الباري (٤٨٠ / ٦) عن ابن عباس .

(٢) مسند أحمد (٢٨٢٢) ، وصحيح ابن حبان (٢٩٠٣) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٢٢٧٩) عن ابن عباس .

(٣) البخاري (٢٦٤٣) ، الترمذي (١٦٥١) ، أحمد (١٢٥١٤) عن أنس .

ولنا أن نستنبط من هذه القصة الشيء الكثير ، ولنا أن نأخذ منها إسقاطات كثيرة على واقع العرب والمسلمين ، فالفراغة الذين تأمروا على الأمة العربية والإسلامية كثيرون ، وهم في كل عصر ومصر ، فمعركة الحق والباطل أزلية أبدية ، ولعل في هذه القصة مواساة لمن يقتل مقهوراً ثابتاً على مبدئه ، متمسكاً بقيمه .

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .
 ﴿ وَجَنُوزَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر : ٤٥-٤٦] .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّخِ أَتْنَاءَهُمْ وَيَسْتَنَحِيهِنَّ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٧﴾ وَرِيدُكَ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَتَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٤-٥] .

● هذه قصة الطغاة في الأرض .

* * *

السَّكِينَةُ

نحن في أَمَسِّ الحاجةِ إلى هَذِي نَبِينَا ﷺ الرَّبَّانِيِّ ، الذي لا تزيده الأيامُ إلا رسوخاً وشموخاً ، ونحن في أَمَسِّ الحاجةِ إلى سنته المطهرة ، المنهج القويم ، والصراطِ المستقيم ، ونحن في أَمَسِّ الحاجةِ إلى أخلاقه العظمى ، التي لا يزيدها التأملُ والتحليلُ إلا نصارةً وتألقاً .

وحقيقة إحياء ذكرى المولد أن نطبّقَ سنته ﷺ ، وأن نتأسّى بسيرته ، لنقطفِ الثمارَ اليانعة ، التي قطفها أصحابه الكرام .

ومن الثمار الكبرى تلك السكينة التي تنزلُ على قلوبِ المؤمنين ، فتجعلُ الواحدَ منهم ، وهو في الناس رجلاً ، وفي الرجال بطلاً ، وبين الأبطال مثلاً .

ذلك أن المؤمنَ استجابَ لنداءِ فطرته ، واهتدى إلى سرِّ وجوده ، فتوضّحتْ لديهِ الغايةُ والطريقُ ، وأَنَسَ بالوجودِ كُلَّهُ ، وعاشَ في معيةِ الله ، ومعيةِ رُسُلِهِ وأوليائِهِ ، ونَجَا مِنْ عذابِ الحيرةِ والشكِّ .

إنَّ السكينةَ وردتْ في القرآنِ الكريمِ في عدّةِ آياتٍ ، مِنْ أبرزها قوله

تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ، وقال تعالى :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح : ١٨] .

فلا سعادة بلا سكينه ، ولا سكينه بلا إيمان ، فالسكينه هي الغايه المثلّی للحیاه الرشیده ، وهذه السكينه تزهر بغير عون من المال ، بل بغير مدد من الصحه ، يسعد بها الإنسان ، ولو فقد كل شيء ، ويشقى بفقدها ، ولو ملك كل شيء ، هذه السكينه ليست مُلك أحد فيمسكها أو يرسلها ، ولكنها في متناول كل واحد من البشر ، إذا دفع ثمنها .

فما من نعمه - تُحجب معها السكينه - إلا وتقلب بذاتها إلى نقمه ، وما من محنة تحفها السكينه إلا وتكون هي بذاتها نعمه ، ينأ الإنسان على الشوك مع السكينه ، فإذا هو مهاد وثير ، وينأ على الحرير ، وقد أمسكت عنه السكينه ، فإذا هو - أي الحرير - شوك القتاد^(١) .

يعالج المرء أعسر الأمور - ومعه السكينه - فإذا هي هواده ويُسّر ، ويعالج أيسر الأمور ، وقد تخلت عنه السكينه ، فإذا هي مشقه وعسر ، ويخوض المخاوف والأخطار ، ومعه السكينه ، فإذا هي أمن وسلام ، ويعبر المناهج والسبل ، وقد أمسكت عنه السكينه ، فإذا هي مهلكه وبوار .

هذه السكينه لا تعز على طالب - كائناً من كان - في أي زمان ومكان ،

(١) [القتاد شجر شاك - فيه شوك - صُلب ينبت بنجد وتهامة ، واحده قتاده ، قال أبو حنيفة : القتاد ذات شوك] ، (لسان العرب ، مادة قتد) .

وفي أيّ حال ومآل ، وجدها إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار^(١) ،
 ووجدها يوسف عليه الصلاة والسلام في الجُب^(٢) ، كما وجدها في
 السجن فمكّنه الله في الأرض^(٣) ، ووجدها يونس عليه الصلاة والسلام في
 بطن الحوت^(٤) في ظلمات ثلاث^(٥) ، ووجدها موسى عليه الصلاة
 والسلام في اليم^(٦) ، وهو طفلٌ مجرّدٌ من كلّ قوةٍ وحراسةٍ ، ووجدها
 أصحابُ الكهف في الكهف ، حينما افتقدوها في الدّور والقصور^(٧) .

ووجدها نبيّنا عليه الصلاة والسلام وصاحبه في الغار^(٨) ، والأعداءُ

- (١) قال تعالى : ﴿ قُلْنَا بَنَّاكَ كُوفِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] .
 (٢) قال عزوجل : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢١] .
 (٣) قال سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٦] .
 (٤) قال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [٢١] فاستجبنا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْغَنَمِ وَكَذَلِكَ نُشَجِّرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧-٨٨] .
 (٥) ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت .
 (٦) حين أمر الله أم موسى بإلقائه فيه : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ قَالَتْ قَاتِلِيهِ فَإِنَّهُ سَفِيهُهُ وَقَدْ أَدْرَأْتَهُ الْبَرَّ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ الْمَرْسُولِينَ ﴾ [القصاص : من الآية ٧] .
 (٧) قال تعالى : ﴿ تَحَنَّنْ غُضُّ عَلَيْكَ رَبُّهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّمَا فِيهِمْ نَفْسٌ أَمْسُوا بَرِيهِمْ وَرَدَّتْهُمْ هُدًى ﴾ [١٣] وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : ١٣-١٤] .
 (٨) قال تعالى : ﴿ إِذْ هُمْ فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّكَ اللَّهُ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُثُوبٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

يتعقبونه ، وَيَقْصُونَ الْآثَارَ ، ويجدُها كلُّ مؤمنٍ أوى إلى ربِّه ، يائساً ممَّن سواه ، قاصداً بابَه وحده ، دون كلِّ الأبواب^(١) .

يسبُطُ اللهُ الرزقَ مع السكينةِ ، فإذا هو متاعٌ طيبٌ ، ورخاءٌ وفيرٌ ، وإذا هو رَغْدٌ في الدنيا ، وزادٌ إلى الآخرة ، ويمسكُ السكينةَ مع الرزقِ ، فإذا هو مثارٌ قلقي وخوفٍ ، وحسدٍ وبُغْضٍ ، وقد يكون معه الحرمانُ ، ببخلٍ أو مرضٍ ، وقد يكون معه التَّلَفُ بالتفريطِ والاستهتارِ .

يمنحُ اللهُ الذريةَ مع السكينةِ ، فإذا هي زينةُ الحياةِ الدنيا ، ومصدرُ فرحٍ واستمتاعٍ ، ومضاعفةٌ للأجرِ في الآخرةِ بالخَلْفِ الصالحِ ، ويمسكُ السكينةَ ، فإذا الذريةُ بلاءٌ ، ونكدٌ ، وعنتٌ ، وشقاءٌ ، وسهرٌ بالليلِ ، وتعبٌ بالنهارِ .

يهبُ اللهُ الصحةَ والعافيةَ مع السكينةِ ، فإذا هي نعمةٌ وحياةٌ طيبةٌ ، ويمسكُ سكينتهُ ، فإذا الصحةُ والعافيةُ بلاءٌ يسلبُ اللهُ على الصحيحِ المعافى ، فينفقُ الصحةَ والعافيةَ فيما يحطِّمُ الجسمَ ويفسدُ الروحَ ، ويدَّخرُ السوءَ إلى يومِ الحسابِ .

ويعطي اللهُ الجاهَ والقوةَ مع السكينةِ ، فإذا هي أداةٌ لإصلاحٍ ، ومصدرُ أَمْنٍ ، ووسيلةٌ لادِّخارِ الطَّيِّبِ الصالحِ مِنَ العملِ والأثرِ ، ويمسكُ سكينتهُ ، فإذا الجاهُ والقوةُ مصدرًا قلقي على قُوَّتِهِ ، ومصدرًا ضغيانٍ

(١) قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] ، وقال : ﴿ ثُمَّ نُنْجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، [يونس : ١٠٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

وبغي ، ومصدراً حَقْدٍ وكرهية ، لا يقرُّ لصاحبها قرارٌ ، ويدخر بها
للآخرة رصيذاً ضخماً يدفع به إلى النار .

إنَّ سَكِينَةَ النَّفْسِ هي ينبوعُ الأولِّ للسَّعادة ، ولكنَّ كَيْفَ السَّبِيلُ إليها
إذا كانت شيئاً لا يثمره الذكاء ، ولا العلم ، ولا الصحة والقوة ،
ولا المال والغنى ، ولا الشهرة والجاه ، ولا غيرُ ذلك مِنْ نِعَمِ الحَيَاةِ
المادية .

إنَّ للسَّكِينَةِ مصدرًا واحدًا لا ثانيَ له ، هو الإيمانُ بالله واليوم الآخر ،
الإيمانُ الصادقُ العميقُ ، الذي لا يكدِّره شكٌّ ، ولا يفسدهُ نفاقٌ ،
والعملُ بمقتضى هذا الإيمان ، هذا ما يشهدُ به الواقعُ الماثِلُ ، وما يؤيِّده
التاريخُ الحافلُ ، وما يلمسه كلُّ إنسانٍ بصيرٍ منصفٍ في نفسه ، وفيمن
حوْلَه .

لقد علَّمتنا الحَيَاةُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ قلقًا وضيقًا ، واضطرابًا وشعورًا
بالتفاهة والضَّياع هم المحرومون مِنْ نعمة الإيمان وبرِّد اليقين ، وإنَّ
حياتهم لا طعمَ لها ولا مذاقَ ، وإنَّ حفلةً باللذائذ والمرفَّهات ، إنَّهم
لا يدركون لها معنى ، ولا يعرفون لها هدفًا ، ولا يفقهون لها سرًّا ،
فكيف يظفرون مع هذا بسكينة النفس وانسراح الصدر ؟ .

إنَّ هذه السَّكِينَةَ ثمرةٌ من ثمارِ دَوْحَةِ الإيمانِ ، وشجرة التوحيدِ
الطَّيِّبَةِ ، التي تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذنِ ربِّها ، وهي نفحةٌ مِنَ السَّمَاءِ ،
يُنْزِلُهَا اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ لِيَتَّبِعُوا إِذَا اضْطَرَبَ
النَّاسُ ، وَلِيَرْضَوْا إِذَا سَخَطَ النَّاسُ ، وَلِيُوقِنُوا إِذَا شَكَّ النَّاسُ ، وَلِيَصْبِرُوا
إِذَا جَزَعَ النَّاسُ ، وَلِيَحْلُمُوا إِذَا طَاشَ النَّاسُ .

هذه السكينة نورٌ من الله ، وروحٌ منه ، يسكنُ إليها الخائفُ ، ويطمئنُ عندها القلقُ ، ويتسلى بها الحزينُ ، ويستروحُ إليها المتعبُ ، ويقوى بها الضعيفُ ، ويهتدي بها الحيرانُ .

هذه السكينة نافذةٌ على الجنة ، يفتحها الله للمؤمنين من عباده ، منها تهبُّ عليهم نسائمها ، وتشرقُ عليهم أنوارها ، ويفوحُ شذاها وعطرها ، ليزيقهم بعض ما قدّموا من خير ، ويريههم نموذجاً لما ينتظرهم من نعيم ، فينعموا من هذه النسمات بالروح والريحان ، والأمن والإيمان ، ففي الدنيا جنةٌ ، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، إنها جنة القرب ، إنها جنة السكينة ، قال تعالى :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ [محمد : ٦] .

أسباب السكينة لدى المؤمن

أول أسباب السكينة لدى المؤمن أنه هُدي إلى فطرته التي فطره الله عليها ، وهي فطرةٌ متسقةٌ ، ومتجاوبةٌ مع فطرة الوجود الكبير كله ، فعاش المؤمن مع فطرته في سلامٍ ووثاقٍ ، لا في حربٍ وخصامٍ ، ومع من حوله في شفافيةٍ ومشاركةٍ ، لا في وحشةٍ وعداوةٍ .

ذلك لأن في القلب شعناً لا يلمُّه إلا الإقبال على الله ، وفي القلب وحشةٌ لا يزيلها إلا الأنس بالله ، وفيه حزنٌ لا يذهبُه إلا السرور بمعرفة الله ، وفيه قلقٌ لا يسكنه إلا الاجتماعُ عليه ، والفرارُ إليه ، وفي القلب نيرانُ حسراتٍ لا يطفئها إلا الرضى بأمره ، ونهيه ، وقضائه وقدّره ، والصبر على ذلك إلى يوم لقائه ، وفي القلب فاقةٌ لا تسدّها إلا

محبتة ، والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له ، وتظلُّ الفطرة الإنسانية تشعرُ بالتوتر والجوع والظلم ، حتى تجد الله ، وتؤمن به ، وتتوجه إليه ، عندها تستريح من تعب ، وترتوي من ظمأ ، وتأمين من خوف ، وتشعر بالهداية بعد الحيرة ، وتشعر بالاستقرار بعد التخبُّط ، وتطمئن بعد القلق .

إن الإنسان خلق عجيَّب ، جُمع بين قبضة من طين الأرض ، ونفخة من روح الله ، فمن عرَف جانب الطين ، ونسي نفخة الروح لم يعرف حقيقة الإنسان ، ومن أعطى الجزء الطيني فيه غذاءه ورِيه ، ولم يعط الجانب الروحي غذاءه ورِيه من الإيمان بالله ، والإقبال عليه فقد بَخَسَ الفطرة الإنسانية حقها ، وجهل قدرها ، وحرَمَها ما به حياتها وقوامها .

وقد يتراكم على هذه الفطرة صدأ الشبهات ، أو غبار الشهوات ، وقد تنحرف وتدنسُ باتباع الظن ، أو اتباع الهوى ، أو التقليد الجاهل للأجداد والآباء ، أو الطاعة العمياء للسلطة والكبراء ، وقد يُصاب الإنسان بداء الغرور والعُجب ، فيظن نفسه شيئاً يقوم وحده ، ويستغني عن الله .

يَبْدُ أَنَّ الفطرة الأصلية تذبُل ولا تموت ، وتَكْمُن ولا تزول ، فإذا أصاب الإنسان من شدائد الحياة ومصائبها ما لا قِبَلَ له به ، ولا يد له ولا للناس في دفعه ولا رفعه ، فسرعان ما تزول القشرة السطحية المضللة ، وتبرز الفطرة العميقة الكامنة ، وينطلق الصوت المخنوق المحبوس داعياً ربّه ، منيباً إليه ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ

الْإِنْسَانُ كَفُورًا ۝ [الإسراء : ٧٧] .

وضوح الغاية والطريق عند المؤمن

إنَّ غيرَ المؤمنِ يعيشُ في الدنيا تتوزَّعُه همومٌ كثيرةٌ ، وتتنازعُه غاياتٌ شتى ، هذه تميلُ به إلى اليمينِ ، وتلك تجذبُه إلى الشمالِ ، فهو في صراعٍ دائمٍ داخلَ نفسه ، وهو في حيرةٍ بينَ غرائزه الكثيرةِ أيُّها يرضي ، غريزةُ البقاءِ أم غريزةُ النوعِ ؟ وهو حائرٌ مرةً أخرى بينَ إرضاءِ غرائزه ، وإرضاءِ المجتمعِ الذي يحيا فيه ، وهو حائرٌ مرةً ثالثةً ، أيُّ فئاتِ المجتمعِ يرضي ؟ وهنا يذكرون الحكايةَ المشهورةَ ؛ حكايةَ الشيخِ وولده وحماله ، ركبَ الشيخُ ومشى ولده وراءه ، فتعرَّضَ الشيخُ لِلَّومِ للنساءِ ، وركبَ الولدُ ومشى الشيخُ ، فتعرَّضَ الولدُ لِلَّومِ للرجالِ ، وركبا معاً فتعرَّضا لِلَّومِ دعاةِ الرِّفْقِ بالحيوانِ ، ومشيًا معاً والحمارُ أمامهما ، فتعرَّضا لسخريةِ الأولادِ ، واقتراحَ الولدِ أنْ يحملَاَ الحمارَ ، ليستريحَا مِنْ لومِ اللاتمينِ ، فقال له الأبُّ الشيخُ : لو فَعَلْنَا لَأَتَعَبْنَا أَنْفُسَنَا ، وَلَرَمَّانَا النَّاسُ بِالْجَنُونِ ، حيث جعلنا المركوبَ راكباً ، يا بني ؛ لا سبيلَ إلى إرضاءِ الناسِ .

لقد استراح المؤمنُ من هذا كُلِّه ، وحصرَ الغاياتِ كُلَّها في غايةٍ واحدةٍ ، عليها يحرصُ ، وإليها يسعى ، وهي رضوانُ الله تعالى ، لا يبالي معها برضى الناسِ أو سخطِهم ، شعارُهُ ما قاله ذاك الشاعرُ :

فليتك تحلُّو والحياةَ مَريرةً وليتك ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامِرٌ وبينى والعالمينَ خرابُ
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ

لقد جعل المؤمنُ همومَه همًّا واحداً ، هو سلوكُ الطريقِ الموصلِ إلى مرضاتِه تعالى ، والذي يسألُ اللهَ تعالى أن يهديه إليه في كلِّ صلاةٍ عدَّةَ مراتٍ : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ ، هو طريقٌ واحدٌ لا عِوَجَ فيه ، ولا التواءَ ، قال تعالى :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وما أعظمَ الفرقَ بينَ رجلين ؛ أحدهما عَرَفَ الغايةَ ، وعرفَ الطريقَ إليها ، وآخرُ ضالٌّ يخبِطُ في عمايةٍ ، ويمشي إلى غيرِ غايةٍ ، لا يدري إلامَ المسيرُ ؟ ولا إلى أينَ المصيرُ ؟ قال سبحانه وتعالى :

﴿أَفَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

[المُلْك : ٢٢]

في غزوةِ الأحزابِ ، وقد ابتلي المؤمنون ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، إذ جاءهم الأعداءُ من فوقهم ، ومن أسفلَ منهم ، وإذ زاغتِ الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الخناجرَ ، وظنَّ الناسُ باللهِ الظنونَ ، وكشَفَ المنافقونَ النقابَ ، فقالوا :

﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب : ١٢] .

في هذا الجوّ الرهيبِ كان موقفُ المؤمنين هو موقفُ السكينةِ ، والطمأنينةِ الذي عَهِدَ منهم ، والذي سَجَّلَهُ اللهُ لهم في كتابه ، فقال تعالى :

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ۝ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

لقد عرّف المؤمنُ الغايةَ فاستراح ، وعرّف الطريقَ فاطمأن ، إنه طريقُ الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّديقين والشهداء والصالحين .

اهتداء المؤمن إلى سرّ وجوده

إن في أعماق الإنسان أصواتاً خفية تناديه ، وأسئلة تلح عليه ، منتظرة الجواب الذي يذهب به القلق ، وتطمئن به النفس ، ما العالم ؟ ما الإنسان ؟ من أين جاء ؟ من صنعهما ؟ من يدبرهما ؟ ما هدفهما ؟ كيف بدءا ؟ كيف ينتهيان ؟ ما الحياة ؟ ما الموت ؟ ماذا بعد الموت ؟ هذه الأسئلة التي ألحّت على الإنسان من يوم خلق ، وإلى أن تطوى صفحة الحياة لم تجد ، ولن تجد لها أجوبة شافية إلا في الدين ، فهو وحده الذي يحلّ عقدة الوجود الكبرى ، وهو المرجع الوحيد الذي يستطيع أن يجيبنا عن تلك الأسئلة بما يرضي الفطرة ، ويقنع العقل .

المؤمن يعيش في معية الله

إن شعور المؤمن بمعية الله وصحبته يجعله في أنسٍ دائم بربه ، ونعيمٍ موصولٍ بقربه ، يشعر بالنور يغمر قلبه ، ولو أنه في ظلمة الليل البهيم ، ويشعر بالأنس يملأ عليه حياته ، كيف يشعر المؤمن بالوحدة وهو يقرأ قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَانْجِبُوا لِيَوْمَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَسِيعُ الْعِلْمِ﴾ [البقرة :

٢١٥] ، وإن كان في وحشة من الخلطاء والمعاشرين ، قال عز وجل :

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد : ٤] .

إنه يشعر بما شعر به موسى عليه السلام حينما قال لبني إسرائيل :

﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

إنه يشعر بما شعر به محمد ﷺ وهو في الغار :

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] .

إن شعور المؤمن أن يده في يد الله ، وأن عنايته تسير بجانبه ، وأنه ملحوظ بعينه التي لا تنام ، وأنه معه حيث كان ، يطرد عنه شبح الوحدة المخيف ، ويزيح عن نفسه كابوسها المزعج ، يقول الله تعالى في الحديث القدسي : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ ، وَإِنْ تَقَرَّبَ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »^(١) ، ويقول تعالى في كتابه العزيز :

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

فالمؤمن لا يعتريه ذلك المرض النفسي الويل ، الذي يفتك بالمحرومين من الإيمان ، مرض الشعور بالوحدة المقلقة ، إذ يشعر صاحبه أن الدنيا مقفلة عليه ، وأنه يعيش منعزلاً ، والعلاج الأمثل لهذا المرض هو اللجوء إلى الدين ، والاعتصام بعروة الإيمان الوثقى ، وإشعار المريض بمعية الله ، والأنس به .

(١) البخاري (٦٩٧٠) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة .

المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصدّيقين .

إنّ المؤمن لا يشعر أنّه في عزلة عن إخوانه المؤمنين ، إنهم إن لم يكونوا معه في عمله أو مسجده أو مسكنه فهم يعيشون دائماً في ضديره ، ويحيون في فكره ووجدانه ، فهو إذا صلى منفرداً تحدث باسمهم :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] ، وإذا دعا دعا باسمهم :

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٦] ، وإذا ذكر نفسه ذكرهم :

« السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ » (١) .

إنه لا يعيش مع مؤمنٍ عصره فحسب ، بل يتخطى الأجيال ، ويخترق العصور والمسافات ، ويحيى مع المؤمنين ، وإن باعدت بينه وبينهم السنون والأعوام ، ويقول ما قال الصالحون :

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر : ١٠] .

إنّ المؤمن يشعر أنّه يعيش بإيمانه وعمله الصالح مع أنبياء الله ، ورسله المقربين ، ومع كل صديق وشهيد وصالح من كل أمة ، وفي كل عصر ، دلّ على هذا كله قوله سبحانه :

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء : ٦٩] .

(١) البخاري (٧٩٧) ، ومسلم (٤٠٢) من حديث طويل عن عبد الله بن مسعود .

أُنْسُ الْمُؤْمِنِ بِالْوُجُودِ كُلِّهِ

يعيشُ المؤمنُ موصولاً بالوجودِ كُلِّهِ ، ويحيا في أُنْسٍ به ، وشعورٍ عميقٍ بالتناسقِ معه ، وارتباطٍ به ، فليس هذا الكونُ عدوًّا له ، ولا غريباً عنه ، إِنَّهُ مجالُ تفكيرِهِ واعتبارِهِ ، ومسرحُ نظَرِهِ وتأملاتِهِ ، ومظهرُ نِعَمِ اللَّهِ ، وآثارُ رحمته .

هذا الكونُ الكبيرُ كُلُّهُ يخضعُ لنواميسِ اللَّهِ ، كما يخضعُ المؤمنُ ، ويسبِّحُ بحمدِ اللَّهِ كما يسبِّحُ المؤمنُ ، وهذا المؤمنُ ينظرُ إليه نظرَتَهُ إلى دليلٍ يَهْدِيهِ إلى رَبِّهِ ، وإلى صديقٍ يؤنسُهُ في وحْشَتِهِ .

وبهذه النظرةِ الودودِ ، الرحبةِ للوجودِ ، تتسعُ نفسُ المؤمنِ ، وتتسعُ حياته ، وتتسعُ دائرةُ الوجودِ الذي يعيشُ فيه ، فليس هناك حيثُئذٍ أوسعُ مِنْ صدرِ المؤمنِ وقلبه ، الذي وسعَ العالمينِ ؛ المنظورَ ، وغيرَ المنظورِ ، عالمَ الشهادةِ ، وعالمَ الغيبِ ، ووسعَ الحياتينِ ؛ حياةَ الفناءِ ، وحياةَ الخلودِ .

والنفسُ المؤمنةُ رحبةٌ واسعةٌ ، لأنها تعيشُ في نورٍ يهديها سبيلَها ، ويكشفُ لها ما حولَها ، ومن شأنِ النورِ أن يوسّعَ الدائرةَ التي يحيا فيها الإنسانُ ، على عكسِ الظلامِ ، فإنَّ الذي تكتنِفُهُ الظلمةُ لا يرى ما حولَه ولا من حولَه ، بل لا يرى الشيءَ وهو بجوارِهِ ، بل لا يرى نفسه ، فقد سئلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْسُحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ ، فقال : « إِنَّ النُّورَ إِذَا دَخَلَ إِلَى الْقَلْبِ اتَّسَعَ وَانْفَسَحَ » (١) .

(١) أخرجه الحاكم في مستدرّكه (٣٤٦/٤) ، والطبري (٢٧/٨) وابن كثير =

فالإيمان بالله وباليوم الآخر هو الذي يرفع الإنسان من البهيمة إلى الإنسانية ، ومن الطفولة إلى الرشد ، ومن المحسوس إلى المعقول ، ومن المنظور إلى غير المنظور .

الصلاة والدعاء من بواعث السكينة

ومن أسباب السكينة النفسية التي حُرِّمَهَا الماديون ، ونِعِمَ بها المؤمنون ما يَنَاجِي به المؤمنُ رَبَّهُ كُلَّ يوم ، من صلاةٍ ودعاء ، فالصلاة لحظات ارتقاءٍ روحيٍّ ، يفرغُ المرءُ فيها من أشغاله في دنياه ، ليقفَ بين يدي رَبِّهِ ومولاه ، يثني عليه بما هو أهله ، ويفضي إليه بذاتِ نفسه ، داعياً راعباً ضارعاً ، وفي الاتصالِ بالله العليِّ الكبير قوةً للنفس ، ومددٌ للعزيمة ، وطمأنينة للروح ، لهذا جعلَ اللهُ الصلاةَ سلاحاً للمؤمن ، يستعينُ بها في معركة الحياة ، ويواجهُ بها صعوباتها

وكان سيدنا النبي ﷺ إِذَا حَزَبَهُ^(١) أَمْرٌ بَادَرَ إِلَى الصَّلَاةِ ، ولم تكن صلاتُهُ مجرَّدَ شكلٍ أو طقسٍ يُؤَدَّى ، إنما كانت استغراقاً في مناجاة الله ، حتى إنَّه كان إذا حان وقتُها قال ﷺ لِمُوذِّنِهِ بلالٍ في لهفَةٍ المتشوّقِ ، واشتياقِ الملهوفِ : « يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ ، أَرِحْنَا بِهَا »^(٢) ، وكان ﷺ يقول : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(٣) .

= (١٧٥ / ٢) ، في تفسيرهما . وذكر ابن كثير طرقاً متصلة ومرسلة يشد بعضها بعضاً .

(١) [أي نابه ، وألمَّ به أمرٌ شديد] ، (شرح مسلم للنووي (٤٨ / ١٧) .

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥) ، وأحمد (٢٣١٣٧) عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ .

(٣) أخرجه النسائي (٨٨٨٧) ، وأحمد (١٢٣١٥) - (١٢٣١٦) عَنْ أَنَسٍ .

المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت)

إِنَّ مِنْ أَهَمِّ عَوَامِلِ الْقَلْقِ الَّتِي تُفْقِدُ الْإِنْسَانَ سَكِينَةَ النَّفْسِ ، وَأَمْنَهَا وَرِضَاهَا تَحْشُرُهُ عَلَى الْمَاضِي ، وَسَخَطَهُ عَلَى الْحَاضِرِ ، وَخَوْفَهُ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ .

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ تَنْزَلُ بِهِمُ النَّازِلَةُ مِنْ مَصَائِبِ الدَّهْرِ ، فَيُظَلُّ شَهَوْرًا وَأَعْوَامًا يَجْتَزُّ أَلَامَهَا ، وَيَسْتَعِيدُ ذَكْرِيَاتِهَا الْقَاتِمَةَ ، مَتَحَسِّرًا تَارَةً ، مَتَمْنِيًا أُخْرَى ، شَعَارُهُ « لَيْتَنِي فَعَلْتُ ، وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ » ، وَأَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ الْإِسْتِسْلَامِ لِمِثْلِ هَذِهِ الْمَشَاعِرِ الْمُؤْلِمَةِ ، وَالْأَفْكَارِ السُّودَاوِيَّةِ هُوَ الْمُؤْمِنُ ، الَّذِي قَوِيَ يَقِينُهُ بِرَبِّهِ ، وَآمَنَ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ ، فَلَا يَسْمَحُ لِنَفْسِهِ أَنْ تَكُونَ فَرِيسَةً لِلتَّحْشُرِ عَلَى الْمَاضِي ، وَلَا السَّخَطِ عَلَى الْحَاضِرِ ، وَلَا الْخَوْفِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ، ﴿ فَمَنْ تَبِعَ هَذَا لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

وقال النبي ﷺ : « وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » (١) .

* * *

قصة أويس القرني

هذه القصة تجسّد حقيقة السَّكِينَةِ ، فَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ فُضَائِلِ الصَّحَابَةِ ، بَابَ مِنْ فُضَائِلِ أُوَيْسِ الْقُرْنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عَنْ

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) عن أبي هريرة .

أُسَيْرُ بْنُ جَابِرٍ « أَنَّ أَهْلَ الْكُوفَةِ وَفَدُوا إِلَى عُمَرَ ، وَفِيهِمْ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيْسٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : هَلْ هَاهُنَا أَحَدٌ مِنَ الْقَرْنَيْنِ ؟ فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، فَقَالَ عُمَرُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ : « إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَنِ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ : لَا يَدْعُ بِالْيَمَنِ غَيْرَ أُمِّ لَهُ ، قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ ، فَدَعَا اللَّهَ فَأَذْهَبَهُ عَنْهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ الدِّينَارِ أَوْ الدَّرْهَمِ ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ » (١) .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ ، وَلَهُ وَالِدَةٌ ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ » (٢) .

وقد ورد في كتب السيرة أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب :

« إِذَا لَقَيْتُمَا أُوَيْسَ الْقَرْنِيَّ فَاَسْأَلَاهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكُمَا ، فَإِنَّهُ مُجَابُ الدَّعْوَةِ » ، فترصدا موسم الحجَّ عشرَ سنينَ يدعوانِ أَهْلَ الْمَوْسَمِ مِنَ الْيَمَنِ عَلَى طَعَامٍ ، فَمَا ظَفَرَا بِضَا لَتَهُمَا ، ثُمَّ جَاءَ الْعَامُ الَّذِي يَلِيهِ فَقَالَ عُمَرُ نَرِئِيسٍ وَفَدِ الْيَمَنِ : أَبْقَى أَحَدٌ لَمْ يَحْضُرْ وَلِيْمَتْنَا ، قَالَ : لَا ، إِلَّا فَتَى خَامِلِ الذَّكَرِ ، يَرْعَى إِبْلًا لَنَا ، فَقَالَ لَهُ سَيَدُنَا عُمَرُ : أَهْوِ آدَمُ أَشْهَلُ (٣) ذُو

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٤٢) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٢) .

(٣) [الشُّهْلَةُ حُمْرَةٌ فِي سَوَادِ الْعَيْنِ ، وَهِيَ كَالشُّكْلَةِ فِي الْبَيَاضِ] ، (النهاية في غريب الحديث (٥١٦/٢) ، [الشُّهْلَةُ فِي الْعَيْنِ : أَنْ يَشُوبَ سَوَادُهَا زُرْقَةً] ، (لسان العرب ، مادة شهل) .

صهوبة^(١)؟ فقال : كأنك تعرفه يا أمير المؤمنين ، فذهب عمرٌ وعليٌ إليه ، فلما أتياه قالا : من الرجلُ ؟ قال : راعي إبلٍ ، وأجيرُ قومٍ ، قالا : لسنا نسألك عن ذلك ، ما اسمُك ؟ قال : عبدُ الله ، قال له عليٌ رضي الله عنه : قد عَلِمْنَا أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عبيدُ الله ، ما اسمُك الذي سَمَّيْتَ بِهِ أَثُوكَ ؟ قال : يا هذان مَنْ أَنْتَمَا ؟ وما تريدان مِنِّي ؟ فقال عمرٌ : أنا عمر بن الخطاب ، وهذا علي بن أبي طالب ، فانتفض وأقفأ ، وقال : جزاكم الله عن الإسلام خيراً ، يا أمير المؤمنين ، ويا صهرَ رسول الله ، أما أَنْتَمَا فَقَدْ كَانَ لَكُمَا شَرَفُ الصُّحْبَةِ ، وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ حُرِمْتُ هَذَا الشَّرَفَ ، فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا عُمَرُ : كَيْفَ تَتَصَوَّرُ النَّبِيَّ ﷺ يَا أُوَيْسُ ؟ قَالَ أَنْصَوْرُهُ نَوْرًا يَمْلَأُ الْأَفَقَ ، فَبَكَى عُمَرُ شَوْقًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ عُمَرُ : يَا أُوَيْسُ ، إِنَّ النَّبِيَّ أَمَرَنَا أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَنَا ، وَأَنْ تَدْعُوَ لَنَا ، قَالَ : مَا أَخْصَ بِاسْتِغْفَارِي نَفْسِي وَلَا أَحَدًا مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَكِنَّهُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ، قَالَ عُمَرُ : يَا أُوَيْسُ عِظْنِي ، قَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . . . اطلُبْ رَحْمَةَ اللَّهِ عِنْدَ طَاعَتِهِ ، وَاحْذَرْ نَقْمَتَهُ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ ، وَلَا تَقْطَعْ رَجَاءَكَ مِنْهُ ، قَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ : أَفَلَا نَأْمُرُكَ بِصَلَاةٍ ؟ قَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَخَذْتُ عَلَى عَمَلِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ ، وَلِي عَلَى الْقَوْمِ ذِمَّةٌ ، مَتَى تَرَانِي أَنْفَقْتُهَا ؟ وَعَلَيَّ رَدَاءٌ وَإِزَارٌ ، مَتَى تَرَانِي أَخْرَقْتُهُمَا ؟ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ بَيْنَ يَدَيَّ وَيَدَيْكَ عَقَبَةٌ

(١) [الأصهب الذي يعلو لونه صُهْبَةٌ ، وهي كالثَّقَرَةِ ، . . . والمعروف أَنَّ الصُّهْبَةَ مختَصَّةٌ بِالشَّعْرِ ، وهي حُمْرَةٌ يعلوها سَوَادٌ] ، النهاية في غريب الحديث (٦٢ / ٣) ، [الصُّهْبَةُ أَنْ يعلو الشَّعْرُ حُمْرَةً] ، لسان العرب (١٥٣٢) .

كؤوداً ، لا يقطعها إلا كلُّ مخفٍّ مهزولٍ ، فبكى عمرُ ، وقال : ليت أمُّ عمرٍ لم تلِدْ عمرَ ، قال : يا أويسُ ، ألا تقيمُ عندنا ؟ قال : أريدُ الكوفةَ ، قال : أفلا أكتبُ لك إلى عاملها ؟ قال : أحبُّ أن أكونَ في دهماءِ الناسِ .

ثم مضى أويسٌ ومضى إلى سبيله ، ومات في غمارِ خيمةٍ من خيامِ المسلمين ، خاملاً في الأرضِ علماً في السماءِ ، إنها السكينةُ التي يسعدُ بها الإنسانُ ، ولو فقدَ كلَّ شيءٍ ، ويشقى بفقدِها ، ولو ملَكَ كلَّ شيءٍ .

هذا عن الماضي المزدهر ، الذي عاشته أمتنا ، أو ما ينبغي أن يكونَ عليه المؤمنون ، فماذا عن الحاضر الذي نعيشه ، أو ما هو عليه المؤمنون ؟

وليس هناك من مرحلةٍ في تاريخِ أمتنا نحن في أمسِّ الحاجةِ فيها إلى الصلحِ مع الله ، والإنابةِ إليه ، والإقبالِ عليه ، وقد غرق العالمُ في الشهواتِ والشبهاتِ ، والفتنِ والضلالاتِ ، كهذه المرحلة التي تعيشها أمتنا العربيةُ والإسلاميةُ .

وليس هناك من مرحلةٍ في تاريخِ أمتنا نحن في أمسِّ الحاجةِ فيها إلى التعاونِ والتكاتفِ والتناصرِ والتضامنِ كهذه المرحلةِ الدقيقةِ التي نمرُّ بها ، ولا سيما في ظلِّ النظامِ العالميِّ الجديدِ ، وفي ظلِّ غيابِ التوازنِ الدوليِّ ، وتحكُّمِ القطبِ الواحدِ ، وازدواجيةِ المعاييرِ ، وسيطرةِ الاحتكاراتِ الكبرى ، والتطوراتِ الهائلةِ في وسائلِ الاتصالاتِ

والمعلوماتية ، وازديادِ الهوةِ بين الدولِ الغنيّةِ المتقدمةِ والدولِ الناميةِ ،
وانفجارِ الحروبِ الإقليميّةِ والمحليّةِ ، والصراعاتِ القبليّةِ ، والدينيّةِ ،
والعِرقيّةِ في مناطقَ متعدّدةٍ مِنَ العالمِ ، إضافةً إلى نهجِ العولمةِ الثقافيّةِ ،
والاقتصاديّةِ .

إنّ العالمَ اليومَ يكاد يتحوّل إلى غابةٍ تتحكّم فيها قواعدُ القوّةِ ، وتغيب
عنها ضوابطُ المبادئ والقيم ، ومع ذلك فإنّ قوَى الهيمنة تتحدّثُ عن
حقوق الإنسان ، في الوقتِ الذي يجري فيه انتهاكُ لحقوق الإنسان ،
والعالمُ الإسلاميّ اليومَ يواجه تحدياتٍ كبيرةً ، تستهدفُ الإسلامَ
وما يمثّله من قيمٍ نبيلةٍ ، وما يدعو إليه من أخوةٍ وعدالةٍ ومساواةٍ وحريةٍ ،
وإذا كان من واجبنا أن ندافعَ عن ديننا فإن لنا فيه ينبوعَ قوّةٍ ، ومصدرَ إلهامٍ
في مواجهةٍ كلّ ما يقابلنا من أخطارٍ وتحدياتٍ .



الخسوف والكسوف

لقد توفي سيّدنا إبراهيمُ ابنُ رسولِ الله ﷺ ، فوقفَ النبيُّ ﷺ موقفَ
الأبِ الرحيمِ الحاني ، المؤمنِ بقضاءِ الله وقدره ، الصابرِ لحُكمِهِ ،
الراضي بمشيئَتِهِ ، فعن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال : « دَخَلْنَا مَعَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفِ الْقَيْنِ ، وَكَانَ ظَنْرًا^(١) لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ

(١) [قوله : ظنرا ، بكسر المعجمة وسكون التحتانية المهموزة ، بعدها راءٌ ، أي
مرضعا ، وأطلق عليه لأنه كان زوجَ المرضِعةِ ، وأصل الظنر من ظارت الناقة إذا
عظفت على غير ولدها ، فليل ذلك للتي ترضع غيرَ ولدها ، وأطلق ذلك على زوجها =

السَّلَام ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ ، وَشَمَّهُ ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذَرِفَانِ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ ، فَقَالَ : (يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ) ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى ، فَقَالَ ﷺ : (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا ، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ)^(١) .

وقد رافق موت سيدنا إبراهيم كسوف الشمس ، فظنَّ الصحابةُ الكرامُ أن الشمسَ كَسَفَتْ لموت إبراهيم ، فوقفَ النبي ﷺ خطيباً في أصحابه ، وهو أمينٌ وحي السماء ، رافضاً أن تختلطَ حقائقُ العلمِ بمشاعرِ المسلمين ، فعَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ ، وَلَا لِحَيَاتِهِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ »^(٢) .

إذاً فما التفسير العلمي لهاتين الظاهرتين ؟ قيل :

الغسوفُ هو اختفاء القمرِ أو بعضه في أثناء مرور الأرضِ بينه وبين الشمسِ ، أما الكسوفُ فهو اختفاء الشمسِ أو بعضها في أثناء مرور القمرِ بينها وبين الأرضِ .

إنَّ الكسوفَ والخسوفَ إشارتانِ إلى نعمةِ الشمسِ والقمرِ ، فهما آيتان دالَّتَانِ على عظمةِ الله ورحمته ، قال العليُّ العظيمُ :

= لأنه يشاركها في تربيته غالباً] ، (فتح الباري ٣ / ١٧٣) .

(١) البخاري (١٢٤١) ، ومسلم (٢٣١٥) .

(٢) البخاري (١٠٠١) ومسلم (٩١٥) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَلِيلٌ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت :
[٣٧] ، وقال سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ
يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَاسَمْعُونَ ﴾ [القصص : ٧١] .

وقد يسأل سائل : كيف يغطي القمر قرص الشمس ، مع أنه أصغر
منها بأربعمئة مرة ، الجواب : إن الشمس أبعد عن الأرض من القمر
بأربعمئة مرة ، وهذا ما يجعلهما يظهران بالحجم نفسه ، لذلك يمكن
للقمر أن يحجب أشعة الشمس كلياً إذا مرّ بينها وبين الأرض .

ويجب ألا يشغلنا جمال منظر الكسوف عن خطر الأشعة الشمسية على
أعيننا ، إذ النظر إلى الشمس في أثناء الكسوف دون نظارة سوداء خاصة
بالكسوف يسبب أضراراً بالغة للعين ، دون أن يشعر الإنسان ، لأن شبكية
العين لا تحوي أي مستقبل للألم ، وهنا يجب الانتباه بشكل خاص
للأطفال الذين لا يقدرون الخطر ، ولأن شبكيات أعينهم أكثر حساسية
من الكبار ، لذلك سنّ لنا رسول الله ﷺ صلاة الكسوف ، ونَدَبَ أن نطيل
القراءة فيها ، وأن نطيل السجود ، ليغطي سجودنا وقت الكسوف .

كان الكسوف في الحادي عشر من شهر آب (١٩٩٩ م) ، مرئياً في
جميع أنحاء الوطن العربي ، لكنه لم يكن كلياً إلا في أقصى الشمال
الشرقي منه ، ففي الشمال الشرقي من سورية بدأ ذلك العرض الفلكي بعيد
ظهور ذلك اليوم بمرحلة الكسوف الجزئي ، الذي استمر ساعة تقريباً ،

وَمِنْ ثَمَّ غَرَبَتِ الشَّمْسُ واختفت كلياً ، وحلَّ الظلامُ التامُّ مدةً دقيقتين .

وفي هاتين الدقيقتين أُتيحَ لنا أن نشاهد الانفجارات التي حدثت على سطح الشمس ، وقد أمكننا أيضاً أن نرى السنةَ اللهبِ التي يقتربُ طولُها من مليون كيلو متر ، وسيكون بالإمكان رؤية الكواكب الخمسة ؛ عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل .

وهناك تعبيرٌ شائعٌ بين الناس ، حينما يتحمَّلُ الإنسانُ ما لا يحتملُ ، يقال عنه : رأى النجومَ ظهراً ، لكن... في أثناء الكسوفِ نرى النجومَ ظهراً حقيقةً لا مجازاً .

كثيراً ما يجري على لسان الناس إطلاقُ هاتين الكلمتين (الكسوف والخسوف) ، فيحدِّدون إحداهما للقمر ، والأخرى للشمس ، فارتأينا إدراجَ هذه الفائدة اللغوية هنا ، عسى أن يكون فيها شيءٌ من النفع .

جاء في لسان العرب : « كَسَفَ القَمَرُ يَكْسِفُ كُسُوفاً ، وكذلك الشمس كَسَفَتْ تَكْسِفُ كُسُوفاً : ذهب ضوءُها ، واسْوَدَّت ، والبعض يقول : انكسف وهو خطأ ، وَكَسَفَهَا اللهُ وَأَكْسَفَهَا... والقمرُ في كل ذلك كالشمس ، وكسف القمرُ : ذهبَ نورُه ، وتغيَّرَ إلى السوادِ... كَسَفَتِ الشَّمْسُ وَخَسَفَتْ بمعنى واحد ، وقد تكرر في الحديث ذكرُ الكُسُوفِ والخُسُوفِ للشمس والقمر ، فرواه جماعةٌ فيهما بالكاف ، ورواه جماعةٌ فيهما بالخاء ، ورواه جماعةٌ في الشمس بالكاف ، وفي القمر بالخاء ، وكلُّهم رَوَوْا أَنَّ الشَّمْسَ والقَمَرَ آيتان من آياتِ اللهِ لا يَنْكَسِفَانِ لموتِ أَحَدٍ ولا لحياته ، والكثيرُ في اللغة وهو اختيارُ الفراءِ أَنَّ يكونَ الكسوفُ للشمس ، والخسوفُ للقمر ، يقال : كَسَفَتْ

الشمس ، وَكَسَفَهَا اللَّهُ ، وانكسفت ، وخسف القمر وخسفَه اللهُ وانخسف... قال أبو زيد : كسفت الشمس إذا اسودَّت بالنهار ، وكسفت الشمس النجوم إذا غلبَ ضوءُها على النجوم فلم يَبْدُ منها شيءٌ ، فالشمسُ حينئذٍ كاسفةُ النجوم»^(١) .

قال ثعلب : « كسفت الشمس ، وَخَسَفَ القمرُ ، هذا أجودُ »^(٢) .

قال ابن الأثير : « وقد وَرَدَ الخُسُوفُ في الحديثِ كثيراً للشمسِ ، والمعروفُ لها في اللغةِ الكُسُوفُ لا الخُسُوفُ ، فأما إطلاقُه في مثلِ هذا الحديثِ فتغليباً للقمرِ لتذكيره على تأنيثِ الشمسِ ، فجَمَعَ بينهما بما يَخُصُّ القمرَ ، وللمعاوَضَةِ أيضاً ، فإنه قد جاء في روايةٍ أخرى : إنَّ الشمسَ والقمرَ لا يَنْكَسِفَانِ ، وأما إطلاقُ الخُسُوفِ على الشمسِ منفردةً فلاشتراكِ الخُسُوفِ والكُسُوفِ في معنى ذهابِ نورهما ، وإظلامهما »^(٣) .

* * *

(١) لسان العرب مادة كسف ، بتصرف يسير .

(٢) لسان العرب مادة خسف .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٣١ / ٢) .

أَثَرُ الْإِيمَانِ فِي نُزُولِ الرَّحْمَةِ

إِنَّ المتفكّرَ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ يتبدّى له من خلالِ جولته التأملية أَنَّ اللهَ ثَبَّتَ أشياءَ كثيرةً ، منها النواميسُ والقوانينُ التي تحكمُ حركةَ الحياةِ ، وثَبَّتَ خصائصَ الأشياءِ التي تتعاملُ معها ، وثَبَّتَ دورةَ الأفلاكِ المحيطةِ بنا ، وكلُّ ذلك ترسيخاً للنظامِ الكونيِّ ، وتحقيقاً لتسخيرِ الأشياءِ لنا ، كي ننتفعَ بها في حياتنا الدنيا ، ولكي ترشدنا إلى ربِّنا ، فنعرفه ، ونطيعه ، ونسعدَ بقرْبه في الدنيا والآخرةِ ، وَحَرَكَ أشياءَ قليلةً ، منها الصحةُ والرزقُ ، لتكونَ وسائلَ لتربيتنا ، والأخذِ بيدنا إلى اللهِ ، وإلى جَنَّتِهِ ، فالإنسانُ حريصٌ على سلامتهِ ، وعلى رزقه .

ومن الثابتِ أَنَّ التقديرَ الإلهيَّ هو تقديرٌ تأديبٍ وتربيةٍ ، وليس تقديرٌ عاجزٍ وضمن ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ

بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] ، وقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعِنَدْنَا خَزَائِنُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] ،

ثم إِنَّ اللهَ جل وعلا لا يسوقُ لعباده شِدَّةً إِلَّا بما كسبتْ أيديهم ، ويعفو عن كثيرٍ ، قال عز وجل :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وقال عز من قائل :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾

[الشورى : ٣٠]

روى ابن ماجه والبيهقي عن عبد الله بن عمر قال : « أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ؛ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فُشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمَثُونَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمَطَّرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمُ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » (١) .

ولكن ما العمل بعد نزول المصائب ؟! لقد أجاب القرآن الكريم عن هذا السؤال ، قال تعالى :

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[السجدة : ٢١]

(١) حديث حسن رواه ابن ماجه (٤٠١٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٥) وغيرهما .

إِنَّ الْهَدَفَ الْأَوَّلَ وَالْأَوْحَدَ مِنْ سَوْقِ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا هُوَ رُجُوعُ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ ، وَالشَّيْءُ الْأَوَّلُ وَالْأَوْحَدُ الَّذِي يَصْرِفُ الْبَلَاءَ عَنِ الْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هُوَ طَاعَةُ اللَّهِ ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ﷺ مُخْلِصاً فِيهَا ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

قال علماء التفسير : « ما دامت سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ الْقَوْلِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ ، وَالتَّقْرِيرِيَّةُ مُطَبَّقَةً فِي حَيَاتِهِمْ ، وَفِي بَيوتِهِمْ ، وَفِي عِلَاقَاتِهِمْ الْأُسْرِيَّةِ ، وَمُطَبَّقَةً فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَفِي كَسْبِ أَرْزَاقِهِمْ ، مُطَبَّقَةً فِي حِلِّهِمْ وَتَرْحَالِهِمْ ، وَفِي أَفْرَاحِهِمْ وَأَحْزَانِهِمْ ، مُطَبَّقَةً فِي مَنْشَطِهِمْ وَمَكْرَهِهِمْ ، فِي يُسْرِهِمْ وَعُسْرِهِمْ ؛ فَهُمْ فِي مَأْمَنِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ » ؛ أَمَا لَوْ حَيَّرَتْهُمْ الشَّبَهَاتُ ، وَغَلَبَتْهُمْ الشَّهَوَاتُ ، فَزَلَّتْ أَقْدَامُهُمْ ، وَانْحَرَفَتْ مَسِيرَتُهُمْ ، فَأَمَامَهُمْ فُرْصَةٌ ثَمِينَةٌ مَنَحَهَا اللَّهُ لَهُمْ ، وَبِهَا يَأْمَنُونَ عَذَابَ اللَّهِ مَرَّةً أُخْرَى .

إنها الاستغفار ، قال الغفور الرحيم :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمُ جَنَّاتٍ وَجَعَلَ لَكُمُ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

لقد أَطْمَعَهُمْ رَبُّهُمْ - إِنَّ هُمْ اسْتَغْفَرُوهُ - فِي الرِّزْقِ الْوَفِيرِ الْمَيَسُورِ ، مِنْ أَوَّلِ أَسْبَابِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا ، وَيَرْجُونَهَا ، وَهُوَ الْمَطَرُ الْغَزِيرُ ، الَّذِي تَسِيلُ بِهِ الْأَنْهَارُ ، وَتَتَفَجَّرُ بِهِ الْيَنْابِيعُ ، وَالَّذِي تَنْبُتُ بِهِ الزَّرُوعُ ، كَمَا وَعَدَهُمْ بِرِزْقٍ آخَرَ مِنَ الذُّرِّيَّةِ الَّتِي يُحِبُّونَهَا - وَهِيَ الْبَنُونَ - وَالْأَمْوَالِ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا وَيَحْرَصُونَ عَلَيْهَا :

﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۖ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح : ١١-١٢] .

وقد رَبَطَ اللهُ جل جلاله بين الاستغفار وهذه الأرزاق الوفيرة : وفي القرآن مواضع متكررة فيها هذا الارتباط بين صلاح القلوب ، واستقامتها على هدى الله ، وبين تيسير الأرزاق ، وعموم الرخاء .

وجاء في موضع ثانٍ^(١) :

﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِسْقَامًا ۚ وَالْطَّرِيقَةَ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لَنَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾

[الجن : ١٦-١٧]

وجاء في موضع ثالث :

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مَنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۗ﴾ [هود : ٣] .

وفي موضع رابع قال تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْحِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۗ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وهذه القاعدة التي يؤكدُها القرآن في مواضع متفرقة قاعدة تقوم أسبابها على وعدٍ من الله ، ومن سُنَنِ الحياة ؛ كما أن الواقع العملي يشهد بتحقيقها على مدار القرون ، والحديث في هذه القاعدة عن الأمة لا عن الأفراد ، وما من أمةٍ قام فيها شرعُ الله ، واتجهت اتجاهاً حقيقياً إليه ؛

(١) الموضع الأول قوله تعالى : ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ...﴾ ، الآية .

عبادة ، واستقامة ، وعملاً صالحاً ، واستغفاراً ، وخشية . . وما من أمة اتقت الله ، وعبدته ، وأقامت شريعته ، فحققت العدل ، والأمن للناس جميعاً ، إلا فاضت فيها الخيرات ، ومكّن الله لها في الأرض ، واستخلفها على خلقه ؛ قيادةً وهدايةً ، وبدل خوفها أمناً ، قال تعالى :

﴿ وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

ولقد نشهد في بعض الفترات أمماً لا تتقي الله ، ولا تقيم شريعته ؛ وهي - مع هذا - موسّع عليها في الرزق ، مُمكّن لها في الأرض . . ولكن هذا هو الابتلاء ، ثم هو بعد ذلك رخاءً ظاهرياً ، تأكله آفات الاختلال الاجتماعي والانحدار الأخلاقي ، فقد صرّح مسؤول كبير في العالم الغربي أنّ هناك أخطاراً كبيرة تهدّد المجتمع الغربي ؛ منها تفكك الأسرة ، وضيوع الجريمة ، وانتشار المخدرات ، وسقوط القيم ، ثم انتشار مرض الإيدز ، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ۝١١ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٢ ﴾ [الأعراف : ٩٤-٩٥] .

إنّ السياق القرآني هنا لا يروي حادثة ، إنما يكشف عن سنة ، ولا يعرض سيرة قوم ، إنما يعلن عن خطوات قدر . . ومن ثمّ يكشف أنّ هناك سنة تكوينية تجري عليها الأمور ؛ وتتم وفقها الأحداث ؛ ويتحرك بها تاريخ الإنسان في هذه الأرض ، وأنّ الرسالة ذاتها - على عظم قدرها - هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس الأكبر ، وأنّ الأمور لا تمضي جزافاً ؛ وأنّ الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض - كما يزعم الجاهلون

الشاردون - وأنَّ كلَّ ما يقعُ في هذا الكونِ إنما يقعُ عن تدبيرٍ ، ويصدُرُ عن حِكْمَةٍ ، ويَتَجّه إلى غايةٍ ، وأنَّ هنالك في النهايةِ سُنَّةٌ ماضيةٌ وفقَ إرادةِ اللهِ الطليقةِ ؛ التي وضعتِ السُنَّةَ ، وارتضتِ الناموسَ .

ومن ملامح هذه السُنَّةِ الكونيةِ أنَّ هدايةَ الله تسييرُ مع هذا الإنسانِ الذي خُلِقَ لجنَّةٍ عرضها السماواتُ والأرضُ في أربعِ مراحلٍ :

١ - الدعوة البانية

وهي دعوةُ الأنبياء والمرسلين ، والدعاةِ الصادقين ، قال عزَّ مِنْ قائلٍ :

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص : ٢١] ، وقال سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، وقال :

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَفْغِرْ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

فإن لم يستجبِ الناسُ لدعوةِ ربِّهم لهم إلى ما يحييهم الحياةَ التي خُلِقوا من أجلها ، والحياةَ التي تليقُ بإنسانيتهم ، والحياةَ التي تتصلُّ فيها نِعَمُ الدنيا بنِعَمِ الآخرةِ ، إن لم يستجيبوا طُبِّقَتْ عليهم الخطةُ الثانية وهي :

٢ - التأديب التربوي

فليس مِنَ العِبثِ - وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - أن يأخذَ اللهُ عباده بالشدَّةِ في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم ، إنما يأخذُ اللهُ المكذِّبين

بالحق ، يأخذهم بالبأساء والضراء ، لأن من طبيعة الابتلاء بالشدة أنه يوقظ الفطرة التي ما يزال فيها خيرٌ يُزجى ، وأن يرقق القلوب التي طال عليها الأمدُ إذا كانت فيها بقية من خير ؛ وأن يتجه بالبشر الضعاف إلى خالفهم القهار ؛ يتضرعون إليه ؛ ويطلبون رحمته وعفوه ؛ ويعلنون بهذا التضرع عن عبوديتهم له ، وإنَّ العبودية لله غاية الوجود الإنساني ، وما لله سبحانه من حاجة إلى تضرع العباد ، وإعلان افتقارهم له ، ولكن تضرع العباد ، وإعلان عبوديتهم له إنما يُصلحهم هم ؛ ويصلح حياتهم ، ومعاشهم كذلك ، قال سبحانه :

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْحَنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] .

فمتى أعلن الناس عبوديتهم لله تحرروا من العبودية لسواه ، وتحرروا من العبودية للشيطان الذي يريد أن يُغويهم ، وتحرروا من شهواتهم وأهوائهم ، وتحرروا من العبودية للعبيد من أمثالهم ؛ واستحيوا أن يتبعوا خطوات الشيطان ؛ واستحيوا أن يُغضبوا الله بعملٍ أو نية ، لذلك اقتضت مشيئة الله أن يأخذ أهل كل قرية شرذته بالبأساء في أنفسهم وذواتهم ، وبالضراء في أبدانهم وأموالهم ، إحياء لقلوبهم بالألم .

والألم خيرٌ مهذب ، وخيرٌ مفجرٍ لينايع الخير المستكنة ، وخيرٌ مُرهفٍ للحساسية في الضمائر الحية ، وخيرٌ موجه إلى ظلال الرحمة التي تلوح للضعاف المكروبين ، قال تعالى :

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف : ٩٥] .

ولكن... حينما لا تُحدثُ الشدائدُ في الناس توبةً وإنابةً ؛ بسببِ شدةِ غفلتِهِمْ ، وانغماسِهِمْ في المَتَعِ الرَّخِيصَةِ ، تصبحُ مصيبتُهُمُ الكِبَرَى في أنفسهم ، وقد قيل : من لم تُحدثِ المصيبةُ في نفسِ الإنسانِ موعظةً ، فمصيبتُهُ في نفسه أكبرُ ، عندئذٍ يُخضعُهُمُ اللهُ للخِطَةِ الثالثةِ .

٣- الرخاء الاستدراجيُّ

فإذا الرخاءُ مكانَ الشدةِ ، واليسرُ مكانَ العسرِ ، والنعمةُ مكانَ الشظفِ^(١) ، والعافيةُ مكانَ الضرِّ ، والذريةُ مكانَ العقرِ ، والكثرةُ مكانَ القلةِ ، والأمنُ مكانَ الخوفِ ، وإذا هو متاعٌ ورخاءٌ ، وهناءةٌ ونعماءٌ ، وكثرةٌ وامتلاءٌ . . وإنما هو في الحقيقة اختبارٌ وابتلاءٌ . .

والابتلاءُ بالشدَّةِ ينتفعُ به الكثيرون ، فالشدَّةُ تستثيرُ العناصرَ المقاومةَ للمعاصي والآثام ، وقد تذكَّرَ صاحبها بالله - إن كان فيه بقيةٌ من خيرٍ - فيتَّجِهُ إليه ، ويتضرَّعُ بين يديه ، ويجدُ في ظلِّه طمأنينةً ، وفي رحابه فُسْحَةً ، وفي فَرَجِهِ أَملاً ، وفي وعده بشرى ، أما الابتلاءُ بالرخاءِ فالذين ينتفعون منه قليلون ، لأنَّ الرخاءَ يُنسي ، والمتاعَ يُلهي ، والشرَاءَ يُطغي ، فلا ينتفعُ به إلا القليلُ من عبادِ الله ، قال عز وجل :

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الاعراف : ٩٥] ، أي : حتى كثروا وانتشروا ، واستسهلوا العيشَ ، واستيسروا الحياةَ ، ولم يجدوا في أنفسهم حرجاً من شيءٍ يعملونه ، ولا تخوفاً من أمرٍ يصنعونه ، وكلمة ﴿عَفَوْا﴾ إلى جانبِ دلالتها على

(١) الشَّظْفُ يُنْسُ العيشُ وشدَّتُهُ ، (لسان العرب مادة شظف) .

الكثرة فهي تُوجي بحالة نفسية خاصة ؛ حالة اللامبالاة ، حالة الاستخفاف والاستهتار ، حالة استسهال كل أمر ، حالة اتباع كل خاطر ، وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة ، حين يطول بهم العهد - أفراداً وأممًا - كأن حساسية نفوسهم قد ترهلت^(١) فلم تعد تحفل بشيء ، أو تحسب حساباً لشيء ، فهم ينفقون في يسر ، ويتلذذون في يسر ، ويلهون في يسر ، ويبطشون كذلك في يسر ! ويقتربون كل كبيرة تقشعُر لها الأبدان ، ويرتعش لها الوجدان ، في يُسر واطمئنان ! وهم لا يتقون غضب الواحد الديان ، ولا لوم الناس ، ولا الخلل ، فكل شيء يصدر منهم عفواً بلا حرج ولا مبالاة ، وهم لا يفتنون لسنة الله في الكون ، ولا يتدبرون اختباراتِه وابتلاءاته للناس ، ثم يحسبونَها تمضي هكذا جزافاً ، بلا سبب معلوم ، ولا قصد مرسوم ، ﴿ وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ ﴾ .

وقد أخذنا حظنا من الضراء ، وجاء حظنا من السراء ! وها هي ذي ماضية بلا عاقبة لأواء^(٢) ، فهي تمضي هكذا كخبطة عشواء ، عندئذ ، وفي ساعة من الغفلة السادرة تجيء العاقبة وفق السنة الجارية :

﴿ فَأَخَذَتْهُمْ بَغْئَةً وَهَمُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٥] ، جزاء بما نسوا ، واغتربوا ، وبعُدوا عن الله ؛ وأطلقوا لشهواتهم العنان ، فما عادوا

(١) الرَّهْل الانتفاخ حيث كان ، وقيل : هو شبه ورم ليس من داء ، ولكنه رخاوة إلى السمن ، وهو إلى الضعف ، وقد رهل اللحم رهلاً فهو رهل : اضطرب واسترخى ، (لسان العرب ، مادة رهل) ، و (مختار الصحاح ، مادة رهل) .

(٢) اللأواء المشقة والشدة ، (لسان العرب ، مادة لأي) .

يتحرّجون من فعلٍ ، وما عادت التقوى تخطر لهم ببال ! هؤلاء يبنون مجدهم ومجد شعوبهم على أنقاض بقية الشعوب ، ويبنون غناهم على إفقارها ، ويبنون قوتهم على إضعافها ، ويبنون سعادتهم على شقائها .

إنَّ تحكّم القطب الواحد ، وازدواجية المعايير ، وسيطرة الاحتكارات الكبرى حوّل العالم إلى غابة تتحكّم فيها قواعد القوة ، وتغيب عنها ضوابط المبادئ والقيم ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

وحيثما لا ينتفع الإنسان بالرخاء الاستدراجي ، وهو آخر مرحلة يُنتظر أن ينتفع بها الإنسان ، حيث إنَّ الله بيّن له عن طريق الأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين فلم يستجب ، وساق له من الشدائد فلم يثب ، وأغرقه بالنعم فلم يشكر ، عندئذ يحسم أمره ، فيقصم ظهره ، وهي المرحلة الرابعة .

٤ - مرحلة القصم

وهذه المرحلة توضّحها الآية القرآنية الكريمة :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

وللموضوع طرف آخر ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، ذلك هو الطرف الآخر لسنة الله الجارية في خلقه ، فلو أن أهل القرى آمنوا بدّل التكذيب ، واتّقوا بدّل العصيان ؛ لَفَتَحَ اللهُ عليهم

﴿ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، مفتوحة بلا حساب ، تأتيهم هذه البركات من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، والتعبير القرآني بعمومه وشموله يُلقي أيضاً من العطاء الغامر ، الذي لا يعهده البشر من الأرزاق والأقوات .

إنَّ العقيدة الإيمانية في الله وطاعته ليست مسألة منعزلة عن واقع الحياة ، وعن تاريخ الإنسان ، بل إنَّ الإيمان بالله ، وطاعته ليؤهلان لفيض من بركات السماء والأرض ، وعداً من الله ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ .

ونحن - المؤمنون بالله - نتلقى هذا الوعد بقلب مؤمن ، فنصدقه ابتداءً ، لا نسأل عن علله وأسبابه ؛ ولا نتردد لحظة في توقُّع مدلوله . . نحن نؤمن بالله - بالغيب - ونصدق بوعدِهِ بمقتضى هذا الإيمان . . لكن المذاهب الوضعية تغفل عنه ، بل وتغفله كل الإغفال ، بل وتنكره أشدَّ الإنكار !

إنَّ الإيمان بالله دليلٌ على سلامة في الفطرة ؛ وسلامة في أجهزة الاستقبال ؛ وصواب في الإدراك الإنساني ، وهذه كلها من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .

وإنَّ الإيمان بالله قوةٌ دافعةٌ دافقةٌ ، تجمع جوانب الكيان البشري كلها ، وتوجه بها إلى وجهة واحدة ، لتحقيق مشيئة الله للإنسان في خلافة الأرض وعمارتها ، وفي دفع الفساد والفتنة عنها ، وفي ترقية الحياة ونماذجها . . وهذه كذلك من مؤهلات النجاح في الحياة الواقعية .

والإيمان بالله تحرُّرٌ من العبودية للهوى ، ومن العبودية للعبيد ،

وما من شك أن الإنسان المتحرّر بالعبودية لله أقدر على الخلافة في الأرض خلافة راشدة صاعدة من عبيد للهوى ، وعبيد الأشخاص .

وتقوى الله يقظة واعية تصون من الاندفاع والتهور ، والشطط والغرور ، وتوجه الجهد البشري في حذر ، فلا يعتدي ، ولا يتهور ، ولا يتجاوز حدود النشاط الصالح .

وحين تسير الحياة متناسقة بين الدوافع والكوابح ، عاملة في الأرض ، متطلعة إلى السماء ، متحررة من سلطان الهوى ، وهيمنة الأقوياء ، عابدة خاشعة لله . . تسير سيرة صالحة منتجة ، فلا جرم أنه تحقها البركة ، ويعمها الخير ، ويظللها الفلاح .

والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد و يقين ألوان شتى ، لا يفصلها النص القرآني ، ولا يحددها ، وأما إحياء النص القرآني فيصور الفيض الهابط من كل مكان ، النابع من كل مكان ، بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان ، فهي البركات بكل أنواعها وألوانها ، وبكل صورها وأشكالها ، ما يعهده الناس ، وما يتخيلونه ، وما لم يتهياً لهم في واقع ولا خيال ، فعن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « استقيموا ، ولكن تخصصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » (١) .

والذين يتصورون الإيمان بالله وتقواه مسألة تعبدية بحتة ، لا صلة لها بواقع الناس في الأرض ، لا يعرفون الإيمان ، ولا يعرفون الحياة !

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٧) ، وأحمد (٢٢٤٣٢) ، والدارمي (٦٥٥) .

وما أجدرهم أن ينظروا نظرة أعمق ، وأن يستنبطوا من كلام الله استنباطاً أليق .

ولابد ونحن في صدد هذا الموضوع من الموازنة بين : ﴿ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ٩٦] ، و : ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

* * *

أسباب ازدياد الرزق

إن الرزق في : ﴿ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ متاع طيب ، ورخاء ، وهو رغد في الدنيا ، وزاد إلى الآخرة ، والرزق في : ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مثار قلق وخوف ، ومثار حسد وبُغض ، وقد يكون معه الحرمان ، ببخل أو مرض ، وقد يكون معه التلّف بتفريط أو إهمال .

وإن الذرية في : ﴿ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ هي زينة الحياة الدنيا ، ومصدر فرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر في الآخرة ، بالذرية الصالحة ، والذرية في : ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بلاء ، ونكد ، وعنت ، وشقاء ، وسهر بالليل ، وتعب بالنهار .

وإن الصحة والعافية في : ﴿ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ هي نعمة

وحياة طيبة ، والصحة والعافية في ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ بلاءً يسلبه الله على الصحيح المعافى ، فينفق الصحة والعافية فيما يحطم الجسم ، ويفسد الروح ، ويدّخر السوء إلى يوم الحساب .

وإنّ الجاه والقوة في : ﴿ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ هي أداة إصلاح ، ومصدر أمن ، ووسيلة لادّخار الطيب الصالح من العمل والأثر ، والجاه والقوة في ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مصدراً قلق على فوته ، ومصدراً طغيان وبغي ، ومصدراً حقد وكراهية ، لا يقرّ لصاحبها قرار ، ويدّخر بها للآخرة رصيذاً ضخماً إلى النار .

فالبركة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به ، وكان معه الصلاح والأمن والرضى والارتياح . . . وكم من أمة غنية قوية ، ولكنها تعبش في شقاوة ، مهددة في أمنها ، مقطعة الأواصر بينها ، يسود الناس فيها القلق ، وينتظرها الانحلال ، فهي قوة بلا أمن ، وهو متاع بلا رضى ، وهي وفرة بلا صلاح ، وهو حاضر زاه يترقبه مستقبل نكد ، وهو ابتلاء الذي يعقبه النكال ، إنّ البركات الحاصلة مع الإيمان والتقوى بركات في الأشياء ، وبركات في النفوس ، وبركات في المشاعر .

والآن هل من وسيلة ذكرها القرآن الكريم ، وبينتها السنة المطهرة تضاف إلى الاستغفار ، والإيمان والتقوى ، تزيد^(١) في الرزق ، وكل واحد من الخلق حريص على زيادة رزقه ، فهل هناك علاقة بين الرزق

(١) الضمير في « تزيد » يعود على قوله « وسيلة » ، والمعنى : هل من وسيلة تزيد في الرزق .

والمصلاة ؟ انظروا في قوله تعالى :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

[طه : ١٢٣]

هناك علاقة بين الرزق والشكر ، انظروا في قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

هناك علاقة بين الرزق وصلة الرحم ، انظروا في هذا الحديث الشريف ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » (١) .

فهل من علاقة بين الرزق والصدقة ؟ في الأثر : « اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ » (٢) .

هناك علاقة بين الرزق والأمانة ، انظروا فيما ورد عن رسول الله ﷺ : « الْأَمَانَةُ غِنَى » (٣) ، بالمعنى المادي ، والأمن ينال أثنى شيء وهو ثقة الناس .

هناك علاقة بين الرزق والإتقان ، انظروا في هذا الحديث الشريف :

(١) متفق عليه .

(٢) الكامل في ضعفاء الرجال (٤١٢/٢) ، وفيض القدير للمناوي (٥٠١/١) عن جبير بن مطعم .

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٤٤/١) .

« إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ »^(١) ، فَمَنْ أَتَقَنَ عَمَلَهُ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَلْقَى مَحَبَّتَهُ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ ، وَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَأَحَبَّهُ الْخَلْقُ يَسَّرَ لِلْيَسْرَى .

* * *

صلاة الاستسقاء

وقد تنقطع أسباب الرزق بانقطاع الأمطار ، فتغور الينابيع ، وتجف الأنهار ، ويبس الزرع ، ويموت الضرع ، ويهدد الإنسان بافتقار كأس الماء ، ولقمة العيش ، ويجد نفسه مضطراً إلى أن يخرج من أرضه الجذباء مشرداً ، وأن يغادر بيته الخاوي هائماً على وجهه ، وقد شرع لنا رسول الله ﷺ صلاة الاستسقاء طلباً للرحمة ، والإغاثة بإنزال المطر ، الذي هو حياة كل شيء ، ممن يملك ذلك ، ويقدر عليه ، وهو الله جل جلاله .

ثبتت مشروعية صلاة الاستسقاء بالنص والإجماع ، أما النص فقولُهُ تَعَالَى :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٥﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٦﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح : ١٥ - ١٧] .

كَمَا اسْتَدِلَّ لَهَا بِعَمَلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَخُلَفَائِهِ ، وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ

(١) حديث صحيح الجامع الصغير (١ / ١٧٧) ، ومسند أبي يعلى الموصلي (٧ / ٣٤٩) عن عائشة .

مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَدْ وَرَدَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فِي اسْتِسْقَائِهِ ﷺ ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ ، فَقَامَ النَّاسُ فَصَاحُوا ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ قَحْطَ الْمَطَرُ ، وَاحْمَرَّتِ الشَّجَرُ ، وَهَلَكَتِ الْبَهَائِمُ ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَسْقِيَنَا ، فَقَالَ : (اللَّهُمَّ اسْقِنَا) ، مَرَّتَيْنِ ، وَائِمْ اللَّهُ ، مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً مِنْ سَحَابٍ ، فَشَأَتْ سَحَابَةٌ ، وَأَمْطَرَتْ ، وَنَزَلَ عَنِ الْمِنْبَرِ ، فَصَلَّى ، فَلَمَّا انْصَرَفَ لَمْ تَزَلْ تُمَطِّرُ إِلَى الْجُمُعَةِ الَّتِي تَلِيهَا ، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ صَاحُوا إِلَيْهِ : تَهَدَّمَتِ الْبُيُوتُ ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ ، فَادْعُ اللَّهَ يَخْبِسُهَا عَنَّا ، فَتَبَسَّمَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ قَالَ : (اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا) ، فَكَشَطَتِ الْمَدِينَةُ ، فَجَعَلَتْ تَمْطُرُ حَوْلَهَا ، وَلَا تَمْطُرُ بِالْمَدِينَةِ قَطْرَةً ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَإِنَّهَا لَفِي مِثْلِ الْإِكْلِيلِ » (١) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « شَكَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُحُوطَ الْمَطَرِ ، فَأَمَرَ بِمِنْبَرٍ فَوُضِعَ لَهُ فِي الْمُصَلَّى ، وَوَعَدَ النَّاسَ يَوْمًا يَخْرُجُونَ فِيهِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَدَأَ حَاجِبُ الشَّمْسِ ، مُتَوَاضِعًا ، مُتَبَدِّلًا ، مُتَخَشِعًا ، مُتَرَسِّلًا ، مُتَضَرِّعًا فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ ، فَكَبَّرَ وَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ قَالَ : إِنَّكُمْ شَكَوْتُمْ جَذَبَ دِيَارِكُمْ ، وَاسْتِخَارَ الْمَطَرِ عَنْ إِبَّانِ زَمَانِهِ عَنْكُمْ ، وَقَدْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَدْعُوهُ ، وَوَعَدَكُمْ أَنْ يَسْتَجِيبَ لَكُمْ ، ثُمَّ قَالَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ الْغَنِيُّ وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ ، أَنْزِلْ

(١) البخاري (٩٧٥) ، ومسلم قريبا منه (٨٩٧) .

عَلَيْنَا الْغَيْثَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَاجْعَلْ مَا أَنْزَلْتَ لَنَا قُوَّةً وَبَلَاغًا إِلَى حِينٍ ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ فِي الرَّفْعِ حَتَّى بَدَأَ بِيَاضٍ يُبْطِئُهُ ، ثُمَّ حَوَّلَ إِلَى النَّاسِ ظَهْرَهُ ، وَقَلَبَ أَوْ حَوَّلَ رِدَاءَهُ وَهُوَ رَافِعُ يَدَيْهِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، وَنَزَلَ فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ ، فَأَنْشَأَ اللَّهُ سَحَابَةً فَرَعَدَتْ ، وَبَرَقتْ ، ثُمَّ أَمْطَرَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلَمْ يَأْتِ مَسْجِدَهُ حَتَّى سَأَلَتِ السُّيُوفُ ، فَلَمَّا رَأَى سُرْعَتَهُمْ إِلَى الْكِنِّ^(١) ضَحِكَ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ^(٢) .

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : (هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟) قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي ، وَكَافِرٌ بِالْكُوكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : بَنَوْا كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ، وَمُؤْمِنٌ بِالْكُوكَبِ »^(٣) .

إِنَّ صَلَاةَ الاستِسْقَاءِ هِيَ رَجَاءُ الرَّحْمَةِ مِنَ السَّمَاءِ ، وَنداءُ صَدَقِ تتوَأصى به النفوسُ المؤمنة خيراً ، وَرَحْمَةُ للبلاد والعباد ، وَينبغي أَنْ تسبقها التوبةُ الصادقةُ مِنَ المعاصي والذنوبِ ، وَردُّ المظالمِ والحقوقِ إِلَى أصحابها ، وَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ قَبْلَ الْيَوْمِ الَّذِي تُوَدَّى فِيهِ صَلَاةُ الاستِسْقَاءِ .

(١) [الْكِنُّ مَا يَرُدُّ الْحَرَّ وَالْبَرْدَ مِنَ الْأَبْنِيَةِ وَالْمَسَاكِنِ] ، (النهاية في غريب الحديث ٢٠٦/٤) ، (ولسان العرب ، مادة كنى) .

(٢) أَبُو دَاوُدَ (١١٧٣) .

(٣) البخاري (٨١٠) ، ومسلم (٧١) .

والجدير بالذكر أن الله جلّ في علاه يستجيب لعباده المؤمنين الذين استجابوا له ، فأطاعوه ، وأخلصوا في طاعتهم استحقاقاً ، وقد يستجيب لعباده المضطّرين الذين كادَ يُهلكهم الجفافُ ، وقصّروا في طاعتهم وإخلاصهم ، قد يستجيب لهؤلاء تفضلاً وتشجيعاً ، وقد يستجيب رحمةً بالضعاف الطائعين ، الذين أشار إليهم رسولُ الله ﷺ بقوله في الحديث : « لَوْلَا شَبَابٌ خُشِعَ ، وَشُيُوخٌ رُكِعَ ، وَبَهَائِمٌ رُتِعَ ، وَأَطْفَالٌ رُضِعَ ، لَصَبَّ عَلَيْكُمْ الْعَذَابُ صَبًّا » (١) .

قال ابنُ عباسٍ : « إِنَّ لِلْحَسَنَةِ نُوراً فِي الْقَلْبِ ، وَضِيَاءً فِي الْوَجْهِ ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ ، وَزِيَادَةً فِي الرِّزْقِ ، وَمَحَبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ ، وَإِنَّ لِلْسَيِّئَةِ سَوَاداً فِي الْوَجْهِ ، وَظُلْمَةً فِي الْقَلْبِ ، وَوَهْنًا فِي الْبَدَنِ ، وَنَقْصاً فِي الرِّزْقِ ، وَبُغْضاً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ » (٢) .

* * *

الغدة الصعترية (التيموس)

يُعَدُّ جهازُ المناعةِ المكتسبُ من أخطرِ الأجهزةِ في الجسمِ البشريِّ ، وهو جيشٌ دفاعيٌّ عاليُ المستوى والجاهزية ، فيه فِرْقُ الاستطلاع ، وفِرْقُ تصنيعِ السلاحِ ، وفِرْقُ القتالِ ، وفِرْقُ الخدماتِ ، وفِرْقَةُ المِغاوِيرِ ، والحديثُ هنا عن فِرْقِ القتالِ في كرياتِ الدمِ .

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٣٤/٧) ، وأبو يعلى في مسنده (٢٨٧/١١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٣٤٥/٣) عن أبي هريرة .

(٢) ذَكَرَهُ ابْنُ الْقَيْمِ فِي الْجَوَابِ الشَّافِي (ص ٧٩) .

يرسَلُ فريقٌ من كرياتِ الدِّمِ البيضاءِ التي صُنِعَتْ وتشكَّلت في نقي العظام ، والتي فُرِزَتْ لِمَهَامَ قتاليةٍ ، تُرْسَلُ إلى مدرسةٍ حربيةٍ اسمُها الغدَّةُ الصعتريةُ (التيموس) في دورةٍ تثقيفيةٍ تدريبيةٍ ، وبعدَ اجتيازِ الامتحانِ تتخرَّجُ بـلقبِ (الخليةِ النائيةِ المثقفة) .

وفي هذه المدرسةِ الحربيةِ تدرُسُ هذه الكرياتُ البيضاءُ التي فُرِزَتْ للقتالِ مادَتَيْنِ أساسيتين ؛ التعريفَ بالذاتِ والصديق ، والتعريفَ بالعدوِّ الممرض .

ففي المقررِ الأولِ يُعرَضُ على هذه الخلايا ماثُ الألوفِ من البروتينات التي تدخلُ في بناءِ الجسمِ البشري ، ثم ترمز هذه العناصر الصديقة ، وتدرَّب هذه الخلايا على ألاَّ تهاجمَها ، لأنها إن هاجمتها فمعنى ذلك أنَّ الجسمَ يدمِّرُ نفسه ، ويُتلفُ بعضه .

وفي المقررِ الثاني يُعرَضُ على هذه الخلايا ما عرفه النوعُ البشريُّ عبْرَ الأجيالِ على أنه عنصرٌ ممرضٌ من خلالِ مناعتِ الأمِّ التي تصلُ إلى المولودِ من خلالِ الحليبِ ، ومن خلالِ التجربةِ الحيَّةِ ، إذ إنَّ الطفلَ في السنواتِ الأولى يميلُ بفطرته إلى التقاطِ الأشياءِ ، ووضعها في فمِه لتعرِّفَ خلاياه المقاتلةُ العناصرَ المعادية ، أو أنَّ العدوى بالأمراضِ تعطيه مزيداً من المعلوماتِ عن أعدائه ، ومن خلالِ هذه المحاضراتِ تعرِّفُ هذه الكرياتُ البيضاءُ المقاتلةُ العناصرَ المعادية التي عليها أن تهاجمَها ، أو تذيعَ نبأ وجودِها ، أو تساهمَ في إلقاءِ القبضِ عليها .

ومن خلالِ المَجاهِرِ الإلكترونية تبدو الغدَّةُ الصعتريةُ على شكلِ

مدرجات رومانية ، تَصَطَفُ الكرياتُ البيضاءُ عليها لتتلقى هذه المحاضراتِ القيِّمة ، إذ لابدّ في أية جامعة أو معهد أو مدرسة من امتحانٍ ، وتمرُّ هذه الكرياتُ فرادى في بواباتِ امتحانية ، وتُمتَحَنُ واحدةً واحدةً في المقرَّرَين السابقين .

امتحانُ المادةِ الأولى : يُعرَضُ على الكريةِ البيضاءِ الممتحنةِ عنصرٌ صديقٌ ، فإن هاجمته أخفقت في الامتحان ، ومُنِعَتْ مِنْ مغادرةِ الغدّةِ الصعترية ، وقُتِلَتْ ، لأنها إن خرجتْ إلى الدمِ تهاجمُ الجسمَ الذي شكّلها .

امتحانُ المادةِ الثانية : يُعرَضُ على الكريةِ البيضاءِ الممتحنةِ عنصرٌ عدوّ ممرض ، فإن أخفقت في تمييزه والردّ عليه رَسَبَتْ في الامتحان ، ومُنِعَتْ مِنْ مغادرةِ الكُلْيَةِ وقُتِلَتْ ، لأنها إن خرجتْ إلى الدمِ غَفَلَتْ عن العدو ، ومكَّنته من مهاجمة الجسم .

يستمرُّ عملُ هذه الكُلْيَةِ الحربية (الغدة الصعترية) مِنْ بَدْءِ الولادةِ وحتى السنةِ الثالثة ، وبعدها تقومُ بتوريثِ علمِ مراقبةٍ وضبطِ عملِ الكرياتِ البيضاءِ إلى الكرياتِ البيضاءِ الناجحةِ في الامتحان ، والتي سُمِّيَتْ بعد التخرُّجِ (الخلايا التائية المثقَّفة) ، لتقومَ بدورها في نقلِ هذا العلمِ إلى أجيالِ الكرياتِ البيضاءِ اللاحقة .

وفي السبعينياتِ مِنَ العُمُرِ يضعفُ تثقيفُ الكرياتِ البيضاءِ المقاتلة ، فتبدأُ بمهاجمةِ العناصرِ الصَّدِيقَةِ ، وبعضِ أجهزةِ الجسمِ وأعضائه ، فنرى في هذا العمرِ أمراضاً شائعةً ، كالتهابِ المفاصلِ الرثوي ، وبعضِ الاعتلالاتِ الكلوية ، وأمراضِ المصلّيات ، وأمراضِ أخرى ما كان

سببها إلا ضعف ثقافة الجهاز المناعي الذي ينتج عنه زوال الضبط في عمل الخلايا المقاتلة (وهو خرف الجهاز المناعي) ، فتصبح الخلايا المناعية المقاتلة تهاجم الجسم في الذي شكلها ، وثقفها للدفاع عنه ، ونكون حالة الجسم في ما يشبه الحرب الأهلية .

* * *

أَثَرُ الْإِيمَانِ فِي حَيَاةِ الْفَرْدِ

إِنَّ قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ قَضِيَّةٌ مُصِيرِيَّةٌ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ ، إِنَّهَا سَعَادَةٌ أَبَدِيَّةٌ ، أَوْ شَقْوَةٌ أَبَدِيَّةٌ ، إِنَّهَا الْجَنَّةُ أَبَدًا ، أَوْ النَّارُ أَبَدًا ، وَإِنَّ الْإِيمَانَ لَيْسَ مَجْرَدَ إِعْلَانِ الْمَرْءِ بِلِسَانِهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ مَجْرَدَ قِيَامِ الْإِنْسَانِ بِأَعْمَالٍ وَشَعَائِرَ اعْتَادَ أَنْ يَقُومَ بِهَا الْمُؤْمِنُونَ ، وَلَيْسَ مَجْرَدَ مَعْرِفَةٍ ذَهْنِيَّةٍ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ ، وَبِكَلِمَةٍ مُخْتَصِرَةٍ لَيْسَ الْإِيمَانُ مَجْرَدَ عَمَلٍ لِسَانِيٍّ ، وَلَا عَمَلٍ بَدَنِيٍّ ، وَلَا عَمَلٍ ذَهْنِيٍّ ، إِنَّمَا هُوَ عِلَاقَةٌ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ عَمَلٌ نَفْسِيٌّ ، يَبْلُغُ أَغْوَارَ النَّفْسِ ، وَيَحِيطُ بِجَوَانِبِهَا كُلِّهَا ؛ مِنْ إِدْرَاكِ ، وَإِرَادَةٍ ، وَوُجْدَانٍ .

لَا بَدَّ مِنْ إِدْرَاكِ ذَهْنِيٍّ تَنْكَشِفُ بِهِ حَقَائِقُ الْوُجُودِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ، وَهَذَا الْإِنْكَشَافُ لَا يَتِمُّ إِلَّا عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ الْمَعْصُومِ حَضْرًا ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَبْلُغَ هَذَا الْإِدْرَاكُ الْعَقْلِيُّ حَدَّ الْيَقِينِ الَّذِي لَا يُزَلُّهُ شَكٌّ ، وَلَا اِزْتِيَابٌ ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَصْحَبَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ الْجَازِمَةَ إِذْعَانٌ قَلْبِيٌّ ، وَانْقِيَادٌ إِرَادِيٌّ ، يَتَحَقَّقُ فِي الْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَتَّبَعَ تِلْكَ الْمَعْرِفَةَ حَرَارَةٌ وَجْدَانِيَّةٌ مُسْعِدَةٌ ، مَضمُونُ هَذَا الْإِيمَانِ هُوَ وُجُودُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَوَحْدَانِيَّتُهُ ، وَكَمَالُهُ ، وَالْإِيمَانُ بِالنَّبَوَّةِ وَالرِّسَالَةِ ، وَبِوَحْدَةِ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْإِيمَانُ بِمُثَلِّإِنْسَانِيَّةٍ وَاقِعِيَّةٍ عَلِيَا ، وَقُدَوَاتٍ بَشَرِيَّةٍ مِمْتَازَةٍ ، اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَجْعَلَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَتَضَاوُلِ

النفوسِ حقائقَ واقعةً ، وشُخصاً مرئيةً للناسِ ، لا مجردَ أفكارٍ في بعضِ الرؤوسِ ، أو أُمانيٍّ في بعضِ النفوسِ ، أو نظرياتٍ في الكتبِ والقراطيسِ .

كيف يقبلُ العقلُ الحرُّ ، أو ترضى الفطرةُ السليمةُ أن تنتهيَ الحياةُ ، وقد طغى فيها مَنْ طغى ؟ وبغى فيها مَنْ بغى ؟ وقتلَ فيها مَنْ قتلَ ؟ وقتلَ فيها مَنْ قُتلَ ؟ وتجبَّرَ فيها مَنْ تجبَّرَ ؟ ولم يأخذْ أحدٌ من هؤلاء عقابه ؟ بل تسترَّ واختفى ، أخلفَ ونجأ ، وفي الجانبِ الآخرِ كم استقامَ مَنْ استقام ؟ وأحسنَ مَنْ أحسنَ ؟ وضحى مَنْ ضحى ؟ وجاهدَ مَنْ جاهدَ ؟ وقَدَّمَ مَنْ قَدَّمَ ؟ ولم ينلْ جزاءَ ما قَدَّمَ ، ألا يحقُّ للعقلِ أن يؤمنَ إيماناً جازماً أنه لا بدَّ أن توجدَ دارٌ أخرى تُسوَّى فيها الحساباتُ ، ويُجزى فيها المحسنُ بإحسانه ، والمُسيءُ بِإساءته .

هذه بعضُ حقائقِ الإيمانِ ، فما هي آثارُ الإيمانِ في نفسِ الإنسانِ ؟

يقولُ اللهُ جلَّ جلاله في كتابه العزيز منوهاً بالإنسانِ :

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَلَدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

إنَّ الإنسانَ مخلوقٌ كريمٌ عند الله تعالى ، خلقه في أحسنِ تقويمٍ ، وكرَّمه أعظمَ تَكرِيمٍ ، وصوَّره فأحسنَ صورته ، خلقه بيده ، ونفخَ فيه من روحه ، وأسجدَ له ملائكته ، وميَّزه بالعلمِ والإرادةِ ، وجعله خليفةً في الأرضِ ، وسخرَ له ما في السماواتِ وما في الأرضِ جميعاً منه ، وأسبغَ عليه نعمه ظاهرةً وباطنةً ، فكلَّ ما في الكونِ له ، ولخدمته ، أمَّا هو

فَجَعَلَهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ ، لَذَلِكَ يَشْعُرُ الْمُؤْمِنُ بِذَاتِهِ ، وَيُغَالِي بِقِيَمَةِ نَفْسِهِ ،
لَأَنَّهُ يَعْتَرِ بِانْتِسَابِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَارْتِبَاطِهِ بِكُلِّ مَا فِي الوجود ، وَيَحْيَا
عَزِيزَ النَّفْسِ عَالِي الرُّأْسِ ، أَبِيًّا لِلضَّيْمِ^(١) ، عَصِيًّا عَلَى الذَّلِّ ، بَعِيدًا عَنْ
الشَّعُورِ بِالتَّفَاهَةِ ، وَالضَّيَاعِ ، وَالصَّغَارِ ، وَالْفَرَاغِ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ مُخَاطَبًا
الْإِنْسَانَ :

دَوَاؤُكَ فِيكَ وَمَا تُبْصِرُهُ وَدَاؤُكَ مِنْكَ وَمَا تُشْعِرُهُ
وَقَالَ آخِرُ :

وَتَحَسَّبُ أَنَّكَ جِزْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ
أَمَّا الْإِنْسَانُ فِي نَظَرِ الْمَادِّيِّينَ فَلَا يَزِيدُ ثَمَنُهُ عَلَى مِثَّةٍ مِنَ الْعُمَلَاتِ
الرَّخِيصَةِ ، لِأَنَّ فِيهِ مِنَ الدَّهْنِ مَا يَكْفِي لِصُّنْعِ سَبْعِ قِطْعٍ مِنَ الصَّابُونِ ، وَفِيهِ
مِنَ الْفَحْمِ مَا يَكْفِي لِصُّنْعِ سَبْعَةِ أَقْلَامٍ مِنَ الرِّصَاصِ ، وَفِيهِ مِنَ الْفُوسْفُورِ
مَا يَكْفِي لِصُّنْعِ مِئَةِ وَعِشْرِينَ عَوْدَ ثِقَابٍ ، وَفِيهِ مِنْ مِلْحِ الْمَغْنِيزِيُومِ مَا يَصْلُحُ
جُرْعَةً وَاحِدَةً لِأَحَدِ الْمَسْهَلَاتِ ، وَفِيهِ مِنَ الْحَدِيدِ مَا يَسَاوِي مَسْمَارًا
مَتَوَسِّطَ الْحَجْمِ ، وَفِيهِ مِنَ الْكَلْسِ مَا يَكْفِي لَطَلَاءِ بَيْتِ دِجَاجٍ ، وَفِيهِ مِنَ
الْكِبْرِيتِ مَا يَكْفِي لِتَطْهِيرِ جِلْدِ كَلْبٍ وَاحِدٍ ، وَفِيهِ مِنَ الْمَاءِ مَا يَزِيدُ عَلَى
ثَلَاثِينَ لِترًا ؛ وَهَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ فِي نَظَرِ الْمَادِّيِّينَ .

إِنَّ السَّلَامَةَ وَالسَّعَادَةَ مُطْلَبَانِ ثَابِتَانِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ ، كَائِنًا مَنْ كَانَ ، وَفِي
كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، مِنَ الْفِيلَسُوفِ فِي قِمَّةِ تَفْكِيرِهِ ، إِلَى الْعَامِيِّ فِي قَاعِ

(١) [الضيم هو الظلم ، وضامه حقُّ ضيماً ، نَقَصَهُ إِثَاءً] ، (لسان العرب مادة ضيم) .

سُدَّاجَتِهِ ، وَمِنْ الْمَلِكِ فِي قَصْرِهِ الْمَشِيدِ ، إِلَى الصَّعْلُوكِ فِي كُوخِهِ الْحَقِيرِ ، وَمِنْ الْمُتْرَفِ فِي مِلْدَاتِهِ ، إِلَى الْفَقِيرِ فِي وِيْلَاتِهِ ، وَلَكِنَّ السَّوَالَ الَّذِي حَيَّرَ الْإِنْسَانَ عَنِ الْعُصُورِ وَالْأَجْيَالِ : أَيْنَ السَّعَادَةُ ؟ وَلِمَاذَا الشَّقَاءُ ؟ وَالْجَوَابُ : لَقَدْ طَلَبَهَا أَكْثَرُ النَّاسِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، فَعَادُوا كَمَا يَعُودُ طَالِبُ اللَّوْلُو فِي الصَّحْرَاءِ ، صَفَرَ الْيَدَيْنِ ، مَجْهُودَ الْبَدَنِ ، كَسِيرَ النَّفْسِ ، خَائِبَ الرَّجَاءِ ، لَقَدْ تَوَهَّمُوهَا فِي أَلْوَانِ مِنَ الْمُتَمَتِّعِ الْمَادِيَّةِ ، وَفِي أَصْنَافِ مِنَ الشَّهَوَاتِ الْحَسِيَّةِ ، فَمَا وَجَدُوهَا تَحَقُّقُ السَّعَادَةِ أَبَدًا ، وَرَبَّمَا زَادَتْهُمْ مَعَ كُلِّ جَدِيدٍ مِنْهَا هَمًّا جَدِيدًا ، خُذْ مِنَ الدُّنْيَا مَا شِئْتَ ، وَخُذْ بِنَذْرِهَا هَمًّا ، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَ مِنْ حَتْفِهِ ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ ، وَلَا بَدَّ مِنَ التَّفْرِيقِ بَيْنَ السَّعَادَةِ وَاللَّذَّةِ ، فَاللَّذَّةُ طَبِيعَتُهَا حَسِيَّةٌ ، مُرْتَبِطَةٌ بِالْجَسَدِ الْفَانِي ، تَأْتِي مِنَ خَارِجِ الْإِنْسَانِ ، فَهُوَ يَلْهَثُ وَرَاءَهَا ، مُتَعَبَةٌ فِي تَحْصِيلِهَا ، مُتَنَاقِصَةٌ فِي تَأْثِيرِهَا ، تَتْبَعُهَا كَأَبَةٌ مَدْمُرَةٌ ، تَنْقَطِعُ بِالْمَوْتِ ، فَإِنْ كَانَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى الظَّنِّ وَالْعُدْوَانِ اسْتَحَقَّ صَاحِبُهَا جَهَنَّمَ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ .

وَأَمَّا السَّعَادَةُ فَطَبِيعَتُهَا نَفْسِيَّةٌ مُرْتَبِطَةٌ بِذَاتِ الْإِنْسَانِ الْخَالِدَةِ ، تَنْبُعُ مِنْ دَاخِلِ الْإِنْسَانِ ، سَهْلَةٌ فِي تَحْصِيلِهَا ، مُتَنَامِيَّةٌ فِي تَأْثِيرِهَا ، يَشْقَى الْإِنْسَانُ بِفَقْدِهَا ، وَلَوْ مَلَكَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَيَسْعُدُ بِهَا ، وَلَوْ فَقَدَ كُلَّ شَيْءٍ ، تَقْفِزُ إِلَى مَلَائِكِينَ الْأَضْعَافِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَيَسْتَحَقُّ صَاحِبُهَا جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَفِيهَا نَظَرٌ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ .

وَاللَّذَّةُ تَحْتَاجُ إِلَى عُنَاوَرٍ ثَلَاثَةٍ ؛ وَقْتٍ وَصَحَّةٍ وَمَالٍ ، وَالْإِنْسَانُ يَفْتَقِدُ

أحد هذه العناصر في كل طورٍ من أطوار حياته .

ففي الطور الأول من حياته يتوافر له الوقت والصحة ، ويفتقد المال .

وفي الطور الثاني من حياته يتوافر المال والصحة ، ويفتقد الوقت .

وفي الطور الثالث من حياته يتوافر الوقت والمال ، ويفتقد الصحة ، لكن السعادة تحتاج إلى عناصر ثلاثة ؛ إيمان بالله إيماناً حقيقياً ، واستقامة على أمره ، وعملٍ صالحٍ تُجاء خلقه ، وهذه متوافرة في كل زمانٍ ومكانٍ ، وفي كل طورٍ من حياة الإنسان .

غاضبٌ زوجٌ زوجته يوماً ، فقال لها متوعداً : لأشقيئك ! فقالت الزوجة في هدوء : لا تستطيع أن تُشقيني ، ولا تملك أن تُسعدني ، فقال الزوج في حُمقٍ : وكيف لا أستطيع ؟ فقالت الزوجة في ثقة : لو كانت السعادة في مالٍ ، وكنت تملكه لقطعتُه عني ، ولو كانت السعادة في الحلبي لحرمتني منها ، ولكنّها في شيء لا تملكه أنت ، ولا الناس جميعاً ، فقال الزوج في دهشة : وما هو ؟ فقالت الزوجة في يقينٍ : إنّي أجدُ سعادتي في إيماني ، وإيماني في قلبي ، وقلبي لا سلطان لأحدٍ عليه غير ربّي .

هذه هي السعادة الحقيقية التي لا يملك بشرٌ أن يُعطِيها ، ولا يملك أحدٌ أن ينتزعها ممّن أُوتِيها ، ولكن بنظرة واقعية لا ننكر أنّ للجانب الماديّ مكاناً محدوداً في تحقيق السعادة ، فقد قال ﷺ : « أربع من السعادة ؛ المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء ، وأربع من الشقاء ؛ الجار السوء ، والمرأة السوء ،

والمركب السوء ، والمسكن الضيق»^(١) ، ولكن ليس لهذا الجانب المكان الأول ، ولا المكان الفسيح ، والمدار فيه على الكَيْفِ لا على الكم ، فحسب الإنسان أن يسلم من المنغصات المادية التي يضيق بها الصدر ، وأن يُمنح الأمن والعافية ، وأن يتيسر له القوت من غير حرج ، ولا إعنات ، وما أروع وأصدق ذلك الحديث النبوي الشريف : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ^(٢) ، مُعَافَى فِي جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمُهُ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا »^(٣) ، ويقول عليه الصلاة والسلام : « وَإِنَّ اللَّهَ يَقْسِطُهُ وَعَدْلُهُ جَعَلَ الرُّوحَ وَالْفَرَحَ فِي الرِّضَا وَالْيَقِينِ ، وَجَعَلَ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ فِي الشَّكِّ وَالسُّخْطِ »^(٤) .

يكشف هذا الحديث الشريف عن حقيقة نفسية باهرة ، فكما أن سنة الله قد ربطت الشَّبَعَ والرِّيَّ بالطعام والشراب في عالم المادة ، فإن سنته تعالى في عالم النفس قد ربطت الفرح والروح ، أي السرور وراحة النفس بالرضا واليقين ، فبرضا الإنسان عن نفسه ، وعن ربه ، يطمئن إلى يومه وحاضره ، وبيقينه بالله تعالى ، وبالجزاء في اليوم الآخر يطمئن إلى غده ومستقبله ، فما ربطت سنة الله الغم والحزن بالسُّخْطِ والشك ، فالساخطون والشاكون لا يذوقون للسرور طعماً ، إن حياتهم كلها سواد ممتد ، وظلام متصل ، وليل حالك ، لا يعقبه نهار ، أما حزن المؤمن

(١) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٠٢٣) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٥٥٦) ، عن سعد بن أبي وقاص .

(٢) [سربه بالكسر ، أي في نفسه] ، النهاية في غريب الحديث (٣٥٦/٢) .

(٣) رواه الترمذي عن عبد الله بن مَخْصَنِ الخَطْمِيِّ (٢٣٤٦) .

(٤) الطبراني في الكبير (٢١٥/١٠) ، والبيهقي في الشعب (٢٢١/١) .

لغيره فأكثرُ من حزنه لنفسه ، وإذا حزنَ لنفسه فلاخرته قبلَ دنياءه ، وإذا حزنَ لدُنياءه فهو حزنٌ عارضٌ موقوفٌ كغَمَامِ الصَّيْفِ ، سرعانَ ما ينقشعُ إذا هبَّتْ عليه رياحُ الإيمانِ .



قصة وفد اليمن

قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَفْدٌ مِنَ الْيَمَنِ ، وَهُمْ ثَلَاثَةُ عَشَرَ رَجُلًا ، سَاقُوا مَعَهُمْ صَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَسَرَّ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهِمْ ، وَأَكْرَمَ مَنْزِلَهُمْ ، وَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، سُقْنَا إِلَيْكَ حَقَّ اللَّهِ فِي أَمْوَالِنَا ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « رُدُّوْهَا فَاقْسِمُوْهَا عَلَى فَقَرَائِكُمْ » ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا قَدِمْنَا عَلَيْكَ إِلَّا بِمَا فَضَّلَ عَنْ فَقَرَائِنَا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا وَفَدَ مِنَ الْعَرَبِ بِمِثْلِ مَا وَفَدَ بِهِ هَذَا الْحَيَّ . . . فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ الْهَدْيَ بِيَدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَمَنْ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا شَرَحَ صَدْرَهُ لِلْإِيمَانِ » ، وَسَأَلُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَشْيَاءَ ، فَكُتِبَ لَهُمْ بِهَا ، وَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ عَنِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ ، فَازْدَادَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهِمْ رَغْبَةً ، وَأَمَرَ بِأَنْ يُحَسِّنَ ضِيَافَتَهُمْ ، فَأَقَامُوا أَيَّامًا ، وَلَمْ يُطِيلُوا الْمُكُثَّ ، فَقِيلَ لَهُمْ : مَا يُعْجِلُكُمْ ؟ فَقَالُوا : نَرْجِعُ إِلَى مَنْ وَرَاءَنَا فَنُخْبِرُهُمْ بِرُؤْيَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، وَكَلَامِنَا إِيَّاهُ ، وَمَا رَدَّ عَلَيْنَا ، ثُمَّ جَاؤُوا إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُوَدِّعُونَهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ بِأَنْ يَرْفَعُوا مَا كَانَ يُجِيزُ بِهِ الْوُفُودَ ، قَالَ : « هَلْ بَقِيَ مِنْكُمْ أَحَدٌ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، غُلَامٌ خَلَفْنَاهُ

على رحالنا ، هو أحدثنا سنًا ، قال : أرسلوه إلينا ، فلمّا رجعوا إلى رحالهم ، قالوا للغلام : انطلق إلى رسول الله ﷺ ، فاقض حاجتك منه ، فإنّا قد قضينا حوائجنا منه ، وودّعناه ، فأقبل الغلام حتى أتى النبيّ عليه الصلاة والسلام ، فقال : يا رسول الله ، إنني امرؤ من بني أزدى ، يقول : من الرّهط الذين أتوك آنفًا ، فقضيت حوائجهم ، فاقض حاجتي يا رسول الله ؟ قال : « وما حاجتك ؟ » قال : إنّ حاجتي ليست كمحاجة أصحابي ، وإن كانوا قدّموا راغبين في الإسلام ، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم ، وإنّي والله يا رسول الله ما أقدمني من بلادِي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني ، وأن يجعل غنائي في قلبي ، فقال عليه الصلاة والسلام ، وأقبل إلى الغلام : « اللهم اغفر له وارحمه ، واجعل غناه في قلبه » ، ثمّ أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه ، فانطلقوا راجعين إلى أهلهم ، ثمّ وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بمنى سنة عشر ، فقالوا : نحن بنو أزدى ، فقال عليه الصلاة والسلام : « ما فعل الغلام الذي أتاني معكم » ؟ قالوا : ما رأينا مثله قطّ ، ولا حدّثنا بأقبح منه بما رزقه الله ، لو أنّ الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ، ولا التفت إليها ، فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله ، إنني لأرجو أن يسوت جميعاً » ، فقال رجل منهم : يا رسول الله ، أو ليس يموت الرجل جميعاً ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا ، فلعلّ أجله يدرّكه في بعض تلك الأودية ، فلا يبالي الله عز وجل في أيّها هلك ، قالوا : فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حال ، وأزهده في الدنيا ، وأقنعه بما رزق ، فلمّا توفي النبيّ عليه الصلاة والسلام ورجع

مَنْ رَجَعَ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ عَنِ الْإِسْلَامِ ، قَامَ فِي قَوْمِهِ ، فَذَكَرَهُمُ اللَّهُ وَالْإِسْلَامَ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَذْكُرُهُ ، وَيَسْأَلُ عَنْهُ حَتَّى بَلَغَهُ حَالُهُ ، وَمَا قَامَ بِهِ ، فَكَتَبَ إِلَى زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ يَوْصِيهِ بِهِ خَيْرًا^(١) .

هذه هي الفئاعةُ عند المؤمنين ، فالناسُ يموتون على ما عاشوا عليه ، فَمَنْ عَاشَ جَمِيعًا مَاتَ جَمِيعًا ، وَمَنْ عَاشَ أَوْزَاعًا شَتَّى ، وَأَجْزَاءً مُتَنَافِرَةً مَاتَ كَمَا عَاشَ ، وَقَلِيلٌ مِنَ النَّاسِ ، بَلْ أَقَلُّ مِنَ الْقَلِيلِ ، ذَلِكَ الَّذِي يَعِيشُ لَغَايَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَيَجْمَعُ هُمُومَهُ فِي هَمٍّ وَاحِدٍ ، يَحْيَا لَهُ ، وَيَمُوتُ لَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْمُؤْمِنُ الْبَصِيرُ الَّذِي غَايَتُهُ الْفِرَارُ إِلَى اللَّهِ ، وَسَبِيلُهُ اتِّبَاعُ مَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى ، كُلُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهِ لِلَّهِ ، وَبِاللَّهِ ، وَحَالُهُ تَنْطِقُ بِهِ هَذِهِ الْآيَةُ :

﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] ، وَقَوْلُهُ :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾

[الأنعام : ٨٢]

إِنَّ النَّاسَ يَخَافُونَ مِنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ ، وَأُمُورٍ شَتَّى ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ سَدَّ أَبْوَابَ الْخَوْفِ كُلِّهَا ، فَلَا يَخَافُ إِلَّا مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ ، يَخَافُ أَنْ يَكُونَ فَرَطٌ فِي حَقِّهِ أَوْ اعْتَدَى عَلَى خَلْقِهِ ، أَمَّا النَّاسُ فَلَا يَخَافُهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لَهُ ضَرًّا ، وَلَا نَفْعًا ، وَلَا مَوْتًا ، وَلَا حَيَاةً ، وَلَا نَشُورًا .

(١) انظر زاد المعارج ص ٥٦٧ وانظر البداية والنهاية ج ٥ ص ٨٤ .

والمؤمن آمن على رزقه أن يفوته ، فإنَّ الأرزاقَ في ضمانِ الله تعالى ، الذي لا يخلفُ وعده ، ولا يضيعُ عبده ، وهو الذي يُطعمُ الطيرَ في وُكُنَاتِهَا^(١) ، والسَّباعَ في الفلواتِ ، والأسماكَ في البحارِ ، والدَّيدانَ في الصَّخورِ ، وهو الذي يسمعُ ديببَ النملةِ السمرَاءِ ، على الصخرةِ الصماءِ ، في الليلةِ الظلماءِ .

لقد كان المؤمنُ يذهبُ إلى ميدانِ الجهادِ حاملاً روحه على كَفِّهِ ، متمنياً الموتَ في سبيلِ عقيدته ، ومن خلفه ذريةٌ ضعافٌ ، وأفراخٌ زُغْبُ الحواصِلِ^(٢) ، لا ماءٌ ولا شجرٌ ، ولكنه يوقنُ أنه يتركهم في رعايةِ ربِّ كريمٍ ، هو أبَرُّ بهم وأرحمُ ، وتقولُ الزوجةُ عن زوجها ، وهو ذاهبٌ في سبيلِ الله تعالى : إنِّي عرفتهُ أكالاً ، وما عرفتهُ رزاقاً ، ولئن ذهبَ الأكالُ لقد بقيَ الرزاقُ .

إنَّ المؤمنَ آمنٌ على أَجلِهِ ، فإنَّ اللهَ قدَّرَ له ميقاتاً مسمًى ، وأياماً معدودةً ، وأنفاساً محدودةً ، ولا تملكُ قوَّةٌ في الأرضِ أنْ تُنْقِصَ مِنْ هذا المقدارِ ، أو تزيدَ فيه ، لقد هدَّدَ الحَجَّاجُ سعيدَ بنَ جبيرِ التابعيِّ الجليلِ بالقتلِ ، فقال له سعيدُ بنُ جبيرٍ : « لو علمتُ أنَّ الموتَ والحياةَ في يدك ما عبدتُ غيرك » .

(١) [الوَكْن - بالفتح عَشَّ الطائر] ، (لسان العرب ، مادة وكن) .

(٢) [الزغب الشعيرات الصفر ، على ريش الفرخ ، وقيل : هو صغار الشعر بالريش وليته] ، (لسان العرب ، مادة زغب) ، [الحوصلة من الطير بمنزلة المعدة من الإنسان] ، (لسان العرب ، مادة حصل) ، والمقصودُ بهذا الكلامِ الصَّغَرُ ، والضعفُ ، وعدمُ القدرةِ والقوَّةِ .

إِنَّ الْإِيمَانَ وَالْأَمَلَ متلازمان ، فالمؤمنُ أوسعُ الناسِ أملاً ، وأكثرُهم تفاؤلاً واستفساراً ، وأبعدُهم عن التشاؤم والتبرّم والضجر ، الإيمانُ معناه الاعتقادُ بقوةٍ علياً تدبّرُ هذا الكونَ ، لا يخفى عليها شيءٌ ، ولا تعجزُ عن شيءٍ ، ويبيدها كلُّ شيءٍ ، المؤمنُ يعتصمُ بهذا الإلهِ العظيمِ ، البرّ الرحيمِ ، العزيزِ الكريمِ ، الغفورِ الودودِ ، ذي العرشِ المجيدِ ، الفعّالِ لما يريدُ ، يُجيبُ المضطرَّ إذا دعاه ، ويكشفُ السوءَ ، ويقبلُ التوبةَ عن عباده ، ويعفو عن السيئاتِ ، هو أرحمُ بعباده مِنَ الأمِّ بولدها ، وأبرُّ بالخلقِ مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَإِنَّ المؤمنَ إذا حاربَ كان واثقاً بالنصرِ ، لأنّه مع الله تعالى ، ولأنّه لله ، فاللهُ له ، قال تعالى :

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات : ١٧٢-١٧٣] .

وهذا درسٌ بليغٌ لنا في معركتنا مع أعدائنا ، والمؤمنُ إذا مَرِضَ لم ينقطعَ أمله مِنَ العافية ، ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء : ٨٠] ، والمؤمنُ إذا اقترفَ ذنباً لم يئأسَ مِنَ المغفرةِ ، قال تعالى :

﴿ قُلْ يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وهو إذا أعسرَ لم يزل يؤملُ اليُسْرَ ، قال تعالى :

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [الشرح : ٥-٦] ، وإذا انتابته كارثةٌ من الكوارثِ كان على رجاءٍ مِنَ الله أَنْ يأجره في مصيبتِهِ ، وَأَنْ يُخْلِفَهُ خيراً منها ، وإذا رأى الباطلَ يقومُ في غفلةِ الحقِّ ، يصولُ ويجولُ أيقنَ أَنَّ الباطلَ إِلَى زوالٍ ، وَأَنَّ الحقَّ إِلَى ظهورٍ وانتصارٍ ، وإذا أدركته

الشيخوخة ، واشتعل رأسه شيباً ، لا ينفك يرجو حياةً أخرى ، شاباً بلا هرم ، وحياةً بلا موت ، وسعادةً بلا شقاء .

والمؤمنون هم أصبرُّ الناسِ على البلاءِ ، وأثبتُّهم في الشدائدِ ، وأرضاهم نفساً في الملماتِ ، عَرَفُوا أَنَّ هذه الدنيا دارُ التواء ، لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، وأنَّ مَنْ عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى ، وجعل الآخرة دار عُقْبَى ، فَجَعَلَ بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً ، وعطاء الآخرة مِنْ بلوى الدنيا عرضاً ، فبأخذُ ليعطي ، ويبتلي ليجزي ، وعرفوا أَنَّ ما ينزلُ مِنْ مصائب ليس ضرباتِ عجماء ، ولا خبطَ عشواء ، ولكنه وَفَّقَ قدرٍ معلوم ، وقضاء مرسوم ، وحكمة إلهية ، فآمنوا بأنَّ ما أصابهم لم يكن ليخطئهم ، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم ، وعرفوا أَنَّ اللهَ يَقْدَرُ ويلطفُ ، ويبتلي ويخففُ ، وَمَنْ ظَنَّ انفكاكَ لطفه عن قدره فذلك لقصورِ نظره ، وعرفوا أَنَّ وراءَ كلِّ شِدَّةٍ شِدَّةٌ إلى الله ، وأنَّ وراءَ كلِّ محنةٍ مِنحةٌ منه سبحانه .

* * *

الوردة الجورية

يوقنُّ الباحثُ في العلم ، ويشعرُ المتأملُ في الكونِ ، حينما يقرأ آياتِ القرآنِ المتعلقةَ بخلقِ الأكوانِ والإنسانِ ، يوقنُّ ويشعرُ بكلِّ خَلْقَةٍ في جسمه ، وبكلِّ قطرةٍ في دمه أَنَّ هذا القرآنَ كلامُ الله ، المنزلُ على نبيه محمَّدٍ رسولِ الله ، وأنه مستحيلٌ أَنْ يأتِيَ به بشرٌ ، فرادى أو مجتمعين ، فَمِنْ خِلالِ المؤتمراتِ العالميةِ التي عُقِدَتْ في عواصمٍ متعدّدةٍ في أنحاء

العالم حول الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة ، يتضح أن أبحاثاً علمية جادة ورصينة ، قام بها علماء ليسوا مسلمين ، ولا تعنيهم آيات القرآن الكريم ، استغرقت عشر سنوات ، وكلفت ملايين الدولارات ، تأتي نتائج بحوثهم مطابقة مطابقة عفوية وتامة من دون تكلف ، ولا تعنت ، ومن دون تأويل بعيد عن الآية ، أو تعديل مفتعل لحقيقة ، تأتي نتائج بحوثهم تلك مطابقة لآية ، أو لكلمة في آية ، بل لحرف واحد في آية ، وهذا مصادق قوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

ففي الواحد والثلاثين من تشرين الأول من عام (١٩٩٠ م) عرضت إحدى أقوى وكالات الفضاء في العالم من خلال مرصد عملاق عبر موقعها المعلوماتي صورة لا يشك الناظر إليها لحظة أنها وردة جورية ، ذات أوراق حمراء قانية ، مُحاطة بِوَرَيقات خضراء زاهية ، وفي الوسط كأس أزرق اللون ، أما حقيقة هذه الصورة فهي صورة لانفجار نجم عملاق اسمه عَيْنُ الْقِطْ ، يبعد عنا ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، وفي هذا الموقع المعلوماتي آلاف الصُّور الملونة التي رصدتها المراصد العملاقة لعجائب الفضاء ، ولكن ما علاقة هذه الصورة بإعجاز القرآن ؟ .

في القرآن الكريم آية من سورة الرحمن ، هي قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ [الرحمن : ٣٧] ، لو تتبعنا

تفسيرها في معظم التفاسير قبل نشر الصورة ، لَمَا وجدت فيها ما يُشفي غليلك ، ذلك لأن في القرآن آيات لَمَا تُفسَّر ، كما قال الإمام عليّ كرم

وجهه ، وإن انشقاق هذا النجم يُشبهُ ورْدَةً متألِّقَةً ، بل إن صورةَ هذا النجم عند انفجاره ربما كان تفسيراً لهذه الآية ، بشكلٍ أو بآخر ، هذا لونٌ من ألوان الإعجاز .

ولونٌ آخرٌ ؛ بعضُ النجوم تبعُدُ عنّا عشرينَ ملياراً من السنوات الضوئية ، أي : إن ضوءَها بقيَ يسيرُ في الفضاء الكونيِّ عشرينَ مليار سنةٍ حتى وصل إلينا ، علماً أنَّ الضوءَ يقطعُ في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر ، فكم يقطعُ في السنة ؟ وكم يقطعُه في عشرينَ مليار سنة ؟ ! فهذا النجمُ الذي وصلَ إلينا ضوءُه بعدَ عشرينَ مليار سنة أين هو الآن ؟ إنه يسيرُ بسرعةٍ تقتربُ من سرعةِ الضوءِ ، لذلك جاءت الآيةُ الكريمةُ :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۖ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۖ ﴾ [٧٦]

[الواقعة : ٧٥-٧٦]

إنَّ كلمةَ (مَوَاقِع) في هذه الآية هي سرُّ إعجازها ، فالموقع لا يعني أنَّ صاحبَ الموقع موجودٌ فيه ، فالله جلَّ جلالُه لم يُقسِمَ بالمسافات التي بينَ النجوم ، ولكنَّه أقسمَ بالمسافات التي بينَ مواقعِ النجوم ، ذلك لأنَّ النجومَ متحرِّكةٌ ، وليست ثابتةً ، ولو قرأ عالمُ الفلكِ هذه الآية لخرَّ ساجداً لله عز وجل ، فقد قال الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۖ ﴾ [الواقعة : ٧٦] ، أي : إن من يعلمون

ذلك وحدهم يقدرون عظمةَ هذه الآية ، لذلك :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

المعجزات والزمن

إنّ موضوعَ الإسراءِ والمعراجِ هو من الموضوعاتِ المتعلقةِ بالمناسباتِ الدّينيةِ ، وهذه الموضوعاتُ لا نحتاجُ إلى سردِ وقائعها بقدرِ ما نحتاجُ إلى استنباطِ الدروسِ والعبرِ منها .

بادئ ذي بدءِ الإسراءُ والمعراجُ هو معجزةٌ ثابتةٌ في الكتابِ والسُّنةِ ، ولكن لا معنى للحديثِ عن المعجزاتِ التي هي خرقٌ للنواميسِ والعاداتِ ، وعن جزئياتها ، وعن وقوعها أو عدم وقوعها إذا كان أصلُ الدّينِ الذي يتلخّصُ في الإيمانِ باللهِ موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، والإيمانِ بأنه بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، وعلى كلّ شيءٍ قديرٌ ، وأنه فعّالٌ لما يريدُ ، إذا كان هذا الأصلُ محلّاً شكٍّ فلا معنى للحديثِ عن المعجزاتِ أصلاً ، فالقرآنُ الكريمُ يخاطبُ الناسَ بأصولِ الدّينِ ، بوجودِ الله عز وجل ، ويخاطبُ المؤمنين بفروعِ الدّينِ ، ومعجزةُ الإسراءِ والمعراجِ من فروعِ الدّينِ .

ثمّة حقيقةٌ أضعُها بين أيديكم ؛ إنّ الكونَ بمجرّاته وكازاراته ، بكواكبه ومُذنباته ، بالمسافة بين النجومِ ، بالسرعاتِ الضوئيةِ ، بحجُومِ النجومِ وسرعاتها ، وبدورانها وتجاذُبها ، بالأرضِ بجبالها ووديانها ، وسهولها ، ببحارها وبُحيراتها ، بينابيعها وأنهارها ، بحيواناتها

ونباتاتها ، بأسمائها وأطيافها ، بمعادنها وثمراتها ، وإنَّ الإنسان بعقله وعاطفته ، وأعضائه وأجهزته ، بفطرته وطباعه ، بزواجه وذريته ، هذه كلها معجزات ، وبشكل مختصر الكونُ بسماواته وأرضه هو في وضعه الراهن من دون خرقٍ لنواميسه ، ومن دون خروجٍ عن نظامه هو في حدِّ ذاته معجزةٌ ، وأيُّ معجزةٍ ، والدليلُ قوله تعالى :

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[آل عمران : ١٩٠ - ١٩١]

إنَّ في خَلْقِ السماوات والأرض من دون خرقٍ للنواميس معجزةٌ .
إنَّ اللهَ خَلَقَ الكونَ بسماواته وأرضه وخلقَ العوالمَ ، وعلى راسِها الإنسانَ وفقَ أنظمةٍ بالغةِ الدقَّةِ ، ومن أبرزِ هذه الأنظمةِ نظامُ السَّبَبِيَّةِ ، وهو تلازمُ شيئين وجوداً وعدماً ، أحدهما قبل الآخر ، سمَّينا الأولَ سبباً ، وسمَّينا الثانيَ نتيجةً ، ومما يكملُ هذا النظامَ الرائعَ أنَّ العقلَ البشريَّ يقومُ على مبدأِ السَّبَبِيَّةِ ، أي : إنَّ العقلَ لا يفهمُ حدثاً من دون سببٍ ، ومن رحمةِ الله بنا أنَّ هذا النظامَ في الكونِ ، وذاك المبدأ في العقلِ يقودُنا برفقٍ إلى معرفةِ الله مسببِ الأسبابِ ، فالأقدامُ تدلُّ على المسيرِ ، والماءُ يدلُّ على الغديرِ ، أفسماءُ ذاتُ أبراجٍ ، وأرضُ ذاتُ فجاجٍ ، ألا تدلَّان على الحكيمِ الخبيرِ ؟

ومن رحمةِ الله بنا أيضاً أنَّ تلازمَ الأسبابِ مع النتائجِ يُضفي على الكونِ طابعَ الثباتِ ، ويمهِّدُ الطريقَ لاكتشافِ القوانينِ ، ويعطي الأشياءَ

خصائصها الثابتة ليسهل التعامل معها ، ولو لم تكن الأسباب متلازمة مع النتائج ، ولو لم تكن النتائج بقدر الأسباب لأخذ الكون طابع الفوضى والعشوائية ، ولتأه الإنسان في سبيل المعرفة ، ولم ينتفع بعقله ، لكن من اعتقد أن الأسباب وحدها تخلق النتائج ، ثم اعتمد على الأسباب وحدها فقد أشرك ، لذلك يتفضل الله على هذا الإنسان الذي وقع في الشرك الخفي فيؤدبه بتعطيل فاعلية الأسباب التي اعتمد عليها ، فيحتاج بنتائج غير متوقعة ، ومن ترك الأخذ بالأسباب متوكلاً - في زعمه - على الله فقد عصى ، لأنه لم يعبأ بهذا النظام الذي ينتظم الكون ، ولأنه طمع بغير حق أن يخرق الله له هذه السنن ، أما المؤمن الصادق فيأخذ بالأسباب من دون أن يعتقد أنها تصنع النتائج ، وبالتالي من دون أن يعتمد عليها ، يأخذ بها ، وكأنها كل شيء ، ويعتمد على الله ، وكأنها ليست بشيء ، معتقداً أنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأسباب وحدها لا تقود إلى النتائج إلا بمشيئة الله ، وهذا التوحيد الإيجابي الذي يغيب عن كثير من المؤمنين ، فضلاً عن غير المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

قال علماء التفسير : « هذا هو الشرك الخفي » ، لكن نظام السببية يُخرق أحياناً ، فحينما يأتي إنسان ويقول : إنه رسول من عند الله جاء ليبلغ منهج الله عز وجل فلا بد من أن يطالبه الناس ببرهان على أنه رسول الله ، وعلى أن الكتاب الذي جاء به هو من عند الله ، وهنا تأتي المعجزة لتكون برهاناً على صدق إرسال النبي ، ومصادقية منهجه ، قال تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَذَجَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [النساء : ١٧٤] .

قال علماء التفسير : « البرهان هو المعجزة » .

والمعجزة في بعض تعاريفها : « خرق لنواميس الكون ولقوانينه » ، ولا يستطيعها إلا خالق الكون ، لأنه هو الذي وضع القوانين والنواميس ، يعطيها لرسله لتكون برهاناً على صدقهم في إرسالهم ، وصدقهم في إبلاغهم عن ربهم ، والمعجزة ممكنة عقلاً غير مألوفة عادة ، فهناك فرق بين أن يحكم العقل على شيء باستحالته ، وأن يعلن عجزه عن فهم هذا الشيء ، فعدم العلم بالشيء لا يلزم العلم بعدمه .

هذه الحقيقة الأولى : أن الإسراء والمعراج معجزة ، وهذا مكان المعجزة في هذا الدين العظيم .

ثانياً : تؤكد روايات الإسراء والمعراج أن النبي عليه الصلاة والسلام أُسْرِيَ به من مكة إلى بيت المقدس ، ثم عُرجَ به إلى السماء إلى سدره المنتهى ، ثم عادَ إلى بيت المقدس ، ومنه إلى مكة ، من دون أن تقتطع هذه الرحلة المديدة من الزمن شيئاً ، معنى ذلك أن الله خالق الزمن ، والزمن مخلوق ، فلا يُسأل : متى كان الله ؟ لأن الزمن من مخلوقاته ، وأن الزمن من خلق الله ، يكون أو لا يكون ، أما نحن فما علاقتنا بالزمن ؟ نحن زمن ، الإنسان بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

إن وقت الإنسان في الحقيقة هو عمره ، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ، ومادة معيشته الضنك في العذاب الأليم ، وهو يمرّ مرّ

السحاب ، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوباً من حياته ، وإن عاش فيه عيش البهائم ، فإذا قطع وقته في الغفلة واللّهو والأمانى الباطلة ، وكان خيراً ما قطعه به النوم والبطالة ، فموت هذا الإنسان خيراً له من حياته .

إن الوقت بالنسبة للإنسان عنصر مهم ، إذا لم يكن محسوباً له بخير فهو محسوب عليه بشر .

إن إدارة الوقت هو الاستنباط الثاني من معجزة الإسراء والمعراج .

إن إدارة الوقت هي في مجملها تحديد هدف ، ثم تحقيقه ، وهذا في القرآن الكريم ، ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] .

لا شك أن من يمشي إلى هدف وغاية واضحة أهدى ممن يخطئ خطاً عشوياً ، هذه حقيقة .

والأدلة على أهمية الوقت مبثوثة في القرآن الكريم ، فقد أقسم الله جل جلاله بمطلق الزمن ، لهذا المخلوق المكرم ، الذي هو في حقيقته زمن ، قال سبحانه :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١-٣] .

لقد أقسم الله بمطلق الزمن ، لهذا المخلوق المكرم ، الذي هو في حقيقته زمن ، أنه خاسر لا محالة ، لماذا ؟ لأن مضي الزمن وحده يستهلكه ، فالإنسان في أدق تعريفاته بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى

بضع منه ، وما من يوم ينشق فجره إلا وينادي : يا ابن آدم ، أنا خَلَقْتُ
جديدٌ ، وعلى عملك شهيدٌ ، فتزوّد مني فإنّي لا أعودُ إلى يومِ القيامةِ .

الآية الثانية :

﴿ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ نَصِيرٍ ۚ ﴾ [فاطر : ٣٧] ، أي : لقد كانت أعماركم التي وهبناكم إياها
بين أيديكم تكفي لمن أراد أن يتذكر ، أو أراد أن يتفكر ، أو أراد أن يعمل
صالحاً .

من هذا المنهج القرآني الكريم يمكن أن نستخلص أهمية الوقت
للإنسان المسلم ، حيث ألقى الله عليه مسؤولية استغلال الوقت الاستغلال
الأمثل ، الذي يحقق مرضاة الله تعالى ، وفائدة الإنسان ، فالوقت عنصرٌ
مهمٌ ، يجب على الفرد أن يتنبّه إلى الاستفادة منه ، سواءً على مستوى
الفرد ، أو على مستوى الجماعة المسلمة ، هذا في الكتاب العزيز ، فماذا
في السنة الشريفة ؟

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ
مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ » (١) .

وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :
« نِعَمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ » (٢) .

(١) الترمذي (٢٤١٦) .

(٢) البخاري (٦٠٤٩) ، الترمذي (٢٣٠٤) ، ابن ماجه (٤١٧٠) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ » (١) .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ » (٢) .

تؤكدُ السُّنَّةُ النبويَّةُ الشريفةُ على أهميَّةِ أن يستغلَّ الإنسان الوقتَ في مراحلِ حياتِهِ المختلفةِ ، بدايةً من الصَّغَرِ ، وحتى تتقدَّم به السنُّ ، كما تتَّسعُ هذه الأهميَّةُ لتشملَّ أهميَّةَ استفادةِ الفردِ ليس فقط من وقتِ العملِ ، بل من وقتِ الفراغِ بعدَ الانتهاءِ من العملِ .

يؤكدُ بعضُ العلماءِ منذ زمنٍ قديمٍ أن الوقتَ يمرُّ بسرعةٍ محدَّدةٍ وثابتةٍ ، فكلُّ ثانيةٍ أو دقيقةٍ ، وكلُّ ساعةٍ تشبهُ الأخرى ، وأنَّ الوقتَ يسيرُ إلى الأمامِ بشكلٍ متتابعٍ ، وأنَّه يتحرَّكُ وفق نظامٍ معيَّنٍ محكَّمٍ ، لا يمكنُ إيقافُهُ أو تغييرُهُ أو زيادتهُ أو إعادةُ تنظيمِهِ ، وبهذا يمضي الوقتُ بانتظامٍ نحو الأمامِ دون تأخيرٍ أو تقديمٍ ، ولا يمكنُ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ إيقافُهُ أو تراكمُهُ أو إلغاؤه أو تبديلهُ ، الوقتُ هو الحياةُ ، وهذا معنى مشتركٌ يعرفه الناسُ جميعاً ، ولكنَّ الإسلامَ زاد على ذلك المعنى حين جعلَ الوقتَ بمنزلةِ رأسمالٍ يحاسبُ عليه الإنسانُ ، ولكنَّ الوقتَ يزيد على المالِ ، فالمالُ يُدَّخَرُ ، ويقايضُ عليه ، وقد يعوَّضُ إذا أُهدِرَ ، ولكنَّ

(١) الحاكم في المستدرک (٧٨٤٦) ، مصنف ابن أبي شيبة (٣٤٣١٩) ، البيهقي في شعب الإيمان (١٠٢٤٨) .

(٢) أحمد في المسند (١٣٠٠٤) .

الوقت لا سبيلَ إلى ادّخاره ، ولا إلى مقايضته ، ولا إلى استرجاعه ، إضافةً إلى ذلك أنّ الوقت هو الموردُ الوحيدُ الذي نرغمُ على صرفه ، سواء أردنا أم لم نرد .

كانت هذه الحقائقُ نبذةً عن قيمةِ الوقتِ ، فماذا عن قيمةِ الوقتِ في حياةِ مسلمي زماننا ؟

يبدو أنّ الموردَ الأكثرَ تبديداً في ثرواتهم هو الوقتُ ، وإذا نظرنا إلى المُسكّين بطرفِ الحضارةِ اليومَ رأينا أنهم يستثمرون أوقاتهم في الشرِّ والخيرِ بدقّةٍ محسوبةٍ ، فما هو السببُ في هذا التباينِ ؟ إنه بالتأكيد ليس راجعاً إلى فروقٍ عنصريةٍ ، أو صفاتٍ جسمانيةٍ أو ذهنيةٍ أو موروثةٍ ، بل لأنّ الغربَ استطاعَ أن يضعَ وينفّذَ نظاماً تربوياً يبيّثُ في أبنائه من خلاله ضمنَ ما يبيّثُ مبادئَ إداريةً فعّالةً ، قام عليها نظامٌ حياتيٌّ تمارسُ فيه أسسُ إداريةٍ سليمةٌ ، بل أصبحت هذه الأسسُ والمبادئُ علوماً قائمةً بذاتها ، لها فروعٌ وفنونٌ تسمّى العلومُ الإداريةُ ، ويبرزُ من هذه العلومِ فرعٌ كبيرٌ اسمه إدارةُ الوقتِ ، إدارةُ الوقتِ أعلى مستوياتِ التقدّمِ ، فمن خلال هذا العلمِ ، التقدّمُ أحسن ما تملكُ بأقل ما تملك .

هناك مؤشراتٌ مرّضيةٌ تعبّرُ عن سوءِ إدارةِ الوقتِ :

هل تردّدٌ كثيراً : « ليس لديّ وقتٌ لإنجازِ ما أودُّ القيامَ به ؟ » .

هل تتأخّرُ دائماً عن مواعيدك ؟

هل تأخذُ المهمّاتُ التي تقومُ بها وقتاً أكبرَ مما تحدّدُه لها ؟

هل تتضاربُ مواعيدك مع بعضها بعضاً ؟

هل تقدّم على تنفيذ العمل الذي تحبه أو الأكثر إلحاحاً على العمل الأهم ؟

هل تفاجئك الأزمات ، وبعدها تتصرّف ، وتتخذُ الإجراءات بحسب ما يتفقُ لك ، وتسمحُ به الظروف ، وليس كما تخطّطُ لها ؟

إنّ اعتراف المرء بأن العيب في ذاته هو أول خطوة على الطريق الصحيح ، ولعلك إذا كنت تنتظر من هذا الموضوع أن نرشدك إلى أدوات خارج ذاتك إلى إدارة وقتك ، إذا كان الأمر كذلك ، فانتبه إلى أنّ أهمّ الممتلكات التي تمتلكها هي الوقت ، إنه موردٌ محدّد يملكه الجميع بالتساوي ، مع أنّ الناس لم يولدوا بقدراتٍ أو فرصٍ متساوية ، إنهم جميعاً يملكون الأربع والعشرين ساعةً نفسها كلّ يوم ، ويملكون الاثنين والخمسين أسبوعاً كلّ عام ، وهكذا ، فإن جميع الناس متساوون في ناحية المدة الزمنية ، سواء أكانوا من كبار الموظفين أم من صغارهم ، من أغنياء القوم أم من فقرائهم ، فالمشكلة ليست في مقدار الوقت لكلّ من هؤلاء ، ولكن المشكلة في طريقة إدارة الوقت .

لابد من وقفةٍ متأنيةٍ مع إدارة الوقت الذي لا نملك غيره ، حتى من يحركون النظام العالمي الجديد أو القديم لا يملكون من الوقت إلاّ ما نملكه نحن ، نحن نتحدّث عن إدارة بيتك ، وإدارة عملك ، نتحدّث عن هدفك أنت ، وطموحك أنت .

هل الوقت هو المشكلة ؟ لا والله ، نحن المشكلة ، يجب أن نوقن أنّ العيب فينا ، لا في ضيق الأوقات .

المخلصون الجادون في حياتهم يسهرون كثيراً على إنجاز أعمالهم ، ويتفانون في ذلك ، ولكن ربما يحسن بعضهم استثمار وقته ، ولا يدرك أنه بقدر من المعرفة والممارسة يمكنه أن يحقق نتائج أفضل ، مثل غيره أو أكثر ، ليس بالضرورة أن تكون مديراً أو موظفاً كبيراً ، فقد يكون من سيء استخدام الوقت قائماً على رأس عمل دعوي ، أو طالب علم أو ربّة منزل في منزلها ، المرض واحد ، وقواعد العلاج واحدة ، فالمهام الكثيرة المتنوعة غير المتجانسة يصلح لها جميعاً أن تدير الوقت إدارة حكيمة ، لأن الوقت هو أنت ، الإنسان بضعة أيام ، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه .

أما إذا كان الإنسان لا يستطيع السيطرة على وقته فهو بحاجة إلى إدارة أخرى ، بحاجة إلى إدارة ذاته قبل أن يدير وقته ، وقد ضرب النبي ﷺ مثلاً أعلى رائعاً في حسن استغلال الوقت وإدارته ، وسيرته كلها تشهد بذلك ، لقد كان حريصاً أشد الحرص على أن تنتهج أمته ذلك ، فوجهها في أكثر من حديث إلى أهمية الوقت ، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعا هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ؟ أو غنى مطعياً ؟ أو مرضاً مفسداً ؟ أو هرمًا مفنداً ؟ أو موتاً مجهزاً ؟ أو الدجال ؟ فشر غائب ينتظر ، أو الساعة ؟ فالساعة أدهى وأمر » (١) .

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وكان ابن عمر

(١) الترمذي (٢٣٠٦) ، الحاكم (٧٩٠٦) ، الطبراني (٣٩٤٥) .

يَقُولُ : « إِذَا أُمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ » (١) .

وأراد النبي ﷺ أن يعلم أصحابه درساً مع الوسائل المُعِينَةِ كما تسمى اليوم ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا ، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسْطِ خَارِجًا مِنْهُ ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسْطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسْطِ ، وَقَالَ : هَذَا الْإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ ، أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ ، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمْلُهُ ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصَّغَارُ الْأَعْرَاضُ ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا » (٢) .

هذه الأحاديث وغيرها كثيرٌ دليلٌ على أهميّة الوقتِ في حياة المسلم ، كما وضحها جلياً رسولُ الله ﷺ .

* * *

قصة معبرة

إليك هذه القصة القصيرة التي تعدُّ تطبيقاً لما سبق .

أحدُهم له طفلٌ صغيرٌ ، صحته ليست على ما يُرامُ ، يقولُ : قرّرتُ الذهابَ به إلى المستشفى ، حملته ، وذهبتُ ، لقد كان المنتظرون كثيرين ، ربما تتأخّرُ أكثرَ من ساعة ، أخذتُ رقماً للدخولِ على الطبيبِ ،

(١) البخاري (٦٠٥٣) ، الترمذي (٢٣٣٣) ، أحمد (٤٧٦٤) .

(٢) البخاري (٦٠٥٤) .

وتوجَّهْتُ بالجلوسِ في غرفةِ الانتظارِ ، وفي غرفةِ الانتظارِ وجوهٌ كثيرةٌ مختلفةٌ ، فيهم الصغيرُ ، وفيهم الكبيرُ ، الصمتُ يخيِّمُ على الجميعِ ، هناك عددٌ من الكراسي الصغيرةِ استأثرتْ بها بعضُ المنتظرين ، أَجَلْتُ طَرْفي في الحاضرين فمنهم مغمضُ العينين ، لا تعرفُ فيما يفكّر ، والآخرُ يتابعُ النظرَ إلى الجميعِ ، والكلُّ تشعرُ من وجوههم القلقَ والمللَ من الانتظارِ ، يقطعُ السكونَ الطويلَ صوتُ المنادي برقم كذا ، الفرحةُ تعلو على وجهِ المنادي عليه ، يسير بخطواتٍ سريعةٍ ، ثم يعودُ الصمتُ للجميعِ ، لَفَتَ نظري شابٌ في مقتبلِ العمرِ لا يعنيه أيُّ شيءٍ حوله ، لقد كان معه مصحفٌ صغيرٌ يقرأُ فيه ، لا يرفعُ طَرْفَهُ ، نظرتُ إليه ، ولم أفكرُ في حاله كثيراً ، لكنني حينما طال انتظاري عن الساعةِ الكاملةِ تحوّلَ نظري إليه من مجردِ نظرٍ إلى تفكيرٍ عميقٍ في أسلوبِ حياته ، ومحافظةِ على الوقتِ ، إنها ساعةٌ كاملةٌ من عمري ، ماذا انتفعتُ بها ؟ أنا بلا عمل ، بل أنا في انتظارٍ ومللٍ ، أَدْنُ المؤدّنُ لصلاةِ المغربِ ، ذهبنا إلى الصلاةِ ، وفي مصلى المستشفى حاولتُ أن أكونَ في جوارِ صاحبِ المصحفِ ، وبعد أن أتممنا الصلاةَ سرتُ معه ، وأخبرتهُ بإعجابي من محافظته على وقته ، وكان حديثه يتركّزُ على كثرةِ الأوقاتِ التي لا نستفيدُ منها إطلاقاً ، وهي أيامٌ وليالٍ تمضي من أعمارنا دون أن نشعرَ بها ، ودون أن ننتفعَ بها ، قال : إنه أخذَ مصحفَ الجيبِ منذ سنةٍ عندما حثّه صديقٌ له على المحافظةِ على وقته ، وأخبرني أيضاً أنه يقرأُ في الأوقاتِ التي لا يستفادُ منها أضعافَ ما يقرأُ في المسجدِ أو في المنزل ، بل إن قراءته في المسجدِ زيادةٌ على الأجرِ والمثوبة - إن شاء الله - تقطعُ عليه المللَ والتوترَ ،

وأضاف محدثي قائلاً : إنه الآن في مكان الانتظار منذ ما يزيد على الساعة والنصف ، ولم يشعر بها إطلاقاً ، وسألني : متى تجد ساعة ونصفاً لتقرأ فيها القرآن الكريم ؟ كم من شخص سيفعل ذلك ؟ وكم من أجر عظيم يكون للدال على ذلك ؟

تأملت كم من الأوقات تذهب سدى ، وكم من لحظة من حياتنا تمر ولا نحسب لها حساباً ، بل كم من شهر ، بل كم من عام يمضي ولا نقرأ القرآن الكريم ؟ أجلت ناظري ، فوجدت أنني محاسب عن كل وقت يضع سدى .



السمة الطيبة

كان أحد علماء البحار يركب غواصة أبحاث تحت سطح البحر ، لفت نظره سمكة كبيرة خرجت من سربها ، واتجهت إلى سمكة صغيرة ، فتصور كما هي العادة أن هذه السمكة الكبيرة توجهت إلى الصغيرة لتأكلها ، ولكنه وجد أنها وقفت إلى جانبها ، وبدأت السمكة الصغيرة تأكل من حراشف الكبيرة ، فسجل عنده هذه الظاهرة .

بعد عشرة أعوام تقريباً اكتشفت حقيقة رائعة ، هي أن هذه السمكة الصغيرة متخصصة في علاج أمراض الأسماك كلها ، وكأن عهداً وميثاقاً غير مكتوب بين أسماك البحر يقر أن هذه السمكة الصغيرة ، المتخصصة في مداواة أمراض السمك الخارجية لا ينبغي أن تؤكل ، لذلك أجريت بحوث كثيرة ، وتتبع العلماء مواطن هذا السمك ، الذي أعطوه اسماً خاصاً .

هذا السمك جعل الله عز وجل غذاءه على التقرحات والإنذانات ،
والطُفَيْلِيَّاتِ ، والفطريَّاتِ التي تتوضع على حراشف الأسماك الكبيرة ،
فالأسمك الكبيرة تتجه إليها لتعالجها من أمراضها ، وكأن هناك عرفاً
وامتناناً .

بل إن بعض الحالات الغريبة التي سُجِّلَتْ ، وصُوِّرَتْ ، أن سمكة
كبيرة كانت تشكو قرحة في فمها ، فإذا بها قد فتحت فمها ، ودخلت
السمكة الممرضة آمنة مطمئنة ، لتعالجها من هذه القروح ، وفي الوقت
نفسه هاجمت هذه السمكة - التي تُعالج - سمكة أكبر منها لتأكلها ، فما
كان منها إلا أن أخرجت من فمها هذه السمكة التي تمرضها ، وولّت
هاربة .

ما هذا العرف ؟ وما هذا العقد ؟ وما هذا الميثاق ؟ وما هذا القانون
المتبع في كل أنحاء البحار ؟ إن هذه السمكة التي خلقها الله مزودة بمنقار
دقيق دقيق يصل إلى أدق الثنايا ، وإن جهازها الهضمي يتقبل الفطريات ،
والتقرحات ، والإنذانات ، وما شاكل ذلك ، وهو غذاء لها ، وإن هذه
الأسماك الكبيرة تتجه إليها حينما تشكو من تقرحات ، بسبب ما يحدث
بين الأسماك من احتكاك ، أو من معارك أحياناً .

الشيء الذي يلفت النظر أنه إذا كثرت هذه الأسماك أمام السمكة
الصغيرة ، صفّ بعضها وراء بعض ، وكأنها مجتمع متحضّر ؛ ليس هناك
تراحم ، ولا تدافع ، ولا سباب ، وقفت هذه الأسماك الكبيرة ، وقد
سُجِّلَتْ هذه الصورة بضع عشرات من الأسماك ، يقف بعضها وراء

بعض ، تنتظر دَوْرَهَا في المعالجة ، وقد تستغرق المعالجة دقيقتاً ، أو أكثر ، ثم تنصرف إلى سبيلها .

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [لقمان : ١١] ، مَنْ أَعْلَمَ السمك جميعاً أنّ هذه السمكة لا تُؤْكَلُ ، ولا يُعْتَدَى عليها ، فإنها تقوم بمهمة نبيلة ، مَنْ أَعْلَمَهَا ؟ هل هذه الأسماك عاقلة ؟ قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٤٩-٥٠] .

* * *

موضوعات إسلامية

إِنْسَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ

قال ابن القيم رحمه الله : « مِنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ أَنْ تَعْرِفَهُ ثُمَّ لَا تَحِبَّهُ ، وَأَنْ تَسْمَعَ دَاعِيَهُ ثُمَّ تَتَأَخَّرَ عَنِ الْإِجَابَةِ ، وَأَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ الرِّيحِ فِي مَعَامِلَتِهِ ثُمَّ تَعَامَلَ بِغَيْرِهِ ، وَأَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ غَضَبِهِ ثُمَّ تَتَعَرَّضَ لَهُ ، وَأَنْ تَذُوقَ أَلَمَ الْوَحْشَةِ فِي مَعْصِيَتِهِ ثُمَّ لَا تَطْلُبَ الْأَنْسَ بِطَاعَتِهِ ، وَأَنْ تَذُوقَ عَصْرَةَ الْقَلْبِ عِنْدَ الْخَوْضِ فِي غَيْرِ حَدِيثِهِ ، وَالْحَدِيثِ عَنْهُ ، ثُمَّ الْإِشْتِيَاقَ إِلَى أَنْشِرَاحِ الصَّدْرِ بِذِكْرِهِ وَمَنَاجَتِهِ ، وَأَنْ تَذُوقَ الْعَذَابَ عِنْدَ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِغَيْرِهِ ، وَلَا تَهْرَبَ مِنْهُ إِلَى نَعِيمِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ ، وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ ، وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا عِلْمُكَ أَنَّكَ لَا بَدَ لَكَ مِنْهُ ، وَأَنَّكَ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ ، وَأَنْتَ عَنْهُ مَعْرُضٌ ، وَفِيمَا يَبْعَدُكَ عَنْهُ رَاغِبٌ » .

إِنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ إِحْدَى خِصَائِصِ الْإِسْلَامِ الْكَبِيرِ ، إِنَّهَا تَشْغُلُ حِيزًا كَبِيرًا فِي مَبَادِئِهِ النَّظَرِيَّةِ ، وَتَطْبِيقَاتِهِ الْعَمَلِيَّةِ ، وَقَدْ رُبِّطَتْ بِعَقَائِدِهِ وَشَعَائِرِهِ وَمَنْهَجِهِ وَآدَابِهِ رِبْطًا مُحْكَمًا ؛ فَالْإِنْسَانِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ لَيْسَتْ مَجْرَدَ أُمْنِيَّةٍ شَاعِرِيَّةٍ تَهْفُو إِلَيْهَا بَعْضُ النَّفُوسِ ، وَلَيْسَتْ فِكْرَةً مَثَالِيَّةً تَتَخَيَّلُهَا بَعْضُ الرُّؤُوسِ ، وَلَيْسَتْ حِجْرًا عَلَى وَرْقِ سَطْرَتِهِ بَعْضُ الْأَقْلَامِ ، إِنَّهَا رَكْنٌ عَقْدِيٌّ ، وَوَاقِعٌ تَطْبِيقِيٌّ ، وَثَمَارٌ يَانِعَةٌ .

فَمِنْ ثَمَرَاتِ إِنْسَانِيَّةِ الْإِسْلَامِ الْيَانِعَةِ :

مبدأ الإخاء الإنساني ، إنه مبدأ قرّره الإسلام بناءً على أن البشر جميعاً أبناء رجلٍ واحد ، وامرأةٍ واحدة ، ضمّتهم هذه البنوة الواحدة المشتركة ، والرحم الموصولة ، قال تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَؤَارِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١] .

ولعل كلمة : ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ ، وكلمة : ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ تلزمنا أن نفهم كلمة : ﴿الْأَرْحَامُ﴾ في هذه الآية على أنها الرحم الإنسانية العامة التي تسع البشر جميعاً .

والنبي ﷺ يقرّر هذا الإخاء ، ويؤكدّه كلّ يومٍ أبْلَغَ تأكيدٍ ؛ فقد روى الإمام أبو داود وأحمد في مسنده عن زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي دُبُرِ صَلَاتِهِ : «اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّكَ أَنْتَ الرَّبُّ وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَا شَهِيدٌ أَنَّ الْعِبَادَ كُلَّهُمْ إِخْوَةٌ ، اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، اجْعَلْنِي مُخْلِصاً لَكَ وَأَهْلِي فِي كُلِّ سَاعَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ، اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ ، اللَّهُ أَكْبَرُ الْأَكْبَرُ ، اللَّهُمَّ نُورَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (١) .

فالنبي ﷺ يعلن من خلال هذا الدعاء المتكرّر الأخوة بين عباد الله جميعاً ، لا بين العربِ وخدمهم ، ولا بين المسلمين وخدمهم ، بل هي أخوة بين بني البشر جميعاً ، على اختلافِ أجناسهم ، وأعراقهم ،

(١) أبو داود (١٥٠٨) ، أحمد (١٩٣١٢) .

وألوانهم ، وطبقاتهم ، ومِلَلِهِمْ ، ونَحْلِهِمْ ، والبشرُ جميعاً عند الله جلّ جلاله نموذجان ؛ رجلٌ عرفَ اللهَ ، وانضبطَ بمنهجه ، وأحسنَ إلى خلقه ، فسَلِمَ وسعدَ في الدنيا والآخرة ، ورجلٌ غفلَ عن الله ، وتفلّتَ من منهجه ، وأساءَ إلى خلقه ، فشقيَ في الدنيا والآخرة .

وهذا الإخاءُ الإنسانيُّ في الإسلام ليس للاستهلاكِ المحليِّ ، ولا للتضليلِ العالميِّ ، إنما هي حقيقةٌ دينيةٌ لا ريبَ فيها ، تنطلقُ من كلمتي التوحيدِ والرسالةِ ؛ شهادةُ أن لا إلهَ إلا الله : إسقاطُ لكلِّ معبودٍ في الأرض ، ممن طَغى وبَغى ، وشهادةُ الرسالةِ وصَفَتُ محمداً ﷺ أنه عبده ورسوله ، يتَّبَع ما يوحى إليه ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِبِهْ بِفَرْءٍ آخِرٍ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس : ١٥] ، وقال تعالى :

﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۚ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۚ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة : ٤٤-٤٧] .

ويزداد هذا الإخاءُ توثقاً وتأكداً إذا أُضيفَ إليه عنصرُ الإيمانِ ، فتجتمعُ الأخوةُ الدينيةُ إلى الأخوةِ الإنسانيةِ ، فتزيدها قوّةً إلى قوّةٍ ، ولما كان بابُ الإيمانِ مفتوحاً لكلِّ الناسِ ، بلا قيدٍ ، ولا شرطٍ ، ولا تحفُّظٍ على جنسٍ أو لونٍ أو إقليمٍ أو طبقةٍ ، فإنَّ الإخاءَ الدينيَّ المتفرِّعَ عن الإيمانِ والعقيدةِ المشتركةِ لا يُضعِفُ الإخاءَ العامَّ ، بل يشدّه ويقوّيه ، فلا

تناقض بين الإخاء البشريِّ العامِّ ، والإخاء الدينيِّ الذي تشيرُ إليه الآيةُ الكريمةُ :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

ويشيرُ إليه حديثٌ عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ ، لَا يَظْلِمُهُ ، وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (١) .

بل إنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَبَطَ رِبْطاً مُحْكَمًا بَيْنَ الْأَخَوَةِ الْإِنْسَانِيَةِ وَالْإِيمَانِ ، بل جعلها مِنْ مَقُومَاتِهِ ، فَعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » (٢) ، وفي رواية : « وَحَتَّى يَكْرَهُ لِأَخِيهِ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ » (٣) ، وقد ذكر بعضُ شُرَاحِ الحديثِ أَنَّ كَلِمَةَ (أَخِيهِ) فِي الْحَدِيثِ لَمْ تُقَيَّدْ بِصِفَةٍ تَحَدُّ إِطْلَاقِهَا ، وَالْمُطْلَقُ فِي النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، إِذَا فَلَأَخَوَةُ الَّتِي قَصَدَهَا الْمُصْطَفَى ﷺ هِيَ الْأَخَوَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ .

لقد طَبَّقَ الْإِسْلَامُ هَذَا الْإِخَاءَ الرَّفِيعَ ، وَأَقَامَ عَلَى أُسَاسِهِ مَجْتَمَعاً رِبَانِيّاً إِنْسَانِيّاً فَرِيداً ، اِضْمَحَلَّتْ فِيهِ فَوَارِقُ الْجِنْسِ ، وَاللُّونُ ، وَالْقَبِيلَةُ ،

(١) البخاري (٢٣١٠) ، ومسلم (٢٥٨٠) .

(٢) رواه البخاري (١٣) ، ومسلم (٤٥) .

(٣) البيهقي في شعب الإيمان (٣٤٨٥) .

والطبقة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ : « سَلَمَانٌ مِّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ »^(١) .

ومن ثمرات إنسانية الإسلام اليانعة مبدأ المساواة الإنسانية ، فقد قرّره الإسلام ، ونادى به ، وهو ينطلق من أن الإسلام يُقدّر الإنسان ، ويكرّمه من حيث هو إنسان ، لا من حيثية أخرى ، قال تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

* * *

خطبة حجة الوداع

لقد خطب النبي ﷺ في حجة الوداع خطبة جامعة مانعة ، تضمنت مبادئ إنسانية سبقت في كلمات سهلة سائغة ، كيف لا ، وقد أوتي ﷺ جوامع الكلم ، فلقد استوعبت هذه الخطبة جملة من الحقائق التي يحتاجها العالم الشارد المعذب ليرشد ويسعد ، قال سبحانه :

﴿ فَاِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

[طه : ١٢٣]

فمن المبادئ التي انطوت عليها خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع :

١ - الإنسانية متساوية القيمة في أي إهاب تبرز ، وعلى أية حالة تكون ، وفوق أي مستوى ترتفع ، فعن أبي نصره قال : حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ

(١) الحاكم في المستدرک (٣/ ٦٩١) ، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢١٢) عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده .

خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَسْطِ أَيَّامِ الشَّهْرِ فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، أَبْلَغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟ قَالُوا : يَوْمٌ حَرَامٌ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟ قَالُوا : شَهْرٌ حَرَامٌ : قَالَ : ثُمَّ قَالَ : أَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَدٌ حَرَامٌ ، قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ ، هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا ، أَبْلَغْتُ ؟ قَالُوا : بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ (١) .

٢ - النفس الإنسانية ما لم تكن مؤمنة برَبِّها ، مؤمنة بوعدِهِ ووَعِيدِهِ ، مؤمنة بأنه يعلم سرَّها وجهرها ، فربما بنت مجدها على أنقاض الآخرين ، لأنَّ النفس الإنسانية تدور حول أثرتها ، ولا تُبالي بشيء في سبيل غايتها ، وبنت غناها على فقرهم ، وبنت عزَّها على ذلِّهم ، بل ربما بنت حياتها على موتهم ، لذلك قال الرسول الكريم في حجة الوداع : « . . . يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتَذَرُونَ فِي أَيِّ شَهْرٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ يَوْمٍ أَنْتُمْ ؟ وَفِي أَيِّ بَلَدٍ أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : فِي يَوْمٍ حَرَامٍ ، وَشَهْرٍ حَرَامٍ ، وَبَلَدٍ حَرَامٍ ، قَالَ : فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ : اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا ، أَلَا لَا تَظْلِمُوا ، أَلَا لَا تَظْلِمُوا ، أَلَا لَا تَظْلِمُوا ، إِنَّهُ لَا يَحِلُّ مَالٌ

أَمْرِي إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ ، أَلَا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْتَرَةٍ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي هَذِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . . . »^(١) .

٣- والمال قِوَامُ الحياة ، وينبغي أن يكون مُتَدَاوِلًا بَيْنَ كُلِّ النَّاسِ ، وأنه إذا وَلَدَ الْمَالُ الْمَالُ مِنْ دُونِ جُهِدٍ حَقِيقِيٍّ يُسَهِّمُ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ ، وإِغْنَاءِ الْحَيَاةِ ، تَجَمَّعَ فِي أَيْدٍ قَلِيلَةٍ وَحُرِّمَتْ مِنْهُ الْكَثْرَةُ الْكَثِيرَةُ ، عِنْدَهَا تَضَطَّرَبُ الْحَيَاةُ ، وَيُظْهَرُ الْحَقْدُ ، وَيُلْجَأُ إِلَى الْعَنْفِ ، وَلَا يَلِدُ الْعَنْفُ إِلَّا الْعَنْفَ ، وَالرِّبَا يُسَهِّمُ بِشَكْلٍ أَوْ بآخَرَ فِي هَذِهِ النَّتَائِجِ الْمَأْسَاوِيَّةِ الَّتِي تَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ بِالْوِلَايَاتِ ، لِهَذَا قَالَ الْمَصْطَفَى ﷺ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الْوُدَاعِ : « أَلَا وَإِنَّ كُلَّ رِبَا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَضَى أَنْ أَوَّلَ رِبَا يُوضَعُ رَبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ ، لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ »^(٢) .

٤- النساءُ شقائق الرجال ، ولأنَّ المرأةَ مساويةً للرجل تماماً ، من حيث إنها مكلفةٌ كالرجل بالعقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ، ومساويةٌ له من حيث استحقاقها الثواب والعقاب ، ومساويةٌ له تماماً في التشريف والتكريم ، لِهَذَا قَالَ ﷺ فِي خُطْبَةِ حَجَّةِ الْوُدَاعِ : « أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٌ^(٣) عِنْدَكُمْ ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ

(١) رواه أحمد عن أبي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ عَمِّهِ (٢٠٧١٤) .

(٢) رواه أحمد عن أبي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ عَمِّهِ (٢٠٧١٤) .

(٣) وَمَعْنَى قَوْلِهِ : [عَوَانٌ عِنْدَكُمْ ، يَعْنِي أَسْرَى فِي أَيْدِيكُمْ] ، (سنن الترمذي) ، [وعوان ، أي أسراء ، أو كالأسراء] ، (النهاية في غريب الحديث ٣/٣١٤) ، [وأصل العناية طول الحبس] ، (الغريب لابن سلام ، ١٨٦/٢) .

شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ ، إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، فَإِنْ فَعَلْنَ فَأَهْجَرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبْرِحٍ ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا ، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُؤْطَيْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلَا يَأْذَنَ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ» (١) .

والنبي ﷺ قام لجنازة رجلٍ وصفه القرآن بأنه من أشد الناس عداوةً للذين آمنوا ، فلما سئل النبي ﷺ عن ذلك قال : أليس إنساناً ؟ لذلك عدَّ الإسلام الاعتداء على أية نفس اعتداءً على الإنسانية كلها ، كما عدَّ إنقاذ أية نفس إحياءً للناس جميعاً ، وهذا ما قرَّره القرآن الكريم بوضوح جليٍّ ، قال الحكيم الخبير :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] .

ولم يكتفِ الإسلام بأن يقرَّر مبدأ المساواة نظرياً ، بل أكده عملياً بجملة أحكام وتعاليم ، نقلته من فكرة مجردة إلى واقع ملموس ؛ من ذلك العبادات الشعائرية التي فرضها الإسلام ، وجعلها الأركان العملية التي يقوم عليها بناؤه العظيم ؛ من الصلاة والزكاة والصيام والحج .

وفي مساجد الإسلام حيث تُقام صلاة الجمعة والجماعة تأخذ

(١) رواه الترمذي عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَخْوَصِ عَنْ أَبِيهِ (٣٠٨٧) .

المساواة صورتها العملية ، وتزول كل الفوارق التي تميّز بين الناس ، فمن دخل المسجد أولاً أخذ مكانه في مقدّمة الصفوف ، وإن كان أقلّ الناس مالاً ، وأضعفهم جاهاً ، ومن تأخّر حضوره تأخّر مكانه ، مهما يكن مركزه ، فكلّ الناس سواسية أمام الله ؛ في قيامهم ، وقعودهم ، وركوعهم ، وسجودهم ، ربّهم واحد ، وكتابهم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وحركاتهم واحدة ، وإمامهم واحد .

وفي مناسك الحجّ تتحقّق المساواة بشكلٍ أشدّ ظهوراً ، وتتجسّد تجسّداً تراه العين ، فشعيرة الإحرام تفرض على الحجاج والمعتمرين أن يتجرّدوا من ملابسهم العادية ، ويلبسوا ثياباً بيضاء بسيطة ، غير مخيطة ، ولا محيطة ، هي أشبه ما تكون بأكفان الموتى ، يستوي فيها القادر والعاجز ، والغني والفقير ، والمملوك والمملوك ، ثم ينطلق الجميع مُلّين بهتاف واحد : « لبيك اللهم لبيك » .

ومن المساواة العملية التي قرّرها الإسلام قولاً وطبقها فعلاً المساواة أمام قانون الإسلام وأحكام الشرع ، فالحرام في شريعة الإسلام يتّسم بالشمول والاطراد ، فليس هناك شيء حرام على الأعجمي ، حلال على العربي ، وليس هناك شيء محظور على الملون ، مباح للأبيض ، وليس هناك جواز أو ترخيص ممنوح لفئة من الناس ، تقترب باسمه ما طوّع لها الهوى ، بل ليس للمسلم خصوصية تجعل الحرام على غيره حلالاً له ، كلا إنّ الله ربّ الجميع ، والشرع سيّد الجميع ، فما أحلّ الله بشريعته فهو حلال للناس كافة ، وما حرّم فهو حرام على الجميع كافة إلى يوم القيامة .

السرقَةُ مثلاً حرامٌ ، سواءً أكان السارقُ من المسلمين أم لم يكن ،
وسواءً أكان المسروقُ من المسلمين ، أم من غيرهم ، والجزاء لازمٌ
للسارق ، أيّاً كان نسبُهُ أو مركزُهُ .

وقد حاولَ بعضُ الصحابةِ أن يُشَفِّعُوا أسامةَ بنَ زيدٍ حبّ
رسولِ الله ﷺ وابنَ حَبَّةٍ في امرأةٍ من قريش ، من بني مخزوم ، سرت
فاستحققت أن يُقامَ عليها حدُّ السرقة ، فكلمه أسامةُ فيها ، فغضب ﷺ
غضبه التاريخية المعروفة ، وقال قولته التي خلّدها التاريخ : « إِنَّمَا
أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ
فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِيْمُ اللَّهِ ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ
سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » (١) .

وكان عمرُ رضي الله عنه إذا أرادَ إنفاذَ أمرٍ جَمَعَ أهله وخاصته ، وقال
لهم : « إِنِّي أَمَرْتُ النَّاسَ بِكَذَا ، وَنَهَيْتُهُمْ عَنْ كَذَا ، وَالنَّاسُ كَالطَّيْرِ . إِنْ
رَأَوْكُمْ وَقَعْتُمْ وَقَعُوا ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَا أُوتِيَنَّ بَوَاحِدٍ وَقَعَ فِي مَا نَهَيْتُ النَّاسَ
عَنْهُ ، إِلَّا ضَاعَفْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ لِمَكَانِهِ مِنِّي » ، فصارت القرابةُ من عمرٍ
مصيبَةً .

* * *

(١) البخاري (٣٢٨٨) ، ومسلم (١٦٨٨) عن عائشة .

قصة جبلة بن الأيهم

وفي خلافته^(١) رضي الله عنه وأرضاه ، جاءه إلى المدينة جبلة بن الأيهم ، آخر ملوك الغساسنة يعلن إسلامه ، فرحب به عمرٌ أشدَّ الترحيب ، وفي أثناء طواف هذا الملك حول الكعبة داسَ بدويٌّ على طَرَفَ إزاره فغَضِبَ الملكُ ، والتَفَتَ إلى هذا البدويِّ فضرَبه ، وهَشَمَ أنفه ، فما كان مِن هذا البدويِّ من فزارة إلا أن توجَّه إلى الخليفة الراشد عمرَ بن الخطابِ شاكياً ، فيستدعي عمرُ رضي الله عنه الملكَ الغسانيَّ إلى مجلسه ، ويجري بينهما حوارٌ صيغَ على النحو التالي :

قال عمر : « جاءني هذا الصباح مشهدٌ يبعث في النفس المرارة ، بدويٌّ من فزارة ، بدماءٍ تتظلمُ ، بجراحٍ تتكلمُ ، مُقلَّةٌ غارتُ ، وأنفٌ قد تهشَّمُ ،

وسألناه ، فألقى فادحَ الوزر عليك ، بيدك ،

أصحيحٌ ما ادَّعى هذا الفزاريُّ الجريحُ ؟

قال جبلةُ : لستُ ممَّن ينكرُ ، أو يكتُمُ شيئاً ، أنا أدبْتُ الفتى ، أدركتُ حقِّي بيديَّ ،

قال عمرُ : أيُّ حقٍّ يا ابنَ الأيهم ، عند غيري يُقهرُ المستضعفُ العافي ، ويُظلم ، عند غيري جبهةٌ بالإثمِ والباطلِ تُلطمُ ، نزواتُ الجاهليةِ ، ورياحُ العُنْجُهيَّةِ ، قد دفناها ،

(١) أعني خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وأَقَمْنَا فوقَهَا صرحاً جديداً ، وتَسَاوَى الناسُ أحراراً لَدَيْنَا وعبيداً ،

أَرْضِ الفتى ، لابدٌ من إرضائه ، مازالَ ظفرك عالِقاً بدمائه ،

أو يُهْشِمَنَّ الآنَ أنفُك ، وتنالُ ما فعلته كَفُك ،

قال جبلةٌ : كيف ذاك يا أميرَ المؤمنين ، هو سوقة ، وأنا صاحبُ

تاج ، كيف ترضى أن يخرَّ النجمُ أرضاً ،

كان وهماً ما جرى في خلدي ،

أنني عندك أقوى وأعزُّ ، أنا مرتدُّ إذا أكرهْتَنِي ، قال عمرُ رضي الله

عنه :

عالمٌ نَينيه ، كلُّ صدعٍ فيه بِشْبَا^(١) السيفِ يُدَاوِي ، وأعزُّ الناسِ بالعبدِ

بالصعلوكِ تساوى .

أما جبلةٌ فلم يستوعب هذا المعنى الكبيرَ في الإسلام ، وفرَّ من المدينةِ

هارباً مرتدداً ، ولم يبالِ عمرُ ولا الصحابةُ معه بهذه النتيجة ، لأنَّ ارتدادَ

رجُلٍ عن الإسلامِ أهونُ بكثيرٍ مِنَ التهاونِ في تطبيقِ مبدأٍ عظيمٍ مِنْ مبادئه ،

وخسارةٌ فردٍ لا تُقاسُ بخسارةٍ مبدأٍ .

ومن ثمراتِ إنسانيةِ الإسلامِ اليانعةِ دعوتهُ إلى السلامِ بأوسعِ معاني

هذه الكلمة ؛ بمعانيها الفردية والجماعية ، والمادية والروحية ،

والدنيوية والأخروية ، قال تعالى في كتابه :

(١) [شُبا ، الشباية ، طَرَفُ السيفِ وحْدُهُ ، وجمعها شُبَا] ، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٤٤٢) .

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[المائدة : ١٦]

إِنَّ الْإِنْسَانَ - أَيَّ إِنْسَانٍ - فِي أَيِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، مَفْطُورٌ عَلَى حُبٍّ وَجُودِهِ ، وَعَلَى حُبِّ سَلَامَةِ وَجُودِهِ ، وَعَلَى حُبِّ اسْتِمْرَارِ وَجُودِهِ ، وَعَلَى حُبِّ كَمَالِ وَجُودِهِ ؛ وَبِكَلِمَةٍ مُوجِزَةٍ ؛ مَفْطُورٌ عَلَى حُبِّ سَلَامَتِهِ وَسَعَادَتِهِ ، وَهَذَانِ الْمَطْلُبَانِ الثَّابِتَانِ لَدَى أَيِّ إِنْسَانٍ لَا يَتَحَقَّقَانِ إِلَّا حِينَمَا يَطْبُقُ مِنْهَجَ الَّذِي خَلَقَهُ ، فَهُوَ الْخَيْرُ بِأَسْبَابِ سَلَامَتِهِ وَسَعَادَتِهِ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١] ، وَقَالَ :

﴿ وَلَا يَنْبِيئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] .

وَأَيْنَ نَجْدٌ مِنْهَجَ الَّذِي خَلَقَنَا ، وَهُوَ الْخَيْرُ بِأَسْبَابِ سَلَامَتِنَا وَسَعَادَتِنَا ؟ إِنَّا نَجِدُهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ الْكَرِيمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَالَّذِي يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ، وَهُوَ هَدًى وَبَيَانٌ وَمَوْعِظَةٌ وَبِرْهَانٌ ، وَنُورٌ وَشِفَاءٌ ، وَذِكْرٌ وَبَلَاغٌ ، وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ ، وَبُشْرَى وَنَذِيرٌ ، يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِلَى الرُّشْدِ ، وَإِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، يُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ، إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، وَيَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فِيهِ تَبْيَانٌ لِّكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ شِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ، فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ ، وَخَبَرٌ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ ؛ مَنْ ابْتَغَى الْهَدًى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ ، فَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ

المتين ، وهو الذكر الحكيم ، لا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم ، قال تعالى :

﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة : ١٦] .

فمن أراد رضوان الله ، والنعيم المقيم الذي أعدّه الله للإنسان المستقيم ، فعليه أن يهتدي بهدي القرآن الكريم - ولا هدي سواه - ﴿ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ هَدَى اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٧٣] ، وقال :

﴿ فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس : ٣٢] ، وأن يعتقد بما جاء به . وأن يحلّ حلاله ، ويحرّم حرامه ، وقال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مَوْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

عندئذ يهديه الله سبل السلام ؛ بأوسع معاني هذه الكلمة ، يهديه سبل السلام مع نفسه ، فلا كآبة ، ولا انقباض ، ولا شعور بالذنب ، ولا حسرة ، ولا ندم ، ولا سقوط .

ويهديه سبل السلام مع أهله ، فلا شقاء ولا شقاق ، ولا عقوق ولا عصيان ، ولا تفكك ولا انهيار ، ولا مذمة ولا عدوان .

ويهديه سبل السلام مع مجتمعه ، فلا عداوة ولا بغضاء ، ولا إثم ولا عدوان ، ولا إحباط ولا إخفاق ، ولا مكر ولا كيد .

ويهديه سبيلَ السلام مع ربِّه ، فلا حجاب ولا نُكوصَ ، ولا جَفْوَة ولا فُتورَ ، ولا غُضَبَ ولا سَخَطَ .

هذا على المستوى الفردي ؛ فماذا على المستوى الجماعي ؟ قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ، قال علماء التفسير : « ما دامت سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ مطبقة في مجتمع ما ؛ مطبقة في بيوتهم ، وفي أعمالهم ، وفي تجارتهم ، وفي أفراحهم ، وفي أتراحهم ، وفي حلِّهم ، وفي ترحالهم ، وفي علاقاتهم ، فهم في مأمنٍ من عذابِ الله ، بكلِّ أنواعه ومستوياته » ، قال أحكمُ الحاكمين :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] ، وقال :

﴿ لِنَفْسِنَاهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : ١٦-١٧] ، وقال أيضاً :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

وماذا عن المستوى الدولي ؟ الأمة التي تطبَّقَ منهجَ الله ، يهديها الله سبيلَ السلام ، فيجعلها مستخلفةً ، ممكَّنةً ، آمنةً مطمئنةً ، قال تعالى مذكراً بهذه الحقيقة :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلِيُمْكِنَ لَهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُوا بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور : ٥٥] .

وإنَّ الأُمَّةَ التي لا تطبِّقُ منهجَ الله في حياتها تنطبِّقُ عليها هذه لآيةُ الكريمة انطباقاً كاملاً ، قال تعالى :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾ [مريم : ٥٩] .

* * *

زلازل الدنيا ، وزلزلة الساعة

أخرج البخاري في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُفْبِضَ الْعِلْمُ ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ ، وَتَظْهَرَ الْفِتْنُ وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ ، وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ ، حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفْبِضَ » (١) .

ففي كُلِّ حينٍ نسمعُ في الأخبارِ أَنَّ زَلْزَالاً وَقَعَ في بَلَدٍ ، وَزَلْزَالاً وَقَعَ في بَلَدٍ آخَرَ ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ تَتَقَارَبُ ، وَتَتَعَاظَمُ دَرَجَاتُ هَذِهِ الزَّلَازِلِ ، وَتُودِي بِحَيَاةٍ بضعَ عَشْرَةٍ مِنَ الْأُلُوفِ ، وَأَنَّ كَثَرَتِهَا وَشَدَّتْهَا مُصَدِّقُ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي لَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنَّهُ هُوَ إِلَّا وَحْيِي يُوحَى ، إِنَّ هَذِهِ الزَّلَازِلَ مِنْ وَظَائِفِهَا أَنَّهَا تَعْطِينَا مَعْنَى الزَّلْزَلَةِ الْكُبْرَى ، الَّتِي

(١) البخاري : (٩٨٩) .

أوعد الله بها ، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج : ١] .

إنَّ الأرضَ من أكثر الكواكب في المجموعة الشمسية كثافةً ، فكثافة الأرض تزيد على كثافة الماء خمسة أضعاف ، ويفسّر العلماء الزلزلة بأنها حركة في باطن الأرض ، حيث ينشأ عنها ضغط هائل ، لا تحتّمه قشرة الأرض ، عندئذ تتصدّع هذه القشرة ، وهذا التصدّع في قشرة الأرض هو الزلزال الذي نستمع إلى أخباره من حين إلى آخر ، علماً بأن هذه القشرة يزيد سمكها على تسعين كيلو متراً ، وهي من صخور البازلت ، وهذه الصخور من أقسى أنواع الصخور ، ومع ذلك تتصدّع ، فهذا الضغط من باطن الأرض الذي يصدّع قشرة من البازلت يزيد سمكها على تسعين كيلو متراً طرف من معنى : إن الله قوي ، قال تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] .

ويقول بعض علماء الزلازل : هناك زلزالٌ حَدَثَ في الصين في عام (١٥٥٦ م) ، أودى بحياة ثمانمئة وثلاثين ألفاً في ثوانٍ ، وفي عام (١٧٣٧ م) حدث زلزالٌ في الهند ، أودى بحياة مئة وثمانين ألفاً ، وفي عام (١٩٢٣ م) حدث زلزال في اليابان أودى بحياة مئة ألف ، وفي عام (١٩٧٦ م) حدث زلزال في الصين أودى بحياة مئة ألف ، وحدث زلزال في إيطالية أودى بحياة خمسة وثلاثين ألفاً ، في ثوانٍ معدودات ،

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج : ١] .

سألوا عالماً كبيراً من علماء الزلازل : هل يمكنُ بما أوتينا من علمٍ

متقدّم أن نتنبأ بالزلازل قَبْلَ وقوعه ، ولو بثانية ؟ فقال : لا ، إلا أن حيوانات كثيرة في مقدّماتها مَنْ يُضْرَبُ المثلُ بغبائه - الحمار - يشعرُ بالزلازل قبل وقوعه بربع ساعة ، ذلك لأنّ هذه الحيوانات ليست مكلفة كالإنسان ، وليست مقصودة بالزلازل ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

قال عز وجل :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] ، زلزلت أي : تحرّكت تحرّكاً شديداً ، واضطربت ، وزُلْزِلَتْ زلزالها العظيم ، والكبير ، والآخر ، الذي ليس بعده زلزالٌ ، وذلك عند قيام الساعة ، وما هذه الزلازلُ في الأرض إلا نماذجُ مصغرة ومحدودة .

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ٢] ، أثقالها أي : الإنسان^(١) ، المخلوق المكلف الذي خُلِقَ لخدمة عرضها السماوات والأرض ، لأنه قَبْلَ حمل الأمانة ، سَخَّرَ اللهُ له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه ، وجعله خليفته في الأرض ، فَإِنْ سَمَّا عقله على شهوته كان فوق الملائكة ، وَإِنْ سَمَتْ شهوته على عقله كان دونَ الحيوان ، ﴿ وَقَالَ

(١) قال الطبري في تفسيره (٢٦٥ / ٣٠) : [وأخرجت الأرض ما في بطنها من الموتى أحياء ، والحيث في بطن الأرض ثقل لها . . . وقال ابن عباس : يعني الموتى] . وقال ابن كثير في تفسيره (٥٤٠ / ٤) : [يعني أَلْقَتْ ما فيها مِنَ الموتى ، قاله غير واحد من السلف] .

أَلَيْسَ لَنَا مَا لَهَا ﴿٢﴾ [الزلزلة : ٣] ، تعجباً وخوفاً ، ﴿يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ ﴿٤﴾ [الزلزلة : ٤] ، ما عمله الإنسان على وجه الأرض من خير أو شر ، ﴿يَأْنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ﴿٥﴾ [الزلزلة : ٥] ، أقدرها على الكلام ، وأذن لها فيه ، وأمرها به ، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة : ٦] ، فرادى ، متفرقين ، فلا تجمعات ، ولا تكتلات ، ولا تناصر على باطل ، ولا هيمنة ، ولا غطرسة ، ولا تعالي ، قال عز وجل :

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس : ٦٥] .

قال تعالى :

﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴿[الزلزلة : ٦-٨] ، أي مقدار ذرة ، وهي الجزء الذي لا يتجزأ ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة : ٧-٨] ، يجد جزاءه وعاقبته .

ورد من حديث عبد الله بن عمرو الذي أخرجه أبو داود والنسائي وأحمد والحاكم وصححه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : « أقرئني يا رسول الله ، فقال : اقرأ ثلاثاً من ذوات الر^(١) ، فقال : كبرت سني ، واشتد قلبي ، وغلظ لساني ، قال : فاقرا ثلاثاً من ذوات حاميم^(٢) ، فقال مثل مقالته ، فقال : اقرأ ثلاثاً من المسبحات^(٣) ، فقال مثل مقالته ،

(١) أي من السور التي تبدأ ب : الر .

(٢) أي السور التي تبدأ ب : حم .

(٣) أي السور التي تبدأ ب : سبح ، ويستبح .

فَقَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرِئْنِي سُورَةَ جَامِعَةٍ ، فَأَقْرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ ﴾ حَتَّى فَرَّغَ مِنْهَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَا أَزِيدُ عَلَيْهَا أَبَدًا ، ثُمَّ أَذْبَرَ الرَّجُلُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَفَلَحَ الرَّؤُوسُ ، مَرَّتَيْنِ « (١) .

قال ابن القيم رحمه الله : « عشرة أشياء ضائعة لا يُتَفَعُّ بها ؛ علمٌ لا يُعْمَلُ به ، وعملٌ لا إخلاصَ فيه ولا اقتداءً ، ومالٌ لا يُنْفَقَ منه ، فلا يَسْتَمِيعُ به جامعُه في الدنيا ، ولا يَقْدُمُه أَمَامَه إلى الآخرة ، وقلبٌ فارغٌ من محبةِ الله ، والشوقِ إليه ، والأنسِ به ، وبدنٌ معطلٌ عن طاعته وخدمته ، ومحبةٌ لا تَتَقَيَّدُ برضاءِ المحبوب ، وامتنالٍ أوامره ، ووقتٌ معطلٌ عن استدراكِ فارطٍ ، أو اغتنامِ برٍّ وقُرْبَةٍ ، وفكرٌ يجولُ فيما لا يَنْفَعُ ، وخدمةٌ مَنْ لا تَقْرُبُكَ خدمتهُ إلى الله ، ولا تعودُ عليك بِصَلاحِ دُنياكَ ، وخوفٌ ورجاؤُكَ لِمَنْ ناصيته بيدِ الله ، وهو أسيرٌ في قبضته ، ولا يملكُ لنفسِهِ ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا .

وأعظمُ هذه الإضاعاتِ إضاعتان ، وهما أصلُ كُلِّ إضاعةٍ ؛ إضاعةُ القلبِ ، وإضاعةُ الوقتِ ، وإضاعةُ القلبِ مِنْ إِيثَارِ الدنيا على الآخرة ، وإضاعةُ الوقتِ مِنْ طَوْلِ الأملِ ، فاجتمعَ الفسادُ كُلُّهُ في اتباعِ الهوى ، وطولِ الأملِ ، والصَّلاحُ كُلُّهُ في اتباعِ الهدى ، والاستعدادُ لِلْقَاءِ ، واللهُ المستعانُ .

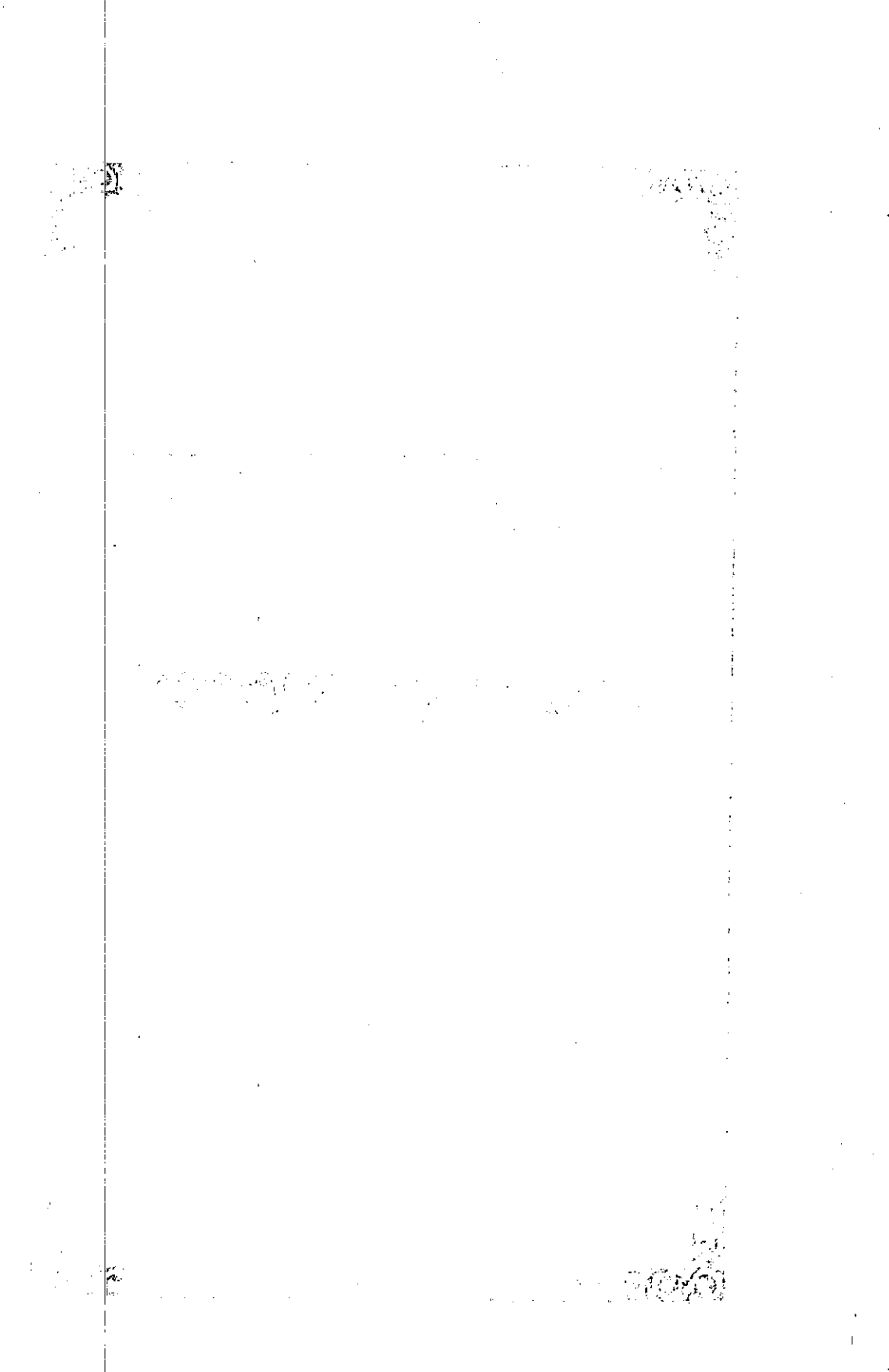
(١) أبو داود (١٣٩٩) ، والنسائي (٨٠٢٧) ، وأحمد (٦٥٧٥) ، والحاكم (٣٩٦٤) .

فالعجبُ ممَّنْ تعرِّضُ له حاجةٌ فيصرفُ رغبته وهَمَّتْه فيها إلى الله
ليقضيهَا له ، ولا يتصدَّى للسؤالِ لحياةِ قلبه من موتِ الجهلِ والإعراضِ ،
وشفائه من داءِ الشهواتِ والشبهاتِ ، ولكنْ إذا ماتَ القلبُ لم يشعرْ
بمعصيته ^(١) .

* * *

(١) الفوائد (ص ١٢) بتصرف يسير .

موضوعات في السيرة



في ذكرى مولد الرسول ﷺ

في ذكرى مولد رسول الله ﷺ ينبغي أن نعرفه ، ونزداد معرفة به ، لأن معرفته جزء من الدين ، قال الله تعالى :

﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٩] .

أذكر هنا ما قاله فيه خصومه قديماً وحديثاً ، وقد قيل : والفضل ما شهد به الأعداء .

فهذا النضر بن الحارث ، وقد كان من سادة قريش ، ومن أكبر المعارضين للنبي ﷺ ، ألقى يوماً خطاباً في جمع من قريش قال فيه : « يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم به بحيلة بعد ، كان محمدٌ فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم خلقاً ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانةً ، حتى إذا رأيتم في صدغيه^(١) الشيب ، وجاء بما جاءكم به ، قلتم : ساحرٌ ، لا ، والله ، ما هو بساحرٍ ، لقد رأينا السحرة وعقدَهم ، وقلتم : كاهنٌ ، لا ، والله ، ما هو بكاهنٍ ، لقد رأينا الكهنة وتخالجهم^(٢) ، وسمعنا سجعهم ، وقلتم : شاعرٌ ، لا ، والله ما هو

(١) الصَّدُغُ بضم الصاد المهملة وسكون الدال : الموضع الذي بين العين والأذن ، والشعر المتدلي على ذلك الموضع ، عون المعبود (١٥٠ / ١) .

(٢) وتخالج في صدري شيء شككتُ ، (القاموس المحيط ، مادة خالج) .

بشاعرٍ ، لقد رأينا الشعرَ ، وسمعنا أصنافه كلها ، هَزَجُه^(١) ورجزُه^(٢) ،
وقلتم : مجنونٌ ، لا ، واللهِ ، ما هو بمجنونٍ ، لقد رأينا الجنونَ ، فما
هو بخنقه ، ولا وسوسيته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش ، فانظروا في
شأنكم ، فإنه والله قد نزل بكم أمرٌ عظيمٌ^(٣) .

ومثل هذا ذاك الحوار الذي جرى بين هرقل ملك الروم ، وبعض
زعماء قريش من المعارضين للنبي عليه الصلاة والسلام .

فَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ
أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ « أَنَّ هِرْقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ ،
وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّامِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ
وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ ، فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ
الرُّومِ ، ثُمَّ دَعَاهُمْ ، وَدَعَا بَتَرُجْمَانِهِ ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ
الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : فَقُلْتُ : أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا ، فَقَالَ :
أَدْنُوهُ مِنِّي ، وَقَرَّبُوا أَصْحَابَهُ ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ لِبَتَرُجْمَانِهِ :
قُلْ لَهُمْ : إِنِّي سَأَلْتُ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذَّبُوهُ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَوْلَا
الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثُرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ
قَالَ : كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ ؟ قُلْتُ : هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ ، قَالَ : فَهَلْ قَالَ هَذَا
الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ ؟ قُلْتُ : لَا ؟ قَالَ : فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ

(١) الهَزَجُ محرَّكةٌ : من الأغاني ، وفيه ترنم ، وصوت مطرب ، وصوت فيه بَحْحُ ، وكلُّ
كلام متدارك متقارب ، وبه سُمِّيَ جنسٌ من العروض ، (القاموس المحيط ، مادة
هزج) .

(٢) الرَّجْزُ - بفتحين - ضَرْبٌ مِنَ الشَّعْرِ ، (مختار الصحاح ، مادة رجز) .

(٣) أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١٣٨ / ٢) .

مَلِكٍ ؟ قُلْتُ : لَا ؟ قَالَ : فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَقُلْتُ : بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ قَالَ : أَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ قُلْتُ : بَلْ يَزِيدُونَ ، قَالَ : فَهَلْ يَزِيدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ قُلْتُ : لَا ، قَالَ : فَهَلْ يَغْدِرُ ؟ قُلْتُ : لَا ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَذْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا ، قَالَ : وَلَمْ تُمْكِنِي كَلِمَةٌ أُدْخِلَ فِيهَا شَيْئًا غَيْرَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ ، قَالَ : فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ ؟ قُلْتُ : الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ ، يَنَالُ مِنَّا ، وَنَنَالُ مِنْهُ ، قَالَ : مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ قُلْتُ : يَقُولُ : اعْبُدُوا اللَّهَ وَاحِدَهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ ، فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ : قُلْ لَهُ : سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا ، وَسَأَلْتُكَ : هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، فَقُلْتُ : لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ : رَجُلٌ يَأْتِسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ ، وَسَأَلْتُكَ : هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ؟ قُلْتُ : فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ : رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ ، وَسَأَلْتُكَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ، وَسَأَلْتُكَ : أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ، وَسَأَلْتُكَ : أَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ ، وَسَأَلْتُكَ : أَزِيدُ أَحَدٌ سَخَطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بِشَاشَتِهِ

الْقُلُوبَ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ ،
 وَسَأَلْتُكَ : بِمَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ
 شَيْئًا ، وَيَنْهَأَكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ ،
 فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ
 خَارِجٌ ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ
 لَتَجَشَّمْتُ^(١) لِقَاءَهُ ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ ، ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ
 رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دَحِيَّةً إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ ،
 فَقَرَأَهُ ، فَإِذَا فِيهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي
 أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلِمَ تَسْلَمَ ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ
 تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ^(٢) ، وَ : ﴿ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى
 كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَزُ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
 بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ، قَالَ
 أَبُو سُفْيَانَ : فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ ، وَفَرَّغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ ،

(١) قال ابن منظور في لسان العرب (مادة جشم) : [جَشِمَ الْأَمْرُ - بالكسر - يَجْشِمُهُ جَشْمًا
 وَجَشَامَةً ، وَتَجَشَّمَهُ : تَكَلَّفَهُ عَلَى مَشَقَّةٍ] ، والمعنى في الحديث : لتكلفتُ مشقة
 لقائه والوصول إليه .

(٢) قال النووي في شرح مسلم (١٢ / ١٠٩) : [واختلفوا في المراد بهم - يعني الأريسيين
 - على أقوال ، أصحابها وأشهرها أنهم الأتكارون ، أي الفلاحون والزرعاعون ، ومعناه :
 أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك ، ويتقادون بانقيادك ، ونبه بهؤلاء على جميع
 الرعايا لأنهم الأغلب ، ولأنهم أسرع انقيادا ، فإذا أسلم أسلموا ، وإذا امتنع
 امتنعوا ، وهذا القول هو الصحيح ، وقد جاء مصرحا به في رواية روينها في كتاب
 دلائل النبوة للبيهقي ، وفي غيره : « فإن عليك إثم الأكارين » ، بت صرف يسير .

وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ ، وَأُخْرِجْنَا ، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا : لَقَدْ أَمَرَ^(١) أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ^(٢) ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيُظْهِرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ ، وَكَانَ ابْنُ النَّاطُورِ صَاحِبُ إِبِلِيَاءَ وَهَرَقْلَ سَقْفًا عَلَى نَصَارَى الشَّامِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِبِلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ : قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ ، قَالَ ابْنُ النَّاطُورِ : وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَاءً^(٣) يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ : إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ ، فَمَنْ يَخْتَنُّ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ؟ قَالُوا : لَيْسَ يَخْتَنُّ إِلَّا الْيَهُودُ ، فَلَا يُهَمِّنُكَ شَأْنُهُمْ ، وَاکْتُبْ إِلَى مَدَائِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ ، فَيَسْتَمِمْهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أَتَيْ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ : اذْهَبُوا فَاَنْظُرُوا أَمْخَتَيْنِ هُوَ أَمْ لَا ؟ فَانْظُرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ : هُمْ يَخْتَتِنُونَ ، فَقَالَ هِرَقْلُ : هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ ، ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبِ لَهُ بِرُومِيَّةَ ، وَكَانَ نَظِيرُهُ فِي الْعِلْمِ ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمَصَ ، فَلَمْ يَرَمْ حِمَصَ حَتَّى أَنَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ

(١) جاء في فتح الباري (٤٠ / ١) : [أَمَرَ هُوَ بفتح الهمزة وكسر الميم ، أي عظم] ، ومنه قوله تعالى : لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا .

(٢) قال ابن حجر في الفتح (٤٠ / ١) : [وابن أبي كبشة أراد به النبي ﷺ ، لأن أبا كبشة أخذ أجداده ، وعادة العرب إذا انتقصت نسبَت إلى جدٍّ غامضٍ] .

(٣) جاء في فتح الباري (٤١ / ١) : [حَزَاءٌ - بالمهمله وتشديد الزاي آخره همزة منونة - أي كاهنا ، يقال : حزا بالتخفيف يحزو حزوا ، أي تكهن] .

النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنَّهُ نَبِيٌّ ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسَكْرَةِ^(١) لَهُ بِحِمَصَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فُغِلَّتْ ، ثُمَّ أَطْلَعَ فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الرُّومِ ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ ، وَأَنْ يَنْبِتَ مُلْكُكُمْ فَتَبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ ؟ فَحَاصُوا^(٢) حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِقَتْ . فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفَرَتَهُمْ ، وَأَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ قَالَ : رُدُّوهُمْ عَلَيَّ ، وَقَالَ : إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي أَنْفَا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ ، فَسَجَدُوا لَهُ ، وَرَضُوا عَنْهُ فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلٍ^(٣) .

والله لو أن أصحاب رسول الله ﷺ فهموا الإسلام كما يفهمه عامة المسلمين اليوم لما خرج هذا الدين من مكة ، قال هرقل : « فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمْتُ أَنِّي أَخْلَصُ إِلَيْهِ لَتَجَسَّمْتُ لِقَاءَهُ ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ » .

يقول أحد كتاب السيرة الغربيين : « كان محمد عابداً متحنثاً ، وقائداً فذاً ، شيد أمةً من الفتات المتناثر ، وكان رجل حرب ، يضع الخطط ، ويقود الجيوش ، وكان أباً عطوفاً ، وزوجاً تحققت فيه المودة والرحمة »

(١) [والدسكرة - بسكون السين المهملة - القصر الذي حوله بيوت] ، فتح الباري (٤٣/١) .

(٢) [فحاصوا - بمهملتين - أي نفروا ، وشبههم بالوحوش ، لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الإنسانية ، وشبههم بالحرر دون غيرها من الوحوش لمناسبة الجهل وعدم الفطنة ، بل هم أضل] ، فتح الباري (٤٣/١) .

(٣) البخاري (٢٧٨٢) ، مسلم (١٧٧٣) ، أبو داود (٥١٣٦) ، النسائي (١١٠٦٤) ، أحمد (٢٣٧٠) .

وَالسَّكُنُ ، وَكَانَ صَدِيقاً حَمِيماً ، وَقَرِيباً كَرِيماً ، وَجَاراً تَشْغَلُهُ هُمُومُ جِيرَانِهِ ، وَحَاكِماً تَمَلُّ نَفْسَهُ مَشَاعِرُ مُحْكُومِيهِ ، يَمْنَحُهُمْ مِنْ مَوَدَّتِهِ وَعَطْفِهِ مَا يَجْعَلُهُمْ يَفِدُونَهُ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ فَهُوَ قَائِمٌ عَلَى أَعْظَمِ دَعْوَةٍ شَهِدَتْهَا الْأَرْضُ ، الدَّعْوَةُ الَّتِي حَقَّقَتْ لِلإِنْسَانِ وَجُودَهُ الْكَامِلَ ، وَتَغْلَغَلَتْ فِي كِيَانِهِ كُلِّهِ ، وَرَأَى النَّاسُ الرَّسُولَ الْكَرِيمَ تَتِمُّثَلُّ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ الْكَرِيمَةُ ، فَصَدَّقُوا تِلْكَ الْمَبَادِيءَ الَّتِي جَاءَ بِهَا كُلُّهَا ، وَرَأَوْهَا مَتَمِّثَةً فِيهِ ، وَلَمْ يَقْرَءُوهَا فِي كِتَابٍ جَامِدٍ ، بَلْ رَأَوْهَا فِي بَشَرٍ مُتَحَرِّكِ ، فَتَحَرَّكَتْ لَهَا نَفُوسُهُمْ ، وَهَفَّتْ إِلَيْهَا مَشَاعِرُهُمْ ، وَحَاحِلُوا أَنْ يَقْتَبِسُوا قِبَسَاتٍ مِنَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ ، كُلٌّ بِقَدْرِ مَا يَطِيقُ ، فَكَانَ أَكْبَرَ قُدُوةٍ لِلبَشَرِيَّةِ فِي تَارِيخِهَا الطَّوِيلِ ، وَكَانَ هَادِياً وَمُرَبِّياً بِسُلُوكِهِ الشَّخْصِيِّ ، قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بِالْكَلِمِ الطَّيِّبِ الَّذِي يَنْطَقُ بِهِ .

يَقُولُ الْبَاحِثُ الْبَرِيطَانِيَّ كَارِيل : « إِنَّ التَّشْكِيكَ فِي صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَدِينِهِ يَعُدُّ الْيَوْمَ عَاراً كَبِيراً ، وَإِنَّ عَلَيْنَا الرَّدَّ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْآرَاءِ غَيْرِ الصَّحِيحَةِ ، وَالْأَقْوَالِ الَّتِي لَا مَعْنَى لَهَا ، فَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ مَرُورِ الْقُرُونِ عَلَى بَعْثَةِ هَذَا النَّبِيِّ مَا يَزَالُ مَثَاتِ الْمَلَائِكِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَالَمِ يَسْتَضِيئُونَ بِنُورِ الرِّسَالَةِ .

وَيَقُولُ أَسَازِدَا جَامِعِي أَمِيرِكِي : « لَقَدْ أَدْرَكَ مُحَمَّدٌ ﷺ - أَهْمِيَّةَ الْإِتِّحَادِ وَعِلْوِ مَنْزِلَةِ الْمَجْتَمَعِ الْمُوَحَّدِ فِي بَعْثَتِهِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَبِذَلِكَ زَرَعَ بِيَدِهِ بَذُورَ الْإِتِّحَادِ وَالْمُودَّةِ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَقَاهَا ، وَتَعَهَّدَهَا بِالرَّعَايَةِ حَتَّى أَعْطَتْ ثَمَاراً حُلُوةَ الْمَذَاقِ » .

وَيَقُولُ مِيلِرُ الْكَاتِبِ الْبَرِيطَانِي الْمَعْرُوف : « إِنَّ بَعْضَ الدِّيَانَاتِ تَهْتَمُّ

بالجوانب الروحية من حياة البشر ، وليس لديها في تعاليمها أي اهتمام بالأمور السياسية والقانونية والاجتماعية ، ولكن محمداً - ﷺ - ببعثته وأمانته الإلهية كان نبياً ، وكان رجل دولة ، ومقنناً ، أي : واضعاً للقوانين ، وقد اشتملت شريعته على أحكام وقوانين مدنية وسياسية واجتماعية .

ويقول الكاتب والباحث الغربي ريتين : « منذ بزوغ بعثة محمد - ﷺ - وسطوع شمس الإسلام أثبت هذا النبي أن دعوته موجهة للعالمين ، وأن هذا الدين المقدس يناسب كل عصر وكل عنصر وكل قومية ، وأن أبناء البشر في كل مكان ، وفي ظل أي حضارة لا غنى لهم عن هذا الدين الذي تنسجم تعاليمه مع الفكر الإنساني » .

ويقول (المسيو) جان الكاتب والعالم السويسري المعاصر : « لو أمعنا النظر في أسلوب حياة محمد - ﷺ - وأخلاقه على الرغم من مرور أربعة عشر قرناً على بعثته لتمكنا من فهم كنه العلاقة التي تشد ملايين الناس في العالم لهذا الرجل العظيم ، والتي جعلتهم وتجعلهم يرضخون من أجله ، ومن أجل مبادئه الإسلامية السامية بالغالي والرخيص » .

أما الفيلسوف الروسي تولستوي الذي أعجب بالإسلام وتعاليمه في الزهد والأخلاق والتصوف فقد انبهر بشخصية النبي ﷺ ، وظهر ذلك واضحاً على أعماله ، فيقول في مقالة له بعنوان « من هو محمد ؟ » : « إن محمداً - ﷺ - هو مؤسس ورسول ، وكان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تنجح إلى السكينة والسلام ، وتؤثر عيشة

الزهد ، وَمَنَعَهَا من سفكِ الدماء ، وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عملٌ عظيمٌ لا يُقدِّمُ عليه إلا شخصٌ أوتي قوةً ، ورجلٌ مثله جديرٌ بالاحترام والإجلالِ .

ويقول عنه أيضاً : « ليس هناك من شك في أن محمداً - ﷺ - قدَّم ببعثته خدمةً كبيرةً للبشرية ، فهي فخرٌ وهدى للناس ، وهي التي أرست دعائم الصلح والاستقرار والرخاء ، وفتحت طريق الحضارة والرقي للأجيال ، وبديهي أن ما فعله محمداً - ﷺ - عملٌ عظيمٌ لا يفعله إلا شخصٌ مقتدرٌ ذو عزمٍ رصينٍ ، ومثلُ هذا الشخصِ وبلا شك يستحقُّ كلَّ إكرامٍ وتقديرٍ واحترامٍ » .

ويقول مفكِّرٌ آخرُ رفع لواء « لا إله » : « الحقيقة أن محمداً - ﷺ - قد جاء برسالةٍ لا يمكن إنكارها ، وهي خلاصةُ الرسالاتِ السابقة ، بل وتعلو عليها ، وبناءً على هذا فإن رسالته للعالم دستورٌ ثابتٌ ، وما جاء به محمد - ﷺ - وأقواله تنسجمُ وذوقُ البشرِ وإدراكُ بني الإنسان في هذا العصر .

وكم هو جميل ما قاله العالم الإيطالي واكستون : « لو سألني أحدهم فقال : من هو محمداً الذي تمدحه كلُّ هذا المديح ؟ لقلت له بكل أدبٍ واحترامٍ : إنَّ هذا الرجلَ المشهورَ ، وإنَّ هذا القائدَ الذي لا نظيرَ له ، وعلاوةً على كونه مبعوثاً من الله فهو رئيسُ حكومةٍ إسلاميةٍ كانت ملجأً وملاذاً لكل المستضعفين والمسلمين ، وحاميةً لمصالحهم الاجتماعية ، فإن محمداً - ﷺ - الذي يعد بانيَ ومؤسسَ تلك الحكومة كان قائداً سياسياً لكل ما لهذه الكلمة من معنى .

ويقول الكاتب الفرنسي كورسيه : « عندما نهض محمد - ﷺ - بدعوته ، وقبلَ وبعدَ انطلاقي بعثته كان شاباً شجاعاً شهماً ، يحمل أفكاراً تسمو على ما كان سائداً من أفكارٍ في مجتمعه ، وقد تمكن محمد - ﷺ - بسمو أخلاقه من هداية عرب الجاهلية المتعصبين الذين كانوا يعبدون الأصنام إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وفي ظلِّ حكومته الديمقراطية^(١) الموحدة تمكّن من القضاء على كل أشكال الفوضى والاختلاف والافتتال التي كانت شائعة في جزيرة العرب ، وأرسى بدلَ ذلك أسس الأخلاق الحميدة محوِّلاً المجتمع العربي الجاهلي المتوحش إلى مجتمعٍ راقٍ ومتحضّرٍ » .

وهذا المؤرّخ الأوربي جيمس يقول في مقال له تحت عنوان : « الشخصية الخارقة » : « وقد أحدث محمد - ﷺ - بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في الجزيرة العربية وفي الشرق كلّ ، فقد حطّم الأصنام بيده ، وأقام ديناً خالداً يدعو إلى الإيمان بالله وحده » .

ويقول الفيلسوف الفرنسي كارديفو : « إن محمداً - ﷺ - كان هو النبي الملهم والمؤمن ، ولم يستطع أحدٌ أن ينازعه المكانة العالية التي كان عليها ، إنّ شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد - ﷺ - بين أعضاء الكتلة الإسلامية كان يطبّق عملياً حتى على النبي - ﷺ - نفسه .

ويقول الفيلسوف البريطاني توماس كاريل ، وقد خصّص من كتابه

(١) هذه الكلمة ليست عربية ، بل هي يونانية الأصل ، ثم إنها بمفهومها الشائع ليست موافقة للإسلام ، فإن في الإسلام نظام الشورى ، غير أننا أبقينا على هذه الكلمة لأنها من استعمال الكاتب الفرنسي ، فلا يعدو أن يكون الأمر نقلاً لنصٍّ بحذافيره ، فتنبّه .

فصلاً لنبي الإسلام بعنوان : « البطل في صورة رسول » ، عدّ فيه النبي ﷺ واحداً من العظماء السبعة الذين عرفهم التاريخ ، وقد ردّ هذا المؤلف مزاعم المتعصبين فقال : « يزعم المتعصبون أن محمداً - ﷺ - لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان ، كلاً والله ، لقد كانت في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات المتورّد المقلتين ، العظيم النفس ، المملوء رحمةً وخيراً وحناناً وبراً وحكمةً وحجى وإربةً ونهى كانت في فؤاده أفكاراً غير الطمع الدنيوي ، ونيات غير طلب السلطة والجاه ، كيف لا وتلك نفس صامتة ، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين » .

وقد وضع مؤلف كتاب « المئة الأوائل في تاريخ البشرية » ، محمد بن عبد الله ﷺ على رأس المئة الأولى في التاريخ البشري ، هو الإنسان الأول من بين المئة الأوائل في تاريخ البشرية كلّها من حيث قوة التأثير ، ونوع التأثير ، وامتداد أمد التأثير ، واتساع رقعة التأثير .

ويقول كتاب السيرة من المسلمين يصفون شخصية النبي ﷺ التعاملية ، أي يصفون جانباً من شخصيته : « لقد كان ﷺ جمّ التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، ينصرف بكلّه إلى محدّثه صغيراً كان أو كبيراً ، يكون آخر من يسحب يده إذا صافح ، وإذا تصدّق وضع الصدقة بيده في يد المسكين ، وإذا جلس جلس حيث ينتهي به المجلس ، لم يُرَ ماداً رجله قط ، ولم يكن يأنف من عمل لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، وكان يذهب إلى السوق ويحمل بضاعته ، ويقول : أنا أولى بحملها ، وكان يجيب دعوة الحرّ والعبد والمسكين ،

ويقبلُ عذرَ المعتذرِ ، وكان يرفو ثوبه ، ويخسفُ نعله ، ويخدمُ نفسه ، ويعقلُ بعيره ، ويكنسُ داره ، وكان في مهنةِ أهله ، وكان يأكلُ مع الخادمِ ، ويقضي حاجةَ الضعيفِ والبائسِ ، يمشي هوناً ، خافضَ الطرفِ ، متواصلَ الأحزانِ ، دائمَ الفكرِ ، لا ينطقُ من غيرِ حاجةٍ ، طويلَ السكوتِ ، إذا تكلمَ تكلمَ بجوامعِ الكلمِ ، وكان دمثاً ، ليس بالجاحدِ ولا المهينِ ، يعظمُ النعمَ وإنْ دقتْ ، ولا يذمُّ منها شيئاً ، ولا يذمُّ مذاقاً ، ولا يمدحه ، ولا تغضبه الدنيا ، ولا ما كان لها ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصرُ لها ، إذا غضبَ أعرضَ وأشاحَ ، وإذا فرحَ غَضَّ بصره ، وكان يؤلفُ ولا يفرِّقُ ، يقربُ ولا ينفِّرُ ، يكرمُ كريمَ كلِّ قومٍ ويؤليه عليهم ، يتفقّدُ أصحابه ، ويسألُ الناسَ عما في الناسِ ، يحسِّنُ الحسنَ ويصوِّبه ، ويقبِّحُ القبيحَ ويوهنه ، ولا يقصر عن حقٍّ ولا يجاوزه ، ولا يحسبُ جليسه أنْ أحداً أكرمُ عليه منه ، مَنْ سألَه حاجةً لم يردّه إلا بها ، أو ما يسره من القول ، كان دائمَ البشرِ ، سهلَ الخلقِ ، لينَ الجانبِ ، ليس بفظً ، ولا غليظً ، ولا صخابٍ ، ولا فحاشٍ ، ولا عيَابٍ ، ولا مزاحٍ ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يخيب فيه مؤمله ، كان لا يذمُّ أحداً ، ولا يعيره ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما يرجى ثوابه ، يضحك مما يضحك منه أصحابه ، ويتعجب مما يتعجبون ، ويصبر على الغريب وجفوته في مسأله ومنطقه ، ولا يقطع على أحدٍ حديثه حتى يجوزه » ، والحديث عن شمائله ﷺ حديث يطول لا تتسع له المجلدات ولا خطب في سنوات ، ولكن الله جل في علاه لخصها بكلمات فقال :

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [الفلم : ٤] .

قال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ
وقال غيره :

وَأَسَدَتْ لِلْبَرِيَّةِ بِنْتُ وَهَبٍ يَدَا بَيْضَاءَ طَوَّقَتِ الرُّقَابَا
لَقَدْ وَضَعْتُهُ وَهَّاجاً مُنِيرَا كَمَا تَلِدُ السَّمَاوَاتُ الشُّهَابَا

* * *

الحكمة من تذكية الذبيحة

من دلائل نبوة النبي ﷺ هذا الموضوع العلمي ، تذكية الذبيحة ، وبحسب توجيه النبي ﷺ هي الذبح بطريقة معينة ، ويتم ذلك بقطع الوريد الرئيسي فقط ، وأن يمتنع الذابح عن قطع الرأس بالكامل ، ولم يكن في عصر النبي ﷺ ، ولا في الجزيرة العربية ، ولا في مراكز الحضارات شرقاً وغرباً من معطيات العلم ما يسمح بتعليل هذا التوجيه ، بل ولا في العصور التي تلت عصره ﷺ ، إلى أن اكتُشف أخيراً قبل بضعة عقود من الزمن أن القلب - قلب الإنسان وقلب الذبيحة - ينبض بتنبيه ذاتي يأتيه من مركز كهربائي في القلب ، ومع هذا المركز الأول مركزان كهربائيان احتياطيان لهذا المركز ، يعمل الثاني عند تعطل الأول ، ويعمل الثالث

عندَ تعطُّلِ الثاني ، ولكنَّ هذا التنبيهَ الذاتيَّ الذي يأتي من القلبِ يُعطي النبضَ الطبيعيَّ (ثمانين نبضةً في الدقيقة ، ليس غير) ، أما حينما يواجه الكائنُ خطراً ، ويحتاجُ إلى مئةٍ وثمانين نبضةً في الدقيقة لتسرُّعِ الدمِ في الأوعية ، ويرتفعَ الجهدُ العضليُّ بزيادةِ إمدادهِ بالدمِ فلا بد عندئذٍ من أن يأتي أمرٌ استثنائيٌّ كهربائيٌّ هرمونيٌّ من الغدةِ النخاميةِ في الدماغِ إلى الكظرِ ، ثم إلى القلبِ ، وهذا يقتضي أن يبقى رأسُ الدابةِ متّصلاً بجسمِها حتى يُفَعَلَ الأمرُ الاستثنائيُّ برفعِ النبضِ .

إنَّ نبضاتِ القلبِ الاستثنائيةَ بعدَ الذبحِ - من خلالِ وجودِ علاقةٍ بين المخِّ والقلبِ - تدفعُ الدمَ كُلَّهُ إلى خارجِ الجسمِ ، فيصيرُ الحيوانُ المذبوحُ طاهراً وردّي اللونِ ، ومعلومٌ أنَّ مهمّةَ القلبِ عندَ ذبحِ الحيوانِ هي إخراجُ الدمِ كُلِّهِ من جسمِ الدابةِ ، والنبضُ الطبيعيُّ لا يكفي لإخراجِ الدمِ كُلِّهِ من جسمِ الذبيحةِ ، فإذا قُطِعَ رأسُ الذبيحةِ بالكاملِ حُرِمَ القلبُ من التنبيهِ الاستثنائيِّ الكهربائيِّ الهرمونيِّ ، الذي يسهمُ في إخراجِ الدمِ كُلِّهِ من الذبيحةِ ، عندئذٍ يبقى دُمُ الدابةِ فيها ، ولا يخفى ما في ذلك من أذى يصيبُ آكلي هذه الذبيحةِ ، فإذا بقي دُمُ الدابةِ فيها كان خطراً على صحّةِ الإنسانِ ، لأنَّ الدمَ في أثناءِ حياةِ الدابةِ يُصَفَّى عن طريقِ الرئتينِ والكليتينِ والتعريقِ ، أما بعدَ الذبحِ فيصبحُ الدمُ بيئةً صالحةً لنموِّ الجراثيمِ الفناكةِ ، حيث تسري الحموضُ السامةُ التي تؤذي الإنسانَ بسببِ وجودِها في جسمِ الحيوانِ ، وبهذا يتسمَّمُ اللحمُ كُلُّهُ ، وبوجودِ حمضِ البولِ في الدمِ ، وبوجودِ الدمِ في اللحمِ يسري هذا كُلُّهُ إلى آكلِ هذه الذبيحةِ ، فإذا أكلَ الإنسانُ هذا اللحمَ يعاني من آلامٍ في المفاصلِ ، لأن حمضَ البولِ يترسَّبُ

في تلك المفاصل ، ولذلك فتذكية الذبيحة تطهيرها بخروج الدم منها ، ولا يخرج الدم كله من الذبيحة إلا إذا بقي الرأس متصلاً بالذبيحة .

من أنبأ النبي ﷺ بهذه الحقائق التي اكتشفت قبل حين ، حيث أمر أصحابه بقطع أوداج الدابة دون قطع رأسها ، كما تفعل معظم المسالخين في العالم غير الإسلامي ؟

إن هذا الحديث الشريف من دلائل نبوة النبي ﷺ .

إن كل شيء حرمه الله علينا إنما حرمه لأنه عليمٌ خبير ، وهو القائل : ﴿ وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] ، ولأنه خلَقنا فهو أعلم بما ينفعنا ، فمن خالف أمر الله فعليه أن يدفع الثمن .

ومن سنن النبي ﷺ إنباهُ الدم ، وفري الأوداج ، إذ لابد أن يخرج هذا الدم الذي يحمل كل عوامل المرض من جسم الدابة ، فقد قال العلماء : « إن الدابة التي تحتجز الدم في أنسجتها يميل لونها إلى اللون الأزرق ، وإذا بقي هذا الدم في النسيج العضلي تحلل ، وخرجت منه حموضٌ تؤدي إلى تبيس اللحم وتصلبه ، وبعد ساعات ثلاث تنفرد الجراثيم الهوائية واللاهوائية بإفساد هذه النسيج اللحمية التي بقي الدم فيها ، وهذا التفاعل تنتج عنه مركبات كريهة الرائحة ، سامة التأثير ، وينتفخ اللحم بالغازات المتولدة » .

لذلك حينما علمنا النبي ﷺ أنه لابد من ذبح الدابة من أوداجها ، فمن أجل أن يخرج الدم من جسمها ، ويبقى اللحم طاهراً طيباً .

من هنا كانت حكمة ربنا عز وجل بأن حرم علينا أكل المنخقة ،

والموقوذة^(١) ، والمتردية^(٢) ، والنطيحة^(٣) ، وما أَكَلَ السَّبْعُ ، ففي هذه الحالات كلها يبقى الدَّمُ في بدن الدابة ، والدَّمُ فيه كلُّ عواملِ المَرَضِ ، وعواملِ التفسخِ ، وعواملِ التصلبِ ، وعواملِ الانتفاخِ ، فلا بدَّ أن يكون اللحمُ مذبوَحاً بالطريقة الشرعية .

لكن النبي عليه الصلاة والسلام استثنى السمك من شرط إنهارِ الدَّمِ ، وقد يسأل سائلٌ : ما بال السمك نأكله ميتاً ؟ وهل دَمُ السمك غير دم الدواب الأخرى ؟ يجيب العلماء عن هذا التساؤل بأن للسمك ميزة أودعها الله فيه ، وهي أن السمكة إذا اصطيدت ، وخرجت من الماء ، وفارقت الحياة يتجمّع دُمها كله في غلاصمها ، وكأنها ذُبَحَتْ ، لذلك فانت تميّز السمك الذي صيد حديثاً من القديم من غلاصمه ، فإذا كانت ممتلئةً بالدم الأحمر فإن السمك طازجٌ ، وإذا كانت الغلاصم ذات لون أزرق فقد مضى وقتٌ على صيدها ، لذلك استثنى النبي عليه الصلاة والسلام تناول السمك مما مات من الحيوانات ، وهذا من دلائل

(١) [المنخقة التي تختنق فتموت ، أو التي تموت في خناقها] ، تفسير الطبري (٦٨/٦) . . . والموقوذة ، يقال : وقده يقذه وقدأ إذا ضربه حتى أشرف على الهلاك . . . وعن قتادة في قوله والموقوذة : كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصا حتى إذا ماتت أكلوها] ، تفسير الطبري (٦٨ / ٦ - ٦٩) .

(٢) [المتردية هي التي تتردى من العلو إلى السفلى فتموت كان ذلك من جبل أو في بئر ونحوه وهي متفعلّة من الردى ، وهو الهلاك ، وسواء تردت بنفسها ، أو رداها غيرها] ، تفسير القرطبي (٤٩/٦) .

(٣) [النطيحة فعيلة بمعنى مفعولة ، وهي الشاة تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت قبل أن تُذَكَّى] ، تفسير القرطبي (٤٩/٦) .

نبوته ﷺ ، وهو لا ينطقُ عن الهوى ، فحينما أَمَرْنَا بهذه السُّنَن فلأنها تنطوي على حكمةٍ يكشفُ العلمُ شيئاً فشيئاً عن أبعادها ، وعن دقائقها ، وعن حُكْمَتِها .

* * *

مناسبات دينية

الإسراء والمعراج

لقد كان الإسراء والمعراج تكريماً عظيماً للنبي ﷺ ، ولكن بعد نجاح باهر في امتحانٍ صعبٍ ، فما هذا الامتحانُ الصعبُ الذي اجتازه النبي ﷺ حتى استحقَّ هذا التكريمَ الفريدَ ؟ إنه امتحانُ الطَّائِفِ .

إنَّ ما لاقاه النبي ﷺ من مختلف ألوانِ المِحْنِ ، ولا سيما ما رآه في ذهابه إلى الطائف ، كان من جُملة أعماله التبليغية للناس ، فكما أنَّ النبي ﷺ جاء يبلِّغنا العقيدةَ الصحيحةَ عن الكونِ وخالفه ، وعن الحياةِ وحقيقتها ، وعن الإنسانِ ورسالته ، وعن أحكامِ العباداتِ والمعاملاتِ ، وعن مكارمِ الأخلاقِ ، كذلك جاء ليبَلِّغَ الناسَ عن طريق السلوكِ العملي أنَّ اللهَ كَلَّفَهُم بالصبرِ والمصابرةَ ، والبذلِ والمثابرةَ ، فكما أنَّ النبي ﷺ علَّم الناسَ بأقواله ، كذلك علَّمهم بأفعاله ، وكما أنَّه قال للناس : « ... وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي ... »^(١) ، و : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، خُذُوا مَنَاسِكُكُمْ »^(٢) ، كذلك قال لهم بلسانِ حاله : اصبروا كما رأيتموني أصبر ، ونحن بأمسِّ الحاجةِ إلى هذا الدرسِ البليغِ .

ليس بينَ الصبرِ على الشدائدِ ، والتضرُّعِ إلى الله تعالى بالشكوى أو

(١) أخرجه البخاري عن مالك بن الحوريث (٦٠٥) .

(٢) أخرجه النسائي عن جابر بن عبد الله (٤٠١٦) .

الدعاء أي تعارض أو تناقض ، فالشكوى إلى الله تعالى تعبّد ، وأي أنواع التعبّد ؟ ، إنه أعلاها ، قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] .

إن الضراعة له ، والتذلل على بابه عز وجل يُلبس العبد جلباب العبودية ، ولقد علّمنا النبي ﷺ في حياته كلاً الأمرين ، فكان بصبره الشديد على المصائب والمحن يعلمنا أنه على المسلمين أن يصبروا ، وأن يصابروا ، وكان بطول دعائه وتضرّعه ، والتجائه إلى الله تعالى يعلمنا أن هذا من لوازم العبودية لله عز وجل ، وهل من دعاء أكثر دلالة على عبودية النبي ﷺ من هذا الدعاء الذي دعا به في الطائف ، إذ قال : « اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو أن تحلل علي سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

حقيقة خطيرة ، وهي أن النفس الإنسانية مجبولة في أصل فطرتها على الإحساس والشعور ، الشعور بلذة النعيم ، والشعور بألم العذاب ، فهي مجبولة على الركون إلى الأول ، والفزع من الثاني ، وحينما يوطن

(١) مجمع الزوائد (٦ / ٣٥) ، وقال : أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر .

الإنسان نفسه على تحمُّل كلِّ أنواع الضُّرِّ والعذابِ ، وهو يؤدِّي رسالة ربِّه ، مبتغياً بهذا وجهه ورضوانه ، لا يعني هذا أنه لا يتألَّم للضرِّ ، ولا يستريحُ للنعيم ، فالنفسُ مهما تَسَامَتْ لا تخرجُ عن دائرةِ بشريّتها ، ولكن حينما يفضِّل الإنسانُ الضرَّ مهما تكن آلامه ، على النعيمِ مهما تكن لذائذه إرضاءً لوجهِ ربِّه ، وأداءً للرسالة التي أُنيطت به ، عندئذٍ يستحقُّ جنةَ ربِّه إلى أبد الآبدين ، حيثُ يجدُ فيها ما لا عينُ رأت ، ولا أذنُ سمعت ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ ، ولولا أنَّ النبيَّ ﷺ بشرٌ تجري عليه كلُّ خصائصِ البشرِ لَمَا كَانَ سيِّدَ البشرِ .

حينما يتأمل الإنسانُ في سيرة النبي ﷺ مع قومه يجدُ أنه لاقى من أذى قومه ما لا يتحمَّله بشرٌ على الإطلاق ، بيدَ أنَّ الإنسانَ يجدُ أيضاً مع كلِّ نوعٍ من أنواع الأذى ، ومع كلِّ مرحلةٍ من مراحلهِ ردّاً إلهيًّا على هذا الإيذاء ، مواساةً ، وتبشيراً ، وتكريماً ، وتأييداً ، حتى لا يتجمَّع في النفسِ من عواملِ التألُّم والضَّجرِ ما قد يُدخلُ إليها اليأسَ ، وما الإسراءُ والمعراجُ في حقيقته إلا ردُّ إلهيٌّ تكريماً له بعد تلك المِحنةِ القاسيةِ التي كشفت حقيقةَ الحرصِ النبويِّ على هدايةِ الخلقِ ، وكشفت صبره الجميلَ على إيذائهم ، وموقفه النبيلَ والرحيمَ منهم ، حينما عَرَضَ عليه مَلَكُ الجبالِ أن يُطبَّقَ عليهم الجبلَينِ ، وهو الردُّ الإلهيُّ على دعائه في الطائف ، ولعل هذا معنى قوله تعالى في آخر آية الإسراء :

﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] ، أي : سمع الله دعاءك

يا محمدُ في الطائف ، وعَلِمَ منك حرصَكَ على هدايةِ قومِكَ الذين بالغوا في الإساءةِ إليك ، هذا هو الدرسُ الأولُ .

أما الدرسُ الثاني : فعندما سأله زيدُ بنُ حارثةَ متعجباً :
يا رسولَ الله ، كيفَ تعودُ إلى مكة ، وقد أخرجتَكَ ؟ فأجابه النبي ﷺ :
« يا زيدُ ، إنَّ اللهَ جاعِلٌ لِمَا تَرى فرجاً ومخرجاً ، وإنَّ اللهَ ناصرٌ دينه ،
ومُظهِرٌ نبيه » ، فما كان اللهُ لِيَتَخَلَّى عن دينه ، ولا عن نبيِّه ﷺ ، ولا عن
المؤمنين ، مهما بدتْ هجمةُ أعداءِ الدينِ قويَّةً ، وشاملةً ، فالباطلُ عقيدةٌ
أو قوةٌ إلى انهيارٍ محقَّقٍ ، ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ
زَهُوْقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

ومنَ ظنَّ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا ينصرُ رسله ، ولا يُنصِّمُ أمره ،
ولا يؤيِّدُ جنده ، ولا يعليهم ، ولا يظهرهم على أعدائهم ، وأنه لا ينصرُ
دينه وكتابه ، منَ ظنَّ ذلك فقد ظنَّ باللهِ ظنَّ السَّوءِ ، ونسبَه إلى ما لا يليقُ
بكماله وجلاله ، وأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، فإنَّ عزَّته
وحِكمته تأبى ذلك ، ويأبى أن يذلَّ أوليائه ، ويأبى أن يكونَ النصرُ
المستقرُّ ، والظفرُ الدائمُ لأعدائه ، فمنَ ظنَّ به ذلك فما عرَفَه ، ولا عَرَفَ
أسماءه ، ولا عَرَفَ صفاته .

ليس القرآنُ كتابُ تاريخٍ ، يروي سيرةَ الأنبياء والمرسلين وقصصَ
الأقوام السابقين فحسبُ ، ولكنه كتابُ هدايةٍ وتعليمٍ ، يقصُّ علينا قصصَ
الأنبياء والمرسلين ، وهم قِمَمُ البشر ، لِنَهْتَدِيَ بدعوتهم ، ونقتديَ
بسيرتهم ، ويروي لنا أيضاً قصصَ الأممِ السابقة الذين كذبوا أنبياءهم ،
وعاندوا رُسُلهم ، واعتَدَوْا على بني جلدتهم ، فاستَحَقُّوا غَضَبَ الله ،
فأهلكهم اللهُ بذُنُوبِهِمْ ، وذاقوا وبالَ أمرِهِمْ ، لنجتنبَ أسبابَ هلاكِهِمْ
ودمارِهِمْ .

ماذا تعلّمنا الإسراء والمعراج ؟ إنَّ دروسَ الإسراء والمعراج تعلّمنا أنَّ لِلْمَحْنِ والمصائبِ حكماً جليلاً ، منها أنَّها تسوقُ أصحابها إلى بابِ الله تعالى ، وتلبّسُهم رداءَ العبودية ، وتلجّئُهم إلى طلبِ العونِ مِنَ الله ، إنها تعلّمنا أنَّه لا ينبغي أن تصدّنا المحنُّ والعقباتُ عن متابعة السيرِ في استقامة وثبات ، إنها تعلّمنا أنَّه ما دام الله هو الأمر فلا شكَّ أنَّه هو الضامنُ والحافظُ والناصرُ ، إنَّها تعلّمنا أنَّه لولا الجهادُ والصبرُ ما عُيدَ الله في الأرض ، ولا انتشرَ الإسلامُ في الخافقين ، ولا كُنّا اليومَ نوحّدُ الله ، ونسبّحه ، وندعو إليه ، إنها تعلّمنا أن اليسرَ مع العسرِ ، وأنَّ النصرَ مع الصبرِ ، وأنَّ الفرجَ مع الكربِ ، إنها تعلّمنا أيضاً أنَّه لا يُعَدُّ المسلمُ مسلماً إلا إذا انتمى إلى مجموعِ المسلمين ، وحملَ همومهم ، وساهمَ بشكلٍ أو بآخرَ في ردِّ العدوانِ عنهم ، فعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاخُمِهِمْ وَتَوَادُّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى » (١) ، وقال ﷺ أيضاً : « الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ نَصَحَةٌ مُتَوَادُّونَ ، وَإِنْ افْتَرَقَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ، وَالْفَجَرَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَشَّةٌ مُتَخَازِلُونَ ، وَإِنْ اجْتَمَعَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ » (٢) .

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

(٢) الترغيب والترهيب (٢٧٢٨) ، وقال : رواه ابن حبان في كتاب التوبخ ، وأخرجه البيهقي في الشعب عن أنس (٧٦٤٨) ، رواية أنس في الترغيب والترهيب موضوعة ولا أدري إن كان للحديث طريق صحيحة .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَشَبَكَ أَصَابِعُهُ » (١) .

وَعَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأَ دِمَاؤُهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ، يَسْعَى بِدِمَتِهِمْ أَذْنَاهُمْ ، لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ ، وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ » (٢) .

وَمِنْ أُرْوَعِ الْأَحَادِيثِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « إِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ ، لَا يَسَالِمُ الْمُؤْمِنُ دُونَ الْمُؤْمِنِ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سِوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ » (٣) .

هذه نقطة مهمة جداً في قانون المسلمين الدولي ، إن سِلْمَ المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمنٌ دون مؤمنٍ في قتالٍ في سبيل الله ، إلا على سِوَاءٍ وعدلٍ بينهم ، فلا يحقُّ لفئةٍ أن تصطَلَحَ مع عدوٍّ بشكلٍ انفراديٍّ . هذا وصفٌ دقيقٌ من قِبَلِ مبعوثِ العناية الإلهية لما هو عليه المؤمنون ، أو لما ينبغي أن يكونوا عليه في شتى أقطارهم ، وديارهم ، من تعاونٍ وتناصرٍ وتعاطفٍ ، فهُم كالجسد الواحد ، نصحةٌ متواذون ، وهم بنيانٌ واحدٌ يشدُّ بعضُهُ بعضاً ، هم يدُّ على مَنْ سِوَاهُمْ ، سِلْمُهُمْ واحدةٌ ، وحرْبُهُمْ واحدةٌ ، هذا ما ينبغي أن يكونَ عليه المؤمنون في شتى أقطارهم وأمصارهم .

(١) البخاري (٤٦٧) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥١) ، والنسائي (٨٦٨١) ، وابن ماجه (٢٦٨٤) ، وغيرهم .

(٣) سيرة ابن هشام (٣/٣٣) .

أوصاف المؤمنين في الكتاب والسنة مقاييس دقيقة ، نقيس بها إيماننا ، أو هي أهداف نضعها نصب أعيننا ، ينبغي أن نسعى إليها ، فلا بد للمسلم الصادق أن يحمل هموم المسلمين في مختلف أصقاعهم وأمصارهم ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم ، بل إن تطلع المسلم إلى أن يكون المسلمون في شتى أقطارهم أعزة كرماء ، يملكون أمرهم ومصيرهم لهي علامة من علامات إيمانه ، وإن حرص المسلم على أن يكون المسلمون متعاونين متناصرين لهي علامة من علامات إخلاصه ، فالفردية طبع ، والتعاون الاجتماعي تكليف ، والإنسان المؤمن يتعاون مع إخوته المؤمنين بقدر طاعته لله ، وينسلخ منهم ، ويؤكد فرديته بقدر تفلته من منهج الله ، وحينما ينهى الإنسان نفسه عن خصائص طبعه التي هي في الأصل تناقض التكليف ليكون هذا التناقض مع التكليف ثمناً للجنة ، وحينما ينهى الإنسان نفسه عن خصائص طبعه ، ويحملها على طاعة ربه يكون حينئذ قد أخذ بسبب من أسباب الجنة :

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

[النازعات : ٤١] ، وقال سبحانه :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور : ٥٥] ، قال بعضهم : فإن لم يمكنهم فمعنى ذلك أن دينهم لم يرتضه لهم ، لأنه سبحانه قال :

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور :

٥٥] ، ولقد أنجز الله وعده للمؤمنين يوم عبودته حق العبادة ، فأطاعوه ولم

يعصوه ، وشكروه ولم يكفروه ، وذكروه ولم ينسوه ، فجعل الله منهم قادة للأمم ، بعد أن كانوا رعاة للغنم ، ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ قال تعالى :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴾

[مريم : ٥٩]

ومن دلائل نبوة النبي ﷺ أنه وصفَ هذا الغي الذي توعد الله به المقصرين ، وبين أسبابه ، وكأنه ﷺ بيننا يرى ما نرى ، ويسمع ما نسمع ، فعن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا ، وكراهية الموت » (١) .

هذا وصف دقيق للغي الذي توعد الله به المقصرين ، فالأمم اليوم يدعوا بعضها بعضاً لمقاتلة المسلمين ، وكسر شوكتهم ، وسلب ثرواتهم وأخذ أموالهم ، واغتصاب أراضيهم - كما تداعى الأكلة إلى قصعتها - يأخذون منها بلا مانع ، ولا منازع ، فيأكلونها عفواً وصفاً ، يأخذون ما في أيديهم بلا تعب ينالهم ، أو ضرر يلحقهم ، أو بأس يمنعهم ، فانظروا إلى هذا الوهن الذي هو سرُّ الضعف ، فالناس الشاردون الغافلون

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٢٢٤٥٠) عن ثوبان .

عن الله يعيشون عبيداً لديّناهم ، عشاقاً لأوضاعهم الرّتيبة ، تحرّكهم شهواتهم وشبهاتهم ، تسيّرهم رغائبهم ونزواتهم ، وهذا هو الوهن ، وحينما يكره الإنسان لقاء ربّه ، ويخاف الموت كامناً في كلّ اتّجاه ، فيفزع من الهمس ، ويألم من اللمس ، يؤثّر حياة يموت فيها كلّ يوم موتات ، على حياة كريمة عزيزة في كنف ربّ الأرض والسموات ، فالعجب كلّ العجب أن يكون النور بين أيديهم ، والرائد نصب أعينهم ، ثم هم يلحقون لاهفين بركاب الأمم الشاردة المنحلة في نهجهم وسلوكهم ، فلا يستطيعون رشاداً ، ولا يهتدون سبيلاً ، وحالهم :

كَالْعِيسِ^(١) فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولٌ

ومن دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن خلال إعلام الله له أنّه ذكر ما يصيب المسلمين في آخر الزمان من بأساء وضراء بسبب إعراضهم عن ربّهم ، وتقصيرهم في طاعتهم له ، فعن عبد الله بن عمر قال : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُذَرَّكُمْ هُنَّ ؛ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَصَّتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا^(٢) ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمُثُونَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ

(١) [العيس هي الإبل البيض مع شقرة يسيرة] ، (لسان العرب ، مادة عيس) ، وانظر (النهاية في غريب الحديث) (٣/ ٣٢٩) .

(٢) انظر الآن إلى مرض نقص المناعة (الإيدز) ، والسرطان ، وغيرها من الأمراض المستعصية ، نسأل الله السلامة والعافية .

أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَذُوبًا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمُ أَيْمَتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ » (١) .

إنها المعاصي والذنوب ، والمجاهرة بالفواحش والعيوب ، والتعرض لسخطِ علام الغيوب ، فإنه ما نزلَ بلاءٌ إلا بذنبٍ ، ولا رُفِعَ إلا بتوبةٍ ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، وإنه ما حصلَ البلاءُ العامُّ في بعضِ البلادِ ، ولا وقعتِ المصائبُ المتنوعةُ ، والكوارثُ المروعةُ ، ولا فَشَتِ الأمراضُ المستعصيةُ التي لم يكن لها ذِكْرٌ في ماضينا ، ولا حُبِسَ القطرُ من السماءِ إلا نتيجةَ الإعراضِ عن طاعةِ الله عز وجل ، وارتكابِ المعاصي ، والمجاهرة بالمنكراتِ ، وكلِّما قلَّ ماءُ الحياءِ قلَّ ماءُ السماءِ .

* * *

شروط النصر

إنهم يصفون المالِكَ للأرضِ الطريدَ المشردَّ إرهابياً لا حقَّ له ، والمتمسكَ بدينه القويمِ أصولياً ، ويجعلون اللصَّ الغالبَ على المقدساتِ ربَّ بيتٍ محترماً ، يملكون الأرضَ لا بالإحياءِ الشرعيِّ ، ولكن بالإماتةِ الجماعيةِ ، والقهرِ النفسيِّ ، قال تعالى :

(١) ابن ماجه (٤٠١٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٥) .

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَىهَا أُنْزِلَ أَتْرَافًا لَيَالٍ أَوْ هَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

هؤلاء المستكبرون ربما طالبوا الشعوب المستضعفة أن تلعق جراحها ، وأن تبتسم للغاصب ، وأن تعدَّ حقها باطلاً ، وباطل غيرها حقاً ، يقول ﷺ : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ ، وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ ؟ قَالُوا : وَكَأَيُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا ، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا ؟ - تَبَدَّلَتِ الْقِيَمُ - قَالُوا : وَكَأَيُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمُ بِالْمُنْكَرِ ، وَنَهَيْتُمُ عَنِ الْمَعْرُوفِ ؟ قَالُوا : وَكَأَيُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ » (١) .

هذا النصرُ المؤزرُ العزيزُ ما سرُّه ؟ من يصنعه ؟ ما العاملُ الحاسمُ فيه ؟ إنه الله عز وجل ، وهذا استناداً إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، وقوله :

﴿ إِنْ يَصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] ، أي إذا كان الله معك

فمَنْ عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمَنْ معك ؟

أليس لهذا النصر الذي هو من عند الله قواعدٌ ؟ أليست له شروطٌ ؟

أليس له ثمنٌ ؟ إن هذه القواعد ، وتلك الشروط ، وهذا الثمن يتلخّص بكلمتين اثنتين ؛ الإيمان والإعداد ، فأما الإيمان فقد قال تعالى :

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧] ، وأما الإعدادُ فقال عز وجل :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فالإيمان الحقُّ هو الذي يحيلُ صاحبه على طاعة الله والعمل الصالح ، والإيمان وحده شرطٌ لازمٌ غيرُ كافٍ . والشيء الثاني هو الإعدادُ ، والإعداد هو الذي يستنفذُ الطاقات ، وهو أيضاً وحده شرطٌ لازمٌ غيرُ كافٍ ، فلا بدَّ من الإيمان الحقِّ ، والإعداد الصحيح .

الآن دققوا في هذا الاستنباط من قوله عز وجل :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، إن الله جلا في غلّاه لم يكلّفنا أن نعدَّ القوّة المكافئة لأعدائنا ، ولكن كلفنا أن نعدَّ القوّة المتاحة ، وهذا من رحمة الله بنا ، وعلى الله أن يُنجِزَ وعده بالنصر ، كما أن من الواجب علينا أن نبحت في كلّ مظنةٍ ضعفٍ عن سببٍ قوّةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أخلصَ المسلمون في طلب ذلك لوجدوه ، ولصارَ الضعفُ قوّةً ، لأنَّ الضعفَ ينطوي على قوّةٍ مستورةٍ يؤيّدُها الله بحفظه ورعايته ، فإذا قوّة الضعفِ تهدّ الجبال ، وتدكُّ الحصون ، قال تعالى :

﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [الفتح : ٤] .

إن الحديث عن القوّة النابعة من الضعف ليس دعوةً إلى الرضى بالضعف ، أو السكوت عنه ، بل هو دعوةٌ لاستشعارِ القوّة حتى في حالة

الضعف ، وربما صَحَّتْ الأجسامُ بالعللِ ، فينتزعُ المسلمون مِن هذا الضعفِ قوَّةَ تحيلٍ قوَّةَ عدوهم ضعفاً ، وينصرُّهم اللهُ نصراً مميّناً ، قال تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص : ٥] .

هذه الحقائقُ المستنبطةُ مِنَ القرآنِ الكريمِ منهجُ اللهِ لخلقِهِ ، وتلك التوجيهاتُ التفصيليةُ والتوضيحيةُ التي جاءتْ بها سنةُ نبينا محمد ﷺ ، وهذه المواقفُ الأخلاقيةُ الرائعةُ والحكيمةُ ، التي وقفَها المصطفى ﷺ أسوتنا وقدوتنا ، وتلك البطولاتُ الفدَّةُ التي ظهرتْ مِنْ أصحابِهِ الكرامِ ، أَمَناءُ دعوته ، وقادةِ ألوِيته ، هذه كُلُّها نضعُها بين أيدي أبنائِ أمتِنَا العربيةِ والإسلاميةِ ، وهي تخوضُ المعاركَ تَلَوَّ المعاركِ مع أعدائِها ، أعداءِ الحقِّ والخيرِ ، ولأنَّ البكاءَ وحده لا يحيي الميْت ، ولأنَّ الأسفَ وحده لا يردُّ الفائتَ ، ولأنَّ الحزنَ وحده لا يدفعُ المصيبةَ ، ولكنَّ العملَ مفتاحُ النجاحِ ، والصدقُ والإخلاصُ مع متابعةِ النبي ﷺ هو سُلْمُ الفلاحِ ، قال تعالى :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

في الإسلامِ تشريعٌ ومعاملاتٌ ، ولكنَّ المقصودَ منها تنظيمُ حياةِ الناسِ ، حتَّى يستريحُوا ويبرؤوا مِنْ الصراعِ على المتاعِ الأدنى ، ويتفرَّغوا لمعرفةِ اللهِ تعالى ، وعبادتهِ ، والسعيِ لمرضاتهِ ، وفي الإسلامِ حَتٌّ على المشيِّ في مناكبِ الأرضِ ، والأكلِ مِنْ طيباتِها ، ليكونَ العملُ

أساسَ الابتلاء ، والنعمة وسيلة لمعرفة المنعم ، وأداء حقه وشكره ، وفي الإسلام جهادٌ و قتالٌ للأعداء ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدينُ لله ، لقد ضَمَّنَ القرآنُ الكريمُ الجهادَ معنى إنسانياً نبيلاً وفريداً ، وحدَّدَ له مقاصده العليا ، مُنَزَّهَةً عن الهوى ، والأغراض المادية العاجلة ، والمطامع الشخصية والعنصرية ، من شهوة العلوِّ في الأرض ، أو التوسُّع فيها ، لتكون أمة هي أَرَبَى من أمة ، وجرَّد الإسلامُ الجهادَ وسيلة رئيسة لترسيخ القيم والمثل العليا في الوجود البشري ، والحفاظ عليها ، وإنَّ الإسلامَ لم يجعل الجهادَ مفروضاً في أعلى مراتب الفرضية ، وأعظمها مثوبة من أجل الدفاع عن الوجود ، أو الحفاظ على مقوماته فحسب ، بل أولاهُ عنايةً فائقةً ، إذ جعله سنداً مَكِيناً لدعوته التي تسعى إلى نشر رسالة السماء إلى الأرض ، لتحقيق خلافة الإنسان فيها عن طريق التمسُّك بمبادئ الحق والخير ، وقيم العدل والإحسان ، فجعل الإسلامُ الجهادَ خالصاً لوجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، وإنَّ مرضاته لا تتم إلا إذا سادتْ تعاليمه ، وَعَلَتْ في الأرض مثُله ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدينُ لله ، ولا أدلَّ على صحة هذه المبادئ ، وتلك المفاهيم من هذه السعادة التي تملأُ جوانح الإنسان حينما يكتشف سرَّ وجوده ، وجوهر رسالته ، وينطلق في طريق الهدف الكبير الذي خُلِقَ من أجله .

المسجد الأقصى

المسجد الأقصى موطنُ أبيكم إبراهيمَ ، ومتعبدُ الأنبياء السابقين ، ومَسْرَى خاتمِ النبيين ، المسجدُ الذي نَوَّهَ اللهُ بِهِ في الآياتِ المفصلةِ ، وتُليَّتْ فيه الكتبُ المنزلةُ ، أُولَى القِبْلَتَيْنِ ، وثانيي المسجدين ، وثالثُ الحَرَمَيْنِ الشريفَيْنِ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تُشَدُّ الرَّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى » (١) .

إنَّ المسجدَ الْأَقْصَى الذي بَارَكَ اللهُ حَوْلَهُ بركاتِ الدينِ والدنيا ، والذي أَضْحَى بالإسراءِ إِلَيْهِ والمعراجِ مِنْهُ رمزاً للشخصيةِ المعنويةِ للمسلمين ، هذا المسجدُ الذي وردَ ذكرُهُ في القرآنِ الكريمِ ، مسجدُ الصخرةِ الذي تَمَّ مِنْهَا عُرُوجُ النَّبِيِّ ﷺ إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ، قال تعالى :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۖ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۚ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۚ ﴾

[النجم : ٨ - ٩] ، يتعرَّضُ اليومَ إلى محاولةِ تهويده ، وجعله عاصمةً أبديةً للكيانِ الصهيوني مع القدس ، وفي وصفِ القرآنِ الكريمِ المسجدَ الْأَقْصَى بالبركةِ إيماءً قويًّا للعربِ حَمَلَةَ رسالةِ الإسلامِ ، والمسلمين في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها على أَنَّهُ المفروضُ عليهم الحفاظُ عليه ، وقد بَارَكَ اللهُ حَوْلَهُ أَنْ يحفظَ له هذه البركةُ ، ومتى اعتدَّى عليه فعليهم أَنْ يصطلحوا مع الله أولاً ، ويُعدُّوا لعدوِّهم ما يستطيعون مِنْ قوةٍ ثانياً ، كي يحرِّروه ،

(١) البخاري (١١٣٢) ، ومسلم (١٣٩٧) .

ويحرّروا ما حوله من أيدي الغزاة المغتصبين ، ويُخَيِّوا بتحريره سيرة فاتحيه ؛ عمر بن الخطاب ، وصالح الدين الأيوبي ، ويومئذ بفرح المؤمنين بنصر الله .

وَأَنْتِ يَا مَدِينَةَ الْقُدْسِ ، إِنَّكَ عَبَقُ^(١) التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ ، إِنَّكَ أَرْجُحُ الْفَوَاحِ ، شَذَا الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَةِ ، أَضَاءَ أَرْجَاءِكَ قَبْسُ الْإِيمَانِ ، وَنَبَارِكُ ثَرَاكِ بِمَسْرِ سَيِّدِ الْأَنَامِ ، تَمْتَلِئُ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ شَجًّا وَحَزْنًا ، وَتَفِيضُ الدَّمُوعُ أَسَى وَحَسْرَةً ، وَهِيَ تَرَى مِثَاتِ الْحَوَاجِزِ تَحُولُ دُونَهَا وَدُونَ الْوُصُولِ إِلَى أَوَّلَى الْقِبْلَتَيْنِ ، وَثَالِثِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، إِلَى مَسْرِ نَوْرِ الْهَدَايَةِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَمْ يَتَوَقَّ الْمُسْلِمُ إِلَى الصَّلَاةِ خَشُوعًا لِلَّهِ فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، لَكِنَّ الْمَشْهَدَ مَأْسَاوِيًّا ، وَالْمَصِيبَ جَلَلًا ، فَالْقُدْسُ مَا زَالَتْ أَسِيرَةُ الصَّهْيُونِيَّةِ الْغَادِرَةِ ، وَمَا زَالَتْ مَهْدَدَةٌ بِالْتَهْوِيدِ ، وَبَطْمَسِ مَعَالِمِهَا الْإِسْلَامِيَّةِ ، بَلْ وَأَدْهَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الصَّهْيَانِيَّةَ خَطَّطُوا لِهَدْمِ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ، وَكَمْ تَعَرَّضَ هَذَا الْمَسْجِدُ لِمَحَاوِلَاتِ الْحَرَقِ وَالْهَدْمِ ، كَمْ هِيَ خَطِيرَةُ تِلْكَ الْأَنْفَاقِ الَّتِي شَقَّهَا الْأَعْدَاءُ تَحْتَ الْمَسْجِدِ فَعَرَّتْ أَسَاسَهُ ، وَعَرَّضَتْهَا لِلْخَطَرِ ، كَمْ هُوَ خَطِيرٌ مَخْطُطُ الْتَهْوِيدِ .

حِينَمَا تُسَلِّبُ أَرْضُ شَعْبٍ ، وَتُنْهَبُ ثُرَوَاتُهُ ، وَتُتْهَكُ حُرْمَاتُهُ ، وَتُدَسَّسُ مَقْدَسَاتُهُ ، وَتَدَاسُ كِرَامَتُهُ ، وَتُقْهَرُ إِرَادَتُهُ ، وَتُفْسَدُ عَقَائِدُهُ ،

(١) رَجُلٌ عَبَقٌ وَامْرَأَةٌ عَبَقَةٌ إِذَا تَطَيَّبَ وَتَعَلَّقَ بِهِ الطَّيِّبُ ، فَلَا يَذْهَبُ عَنْهُ رِيحُهُ أَبَامًا [، لِسَانُ الْعَرَبِ ، مَادَّةُ عَبَقٍ (، [الْعَبَقُ مُصْدَرُ عَبَقَ بِهِ الطَّيِّبُ ، أَي لَزِقَ بِهِ] ، (سَخْتَارِ الصَّحَاحِ ، مَادَّةُ عَبَقٍ) .

وتُفَرِّغَ قِيَمُهُ ، ويزوّر تاريخه ، ويُحْمَلُ على الفساد والإفساد ، وتُمارَسُ عليه ألوانُ التجهيل ، والتجويع ، والتعذيب على يد أعدائه ، أعداء الله ، أعداء الحق ، أعداء الخير ، أعداء الحياة ، عندئذ لا بدّ لهذا الشعب أن يتحرّك ليسترّدَّ حقّه في الحياة الحرّة الكريمة ، هذه الحركة لا يمكن أن تُسمّى إرهاباً ، ولا تخريباً ، ولا انتحاراً .

وأنتم أيها الثائرون في الأراضي المحتلة بوركت سواعدكم ، وسَلِمَتْ أيديكم ، لقد كنتم رمزَ البذل والعطاء ، ولقد ضربتم المثل الأعلى في التضحية والإباء ، لقد تحركت فيكم معاني العزة والإباء ، فأقلقتُم مضاجع الصهاينة الأعداء ، ولكن استمعوا معي إلى وصية سيّدنا عمر بن الخطاب لسيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ، إذ يقول : « أما بعد ؛ فإني أمرك ومَن معك مِنَ الأجناد بتقوى الله عز وجل ، فإنّ تقوى الله أفضلُ العُدّة على العدو ، وأقوى المكيّدة في الحرب ، وأمرك ومَن معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً مِنَ المعاصي ، فإنها أضرُّ عليكم من عدوكم ، إنما تُنصرون بمعصية عدوكم لله ، فإن استويتم في المعصية كان لهم الفضلُ عليكم بالقوة » .



خواطر إيمانية حول ليلة القدر

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وكرمه أعظم تكريم ، سخر له الكون تسخير تعريف وتفضيل ، وهبه نعمة العقل ، وفطره فطرة تنزع إلى الكمال ، وأودع فيه الشهوات ليرقى بها صابراً وشاكراً إلى رب الأرض والسموات ، ومنحه حرية الاختيار ليثمن عمله ، وأنزل له كتاباً أحل له فيه الطيبات ، وحرّم عليه الخبائث ، كل ذلك ليعرف ربه فيعبده ، ويسعد بعبادته في الدنيا والآخرة .

إنّ الحقّ لا بس خلق السماوات والأرض ، والحق هو الشيء الثابت والهادف ، بخلاف الباطل ، الذي هو الشيء الزائل والعاث ، وإنّ الحق دائرة تتقاطع فيها أربعة خطوط : خط النقل الصحيح ، وخط العقل الصريح ، وخط الفطرة السليمة ، وخط الواقع الموضوعي .

فالنقل الصحيح كلامه سبحانه وتعالى ، مع بيان المعصوم ﷺ .

والعقل الصريح ميزان أودعه الله في الإنسان ، ليتعرف من خلاله إلى الواحد الديان ، قال تعالى :

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن : ٧] .

والفطرة ميزان نفسي متطابق مع منهج الله ، وهو مركز في أصل كيان

الإنسان ، ليكتشف ذاتياً من خلاله أو من خلالها خطؤه ، قال تعالى :

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾ [النفس : ٧-٨] .

والواقع خلق الله ، تحكمه القوانين التي فَنَّها الله جلّ جلاله ، فإذا كانت هذه الفروع الأربعة من أصل واحد فهي متطابقة فيما بينها .

إن ليلة القدر أفضل ليالي العمر ، لقول الله عز وجل :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ

شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [القدر : ١-٣] ، أي : هي خير من ألف شهر ، أو هي خير من ثلاثة وثمانين عاماً ، وهو عمرٌ مديدٌ يعبدُ فيه الإنسان ربّه تقليداً من دون علم ، أو يعمل فيه عملاً عشوائياً دون انضباطٍ ولا إخلاصٍ ، لذلك قال ﷺ : « فَقِيَةٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ ^(١) » ، لأن مقاومة العابد هشة ، فهو يضعفُ أمام شهواته إذ يخرق استقامته لأدنى ضغطٍ ، أو لأقل إغراء .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ^(٢) » .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، مَا أَقُولُ فِيهَا ؟ قَالَ : قُولِي : « اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌ كَرِيمٌ نُحِبُّ الْعُفْوَ فَاغْفِرْ عَنِّي » ^(٣) .

(١) الترمذي (٢٦٨١) ، ابن ماجه (٢٢٢) ، واللفظ له ، عن ابن عباس .

(٢) البخاري (١٨٠٢) ، مسلم (٧٦٠) .

(٣) الترمذي (٣٥١٣) ، ابن ماجه (٣٨٥٠) ، النسائي في السنن الكبرى (٧٧١٢) ، أحمد (٢٥٤٢٣) .

تنطلق الخواطرُ الإيمانيةُ حولَ ليلةِ القدرِ من قوله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينَهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] . وتنطلق الخواطرُ الإيمانيةُ أيضاً من الآياتِ الأولى التي نزلتْ أوَّلَ ما نزلتْ من القرآن الكريم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ١-٥] . إذا ينبغي أن نقدّر الله حقَّ قدره في ليلةِ القدرِ ، وذلك عن طريق العلم ، وقد عبّر الله جلّ جلاله عن العلم بمفتاحه ، وهو فعل ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، وفي اللغة أن الفعل إذا حُذِفَ مفعوله أُطلقَ معناه ، فنقرأ في كتابِ الله ، أو في بيانِ المعصوم ﷺ ، أو في كتابِ الكونِ ، فالكونُ قرآنٌ صامتٌ ، والقرآنُ كونٌ ناطقٌ ، والنبيُّ ﷺ قرآنٌ يمشي ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، وهذه أوَّلُ آيةٍ نزلتْ في القرآن الكريم .

ولكنَّ الأصلَ الأوَّلَ في هذه القراءة : أن تكونَ قراءةً إيمانيةً ، تنتهي إلى الإيمانِ باللهِ موجوداً وواحداً ، وكاملاً خالقاً ، ومربياً ومسيّراً ، قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .

وهذه القراءةُ مقدورٌ عليها ، بدليل أنها تنطلقُ من أقربِ شيءٍ إلى الإنسانِ ، من نفسه التي بين جنبيه ، قال تعالى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذريات : ٢١] .

والأصل الثاني لهذه القراءة : أن تكون قراءة شكرٍ وعرفانٍ ، أساسها شكرُ المنعم على نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، ونعمة الهدى والرشاد ، لقد خلق الله الإنسان لِيُسَعِدَهُ في الدنيا والآخرة .

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود : ١١٩] .

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾ ،
قراءة إيمانية ، وقراءة شكرٍ وعرفانٍ .

لقد سخرَ الله الكونَ لهذا الإنسانِ تسخيرَ تعريفٍ وتكريمٍ ، أما تسخيرُ التعريفِ فكلُّ ما في السماواتِ وما في الأرضِ ينطقُ بوجودِ الله ووحدانيته وكماله ، ويشفُّ عن أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، وهو مجالُ رَحْبٍ للتفكيرِ في خلقِ السماواتِ الأرضِ ، قال تعالى :

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧﴾﴾ . [الزمر : ٦٧] . أي : إن تقديرَ الله حقَّ قدره طريقه التفكيرُ في خلقِ السماواتِ والأرضِ ، لذلك قال تعالى :

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الباقية : ١٣] . هذا تسخيرُ التعريفِ ، فماذا عن تسخيرِ التكريمِ ؟

أما تسخيرُ التكريمِ فقد قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء : ٧٠] .

إِنَّ وَاجِبَ الْإِنْسَانِ تَجَاةَ تَسْخِيرِ التَّعْرِيفِ أَنْ يُؤْمَنَ ، وَإِنَّ وَاجِبَهُ تَجَاةَ تَسْخِيرِ التَّكْرِيمِ أَنْ يُشْكَرَ ، فَالْإِنْسَانُ إِذَا آمَنَ وَشَكَرَ فَقَدْ حَقَّقَ الْغَايَةَ مِنْ وَجُودِهِ ، لِذَلِكَ يَتَوَقَّفُ التَّأْدِيبُ وَالْمُعَالَجَةُ ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

فقد حَقَّقْتُمُ الْهَدَفَ مِنْ وَجُودِكُمْ ، إِذَا يَتَوَقَّفُ الْعِلَاجُ ، وَيَتَوَقَّفُ التَّأْدِيبُ .

أما قوله تعالى :

﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ٤] . وقوله سبحانه :

﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴾ ففي هذه الكلمات إشارة رائعة إلى نعمة البيان ، إلى نعمة انفرد بها الإنسان الذي ميَّزه الله بها ، حيث يقول : ﴿ الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١-٤] .

ففي جانبِ البيانِ الشفهي يعبرُ الإنسان عن أفكاره وعن مشاعره ، ويتعرَّف إلى أفكار الآخرين ومشاعرهم ، فيتعلَّم بالبيان ويعلم .

وفي جانبِ الكتابي تنتقل المعارف من إنسانٍ إلى آخر دون اتصال ، ومن جيلٍ إلى جيلٍ دون مجاورة ، ومن أمةٍ إلى أمةٍ دون معاصرة ، ثم تنتقل المعارف وتتراكم إلى خزائن العلم للإنسانية كلها ، هذا بفضل : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ .

أما الأصلُ الثالثُ لهذه القراءة : فهي قراءة الوحي والتلقي ، فمعرفة

طرفٍ من حقيقة الذات الإلهية ، وكمالها المطلق ، ومعرفة الماضي السحيق ، والمستقبل البعيد ، ومعرفة حقيقة الحياة الدنيا ، ومعرفة حقيقة الحياة الآخرة ، ومعرفة حقيقة الإنسان وسرّ وجوده ، وغاية وجوده ، ومعرفة حقيقة النبوات والرسالات ، ومعرفة حقيقة المنهج ودقائقه ، ومفردات التكليف ، وتفصيلها ، هذا كله يُؤخذ من الوحيين الكتاب والسنة ، وهذا مما يُستنبط من قوله تعالى :

﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وقوله عز وجل :

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

ولكنّ هذا الكلام لا يعني أنّ المسلمين اليوم يقرؤون هذه القراءات الثلاث ، ولو فعلوا ذلك لما استطاع أحد أن ينال منهم ، ولكن هذا من قبيل ما ينبغي أن يكون ، لا ما هو كائن .

أما إذا قرأ الإنسان ما في الكون قراءةً نفعيةً ليس غير ، وابتعد عن هذه القراءات الثلاث كان الطغيان ، وكان العدوان ، قال تعالى بعد هذه الآيات :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ﴿١﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٢﴾ [العلق : ٦-٧] .

وهذا طغيان العلم الذي يقود الإنسان الذي قرأ هذه القراءة النفعية بعيداً عن الإيمان والعرفان ، يقوده هذا العلم إلى القوة ، فيبني مجده على أنقاض الآخرين ، ويبني غناه على فقرهم ، ويبني قوّته على ضعفهم ، ويبني أمنه على خوفهم ، ويبني عزّه على ذلّهم ، ويبني حياته على

موتهم ، وبهذا يكون قد طغى بالعلم ، واستخدم العلم لغير ما أُريدَ منه .
وقد ضرب الله لنا مثلاً في القرآن الكريم قوم عاد كأمم وذج متكررين لهذا
الإنسان الذي قرأ قراءةً نفعيةً ، فطغى وبغى ، ونسي المبتدا والمتهى ،
ونسي الجبار الأعلى .

إن عاداً تفوقت في شتى الميادين ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي
الْبَلَدِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر : ٦-٨] .

وعادٌ تفوقت بالبناء والعمران ، والحصون والمنشآت ، قال تعالى :
﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ مَائَةٍ تَعْبَثُونَ ﴿١٢٩﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾
[الشعراء : ١٢٩] . وعادٌ تفوقت بالقوة العسكرية ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الشعراء : ١٣٠] .

وعادٌ تفوقت بالناحية العلمية ، قال تعالى :

﴿ وَعَادًا وَثمودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْأَلِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمْ
الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

ولم يكن فوق عادٍ إلا الله سبحانه ، بدليل أن الله ما أهلك قوماً إلا
وذكرهم أنه أهلك من هو أشدُّ منه قوةً ، إلا عاداً حين أهلكها قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] .

وعادٌ بسبب تفوقها وبُعدها عن الله ، وقراءتها لما في الكون قراءةً
نفعيةً تكبرت بغير حق ، واستعلت ، وتغطست ، وبغت ، لا في بلدها
فحسب ، بل في كل البلاد ، قال تعالى :

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ ، وفي الأرض كلها ، قال تعالى :
﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مَنَاوَةٌ﴾

[فصلت : ١٥]

فماذا كانت محصلة هذا التفوق المادي ، لقد طغوا في البلاد ،
والطغيان مجاوزة الحد بالعدوان ، ولم يقل : طغوا في بلدهم ، بل
قال : ﴿طَغَوْا فِي الْبَلَدِ﴾ ، في البلاد كلها ، ليصف طغيانهم
بالشمول ، وأنهم أكثروا فيها الفساد ، ولم يقل : أفسدوا ، ليبين أن
إفسادهم قد عم الأرض .

والحديث عن مصير عاد في القرآن لا يخص عاداً الأولى ، بل يتجه
إلى كل قوم سلكوا مسلك عاد ، فقوم عاد أنموذج متكرر ، بدليل أن الله
تعالى يقول :

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم : ٥٠] ، وهذا يعني فيما يعني أن هناك
عاداً ثانية ، أو انتظروا عاداً ثانية .

لقد كان تأديبهم بالأعاصير التي تدمر كل شيء أتت عليه .

﴿وَلَمَّا عَادَ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ سَحَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةً
أَيَّامٍ خُسُوفًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ تَحِلْ خَاوِيَةً﴾ [الحاقة : ٦-٧] .
فماذا كانت النتيجة ؟

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [١٣] إِنَّ رَبَّكَ لَبَازِلِرَصَادٍ﴾ [الفجر : ١٣-١٤] .
أي : بالمرصاد لكل من يكون على شاكله عاد من أمم الأرض .

إِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ تَعْنِي فِيمَا تَعْنِي أَنْ نَعْرِفَ اللَّهَ ، وَمَعْرِفَةُ اللَّهِ أَصْلُ الدِّينِ ، وَأَنْ نَقْدِرَهُ حَقَّ قُدْرِهِ عَنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ بِهِ ، مِنْ خِلَالِ آيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ وَالتَّكْوِينِيَّةِ وَالْقُرْآنِيَّةِ ، أَيْ : مِنْ خِلَالِ خَلْقِهِ وَفِعْلِهِ وَكَلَامِهِ .

وَالْعِلْمُ كَمَا يَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عِلْمُ اللَّهِ ، وَعِلْمُ بَأْمَرِهِ ، وَعِلْمُ بَخَلْقِهِ ، أَوْ عِلْمُ بِالْحَقِيقَةِ ، وَعِلْمُ بِالشَّرِيعَةِ ، وَعِلْمُ بِالْخَلِيقَةِ ، وَالْعِلْمُ بِاللَّهِ أَصْلُ الدِّينِ ، وَالْعِلْمُ بَأْمَرِهِ أَصْلُ الْعِبَادَةِ ، وَالْعِلْمُ بِخَلْقِهِ أَصْلُ صَلَاحِ الدُّنْيَا .

لَقَدْ دَعَا الْإِسْلَامُ إِلَى الْعِلْمِ بِاللَّهِ مِنْ خِلَالِ التَّفَكُّرِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، فَفِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : « لَمَّا كَانَتْ لَيْلَةُ مِنَ اللَّيَالِي أَنَا نِي النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، قَالَتْ : فَقُلْتُ : وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ قُرْبَكَ ، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَعْبُدَ رَبَّكَ ، قَالَتْ : فَقَامَ فَتَطَهَّرَ ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَبَكَى حَتَّى بَلَ لِحَيْتِهِ ، ثُمَّ سَجَدَ فَبَكَى حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ فَبَكَى ، حَتَّى إِذَا أَتَى بِلَالٌ يُؤْذَنُهُ بِصَلَاةِ الصُّبْحِ ، قَالَتْ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا يُبْكِيكَ ؟ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ ، وَمَا تَأَخَّرَ ؟ فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا بِلَالُ ، وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : ﴿ إِنَّكَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .

نَنْتَلِقُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنَ السَّعْيِ إِلَى تَقْدِيرِ اللَّهِ حَقَّ قُدْرِهِ ، فَتَتَفَكَّرُ فِي مُلْكُوتِ السَّمَاءِ ، فَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ حَجْمَ الْأَرْضِ يَسَاوِي مِليُونِ مِليُونِ كيلومتر مكعب ، وَأَنَّ الشَّمْسَ تَكْبُرُ الْأَرْضَ بِمِليُونِ وَثَلَاثُمِئَةِ أَلْفِ مَرَّةٍ ، وَأَنَّ

المسافة بين الأرض والشمس هي ١٥٦ مليون كيلومتر ، وأن نجماً في برج العقرب صغيراً مثلاً أحمر اللون اسمه قلب العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما .

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر : ٦٤] .

وأن نجماً آخر اسمه منكب الجوزاء يزيد حجمه على حجم الشمس بمئة مليون مرة ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذريات : ٤٧] .

إن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ٣٠٠ ألف كيلومتر ، إذاً هو يقطع في السنة عشرة آلاف مليار من الكليومترات ، فإذا علمنا أن القمر يبعد عنا ثانية ضوئية واحدة ، وأن الشمس تبعد عنا ثمانى دقائق ضوئية ، وأن المجموعة الشمسية بأكملها لا يزيد قطرها على ثلاث عشرة ساعة ضوئية ، وأن أقرب نجم إلى الأرض يبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، ولكي نعلم ماذا تعني أربع سنوات ضوئية نقول : لو اتجهنا إلى هذا النجم الذي هو أقرب نجم إلى الأرض بمركبة أرضية لاستغرقت الرحلة خمسين مليون عام ، متى نصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ؟ ومتى نصل إلى المرأة المسلسلة ، وهي سديم تبعد عنا مليوني سنة ضوئية ؟ ومتى نصل إلى مجرة اكتشفت حديثاً تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، لقد صدق الله العظيم إذ يقول :

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ [٧٥] ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [٧٦]

[الواقعة : ٧٥-٧٦] .

هذا الإله العظيم يعصى ؟! هذا الإله العظيم ألا يخطب ودّه ؟

فلو شاهدت عيناك من حُسننا الذي رأوه لَمَا وَلَّيتَ عنا لغيرنا
ولو سمعت أذناك حسنَ خطابنا خلعتَ عنك ثيابَ العُجبِ وجئتنا
و لو ذقتَ من طعمِ المحبةِ ذرَّةً عذرتَ الذي أضحى قتيلًا بحبِّنا
ولو نسمت من قُربنا لك نسمةً لُمْتَ غريباً واشتياقاً لقربنا
لو لاح من أنوارنا لك لائحُ تركتَ جميعَ الكائنات لأجلنا
فما حبُّنا سهلٌ وكلُّ من ادعى سهولته قلنا له : قد جهلَّتنا
ننطلقُ في ليلةِ القدرِ من السعيِّ إلى تقديرِ الله حقَّ قدره ، فنتفكَّر في
ملكوتِ الأرض .

من آياتِ الله الدالةِ على عظمتِهِ البعوضةُ ، قال تعالى في القرآن
الكريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] .

بعد اكتشافِ المجاهرِ الإلكترونيةِ تبَيَّنَ أنَّ رأسَ البعوضةِ فيه مئةُ عينٍ ،
وفي فمِها ثمان وأربعون سنًا ، وفي صدرها ثلاثة قلوب ، قلبٌ مركزيٌّ ،
قلبٌ لكلِّ جناحٍ ، وفي كلِّ قلبٍ أُذُنَانِ ، وبُطَيْنَانِ ، ودَسَّامَانِ .

وتملكُ البعوضةُ أجهزةً لا تملكها الطائراتُ ، تملكُ جهازَ رادارٍ سمَّاه
العلماءُ جهازَ استقبالِ حراريًا ، فهي لا ترى الأشياءَ بأشكالها ،
ولا بأحجامها ، ولا بألوانها ، ولكن تراها بحرارتها ، فإذا كانت في غرفةٍ
مظلمةٍ لا ترى إلاَّ النائمَ ، تتجهُ إليه ، لكن ما كلُّ دمٍ يناسبُها ، معها جهازُ
تحليلٍ للدمِ ، فقد ينامُ أخوانٌ على سريرٍ واحدٍ ، يستيقظُ الأولُ وقد مُلِئَ
بلسعِ البعوضِ ، والثاني معافى لم يُصَبْ بشيءٍ .

ثم إنَّ البعوضةَ تملكُ جهازَ تخديرٍ ، فإذا وقفتُ على جسمِ النائمِ ربَّما قتلَها ، فتخدره أولاً ، وحينما يشعرُ بلدغِها تكونُ في جوِّ الغرفةِ تضحكُ عليه .

ولأنَّ لزوجةَ الدم لا يمكنُ أن تسريَ في خرطومِها الدقيقِ فهي تملكُ جهازَ تميعٍ ، هذا خلَقَ الله .

أما خرطومُها فبعدَ تكبيره تبيِّنُ أنَّ فيه ست سكاكين ، أربعُ سكاكين لإحداثِ جرحٍ مربعٍ ، وسكيتان تلتثمان على شكلِ أنبوبٍ لامتصاصِ الدم .

وفي أرجلِ البعوضةِ مخالبٌ إن وقفتُ على سطحٍ خشنٍ ، ومحاجمٌ إن وقفتُ على سطحٍ أملسٍ .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ .

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان : ١١] .

قد تقرأ آيةَ في القرآنِ أربعين عاماً ، وتظنُّ أنه ليس فيها هذه المعاني الدقيقةُ ، ثم تكتشفُ أنه كلما قرأتَ القرآنَ ازدادتَ علماً بالله عز وجل ، وأنَّ هذا القرآنَ لا يبلى على كثرةِ الردِّ ، فكلَّما قرأته وجدتَ فيه من المعاني ما لا يتصوَّرُ .

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ④ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِبَطْغٍ ⑤ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ⑥ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ⑦ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَبْعَى ⑧ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ⑨ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ⑩ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَى ⑪ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ⑫ أَرَأَيْتَ بَانَ اللَّهُ بَرَى ⑬ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑭ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ

خَاطِبُهُ ﴿١٦﴾ فَلْيَتَعَنَّا دَيْمُ ﴿١٧﴾ سَتَدْعُ الزَّانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

[العلق : ١-١٩]

قال ابن كثير في تفسير هذه السورة : « فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمة المباركات ، وهن أول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه ، وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ، ولفظي ، ورسمي ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا قال : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴿٥﴾ .

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشهر ، وبطير وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى ، وكثر ماله ، وتوعدده ، ووعظه ، فقال : ﴿ إِنَّ إِلَهًا لَّكَ الرَّحْمَنُ ﴾ أي : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك ، من أين جمعته ؟ وفيم صرفته ؟

ثم قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴾ ، نزلت في أبي جهل - لعنه الله - توعد النبي (على الصلاة عند البيت ، فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً ، فقال : ﴿ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ ، أي : فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ، أو أمر بالتقوى بقوله ، وأنت تزجره ، وتوعدده على صلاته ، ولهذا قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ ، أي : أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه ، وسيجزيه على فعله أتم الجزاء ؟ ثم قال تعالى متوعددا ومتهددا : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ﴾

أَيُّ : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَسْتَفْعَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ ، أَي لَنَسَمَنَهَا سَوَادًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، ثم قال : ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ، يعني أَنَّ نَاصِيَةَ أَبِي جَهْلٍ كَاذِبَةٌ فِي مَقَالِهَا ، خَاطِئَةٌ فِي فِعَالِهَا ، ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيًا﴾ ، أَي : قَوْمَهُ وَعَشِيرَتَهُ ، أَي : لِيَدْعُهُمْ يَسْتَنْصِرُ بِهِمْ ، ﴿سَدْعُ الزَّبَانَةِ﴾ ، وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، حَتَّى يَعْلَمَ مَنْ يَغْلِبُ ، أَحْزُبُنَا أَوْ حَزْبُهُ . . . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لئن رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الْكَعْبَةِ لِأَطَانٍ عَلَى عُنُقِهِ ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ (فَقَالَ : « لَوْ فَعَلَهُ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ » . . .) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ ، يعني يَا مُحَمَّدُ لَا تُطِعْهُ فِيمَا يَنْهَاكَ عَنْهُ مِنَ الْمَدَاوِمَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَكَثْرَتِهَا ، وَصَلَّ حَيْثُ شِئْتَ ، وَلَا تَبَالِهْ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَافِظُكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهُوَ يَعِصْمُكَ مِنَ النَّاسِ ، ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^(١) .

قال ابن القيم : « إِنَّ أَوَّلَ سُورَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ سُورَةُ الْقَلَمِ ، فَذَكَرَ فِيهَا مَا مَنَّ بِهِ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنْ تَعْلِيمِهِ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، فَذَكَرَ فِيهَا فَضْلَهُ بِتَعْلِيمِهِ ، وَتَفْضِيلَهُ الْإِنْسَانَ بِمَا عَلَّمَهُ إِيَّاهُ ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى شَرَفِ التَّعْلِيمِ وَالْعِلْمِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ^(٣) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^(٤) ، فَافْتَتَحَ السُّورَةَ بِالْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ النَّاشِئَةِ عَنِ الْعِلْمِ ، وَذَكَرَ خَلْقَهُ خُصُوصًا وَعُمُومًا ، فَقَالَ : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ^(٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ^(٣) ، وَخَصَّ الْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ الْمَخْلُوقَاتِ لِمَا أَوْدَعَهُ مِنْ عَجَائِبِهِ ، وَآيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى رَبُوبِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، وَعِلْمِهِ وَحُكْمَتِهِ ، وَكَمَالِ رَحْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ ،

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٢٨ - ٥٣٠) ، بتصريف يسير .

وذكر هنا مبدأ خلقه من علّق ، لكون العلقه مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة ، فهي مبدأ تعلّق الخليق ، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم ، وهو الأفعل من الكرم ، وهو كثرة الخير ، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه ، فإن الخير كله بيديه ، والخير كله منه ، والنعم كلها هو مؤولها ، والكمال كله ، والمجد كله له ، فهو الأكرم حقاً ، ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً ، فقال : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً ، فقال : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطي الموجودات كلها بجميع أقسامها ، فإن الوجود له مراتب أربعة :

إحداها : مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله : ﴿ خَلَقَ ﴾

المرتبة الثانية : الذهنية المدلول عليها بقوله : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

المرتبة الثالثة والرابعة : اللفظية والخطية ، فالخطية مصرح بها في قوله : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ، واللفظية من لوازم التعليم بالقلم ، فإن الكتابة فرع النطق ، والنطق فرع التصوّر ، فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه ، فهو الخالق المعلم ، وكل شيء في الخارج فبخلقه ووجد ، وكل علم في ذهن فبتعليمه حصل ، وكل لفظ في اللسان أو خط في البنان فبقدرته وخلقته وتعليمه ، وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

والمقصود أنه سبحانه تعرّف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته ، من

الخطُّ واللفظِ والمعنى ، فكان العلمُ أحدَ الأدلّةِ الدالّةِ عليه ، بنِ مِنْ
أعظمِها وأظهرِها ، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له «^(١) .

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٥٨/١) بتصرف يسير .

خطبة العيد^(١)

اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ .
اللهُ أَكْبَرُ كَبِيراً ، والحمدُ لله كثيراً ، وسبحانَ الله وبِحَمْدِهِ بكرةً وأصيلاً .

الحمدُ لله معزَّ الإسلامِ بنصرِهِ ، ومذلَّ الشريكِ بقهرِهِ ، ومصرفِ الأمورِ بأمرِهِ ، ومُدِّيمِ النِّعمِ بشكرِهِ ، الذي قَدَّرَ الأيامَ دُولاً بعدِلِهِ ، وجعلَ العاقبةَ للمتقين بفضلِهِ ، وأظهرَ دينَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ ، القاهرُ فوقَ عبادِهِ فلا يمانعُ ، والظاهرُ على خَلْقِهِ فلا يُنازَعُ ، والآمرُ بما يشاءُ فلا يُراجَعُ ، والحاكِمُ بما يريدُ فلا يُدافعُ .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له ، وأشهدُ أن سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، بعثَهُ اللهُ هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى اللهِ بإذنه وسراجاً منيراً ، اللهم صلِّ وسلِّم وباركْ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ، وعلى آلِ مُحَمَّدٍ ، وعلى أصحابِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ ، أمناءِ دعوته ، وقادةِ ألويته ، حيث ربَّاهم تربيةً حملتْ أحدهم على أن يقولَ : « والله لو كُشفَ الغطاءُ

(١) هذه الخطبة أُلقيت في عيد الفطر السعيد (١٤٢٥) ، في مسجد بني أمية الكبير ، وبحضور السيد رئيس الجمهورية .

ما ازددتُ يقيناً ، ولو علمتُ أنَّ غداً أجلي ما قدرتُ أن أزيدَ في عملي»^(١) .

اللهم أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم ، إلى أنوار المعرفة والعلم ، ومن حول الشهوات إلى جنات القربات .

أيها الإخوة الكرام في دنيا العروبة والإسلام .

أعياد المسلمين تأتي عقب عبادات كبرى كالصيام والحج ، ومن معاني العيد أنه عودة إلى الله ، فإذا رجع العبد إلى الله نادى مناد في السماوات والأرض أن هتئوا فلاناً فقد اصطَلَحَ مع الله .

والعبادة علّة وجودنا في الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : الآية ٥٦] .

والعبادة في أدق تعاريفها : « طاعة طوعية ، ممزوجة بمحبة قلبية ، تسبقها معرفة يقينية ، تُفضي إلى سعادة أبدية » .

ففي هذا التعريف جانب معرفي ، وجانب سلوكي ، وجانب جمالي ، فالجانب السلوكي هو الأصل ، والجانب المعرفي هو السبب ، والجانب الجمالي هو الثمرة .

والعبادات في الإسلام شعائرية وتعاملية .

فالشعائرية كالصلاة والصيام والحج والزكاة ، وهي معلّلة بمصالح الخلق ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي أساس الوازع

(١) حاشية السُّنْدِي على سنن النسائي (٩٦ / ٨) من قول علي رضي الله عنه .

الديني ، في حين أنّ التشريعات الأرضية تعتمد على الرادع الخارجي ، و فرّق كبير بين الوازع والرادع .

أراد عبدُ الله بن عمر رضي اللهُ عنها أن يمتحنَ راعياً فقال له : « بِعْنِي هذه الشاةَ ، وخذْ ثمنها ، فقال : ليست لي ، قال : قلْ لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئبُ ، فقال الراعي : واللهِ إني لفي أشدِّ الحاجةِ إلى ثمنها ، ولو قلتُ لصاحبها : ماتت ، أو أكلها الذئبُ لصدّقني ، فإني عنده صادقٌ أمينٌ ، ولكن أين اللهُ ؟

هذا الراعي وضعَ يده على جوهرِ الدين ، فكفى بالمرءِ علماً أن يخشى اللهَ ، وكفى به جهلاً أن يعصيه .

والعباداتُ التعامليةُ هي الصدقُ ، والأمانةُ ، والعفةُ ، والعدلُ ، والإنصافُ ، والرحمةُ ، وإنجازُ الوعدِ ، والوفاءُ بالعهدِ ، والتعقُّفُ عن المالِ الحرامِ .

دخلَ سيّدنا جعفرُ بنُ أبي طالبٍ على النجاشيِّ مَلِكِ الحبشة ، فسأله النجاشيُّ عن الدينِ الذي جاء به نبيُّ الإسلام ﷺ فقال له : « أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعِفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا

أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصَّيَامِ
«(١)» .

يَتَضَحُّ مِنْ هَذَا التَّعْرِيفِ أَنَّ « الدِّينَ كُلَّهُ خُلِقَ » ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي
الْخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ «(٢)» ، قَالَ هَذَا ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ .

الشَّريعةُ عدلٌ كُلُّهَا ، رَحمةٌ كُلُّهَا ، مصلحةٌ كُلُّهَا ، حكمةٌ كُلُّهَا ، فكلُّ
قضيةٍ خرجت من العدلِ إلى الجورِ ، ومن الرحمةِ إلى القسوةِ ، ومن
المصلحةِ إلى المفسدةِ ، ومن الحكمةِ إلى خلافِها ، فليست من
الشَّريعةِ ، ولو أُدْخِلْتُ عَلَيْهَا بِأَلْفِ تَأْوِيلٍ وَتَأْوِيلٍ .

والحقيقةُ الخطيرةُ : أَنَّ العباداتِ الشعائريةَ ، ومنها الصلاةُ والصَّيَامُ ،
لَا تُقْبَلُ وَلَا تَصَحُّ إِلَّا إِذَا صَحَّتِ العباداتُ التعامليةُ .

سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ الْكَرَامَ فَقَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ ؟ » قَالُوا :
الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ ، وَلَا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي
يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ ، وَصِيَامٍ ، وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ،
وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ،
وهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ
خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ «(٣)» .

هذا في الصلاة .

(١) أحمد (١٧٤٠) عن أم سلمة .

(٢) مدارج السالكين (٢ / ٣٠٧) .

(٣) مسلم (٢٥٨١) ، الترمذي (٢٤١٨) ، أحمد (٨٠١٦) عن أبي هريرة .

و« مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ ، وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ »^(١) .

هذا في الصوم .

ومن حجٍّ بمالٍ حرام ، ووضع رجله في الركاب ، وقال : لبيك اللهم لبيك ، فينادى أن لا لبيك ، ولا سعدتك ، وحجك مردود عليك .
هذا في الحج .

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : الآية ٥٣] .

هذه هي الحقائق المرأة التي هي أفضل ألف مرة من الوهم المريح .

ولكن ، ما السبب في ضعف العبادة التعاملية ؟

الجواب : هو ضعف المعرفة بالامر ، لأن أصل الدين معرفة الله ، فنحن إذا عرفنا الامر ، ثم عرفنا الامر تفانيًا في طاعة الامر ، أما إذا عرفنا الامر ، ولم نعرف الامر تفانيًا في التفلي من الامر .

ومن طرق معرفة الامر التفكير في آياته الدالة على عظمته ، ومن هذه الآيات على سبيل المثال العين ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾

[البلد : ٨]

وحينما يعلم الإنسان أن العين آية دالة على عظمة الله ، فقرئتها تغذي عن طريق الحلول لا عن طريق الأوعية الشعرية ، وإلا كانت رؤية الإنسان

(١) البخاري (١٨٠٤) ، الترمذي (٧٠٧) ، أبو داود (٢٣٦٢) ، النسائي (٢٣٤٥)
عن أبي هريرة .

من خلال شبكة الأوعية ، وفي أرقى آلات التصوير الرقمية الاحترافية عشرة آلاف مستقبل ضوئي في الميليمتر المربع ، بينما في العين التي هي من صنع الله مئة مليون مستقبل ضوئي ، (عصيات ومخاريط) في الميليمتر المربع من الشبكية ، لذلك تتمتع العين برؤية فائقة الدقة ، حيث تميز بين ثمانية ملايين لون ، ولو درج اللون الأخضر مثلاً ثمانمئة ألف درجة لفرقت العين السليمة بين درجتين ، ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل : ٨٨] .

ولا تزال عملية المطابقة التي تقوم على ازدياد احدياد العدسات حتى يقع الخيال على الشبكية إعجازاً في خلق العين ، يصعب شرحه من على المنبر .

هذا الإله العظيم يعصى ؟ ألا يُخطبُ ودّه ؟ ألا ترجى جنته ؟ ألا تتقى ناره ؟ ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وتدور العبادة مع الإنسان في كلّ مواقعه ، وفي كلّ أحواله ، وفي كلّ أوقاته ؛ فهناك عبادة الهوية . . . من أنت . . . ؟

إن كنت قوياً فعبادتك الأولى إحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وإنصاف الضعيف ، ونصرة المظلوم .

وإن كنت غنياً فعبادتك الأولى إنفاق المال في وجوه الخير ، حبداً المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي .

وإن كنت عالماً فعبادتك الأولى في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي يَلْعَنُونَ رَسَلَتِ اللَّهُ وَمَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

وإن كنتِ امرأةً فعبادتُك الأولى حُسْنُ رعايةِ الزوج ، ليزيدَ عطاؤه في الحياة ، فوراءَ كلِّ رجلٍ عظيمٍ امرأةٌ .

لَمَّا فَتَحَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ دَعَاهُ سَادَةُ قُرَيْشٍ لِيَبِيتَ عَنْدهُمْ ، فَقَالَ : انصَبُوا خِيْمَةً عِنْدَ قَبْرِ خَدِيجَةَ ، وَرَكَزْ لَوَاءَ النَّصْرِ أَمَامَ قَبْرِهَا ، لِيَعْلَمَ النَّاسُ جَمِيعاً أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الَّتِي فِي الْقَبْرِ شَرِيكُتُهُ فِي النَّصْرِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ سَنَدَهُ مِنَ الدَّخْلِ .

وَعِبَادَتُكَ الثَّانِيَةُ تَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ لِيَكُونُوا عُنَاصِرَ نَظِيفَةٍ ، مَنْضَبُطَةٍ ، مِعْطَاءَةٍ ، تَسْهُمُ فِي بِنَاءِ الْمَجْتَمَعِ .

هَذَا عَنْ عِبَادَةِ الْهُوِيَّةِ ، فَمَاذَا عَنْ عِبَادَةِ الْعَصْرِ .

إِذَا كَانَ الطَّرْفُ الْآخَرُ يَرِيدُ إِفْقَارَنَا ، فَالْعِبَادَةُ الْأُولَى اسْتِصْلَاحُ الْأَرْضِ ، وَإِقَامَةُ السُّدُودِ ، وَاسْتِخْرَاجُ الثَّرَوَاتِ ، وَتَطْوِيرُ الصَّنَاعَاتِ ، وَتَفْجِيرُ الطَّاقَاتِ .

وَإِذَا كَانَ الطَّرْفُ الْآخَرُ يَرِيدُ إِضْلَالَنَا ، وَتَغْيِيرَ هَوِيَّتِنَا ، وَطَمْسَ ثِقَاتِنَا ، فَالْعِبَادَةُ الْأُولَى تَرْسِيخُ مَعَالِمِ دِينِنَا ، وَالْحِفَاظُ عَلَى مَبَادِئِنَا ، وَتَعَزِيزُ قِيَمِنَا ، عِلْماً بِأَنَّ ثِقَاةَ كُلِّ أُمَّةٍ هِيَ مَلِكُ الْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ ، لِأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ عَسَلٍ اسْتُخْلِصَ مِنْ زَهْرَاتٍ مُخْتَلِفِ الشُّعُوبِ عَلَى مَرِّ الْأَجْيَالِ ، وَهَلْ يُعْقَلُ إِذَا لَدَغَتْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ النَّحْلِ أَنْ نَقَاطَعَ الْعَسَلَ الَّذِي اسْتُخْلِصَ مِنْ زَهْرَاتِنَا ؟

وَإِذَا كَانَ الطَّرْفُ الْآخَرُ يَرِيدُ إِفْسَادَنَا فَعَلِينَا أَنْ نَحْصَنَ شَبَابَنَا وَشَابَاتِنَا ،

فنأخذ ما في رؤوس العالم المتقدم من علم ومعرفة ، وندع ما في نفوسهم من تقلت وانحلال .

أيها الإخوة حضوراً ومستمعين ومشاهدين .

سأضع بين أيديكم لقطات ومضات من التاريخ الإسلامي المشرق ، يومَ فَهَمَ الصحابة الكرام والتابعون الأعلام والعلماء الربانيون أن العبادة الشعائرية لا تصح إلا إذا صحَّت العبادة التعاملية ، فجعلهم الله قادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم .

ولو فَهَمَ الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن لَمَا خرج من مكة المكرمة ، ولَمَا وصل إلى الصين شرقاً ، وإلى مشارف باريس غرباً .

عمرُ بن الخطاب ، كان إذا أرادَ إنفاذَ أمرٍ جمعَ أهله وخاصته ، وقال : « إني قد أمرتُ الناسَ بكذا ، ونهيتهُم عن كذا ، والناسُ كالصير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وایمُ الله ، لا أوتينَ بواحدٍ وقعَ فيما نهيتُ الناسَ عنه إلا ضاعفتُ له العقوبةَ لمكانه مني » ، فصارت القرابةُ من عمرٍ مصيبةً .

وقال لأحدِ الولاة : « إنَّ اللهَ قد استخلفنا عن خلقه لنسدَّ جوعتهم ، ونسترَ عورتهم ، ونوفرَّ لهم حِرْفَتهم ، فإذا وقَّنا لهم ذلك تقاضيناهم شُكرها ، إنَّ هذه الأيدي خُلِقَتْ لتعمل ، فإذا لم تجدْ في الطاعة عملاً التمسَتْ في المعصية أعمالاً ، فاشغَلْها بالطاعة قَبْلَ أن تشغَلَكَ بالمعصية ، ولا تغلقِ بابك دونهم فيأكلَ قوَّيهم ضعيفهم » .

ومرَّةً كان يتفقَّدُ أحوالَ رعيَّته ليلاً ، وبصحبتِه عبدُ الرحمن بن عوفٍ ،

فرأى قافلةً قد حطَّت رحالها في ظاهر المدينة ، فقال لصاحبه : تعال نحرس هذه القافلة ، فسمع بكاء طفل فقال لأُمّه : أرضعيه ، ثم بكى ثانية ، فقال لها ثانية : أرضعيه ، قالت له : وما شأنك بنا ؟! إنني أفطمه ، قال : ولم ؟ قالت : لأنّ عمر لا يعطينا العطاء إلاّ بعد الفطام ، تروي الروايات أنه بكى ، ووضع يديه على رأسه ، وقال : ويحك يا ابن الخطاب ، كم قتلت من أطفال المسلمين ! ثم أمر أن يُعطى العطاء (التعويض العائلي) حين الولادة ، وفي صلاة الفجر ، بكى كثيراً ، ودعا وقال : يا رب ، هل قبلت توبتي فأهنيء نفسي ، أم رددتها فأعزّيها ؟

ومرّة جاءه ملك الغساسنة جبلة بن الأيهم مسلماً ، فرحّب به عمر رضي الله عنه ، وفي أثناء طواف جبلة حول الكعبة داس بدويّ من فزارة طرف ردايه ، فالتفت جبلة نحو البدوي ، وضربه ضربة هشمت أنفه ، فما كان من هذا البدويّ إلاّ أن شكّا جبلة إلى عمر ، فاستدعى عمر جبلة إلى مجلسه ، ودار بينهما حوار ، صاغه أحد الأدباء المعاصرين شعراً :

قال عمر لجبلة :

أصحيح ما ادّعى هذا الفزاريّ الجريح ؟

قال جبلة :

لست ممّن يكتُم شيئاً أنا أدبت الفتى أدركت حقّي بيديّ

قال عمر :

أرض الفتى لابد من إرضائه ما زال ظفرك عالقاً بدمائه

أو يهشمَنَ الآنَ أنفُكَ وتنالُ ما فعلتهُ كفُك
قال جبلةُ :

كيف ذاك يا أميرُ ؟ هو سوقةُ وأنا عرشُ ارتاج
كيف ترضى أن يخرَّ النجمُ أرضاً ؟
قال عمرُ :

نزواتُ الجاهليةِ ورياحُ العنجهيةِ قد دفناها
أقمنا فوقها صرحاً جديداً وتساوى الناسُ أحراراً لدينا وعبداً
قال جبلةُ :

كان وهماً ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز
أنا مرتدُّ إذا أكرهتني
فقال عمرُ :

عالمُ نبيه كلُّ صدعٍ فيه يُداوى وأعزُّ الناسِ بالعبدِ بالصلوكِ تساوَى
وكان عمرُ رضي الله عنه يقولُ : « والله لو تعثرت دابةٌ في العراقِ
لحاسبني اللهُ عنها ، لمَ لمَ تصلحْ لها الطريقُ يا عمرُ ؟

وكان عمرُ رضي الله عنه يمشي في إحدى سككِ المدينةِ فوجدَ أطفالاً
يلعبون ، فلما رآوه تفرَّقوا هيبَةً منه ، إلا واحداً ، فسأله عمرُ : يا غلامُ ،
لِمَ لمَ تهرب مع مَنْ هربَ ؟ فقال : أيها الأميرُ ، لست ظالماً فأخشى
ظلمَكَ ، ولست مذنباً فأخشى عقابَكَ ، والطريقُ يسعُنِي ويسعُكَ .

وكان أبو بكرٍ الصديقُ رضي الله عنه يؤدِّي خدمةَ لجارةٍ له عجوزٍ ،

ولمّا تولّى خلافة المسلمين غلبَ على ظنِّ جارتِهِ العجوزِ أنّ هذه الخدمة سوف تتوقّفُ ، وفي صبيحةِ اليومِ الذي تولّى فيه الخلافةَ طرقَ بابَ العجوزِ ، فقالت لابنتِها : افتحي البابَ ، ثمّ سألتها : من الطارقُ ؟ قالت البنتُ : جاءَ حالبُ الشاةِ يا أمّاه .

كان ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما معتكفاً في مسجدِ رسولِ الله ﷺ فرأى في المسجد رجلاً تبدو عليه الكآبةُ ، فسأله : ما لك ؟ فقال : ديونٌ لَزِمَتْنِي ، ما أطيعُ سدادَها ، فقال ابنُ عباسٍ : لمن ؟ فقال : لفلانٍ ، فقال ابنُ عباسٍ : أتحبُّ أنْ أكلّمَهُ لك ، فقال الرجلُ : إذا شئتَ ، فقام ابنُ عباسٍ ليخرجَ من مُعتكِفِهِ ليكلّمَ الدائنَ ، فقال أحدُ المعتكفينَ : يا ابنَ عباسٍ ، أنسيْتَ أنّك معتكِفٌ ؟ فقال ابنُ عباسٍ : لا واللهِ ، ولكنّي سمعتُ صاحبَ هذا القبرِ - يعني رسولَ الله ﷺ ، والعهدُ به قريبٌ ، ودمعتُ عيناه - سمعته يقولُ : « مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ ، وَبَلَغَ فِيهَا كَانَ خَيْرًا مِنْ اغْتِكَافِ عَشْرِ سِنِينَ » (١) .

تروي فاطمة بنتُ عبدِ الملِكِ ، زوجةُ الخليفةِ الزاهدِ عمرِ بنِ عبدِ العزيزِ خامسِ الخلفاءِ الراشدين أنها دخلت على عمرَ يوماً في مصلاهُ فرأته واضعاً يده على خدّه ، ودموعه تسيلُ ، فقلتُ له : ما بالكَ ؟ وفيمْ بكاؤك ؟ فقال : دعيني وشأني ، فلما ألحْتُ عليه قال لها : ويحك يا فاطمة ، إني قد وُلِيتُ هذا الأمرَ ، ففكّرتُ في الفقيرِ الجائعِ ، والمريضِ الضائعِ ، والعاري المجهولِ ، واليتيمِ المكسورِ ، والمظلومِ

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٦٥) عن عطاء عن ابن عباس .

المقهور ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير والأرملة الوحيدة ، وذوي العيال الكثير والرزق القليل ، وأشباههم في أطراف البلاد ، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم جميعاً يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم يومئذ رسول الله ، فخشيت ألا تثبت لي حجة ، فلذلك أبكي .

وقد ورد في الحديث الشريف : « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةً يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمَرَةٍ قَطُّ » (١) .

وقال عالم جليل : « والله لترك دانتق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام » والدانتق سدس الدرهم .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضَعْفَائِكُمْ » (٢) .

وفي الحديث الشريف ملمحان دقيقان :

الأول ملمح توحيدي : وهو أن القوي الذي مكّنه الله في الأرض إذا نصر الضعيف ؛ أطعمه إن كان جائعاً ، وكساه إن كان عارياً ، وآواه إن كان مشرداً ، ووفر له عملاً إن كان عاطلاً ، وعالجه إن كان مريضاً ، وهيناً له سبل المعرفة إن كان جاهلاً ، ونصره إن كان مظلوماً ، عندئذ يكافئ الله القوي مكافأة من جنس عمله ، فينصره على أعدائه الأقوى منه .

والملمح الثاني تكتيكي ، إن صح التعبير : أن الأمة بنصرة الضعيف

(١) أحمد في المسند (٢٤٥٠٨) عن عائشة .

(٢) أبو داود (٢٥٩٤) ، النسائي (٤٤٨٨) عن أبي الدرداء .

تتماسكُ ، وتجتمعُ ، وتصبحُ سدًا منيعاً ، فلا يستطيعُ العدوُّ الخارجِيُّ أنْ يخرقَها ، ولا أنْ يفتّتَ وحدَتَها ، ولا أنْ يشقَّ صفوفَها ، أعطِ الإنسانَ رَغيفَ خبزه وكرامته وخذْ منه كلَّ شيءٍ .

وكان النبي ﷺ يعالج المشكلات من أسبابها ، لا من نتائجها ، فقد دخل رجل بستان أنصاري ، وأكل من شجرة دون إذن الأنصاري ، فسأقه إلى النبي ﷺ على أنه سارق ، فقال له عليه الصلاة والسلام : هلاً علمته إن كان جاهلاً ، وهلاً أطعمته إن كان جائعاً .

تَرْوَدُ مِنَ التَّقْوَى فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعِيشُ إِلَى الْفَجْرِ
فَكَمْ مِنْ سَلِيمٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَكَمْ مِنْ سَقِيمٍ عَاشَ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ
اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ .

الخطبة الثانية

اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ . لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، واللهُ أَكْبَرُ ، اللهُ أَكْبَرُ ، واللهُ الحَمْدُ .

الحمد لله معيدِ الجُمُعِ والأعيادِ ، وناصرِ الأُممِ والأجنادِ ، وجامعِ
الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه ، إنّ اللهَ لا يخلِفُ الميعادَ ، وأشهد أن لا إلهَ
إلا الله وحده لا شريكَ له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلِّ
على سيّدنا محمدٍ وعلى آله ، وأصحابه الطيّبين الطاهرين .

أيها الإخوةُ الأحبابُ ، قبل أن ننتقلَ إلى الموضوعِ الساخنِ ، لابد من التنويهِ إلى أنَّ المسلم إذا قال : اللهُ أكبرُ ، وهو يطعُ مخلوقاً ، ويعصي

خالقه ، لأنه رأى أن طاعة هذا المخلوق أكبرُ عنده من طاعة خالقه ، فهو ما قال : الله أكبرُ ، ولا مرّة ، ولو ردّها بلسانه ألف مرّة .

إخوة الإيمان في كلّ مكان .

العولمة كما يريدُها ، ويروجُ لها دُعائها لا تعدو أن تكونَ تعبيراً معاصراً عن نزعة تسلّطية قديمة ، صاحبت كلّ قوة غاشمة على مدار التاريخ .

إنها تضيّي طلاء من الذهب على الأغلال الحديدية ، وتتوارى خلف أقنعة زائفة من العبارات الجذابة ، والشعارات البراقة ، كالعدالة ، والديمقراطية ، والحرية ، والسلام العالمي ، والتعايش السلمي ، وحقوق الإنسان ، ومكافحة الإرهاب ، فهي علقمٌ قديمٌ في آنية جديدة .

ولعل من أبرز مظاهر هذه العولمة انهيار السدود بين الحضارات والثقافات ، وفرض الهيمنة الغربية في مختلف المجالات ، سياسة ، واقتصاداً ، وإعلاماً ، وفكراً ؛ توطئة للاستيلاء على ثروات الشعوب ، وشلّ قدراتها الوطنية ، ومسح هويتها ، وخصوصياتها الحضارية ، وتحويل أسواقها المحلية إلى أسواق استهلاكية ، تفتح الأبواب على مصاريعها أمام الشركات الأجنبية لترويج منتجاتها ، وتراكم أرباحها .

أيها السيد الرئيس ، لقد قلت في مؤتمر القمة الإسلامي في الدوحة : « ديننا الإسلامي الحنيف دين الأخلاق ، والعدل ، والمحبة الذي تمّ تشويهه إعلامياً ، وثقيفياً ، وتربوياً ليغدو دين القتل ، والتطرف ، والإرهاب ، فكلما حدث اضطراب في منطقة ما من العالم وجّهت أصابعُ

الاتهام للإسلام ، ولو لم يكن للمسلمين وجودٌ في تلك المنطقة ، وكلُّ عملية تخريب ، أو عملٍ إرهابيٍّ منفَّذه هو مسلمٌ ، حتى يثبت العكس ، وغالبًا ما يثبت العكس ، أمّا الاتهام فيبقى كما هو .

إنّ علينا أن نعزّز الدين الإسلاميَّ الصحيح ، عقيدةً وسلوكًا ، ففيه تحصينٌ للإسلام والمسلمين ، وإضعافٌ لأعدائهم ، وهذا يبدأ بمكافحة وتجنّب كلِّ الممارساتِ الشاذّةِ الناجمة عن فهم خاطئٍ للدين ، والتي تسيءُ إليه بشكلٍ مباشرٍ ، وتعطي الآخرين من أصحاب النيات السيئة الحجةَ والمبرّرَ لوصفِ الإسلامِ بشئى الصفاتِ السلبيةِ والاإنسانية .

جزاك الله خيراً .

أيّها الإخوة المستمعون ، أيّها الأخوات المستمعات .

من مسلّمات الإيمان الحقّ أنه لن تستطيعَ قوّة في الأرض مهما طغت وبغت أن تفسد على الله هدايته لحلقه ، ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

ولكنه يسمح لهؤلاء الأقوياء أن يهدّدوا ليمتحن إيمان المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [١٧٦] فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿ [آل عمران : ١٧٣ - ١٧٤] .

فينبغي ألاّ نقلق على هذا الدّين ، لأنه دينُ الله ، ولكن ينبغي أن نقلق على أنفسنا فيما إذا سمحَ اللهُ لنا ، أو لم يسمح أن نكون جنوداً له ، ولكن إذا هان أمرُ الله علينا هنا على الله .

أيها السيّد الرئيس ، أنت ممن مكّنه الله في الأرض ، وإنجازاتك وطموحاتك لا تغيب عن أحد ، فقد أتاح الله للممكّنين في الأرض من الأعمال الجليلة ما لم يتّح لسواهم من الملايين المملينة ، وكلما ارتفع موقع الإنسان اتّسعت دائرة رؤيته ، وكثرت أمامه فرص الأعمال البطولية ، فبجّة قلم يحقّ حقاً ، ويُبطلُ باطلاً ، ويقرّ معروفاً ، ويزيل منكراً ، ويدعّم حرّاً مخلصاً ، ويبعدُ فاجراً منافقاً ، وإن الله يزعّ بالسلطان ما لا يزعّ بالقرآن ، وكلما ارتفع موقع الإنسان ازدادت مسؤوليته عند الله .

فأنت أيها السيّد الرئيس أثقلنا حملاً ، لذلك يقول الإمام مالك إمام دار الهجرة : « لو أن لي دعوة مستجابة لأدخّرتها لأولي الأمر ، لأن في صلاحهم صلاح الأمة » .

لهذا ندعو لك من أعماق قلوبنا أن يوفّقك الله لقيادة السفينة وسط الأمواج المتلاطمة إلى شاطئ السلامة ، وأن يجري الله الخير على يديك ، وأن ينفع الله بك البلاد والعباد ، وأن تكون ناصراً لدينه ، قوياً على أعدائه وخصومه ، وأن يمتّعك الله بالصحة والقوة ، أنت وأهلك ، وجميع من يعينك على أداء رسالتك ، وتحقيق طموحاتك .

يا رب أنت غني كلّ فقير ، وعزّ كلّ ذليل ، وقوة كلّ ضعيف ، ومفرج كلّ ملهوف ، فحاشا يا رب أن نفتقر في غناك ، وأن نضلّ في هداك ، وأن ندلّ في عزّك ، وأن نضام سلطانك ، فما من مخلوق يعتصم بك من دون خلقك ، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً ، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دونك إلا جعلت الأرض هويّاً تحت قدميه ، وقطعت أسباب السماء بين يديه .

اللهم انصرنا على أنفسنا حتى نتنصر لك ، فنستحق أن تنصرنا على أعدائنا ، ولا تجعلنا ممن هان أمر الله عليهم فهانوا على الله .

اللهم أعل كلمة الحق والدين ، وانصر الإسلام وأعز المسلمين ، وأذل الشرك والمشركين ، وانصر عبادك المؤمنين في كل مكان ، وفي العراق وفلسطين .

الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر .

والحمد لله رب العالمين ، وكل عام وأنتم بخير .

* * *

العبادات الشعائرية



الصَّيَامُ

إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ اِمْتَنَّ عَلَى عِبَادِهِ بِمَوْسَمِ الْخَيْرَاتِ ، فِيهَا تَضَاعَفُ الْحَسَنَاتُ ، وَتُمَحَّى السَّيِّئَاتُ ، وَتُرْفَعُ الدَّرَجَاتُ ، تَتَوَجَّهُ فِيهَا نَفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَوْلَاهَا ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾

[الشمس : ٩-١٠]

وإِنَّمَا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِهِ ، فَقَالَ :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

وَمِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ الصَّيَامُ الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ ، فَقَالَ :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ ، فَقَالَ :

﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى شُكْرِهِ عَلَى فَرَضِهِ ، فَقَالَ :

﴿ وَلِكُذِّبُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وَحَبَّبَهُ إِلَيْهِمْ ، وَخَفَّفَهُ عَلَيْهِمْ لئَلَّا تَسْتَقِيلَ النَفُوسُ تَرْكَ الْعَادَاتِ ،

وَهَجَرَ الْمَأْلُوفَاتِ ، فَقَالَ تَعَالَى :

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

وَرَحِمَهُمْ ، ونأى بهم عن الحرج والضّرر ، فقال تعالى :

﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

فلا عَجَبَ أَنْ تُقْبَلَ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الشَّهْرِ عَلَى رَبِّهَا الرَّحِيمِ ، يخافونه مِنْ فَوْقِهِمْ ، ويرجُونَ ثَوَابَهُ ، وَيَخْشَوْنَ عِقَابَهُ .

إِنَّ الصَّوْمَ عِبَادَةٌ مِنْ أَجْلِ الْعِبَادَاتِ ، وَقُرْبَةٍ مِنْ أَشْرَفِ الْقُرْبَاتِ ، وَطَاعَةٌ مَبَارَكَةٌ ، لَهَا آثَارُهَا الْعَظِيمَةُ وَالكَثِيرَةُ وَالْعَاجِلَةُ وَالْآجِلَةُ ؛ مِنْ تَرْكِهِ النَّفْسِ ، وَإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ ، وَحِفْظِ الْجَوَارِحِ مِنَ الْفِتَنِ ، وَالشَّرُورِ ، وَتَهْذِيبِ الْأَخْلَاقِ ، وَفِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى تَحْصِيلِ الْأَجُورِ الْعَظِيمَةِ ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ الْمُهِلِكَةِ ، وَالْفَوْزِ بِأَعْلَى الدَّرَجَاتِ .

وَالصَّوْمُ عَمَلٌ اخْتَصَّهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَعْمَالِ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : قَالَ اللَّهُ : « كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ . . . » (١) .

فَكَفَى بِذَلِكَ تَنْبِيهًا عَلَى شَرَفِهِ ، وَعِظَمِ مَوْقِعِهِ عِنْدَ اللَّهِ ، مِمَّا يُؤْذَنُ بِعِظَمِ الْأَجْرِ عَلَيْهِ ، وَفِي إِضَافَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْجُزَاءَ عَلَى الصِّيَامِ إِلَى ذَاتِهِ الْعَلِيَّةِ تَنْبِيهًا عَلَى عِظَمِ أَجْرِ الصِّيَامِ ، وَأَنَّهُ يُضَاعَفُ عَلَيْهِ الثَّوَابُ أَعْظَمَ مِنْ سَائِرِ الْأَعْمَالِ ، فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِئَةٍ ضِعْفٍ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِلَّا الصَّوْمَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي

(١) البخاري (٥٥٨٣) ، مسلم (١١٥١) .

بِهِ ، يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرَحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ ، وَفَرَحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ ، وَلَخُلُوفٌ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ » (١) .

فما ظنُّ المسلمِ بثوابِ عملٍ يجزي عليه الكريمُ الجوادُ بلا حسابٍ ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] .

إِنَّ الْإِخْلَاصَ أَظْهَرَ فِي الصِّيَامِ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ ، فَإِنَّهُ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، إِذْ بِإِمْكَانِ الصَّائِمِ أَنْ يَأْكُلَ ، وَيَشْرَبَ مُتَخْفِياً عَنِ النَّاسِ ، فَإِذَا حَفِظَ صِيَامَهُ عَنِ الْمَفْطَرَاتِ وَمَنْقَصَاتِ الْأَجْرِ ذَلِكَ عَلَى كَمَالِ إِخْلَاصِهِ لِرَبِّهِ ، وَإِحْسَانِهِ الْعَمَلَ ابْتِغَاءً وَجْهِهِ ، وَلِذَا يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ : « يَدْعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي » (٢) ، فَتَبَّ سُبْحَانَهُ عَلَى وَجْهِهِ اخْتِصَاصِهِ ، وَبِالْجِزَاءِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ .

وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، يَبْقَى الصَّائِمَ مَا يَضُرُّهُ مِنَ الشَّهَوَاتِ ، وَيُجَنِّبُهُ مِنَ الْآثَامِ الَّتِي تَجْعَلُ صَاحِبَهَا عُرْضَةً لِعَذَابِ النَّارِ ، وَتُورِثُهُ الشَّقَاءَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَاباً لَا نَجِدُ شَيْئاً ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ ، مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغْضَى لِلْبَصَرِ ، وَأَخْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ » (٣) .

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الصَّوْمَ قَامِعٌ لِلشَّهْوَةِ ، فَيَقْبِي صَاحِبَهُ عَنَّا الْعُزُوبَةِ

(١) البخاري (٥٥٨٣) ، مسلم (١١٥١) ، واللفظ له .

(٢) البخاري (١٧٩٥) ، مسلم (١١٥١) ، واللفظ له .

(٣) البخاري (١٨٠٦) ، مسلم (١٤٠٠) .

ومخاطرَها ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
 « قَالَ اللَّهُ : كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ،
 وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَزِفْتُ ، وَلَا يَصْحَبُ ، فَإِنْ
 سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ : إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ،
 لَخُلُوفٌ فِيمَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ ^(١) ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ
 يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » ^(٢) .

وفي المسندِ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا الصَّيَّامُ جُنَّةٌ يَسْتَجِبُ
 بِهَا الْعَبْدُ مِنَ النَّارِ ، هُوَ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ » ^(٣) .

مِنْ فضائلِ الصَّوْمِ أَنَّهُ مِنْ أسبابِ استجابةِ الدعاءِ ، ولعلَّ ورودَ قوله
 تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
 فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] بعد آيات
 الصيام ما ينبه على الصلة الوثيقة بين الصيام وإجابة الدعاء .

وَمِنْ فضائلِ الصَّوْمِ أَنَّهُ مِنْ أسبابِ تكفيرِ الذنوبِ ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ ،
 وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ » ^(٤) .

(١) قال ابن حجر في الفتح (٤/ ١٠٥) : « وافقوا على أن المراد به تغير رائحة فم الصائم بسبب الصيام » .

(٢) البخاري (١٨٠٥) ، مسلم (١١٥١) .

(٣) مسند الإمام أحمد (١٥٢٩٩) ، قال المناوي في فيض القدير (٤/ ٤٧٠) : [وأصل الجئة - بالضم - الترس ، شبه الصوم به لأنه يحمي الصائم عن الآفات] .

(٤) مسلم (٢٣٣) .

وَمِنْ فَضَائِلِ الصَّوْمِ أَنَّهُ يَشْفَعُ لَصَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الصَّيَّامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، يَقُولُ الصَّيَّامُ : أَيُّ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ ، فَشَفَعْنِي فِيهِ ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ : مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ ، فَشَفَعْنِي فِيهِ ، قَالَ : فَيُشَفَّعَانِ » (١) .

وَمِنْ فَضَائِلِ الصَّوْمِ فَرَحُ الصَّائِمِ بِمَا يَسَّرُهُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الصَّوْمِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ ، كَمَا فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ » (٢) وهذا من الفرح الم محمود ، لأنه فرح بفضل الله ورحمته ، ولعلَّ فرحه بفطره لأنَّ الله منَّ عليه بالهداية إلى الصيام ، وبالإعانة عليه حتَّى أكمله ، وبما أحله الله له من الطيبات التي يكسبها الصائمون لذة وحلاوة لا توجد في غيره ، ويفرح عند لقاء ربِّه ، حين يلقي الله راضياً عنه ، ويجد جزاءه عنده كاملاً موفوراً .

ومما يدلُّ على فضل الصيام ، وطيب عاقبته في الآخرة حديث : « كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ ، فَإِنَّهُ لِي ، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَلِخُلُوفٍ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ » (٣) .

وإنَّما كانت هذه الریح طيبةً عند الله تعالى مع أنَّها كريهةٌ في الدنيا ، لأنَّها ناشئةٌ عن طاعةٍ ، فهي محبوبَةٌ لديه ، ولعلَّ في الحديث الشريف

(١) مسند الإمام أحمد (٦٦٢٦) .

(٢) البخاري (١٨٠٥) ، مسلم (١١٥١) .

(٣) البخاري (٥٥٨٣) ، مسلم (١١٥١) عن أبي هريرة .

ما يشير إلى أن هذا الخلف الذي يفوح يوم القيامة من فم صاحبه أطيب من ريح المسك ، حين يقف بين يدي ربه ، مثله كمثل الشهيد حين يأتي يوم القيامة ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ مَّكْلُومٍ يُكَلِّمُ ^(١) فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكَلِمُهُ يَذْمَى اللُّونَ لَوْنُ دَمٍ ، وَالرَّيْحُ رِيحُ مِنْكَ » ^(٢) .

ومن فضائل الصيام أن الله اختص أهله بباب من أبواب الجنة ، لا يدخل منه سواهم ، فينادون منه يوم القيامة إكراماً لهم ، وإظهاراً لشرفهم ، كما في الصحيحين عن سهل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَاباً يُقَالُ لَهُ الرِّيَّانُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، يُقَالُ : أَيْنَ الصَّائِمُونَ ؟ فَيَقُومُونَ ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ ، فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ » ^(٣) ، انظروا كيف يُقَابِلُ عَطَشُ الصَّائِمِ فِي الدُّنْيَا بَابَ الرِّيَّانِ فِي الْجَنَّةِ ، فِي يَوْمٍ يَكْثُرُ فِيهِ الظَّمَا .

إن شهر رمضان شهر الصبر ، فالبناء الأخلاقي أساسه الصبر ، الذي هو قرين الصوم ، وسميه ، حتى سمي الصوم صبراً ، كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى :

(١) قال ابن حجر في الفتح (٢٠ / ٦) : [قوله لا يكلم بضم أوله وسكون الكاف وفتح اللام أي : يجرح] .

(٢) صحيح البخاري (٥٢١٣) ، مسلم (١٨٧٦) .

(٣) صحيح البخاري (١٧٩٧) ، مسلم (١١٥٢) ، قال النووي في شرح صحيح مسلم (١١٦ / ٧) : [قال العلماء : سمي باب الريان تنبيهاً على أن العطشان بالصوم في الهواجر سيروى ، وعاقبته إليه ، وهو مشتق من الري] .

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة : ٤٥] ، قالوا : الصوم والصلاة ،
وسُمِّيَ رمضانُ شهرَ الصبرِ ، والصبرُ جزاءُ الجنة ، وهو سيّدُ أخلاقِ
الإسلام ، وبغيره لا يثبتُ المسلمُ أمامَ التَّحَدِّيَّاتِ في دينه ، ودعوته ،
ولا يتحمَّلُ مشكلاتِ الحياة ، وتبعاتها ، ومصائبها التي لا ينفكُّ عنها
بحالٍ ، فالفوزُ في الآخرة ، والسعادةُ في الدنيا ثمرتانِ مِن ثمارِ الصبرِ .
الصبرُ هو إكسيرُ الحياة الذي يُحوِّلُ بإذنِ ربِّه الصعابَ إلى رغائبٍ ،
والهمومَ إلى أفراحٍ .

والصبرُ هو علاجُ كلِّ داءٍ ، وحلُّ كلِّ مشكلةٍ ، وتذليلُ كلِّ عقبةٍ ،
﴿وَأِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وَيَتَجَلَّى البناءُ الأخلاقيُّ في الرُّقِيِّ بالنفسِ إلى مدارجِ العبودية ،
والتخفُّفِ مِن أوزارِ الطينِ ، وثِقَلِ الأرضِ ، لتستشرفَ النفسُ آفاقَ
الإيمانِ ، وتستشعرَ شيئاً مِنَ الأنسِ بالقربِ مِن فاطرها وبارئها ، وتسبحَ
في ملكوتها .

فالإنسانُ إنسانٌ بروحه ، وشفافيته قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إنساناً بجسده ، واللهُ
دُرٌّ مَنْ قَالَ :

يا خادِمَ الجسمِ كم تشقى بخدمته أتطلبُ الرِّيحَ فيما فيه خسرانُ
أقبلُ على النفسِ واستكملُ فضائلها فأنت بالروحِ لا بالجسمِ إنسانُ

ويتجَلَّى في الإِثَارِ ، والإِحْسَانِ ، ومعايشةِ آلامِ الآخرينَ ،
ومقاسمتهم السَّراءِ والضَّرَّاءِ ، وذوقِ شيءٍ ممَّا يجدونَ ، ولِئِنْ ذَاقَهُ الصَّائِمُ
تَعَبُداً واختياراً فلقد ذَاقَهُ الفقراءُ عجزاً واضطراراً ، ولِئِنْ عَانَاهُ الصَّائِمُ وَقْتاً

محدوداً فهو عندهم عناءٌ ممدودٌ ، ولهذا كان رمضان شهرَ الزكاة ، كما سَمَّاه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ونهايته زكاةُ الفطر التي يشارك المسلمون فيها الإحساسَ بفرحة العيد ، فلا يدعون أحداً منه إلا واسوهُ ، حتى إن فقراءهم يُخْرِجون زكاةَ الفطر إن استطاعوا ليذوقوا طعمَ الإنفاق ، ولو مرةً في العام .

ويتجلى في الإمساكِ بزمامِ النفسِ عن اندفاعاتها وحماقاتِ صاحبها ، فالصائمُ مقيّدٌ بشعورٍ دائمٍ يحمله على الكفِّ عمّا لا يليقُ ، وربما أدرك كثيرٌ من الصّائمين هذا المعنى قَبْلَ أَنْ يُهْلَ رمضانُ ، كما يحقق الصومُ معنى الانتسابِ الأمميِّ ، وتبعاته ، ومظاهره ، فهو عبادةٌ يشترك فيها المسلمون في كلّ مكانٍ ممّا يعمّقُ معنى الإخاء الدينيِّ ، وانولاءِ الشرعيِّ ، ويذكّرُ بوجودِ الانعتاقِ مِنَ الروابطِ المنافية لذلك ، وينهى أَنْ توضعَ الروابطُ العاديةُ البشريةُ في مكانٍ غيرٍ صحيحٍ ، فلا تتحوّلُ إلى علاقةٍ تساوي العلاقةَ الربانيةَ بين أهلِ الإسلامِ ، وكم يتمنّى المرءُ أَنْ يستطيعَ المسلمون توحيدَ صيامهم وفطريهم ليتعمقَ معنى الأمة الواحدة ، ولتذوبَ الفواصلُ والعوائقُ التي تتراكمُ بمرورِ الزمانِ ، فيكونَ الجسدُ الواحدُ رقعةً متناثرةً ، يهدمُ كلّ طرفٍ منها ما بناه الآخرُ .

إنّ تجاوزَ هذه التناقضاتِ يتطلّبُ صدقاً وارتفاعاً عن المصالحِ الخاصّةِ ، والانتماءاتِ الأرضيةِ ، وإيثاراً لروح الجماعةِ على أنانيةِ الذاتِ ، فهل نحن فاعلون ؟

والصومُ يذكّرُ المسلمَ بالجهادِ الذي هو حراسةُ هذا الدينِ ، وذرورةُ سنّامِهِ ، وسطوتهُ على مناوئِهِ ، فلقد كان تاريخُه الشهريُّ ملتبساً بالمواقعِ

الفاصلة ، مِنْ بَذْرِ تاجِ معاركِ الإسلامِ إلى فتحِ مكة ، التي كانت إيذاناً ببسطِ سلطانه على جزيرة العرب ، إلى حِطِّين ، إلى عينِ جالوت ، والكتابُ الذي آذَنَ المسلمين بأنه قد كُتِبَ عليهم الصيامُ هو الذي آذَنَهُمْ بأنه قد كُتِبَ عليهم القتالُ ، لكنه ليس قتالاً بنصرةِ عنصرٍ ماجنٍ ، ولا لتسلُّطِ ظالمٍ طاعنٍ ، ولا لجبايةِ أموالٍ حرامٍ ، ولا لاحتلالِ منابعِ الثروات ، لكنه لتكونَ كلمةُ الله هي العليا ، وحتى لا تكونَ فتنةٌ ، ويكونَ الدينُ كلهُ لله .

والجهادُ إيذانٌ ، لأنه ليس كلُّ الناسِ يؤمنون بالدعوة ، بل هناك الرؤوسُ المتغطسةُ ممّا لا يلينُ إلا بالقوة ، والحديدُ بالحديدِ يُفْلَحُ ، ولهذا بعثَ اللهُ رسوله بالكتابِ وبالحديدِ ، فقال سبحانه :

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فالكتابُ والبيّناتُ أصلُ الرسالة ولُبُّها ، والحديدُ سورها وحمايُتها ، والذين يقارعون البغيَ والظلمَ في فلسطينَ وغيرها من بلادِ المسلمين التي احتلّها الأعداءُ ، واستباحوا خيراتها هم النوابُ عن الأمةِ في الحفاظِ على هذه الشريعةِ العظيمةِ ، فحقُّ على الأمةِ أن تكونَ من ورائهم بالنصرةِ الصادقةِ ، وليس بالعاطفةِ وخدّها .

إننا نشهدُ المزيدَ من إزهاقِ الأرواحِ في منطقتنا ، ونرى الأمةَ العربيةَ والإسلاميةَ تضيفُ إلى رصيدها المزيدَ مِنَ الفقرِ والجوعِ ، والكثيرِ مِنَ الظلمِ ، والاضطهادِ ، كما رأيناها تبتعدُ أكثرَ فأكثرَ عن هويّتها حتى تكادُ

تذوُّبٌ في هويات الآخرين ، وفي المقابل كانت دولٌ أخرى تزدادُ صغياناً واستغلالاً ، تشرُّعٌ للغير قتلها وتدميرها ، ممَّا أدَّى إلى تزايدِ شدةِ التناقضاتِ والمفارقاتِ في مناطقٍ مختلفةٍ مِنَ العالمِ .

هل يعودُ رمضانُ الذي عرّفه المسلمون ينبضُ بالروح ، والحياة ، والعطاء ، وليس بالنوم ، وضياحِ الأوقاتِ ، والتسابقِ إلى الملذّاتِ ، والسهرِ في الخيامِ التي ترتكّبُ فيها المعاصي والآثامُ .

جاءَ في تفسيرِ قوله تعالى :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] : « هذا تعليلٌ لِفَرَضِيَةِ الصَّيَامِ ببيانِ فائدتهِ الكبرى ، وحكمتهِ العليا ، وهو أنّه يُعِدُّ نَفْسَ الصَّائِمِ لَتَقْوَى اللَّهِ عز وجل بتركِ شهواتِهِ الطبيعيةِ المباحةِ الميسورةِ امثالاً لأمرِهِ ، واحساساً للأجرِ عنده ، فَتَتَرَبَّى بِذَلِكَ إِرَادَتُهُ عَلَى مَلَكََةِ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ المحرّمةِ ، والصبرِ عنها ، فيكونَ اجتنابُها أيسَرَ عليه ، وَتَقْوَى نَفْسُهُ عَلَى النُّهُوضِ بالطاعاتِ ، والاصطبارِ عليها ، فيكونَ الثباتُ عليها أهونَ عليه ، ولهذا قَالَ ﷺ : « . . . وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ . . . »^(١) .

وَالصَّيَامُ مِنْ أَجْلِ التَّقْوَى كما وردَ في الآية ، وَمِنْ عَظِيمِ إِكْرَامِ اللَّهِ عز وجلّ أَنَّهُ جَعَلَ التَّقْوَى مَخْرَجاً لِلإِنْسَانِ مِنْ كُلِّ ضَيِّقٍ ، قَالَ تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ [الطلاق : ٢] ، وَإِنَّ إعْجَازَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي إِيْجَازِهَا ، وَبِلَاغَتِهَا فِي إِطْلَاقِهَا .

(١) الترمذي (٣٥١٩) ، ابن ماجه (١٧٤٥) ، الدارمي (٦٥٤) عن جرير النهدي عن رجل من بني سليم .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنِّي لَا عَلَمُ آيَةٍ لَوْ أَخَذَ بِهَا النَّاسُ لَكَفَنَتْهُمْ :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (١) .

فحينما تضيقُ الأمورُ كما هي الآن ، وتستحِكِمُ الحلقاتُ ، وتسدُّ المنافذُ ، وتنتصبُ العقباتُ ، ويقنطُ الإنسانُ تأتي التقوى فتتسعُ بها المضائقُ ، وتُحلُّ بها العقْدُ ، وتفتحُ بها المسالكُ ، وتُدلُّ بها العقباتُ .

فمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ عِنْدَ نَزْوِلِ المصيبةِ ، فيوحِّده ، ويصبرَ لحُكْمِهِ ، ويرضَ بقضائه ، ويثبتَ على مبدئه ، واستقامته يجعلُ اللهُ له مخرجاً مِنْ هذه المصيبةِ ، فيبدلُ ضيقه فرجاً ، وخوفه أمناً ، وعُسره يُسراً .

فمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ، ولا يسمحُ للأفكارِ الزائفةِ أَنْ تأخذَ طريقها إلى عقله يجعلُ اللهُ له مخرجاً مِنَ الضياعِ ، والحيرةِ ، والضلالِ ، وخيبةِ الأملِ .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ ، فيبرأ مِنْ حوله ، وقوته ، وعلمِهِ يجعلُ اللهُ له مخرجاً ممَّا كَلَّفَهُ به بالمعونةِ عليه .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فيقفُ عِنْدَ حدودِ اللهِ ، ولا يقربُها ، ولا يتعدَّها يجعلُ اللهُ له مخرجاً ممَّا كَلَّفَهُ به مِنَ الحرامِ إلى الحلالِ ، وَمِنَ الضيقِ إلى السَّعةِ ، وَمِنَ النارِ إلى الجَنَّةِ .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ في كسبِ رزقه ، فيتحرَّ الحلالَ الذي يُرضي اللهُ عزَّ وجلَّ يجعلُ اللهُ له مخرجاً مِنْ تقثيرِ الرزقِ بالكفايةِ ، ومن إتلافِ المالِ بحفظه ونمائِهِ .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي اتِّبَاعِ السُّنَّةِ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ ضَلَالِ أَهْلِ
الْبَدْعِ ، وَنَتَائِجِ ابْتِدَاعِهِمْ .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي اخْتِيَارِ زَوْجَتِهِ ، وَفِي التَّعَامُلِ مَعَهَا يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مَعَهَا
مِنْ الشَّقَاءِ الزَّوْجِيِّ مَخْرَجًا .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ عَقُوبِهِمْ .

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فِي اخْتِيَارِ عَمَلِهِ ، وَحَسَنِ أَدَائِهِ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ
إِخْفَاقِهِ فِيهِ .

لَمَّا كَانَتِ النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ تَتَوَقَّ إِلَى تَنَاوُلِ مَا تَشْتَهِيهِ ، فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ
مَا يَزَكِّيْهَا ، وَيَطْوَعُهَا لَطَاعَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تُدَرِّبَ عَلَى الصَّبْرِ عَنْ تَنَاوُلِ
الطَّيِّبَاتِ الَّتِي أَبَاحَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، إِذْ أَمَرَهَا بِتَرْكِهَا ، وَمِنْ أَعْظَمِ شَهَوَاتِ
النَّفْسِ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ ، وَغَيْرُهُمَا ، وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِ هَذِهِ
الْأُمُورَ الَّتِي لَا يَسْتَغْنِي عَنْهَا فِي حَيَاتِهِ كُلِّهَا فِي نَهَارِ شَهْرِ رَمَضَانَ بِأَكْمَلِهِ ،
فَإِذَا تَرَكَهَا مُخْلِصًا لِلَّهِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ مِنَ الزَّمَنِ ، فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ جَدِيرًا بِأَنْ
يَكُونَ مِنَ الْمَجَاهِدِينَ لِأَعْدَائِهِ الْمَلَازِمِينَ ، وَهُمْ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسُّوءِ ،
وَالْهَوَى الْمُرْدِي ، وَالشَّيْطَانُ الْمُغْوِي ، وَالَّذِي يَنْجَحُ فِي هَذَا الْجِهَادِ
الْأَكْبَرِ يَسْهَلُ عَلَيْهِ الْجِهَادُ الْأَصْغَرُ ، وَهُوَ قِتَالُ عَدُوِّهِ الْخَارِجِيِّ ، وَمَنْ لَمْ
يَنْجَحْ فِي جِهَادِ عَدُوِّهِ الْمَلَازِمِ لَهُ يَصْعَبُ عَلَيْهِ جِهَادُ عَدُوِّهِ الطَّارِئِ ، لِأَنَّ
الَّذِي لَمْ يُرَوِّضْ نَفْسَهُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ فِيمَا هُوَ
أَخْفُ عَلَيْهِ ، كَالصِّيَامِ مَثَلًا ، فَمِنْ الصَّعْبِ عَلَيْهِ أَنْ يَقِفَ فِي الصَّفِّ
لِمُقَارَعَةِ الْأَعْدَاءِ ، يَسْتَقْبِلُ بِصَدْرِهِ وَنَحْرِهِ قَذَائِفَ الْمَدَافِعِ ، وَرِمَاصَ

البنادق ، وأطراف الرماح ، وحد السيوف .

حينما يكون المسلمون استثناءً سلبياً داخل مجتمعات أكثر تقدماً وتطوراً فهذا أمرٌ ينذر بالخطر ، لأنه يعطي الآخرين انطباعاً مباشراً ، لأن سبب هذا التخلف يعود إلى تعاليم الدين ذاته ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ رَبَّنَا لَا جَعْلَنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[الممتحنة : ٥]

المشكلة تعود إلى اغترار بعض المسلمين بانتسابهم إلى هذا الدين ، ظانين أنه بمجرد الحصول على لقب (مسلم) يُعفيهم من الالتزام والتقيد بمنهج الله ، أو أن الحصول على جانب من الصلاح يُعفيهم من استكمال النقص ، أو قبول النصيحة ، قال تعالى :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : ١٨] .

وذكر الله لنا قصص الأقوام السابقة للاعتبار ، ولهذا قال سبحانه بعدما ذكر قصة بني النضير :

﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] .

والاعتبار هو القياس ، والنظر ، وربط الشيء بمثله ، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يعيب على الأقوام السابقة من قبلنا ألواناً من الانحرافات والمخالفات ، فما ذلك إلا لنجنتيها ، ولهذا كان مما يقرأه المسلم في كل صلاة ، بل في كل ركعة :

﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦-٧] .

يقول العلماء :

﴿ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ هم الذين عرفوا وانحرفوا ، و﴿ الضَّالِّينَ ﴾ هم الذين ما عرفوا وانحرفوا ، فَمَنْ كان عنده علمٌ وصدقٌ في تصوُّراته ، ولكن لم يكن عنده عملٌ فهذا من المغضوبِ عليهم ، وَمَنْ لم يكن عنده تصوُّرٌ صحيحٌ ، وإنما كان عنده عملٌ على غير هدىٍ مِنَ الله وبصيرةٍ فإنه مِنَ الضَّالِّينَ ، ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦-٧] .

إِنَّ مِنَ الحَوَاجِزِ التي تَحُولُ بين الناسِ وقبولِ النصيحةِ هو ادعاءُ العصمةِ ، وعدمُ رؤيةِ العيوبِ ، لقد وردَ في القرآنِ الكريمِ فضلُ هذه الأمةِ ، والثناءُ عليها ، ولكنَّ هذا الفضلَ ليس فضلاً يتوارثونه ، لأنَّهم عربٌ ، وعاشوا في الأمصارِ ، وفي البلادِ العربيةِ ، فالأرضُ لا تقدَّسُ أحداً ، والقبيلةُ لا تقدَّسُ أحداً ، إنما يقَدَّسُ الإنسانُ بعملِهِ ، ليس غير .

إِنَّ مَثَلِ الملايينِ مِنَ المسلمين اليومَ يَرَوْنَ أَنَّ مجردَ انتسابِهِم إلى هذا الدينِ يكفي لنجاتِهِم في الآخرةِ ، ولصلاحِهِم في الدنيا ، حتى لو لم يفهموا حقيقتهُ ، ولم يطبَّقُوا تعاليمَهُ ، ولم يمثِّلُوا قِيَمَهُ ، وربما تجدُ عندَ أَحَدِهِم مِنَ الثقةِ بالفوزِ والنجاةِ في الدارِ الآخرةِ أعظمَ مِنَ ثقةِ العشرةِ المبشرين بالجنةِ ! وأما ما يتعلَّقُ بالدنيا فربما تجدُ الواحدَ منهم يكدِّحُ فيها ليلاً ونهاراً ، ويضني بكدِّه وجوارحه ، ولكنَّ من دونِ جدوى ، لأنه لم

يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ ، ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الكثيرون يطلبون قضاء حوائجهم ، وتفريج كربهم ، وسداد ديونهم ، وتزويج عوانسهم^(١) ، وإزالة مشكلاتهم ، ورد غائبهم ، ونصرتهم على أعدائهم بدعاء من دون عمل ، أو يتوقعون الفرج هدية رخيصة تأتي من دون ثمن ، ولم لا ؟ أو ليسوا بالمسلمين ؟ ! هنا موطن الخلل ، ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

إن السنن والنواميس لا تحابي ، ولا تجامل أحداً ، والله تعالى يقول : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَحِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [البقرة : ١٢٣] وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣-١٢٤] .

إن كوني من الصالحين لا يسمح لي أن أجعل هذا الصلاح ترساً أرفعه في وجه كل من يريد نصحي ، أو الاستدراك علي ، أو تصحيح خطأ مظنون أو مقطوع ، وهل الصلاح إلا قبول النصيحة من الآخرين ؟

إن الإسلام نفسه دين عمل ، العمل للدنيا ، والعمل للآخرة ، والعمل للنفس ، والعمل للغير ، ليست المشكلة إثبات حسن النية فقط ، فديننا هو دين النيات الطيبات ، والأعمال الصالحات ، أما الطاعة فهي لله وحده ، مع الالتزام بالإسلام ، وفي الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ

(١) قال في لسان العرب (مادة عنس) : [عَنَسَتِ الْمَرْأَةُ تَعْنُسُ ، بِالضَّمِّ ، عُنُوسًا وَعُنَاسًا ، وَهِيَ عَانِسٌ ، مِنْ نِسْوَةِ عُنُسٍ ، وَعَوَانِسٌ ، وَعَنْسَتْ ، وَهِيَ مُعْنَسٌ ، وَعَنْسَهَا أَهْلُهَا : حَبَسُوهَا عَنْ الْأَزْوَاجِ ...] .

قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ » (١) .

وإن المرء يثاب على عمله ، حتى على عمله الدنيوي ، ولذلك يقول النبي ﷺ فيما رواه البيهقي بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ » (٢) ، وهذا يشمل كل عمل يقوم به المرء مما هو داخل في دائرة المباح ، فكيف بالمستحب أو الواجب ، سواء كان وجوبه بأصل شرعي ، أو كان بتحمُّله المسؤولية وتبعات المسؤولية بموجب العقد والاتفاق .

وفي الحديث الآخر عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيدَ أَحَدُكُمْ فَسِيلَةً فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ » (٣) .

وهكذا يرفع الإسلام من قيمة العمل حتى حين يتيقن الإنسان الأثرمة تحسب له من ورائه ، ويوجه المسلم إلى احتساب الأجر والثواب ، وهو يغرس فسيلة قد ينتفع بها إنسان أو طير ، يحتسب هذا عند الله .

(١) صحيح مسلم (٢٦٦٤) ، ابن ماجه (٧٩) .

(٢) البيهقي في الشعب (٥٣١٢) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٨٩٧) عن عائشة .

(٣) مسند أحمد (١٣٠٠٤) ، قال المناوي في فيض القدير : (٣٠ / ٣) : [إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ أَيْ الْقِيَامَةُ ، سَمِّيَتْ بِهِ لَوْقُوعُهَا بَغْتَةً ، أَوْ لِسْرَعَةِ حِسَابِهَا ، أَوْ لَطَوْلِهَا ، فَهُوَ تَلْمِيحٌ ، كَمَا يُقَالُ فِي الْأَسْوَدِ : كَافُورٌ ، أَوْ لِأَنَّهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى طَوْلِهَا كَسَاعَةِ مِنَ السَّاعَاتِ . . . وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ أَيْهَا الْآدَمِيُونَ فَسِيلَةً ، أَيْ نَخْلَةً صَغِيرَةً ، إِذَا انْفَسِلَ صَغَارُ النَّخْلِ ، وَهِيَ الْوَدْيُ ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ مَحَلِّهِ ، أَيْ الَّذِي هُوَ جَالِسٌ فِيهِ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا] .

وَمِنَ الْوَاجِبِ الْمَلْحُ التَّربِيَةُ عَلَى هَذَا ، حَيْثُ إِنَّ النِّسْبَ الشَّرِيفَ لِلْإِسْلَامِ يَتَطَلَّبُ أَنْ يَكُونَ الْمَرْءُ عَلَى الْقَدْرِ الشَّرْعِيِّ الْمَقْبُولِ الْإِلَازِمِ مِنْ أَدَاءِ وَاجِبَاتِ هَذَا الْإِنْتِسَابِ ، وَتَرْكِ مَنْهِيَّاتِهِ أَوْ مُحَرَّمَاتِهِ .

وَيَجِبُ أَيْضاً أَنْ يَتَمَّ بوضوح الفصل بين الإسلام وممارسة المسلمين ، أفراداً أو جماعاتٍ أو كياناتاً ، فالإسلام دينٌ ربَّانِيٌّ مُحَكَّمٌ مَهِيْمٌ ، وَهُوَ الْمَرْجِعِيَّةُ لِلْحَكَمِ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَتَصْحِيحِهَا ، أَمَّا عَمَلُ النَّاسِ وَسُلُوكُهُمْ فَهُوَ قَابِلٌ لِلنَّقْضِ ، وَالْمَرَاجَعَةِ ، وَالتَّصْحِيحِ ، وَالْمُلَاحَظَةِ ، وَالنَّصِيحَةِ .

* * *

آيَةُ اللَّهِ فِي مَخْلُوقَاتِهِ : الذُّبَابُ

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج : ١٧٣] .

قالوا : إزعاجُ الذبابِ ، وإيذاؤُهُ ، وما يُسَبِّبُهُ من أمراضٍ قد صَرَفَ الْأَنْظَارَ عَنِ التَّأَمُّلِ فِي هَذِهِ الْحَشَرَةِ ، الَّتِي تُعَدُّ أَعْجُوبَةً فِي الْخَلْقِ الْإِلَهِيِّ .

لقد ضَرَبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِلنَّاسِ الذُّبَابَةَ مَثَلًا ، هَذَا الْمَخْلُوقُ الضَّعِيفُ الْمُسْتَقْدَرُ ، الَّذِي يَتَكَاثَرُ بِسُرْعَةٍ جُنُونِيَّةٍ ، وَالَّذِي يَبْدُو ضَعِيفًا ، فَلَوْ أَنَّكَ رَشَشْتَ مَكَانًا مَوْبُوءًا بِالذُّبَابِ ، وَقَضَيْتَ عَلَى كُلِّ الذُّبَابِ إِلَّا ذُبَابَةً وَاحِدَةً لَأَنْتَجَتْ هَذِهِ الذُّبَابَةُ جَيْلًا مِنَ الذُّبَابِ يَقَاوِمُ هَذِهِ الْمَادَّةَ الَّتِي رَشَشْتَهَا

في هذا المكان ، فتصنع المضادات الحيوية عند الذباب شيءٌ معجزٌ ، أي شيء يقضي على الذباب تصنع الذبابة في أجهزتها الدقيقة مضاداً حيوياً يُكسبها مناعةً ضد هذه المادة الفعالة ، حتى إن الذباب إذا مات في البرد ينجبُ جيلاً يقاومُ البرد .

كُثِرَتْ عَيْنُ الذبَابَةِ مِثْلَ المِرَاتِ ، فكان من هذا التكبير العجبُ العجائبُ ، آلافُ العدساتِ المرصوفةِ بعضها إلى جانبِ بعضٍ تحققُ للذبابة رؤيةً كاملةً ، فهذا المخلوقُ الضعيفُ الذي يشمِّرُ الناسُ منه يستطيعُ أن يُناوِرَ مناورةً لا تستطيعُ أعظمُ الطائراتِ الحربيةِ وأحدثُها أن تفعلَ فعلَها ، إنها تسيرُ بسرعةٍ فائقةٍ بالنسبةِ إلى حجمِها ، وتستطيعُ أن تنتقلَ فجأةً إلى زاويةٍ قائمةٍ ، وتستطيعُ أن تنتقلَ من سقفٍ إلى سقفٍ ، وهذا شيءٌ لا تستطيعُ طائرةٌ في الأرض أن تفعله ، قال تعالى :

﴿ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ .

أما الذي يلفت النظرَ فحديثُ سيِّدِ البشر ، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ، ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ ، فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ ، وَالْأُخْرَى شِفَاءٌ » (١) .

وفي رواية (٢) : « فَأَمَقِلُوهُ » ، أي اغمسوه .

أَكَّدَ العِلْمُ الحديثَ صحَّةَ هذا الحديثِ ، فقد كُشِفَ أَنَّ في بعضِ جناحي الذبابة مادةً ترياقيةً مضادةً للجراثيم ، ولأنواعِ الميكروبات ، فإذا

(١) البخاري (٣١٤٢) ، وأبو داود (٣٨٤٤) ، وابن ماجه (٣٥٠٥) ، وأحمد (٧١٤١) .

(٢) أبو داود (٣٨٤٤) عن أبي هريرة ، وابن حبان (١٢٤٧) عن أبي سعيد .

علِقَ بأرجلِ الذبابةِ بعضُ الجراثيمِ ، أو المكروباتِ ، أو البكترياتِ الضارةِ ، ووقعَ هذا الذبابُ في سائلٍ فعليكَ أن تغمسَ الجناحَ الثاني ، فإنَّ في بعضِ الأجنحةِ الدواءَ الترياقَ المضادَّ لهذه الجراثيمِ ، قال تعالى :

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لِلَّهِ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ١٧٣] .

من وظائفِ هذه الحشرةِ أنها تنقيَ الهواءَ بقضائِها على النباتاتِ والعضوياتِ المتفسخةِ ، ولكنَّ الذبابةَ الواحدةَ تحمِلُ في طياتِها ما يزيدُ على خمسمئةِ مليونِ جرثومٍ ، ووجودُ الذبابِ في مكانٍ ما مؤشِّرٌ على أنَّ هذا المكانَ ليس نظيفاً ، فكأنَّها رادعٌ قويٌّ كي نُنظِّفَ أَفْنِسَتَنَا كما وجَّهنا النبيُّ عليه الصلاة والسلامُ .

إنها سريعةُ التنقُّلِ ، بينما هي على مائدتكِ إذا هي في يومٍ ثانٍ في مكانٍ تزيدُ مسافتهُ على عشرةِ كيلو متراتٍ ، وتنجبُ جيلاً كاملاً كلَّ عشرةِ أيامٍ ، توالدها عجيَّبٌ .

أما الشيءُ الذي لا يكادُ يُصدَّقُ فهو أنَّ جُمْلَتَهَا العصبيةَ تشبهُ الجملةَ العصبيةَ عند الإنسانِ ، وعينُ الذبابةِ غايةٌ في القوَّةِ ، وغايةٌ في قوَّةِ الإبصارِ ، ولها إدراكٌ عاليُ المستوى ، وقد تتصرَّفُ بغضبٍ شديدٍ إذا ما لاح لها خطرٌ ، فهي تغضبُ ، وتحسُّ بالألمِ ، ووزنُ دماغِها واحدٌ من مليونِ جزءٍ من الغرامِ ، وهو يعملُ بأعلى كفايةٍ ، وفي الذبابةِ جُمْلَةٌ مِنَ الغُدَدِ ، ولها ذاكرةٌ تستمرُّ دقيقتينِ .

والذباب أنواعٌ منوعةٌ تزيدُ على مئاةِ ألوفٍ ، منه ذبابٌ مفترسٌ ، ونوعٌ كالنحلةِ يمتصُّ الرحيقَ ، ونوعٌ يُخَمِّرُ الفاكهةَ ، ونوعٌ ينافسُ الطائراتِ في مناورتها ، وفي سرعتها ، وتستطيعُ أنْ تُضَلِّلَ مُطارِدَها ، وتسخرَ منه .

فإذا كان الخلقُ جميعاً في أرقى عصورهم العلميّةِ عاجزين عن أنْ يخلقوا ذباباً فقد قال الخلاقُ العليمُ :

﴿وَأَن يَسْلُبَهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٦) .

كيف عَرَفَ الحديثُ النبويُّ هذه الحقيقةَ ، مِنْ أين عَرَفَهَا ؟ أكان هناك تحليلٌ عنده ؟ أكان هناك معاملٌ للتحليل ؟ أكان هناك ميكروسكوبات ؟ كيف قال النبيُّ ﷺ : « إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ ، ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ فَإِنَّ فِي إِحْدَى جَنَاحَيْهِ دَاءٌ ، وَالْأُخْرَى شِفَاءٌ » ، وكيف أنَّ العلمَ الحديثَ أثبتَ ذلك ؟

إنْ هو إلا وحيُّ يوحى ، وإنَّ السنّةَ المطهرةَ ، بل إنَّ ما تواترَ من السنّةِ المطهرةِ قطعيُّ الثبوتِ ، ومنه ما هو قطعيُّ الدلالةِ ، ومنْ أنْكَرَهُ فَقَدْ كَفَرَ .

دَقُّقُوا فِي آيَاتِ اللَّهِ الَّتِي بَشَّاهَا فِي الْكُونِ ،

﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

قال ابنُ القيمِ في (الطبِّ النبويِّ) معلّقاً على حديثِ إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ

فِي شَرَابٍ أَحَدِكُمْ . . . : « هذا الحديث فيه أمران ، أمرٌ فقهي ، وأمرٌ طبي . . . وأما المعنى الطبي فقال أبو عبيد : معنى أمقلوه اغمسوه ، ليخرج الشفاء منه كما خرج الداء . . . واعلم أن في الذباب قوة سُمِّيَّة يدُلُّ عليها الورم والحكة العارضة عن لسع ، وهي بمنزلة السلاح ، فإذا سقطَ فيما يؤذيه اتقاهُ بسلاحه ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُقَابَلَ تِلْكَ السُّمِّيَّةُ بِمَا أُوْدَعَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي جَنَاحِهِ الْآخِرِ مِنَ الشِّفَاءِ ، فَيُغْمَسُ كُلُّهُ فِي الْمَاءِ وَالطَّعَامِ ، فَيُقَابِلُ الْمَادَّةُ السُّمِّيَّةُ الْمَادَّةَ النَّافِعَةَ فَيَزُولُ ضَرَرُهَا ، وَهَذَا طِبٌّ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ كِبَارُ الْأَطْبَاءِ ، وَأَثْمَتُهُمْ ، بَلْ هُوَ خَارِجٌ مِنْ مَشْكَاتِ النُّبُوَّةِ ، وَمَعَ هَذَا فَالطَّبِيبُ الْعَالِمُ الْعَارِفُ الْمَوْفِقُ يَخْضَعُ لِهَذَا الْعِلَاجِ ، وَيَقْرَأُ لِمَنْ جَاءَ بِهِ بِأَنَّهُ أَكْمَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَأَنَّهُ مُؤَيَّدٌ بِوَحْيِ إِلَهِيٍّ خَارِجٍ عَنِ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةِ »^(١) .

* * *

حقائق عن الحجّ

إنّ الحجّ هو الفريضة البدنية المالية الشعائرية ، وهي في حقيقتها رحلة قلوب ، لا رحلة أبدان ، هي في حقيقتها رحلة نفوس ، لا رحلة أشباح ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بِئِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وكان النبي ﷺ يقول : « أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبَشَارَةُ أَخِي عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلْتَنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بَصْرَى »^(١) .
ومناسك الحجّ من شعائر الله ، قال تعالى :

﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعْكِرَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] .

قال بعض العلماء : « أداء الشعيرة شيء ، وتعظيمها شيء آخر ، من تعظيمها أن تؤدّيها كما فعلها رسول الله ﷺ ، ومن تعظيمها أن تؤدّيها بشوق ، وطيب نفس ، لا بتأفف وتمليل ، ومن تعظيم شعائر الله أن يؤدّيها الحاج ، ويتمنى أن يعيدها مرات ومرات » .

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في الطبقات (١٠٢ / ١) عن أبي العجفاء .

إِنَّ المشاعرَ التي يشعرُ بها الحاجُّ وهو في المشاعرِ المقدسةِ هي برتقةٌ ينصهرُ فيها قلبُ المؤمنِ ، حتى يتخلَّصَ مِنْ أدرانِهِ ، عوداً به كيومِ ولدته أمُّه ، نقيَّ القلبِ ، صافيِّ النفسِ ، تلك هي الغايةُ الكبرى مِنَ الحجِّ ، أَنْ يعودَ الحاجُّ كيومِ ولدته أمُّه .

يقولُ ربُّنا جل جلاله :

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرُوبِ أَلَيْسَ الْحَرَامُ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٧] .

مِنْ أدقِّ ما قاله المفسِّرون حولَ هذه الآيةِ : إِنَّ المسلمَ بحجِّ بيتِ الله الحرامِ ، وتعظيمِ شعائرِ الله ، وعقدِ العزمِ على طاعةِ الله ، واتباعِ سنةِ نبيِّه ﷺ تقومُ ، وتتحقِّقُ مصالحُ المسلمِ في الدنيا والآخرة ، وعندئذٍ تتوقَّفُ المعالجةُ الإلهيَّةُ :

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

يخلعُ الحاجُّ ملابسه المَخِيطةَ والمُحِيطةَ ، والتي تعبَّرُ بشكلٍ أو بآخر عن دنياه ، عن حجمه الماليِّ ، عن مرتبته الاجتماعيةِ ، عن مرتبته الوظيفيةِ ، بل عن درجته العلميةِ ، والدينيةِ أحياناً ، هذه الملابسُ المَخِيطةُ والمُحِيطةُ قد تعبَّرُ عن نوعِ انتمائه ، إلى أمةٍ ، إلى شعبٍ ، إلى قبيلةٍ ، إلى عشيرةٍ ، فلو بقيَ المسلمُ بلباسه لبقِيَ ملتصقاً بدنياه ، أو بقبيلته ، بطبقته ، أو بمنْ على شاكلته ، ولكنَّ الإسلامَ لحكمةٍ كبيرةٍ شرَّعَ

اللون الواحد ، والخلق الواحد ، حتى تختفي الهوية الخاصة ، ويبدو البشرُ كياناً واحداً ، ومن ثمَّ تتعاملُ معهم بدافع إنسانيٍّ خالصٍ ، بعدما ذابت الفروقُ الطبقيَّةُ ، والهوياتُ الإقليميّةُ ، والانتماءاتُ المتعدّدةُ ، لبرزَ هذا اللباسُ معنَى واحداً ، هو الإنسانُ على فطرته السليمة في مواجهة خالقه الواحد الديان .

بعد أن يخلع الحاجُّ ثيابه المَخِيطةَ والمحيطَةَ ، ويرتدي ثوبَ الإحرام ، يدخلُ في أفقِ الممنوعاتِ ، ففي باطنه ممنوعٌ أن يفكّرَ في شيء يؤذي الحرَمَ ، ومع الناسِ ، فلا رفثَ ، ولا فسوقَ ، ولا جدالَ في الحجِّ ، ومع الحيوانِ ، فلا يُصطادُ ، ولا يقتلُ ، ومع النباتِ فلا يُقطعُ ، ولا يشوّهُ ، ومع الحجرِ فلا يكسرُ ، ولا يقتلعُ ، هذه الممنوعاتُ التي هي من لوازمِ الإحرامِ ، ليكونَ الحجُّ سلاماً دائماً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦-٩٧] .

إنَّ الحاجَّ المحرَّم يُحظرُ عليه لبسُ المخيطِ من الثيابِ ، والتطيُّبُ بكلِّ أنواعِ الطيبِ ، ويُحظرُ عليه الخلقُ والتقصيرُ ، كما يُحظرُ عليه مقاربةُ المُتَعِ التي أُبيحت له خارجَ الحجِّ ، كلُّ ذلك ليُحَكِّمَ اتصاله بالله ، وليسعدَ بقرْبه وحده ، بعيداً عن كلِّ مداخلةٍ من مُتَعِ الأرضِ ، ليتحقَّقَ الحاجُّ أنَّه إذا وصلَ إلى الله فقد وصلَ إلى كلِّ شيءٍ ، وأنَّ الدنيا كلّها لا يمكنُ أن تُمدَّ الإنسانَ بسعادةٍ مستمرةٍ ، بل بسعادةٍ متناقضةٍ ، ولينطلقَ لسانه على نحوِ عَفْوِيٍّ قائلاً : يا ربِّ ، ماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ وماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟

وفوق ذلك ففي الإنسان غريزة حب الاستطلاع ، فهو في أصل طبيعته لا يُقبل على عملٍ إلا إذا عرف حكمته ، وحقَّق به مصالحه العاجلة والظاهرة ، ولأنه يحب نفسه حباً جمًّا ، وهذا مركَّب في أصل طبيعته ، ولأنَّ الحجَّ بهذه الممنوعات ، وبهذه المناسك التي لا تظهر حكمتهما للوهلة الأولى ، لا يلبي هذه الحاجة الفطرية ، والفكرية ، والمادية ، لذلك يحتاج الحاجُّ إلى درجة عالية من الإيمان بحكمة الله وعلمه ، ويحتاج إلى درجة عالية من العبودية له ، ورؤي عن عمر رضي الله عنه : « تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَحُجُّوا » .

فالعبادة في حقيقتها تعني خروج العبد من مُرادِه إلى مرادِ ربِّه ، وهذا يبدو جليًّا واضحاً في الحجِّ .

يسأل بعضهم : هل مع هذا التسليم المطلق بحكمة ما أمرنا به أعمالٌ للعقل ؟ الجواب : « لا » ، لأنه لن يكون العقل حكمًا على النقل ، ولكنه مسموح للعقل أن يفهم حكمه النقل ، مسموح له أن يطير في المجال الجوي الإسلامي ، مسموح له أن يسبح في المياه الإقليمية الإسلامية ، مسموح له أن يسبح ، ولا يشطح .

ويأتي موقفُ عرفة... فيومُ عرفة من الأيام الفضلى ، تُجَابُ فيه الدعوات ، وتُقَالُ العثرات ، ويباهي الله فيه الملائكة بأهل عرفات ، وهو يومٌ عَظَّمَ اللهُ أمره ، ورفع على الأيام قدره ، وهو يومٌ إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ويومٌ مغفرة الذنوب ، ويومٌ العتق من النيران ، إنه يومُ اللقاء الأكبر بين العبد المنيب المشتاق ، وربِّه الرحيم التواب ، بين هذا الإنسان الحادث الفاني المحدود الصغير ، والخالق المطلق الأزلي الباقي

الكبير ، وعندها ينطلق الإنسان من حدود ذاته الصغيرة إلى رحاب الكون الكبير ، ومن حدود قوته الهزيلة إلى الطاقات الكونية العظيمة ، ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الأبد التي لا يعلمها إلا الله .

فيوم عرفة يوم المعرفة ، ويوم عرفة يوم المغفرة ، ويوم عرفة يوم تنزل فيه الرحمات على العباد من خالق الأرض والسموات ، ومن هنا قيل : مَنْ وَقَفَ فِي عَرَفَاتٍ ، وَلَمْ يَغْلِبْ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ فَلَا حِجَّ لَهُ .

عن جابر رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ عِنْدَ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : هُنَّ أَفْضَلُ أَمْ مِنْ عِدَّتِهِنَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قَالَ : هُنَّ أَفْضَلُ مِنْ عِدَّتِهِنَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَمَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَبْأِهُنَّ بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ ، يَقُولُ : اُنْظُرُوا عِبَادِي ، جَاؤُونِي شُعْتًا غُبْرًا ، ضَاحِينَ ، جَاؤُونِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، يَرْجُونَ رَحْمَتِي ، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي ، فَلَمْ يَرَوْا أَكْثَرَ عَتِيقًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيَبْأِهُنَّ الْمَلَائِكَةَ بِأَهْلِ عَرَفَاتٍ ، يَقُولُ : اُنْظُرُوا إِلَى عِبَادِي جَاؤُونِي شُعْتًا غُبْرًا » (٢) .

(١) الترغيب والترهيب (١٧٩٠) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٨٠٣٣) .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقاتٍ ، وَقَدْ كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَوُوبَ فَقَالَ : « يَا بِلَالُ ، أَنْصِتْ لِي النَّاسُ ، فَقَامَ بِلَالُ فَقَالَ : أَنْصِتُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَأَنْصَتَ النَّاسُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : مَعَشَرَ النَّاسِ ، أَتَانِي جِبْرِيلُ آتِفًا فَأَقْرَأَنِي مِنْ رَبِّي السَّلَامَ ، وَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفَرَ لِأَهْلِ عَرَقاتٍ ، وَأَهْلِ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَضَمِنَ عَنْهُمْ التَّيَبَاتِ ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ لَنَا خَاصَّةٌ ؟ قَالَ : هَذِهِ لَكُمْ ، وَلِمَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَثُرَ خَيْرُ اللَّهِ وَفَاضَ » (١) .

وروى الإمام مسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ عَبْدٌ مِنَ النَّارِ ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةَ ، فَيَقُولُ : مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ ؟ » (٢) .

إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ لِلْحَاجِّ ، وَمُبَالِغَةً فِي إِكْرَامِهِ يُلْقِي فِي رُوعِهِ أَنَّهُ قَدْ غَفَرَ لَهُ ، لِذَلِكَ يَشْعُرُ الْحَاجُّ الصَّادِقُ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَادَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ .

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْمًا هُوَ فِيهِ أَضْعَرُّ ، وَلَا أَذْهَرُّ ، وَلَا أَحْقَرُّ ، وَلَا أَغْيَظُ مِنْهُ يَوْمَ عَرَفَةَ ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا رَأَى مِنْ تَنْزِيلِ الرَّحْمَةِ ، وَتَجَاوُزِ اللَّهِ عَنِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ ، إِلَّا مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ ، قِيلَ : وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟

(١) الترغيب والترهيب (١٧٩٦) .

(٢) مسلم (١٣٤٨) .

قَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَرْعُ^(١) الْمَلَائِكَةَ »^(٢) .

وروى الإمام الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُ الدُّعَاءِ ، دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »^(٣) .

قال عبد الله بن المبارك : جثتُ إلى سفيان الثوريّ عشية يومِ عرفة ، وهو جاثٍ على ركبتيه ، وعيناه تذرفان ، فالتفت إلي ، فقلتُ له : مَنْ أسوأُ هذا الجمعِ حالاً ؟ قال : الذي يظنُّ أنَّ الله لا يغفرُ له .

إنه موقفٌ عجيبٌ في عرفاتٍ ، يغطيه نباتٌ بشريٌّ ، مختلفٌ ألوانه ، أغصانه تلك الأيدي المرفوعة بالدعاء إلى ربِّ الأرضِ والسماءِ ، يرى الحاجُّ بين يديه صورةً مصغرةً للمحشرِ العظيمِ يومَ القيامةِ ، وعليه أن يستعدَّ له مِنَ الْآنَ ، لأنَّ رحلةَ الحجِّ يعودُ منها الإنسانُ إلى وطنه ، ولكنَّ المحشرَ العظيمَ يومَ القيامةِ لا يعودُ منه الإنسانُ إلى وطنه ، إنها رحلةٌ قبلَ الأخيرة ، استعداداً للرحلةِ الأخيرةِ ، الناسُ جميعاً بلباسٍ مُوَحَّدٍ ، وبدعاءٍ مُوَحَّدٍ ، وبابتهالٍ مُوَحَّدٍ ، كلُّهم ضِعَافٌ ، كلُّهم فَرَادَى ، نموذجٌ

(١) في شرح الزرقاني على الموطأ (٢ / ٥٢٥) : [يزع بفتح الياء ، والزاي المنقوطة ، وعين مهملة ، أي يصفُ الملائكة للقتال ، ويمنعهم أن يخرج بعضهم عن بعض في الصفِّ] قال ابن حبيب وليس كذلك إذا لو رأى ذلك لحبه ولكنه رآه يعيهم للقتال والمعني يسمى وازعاص على آخرهم ومنه قوله تعالى ﴿وحشه... يوزعون﴾ أي يجبس أولهم .

(٢) مالك في الموطأ (٩٤٤) .

(٣) الترمذي (٣٥٨٥) ، ومالك (٥٠٠) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩٢٥٦) .

مصغّر للرحلة الأخيرة ، لقد كان الحجّ رحلةً قبل الرحلة الأخيرة ، فهو استعدادٌ للمغادرة من غير رجعة إلى الدنيا .

وفي رمي الجمرات بعض الأسرار ؛ فلنبداً بالجمرة الكبرى في اليوم الأول ، قال بعض العلماء : هذا تكثيفٌ ، وحشدٌ في لغة العسكريين ، وابدأ بمواجهة الأكبر ، وكان عليه الصلاة والسلام يخصّ الجمرتين الأولى والوسطى بتطويل الوقوف عندها للدعاء ، إنها ثلاث جمرات ، وبينهما مسافةٌ ، ليظلّ المؤمنُ واعياً تماماً ، لا ينام حتى لا يسقط سلاحه ، بينما العدوُّ منه على مرمى حَجَرٍ ، وعليه أن يعلم أنّ المعركة مع الشيطان متعددة المواقع ، ومستمرةٌ ، وممتدةٌ مع عمره ، لذلك ينبغي أن تُرمى ثلاث جمرات في ثلاثة أيام ، فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه .

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : « لا يحصل إرغام أنف الشيطان في أثناء رجه إلا بطاعتك للرحمن ، ومن عاد بعد الحجّ إلى ما كان عليه من المعاصي والآثام ، فليعلم علم اليقين أنّ الشيطان هو الذي رَجَمه .

ولقد طارَ بعض العلماء في سماء الحجّ ، وسَبَحوا في بحوره الواسعة ، بل غاصوا فيها ، فكانت لهم فيه لمحاتٌ وضيئةٌ .

قالوا عن الطواف : كأن الإسلام حَجَرٌ أُلْقِيَ فوق محيطٍ ، فتكونت منه دوائرٌ حوله متتابعةٌ متناميةٌ ، وهكذا بيت الله الحرام ، فالطواف حول البيت طوافُ المُحِبِّ حول محبوبه ، إنه توثيقٌ للعهد بين العبد وربّه ، وتعبيرٌ عن حبٍّ عميقٍ لرمز التوحيد .

لقد استقطب البيت الحرام المؤمنين من قارات الدنيا الخمس ،
فجاؤوا نوعيات مختلفة ، تحمل كل جماعة هموم مجتمعيها ، جاؤوا
ليعودوا في البعد الزمني إلى ماضي هذه الأمة المشرق ، وفي البعد
المكاني إلى الأرض التي نزل فيها الوحي .

جاؤوا ليعودوا إلى المكان الذي ضم هذه الرسالة الخالدة ، للتزود
بالدروس المفيدة التي تُعينهم على صلاح دنياهم وفق منهج ربهم ،
وصلاح دينهم الذي هو عصمة أمرهم .

لا تقوم مصالحهم الدنيوية ، ولا مصالحهم الأخروية إلا إذا عظموا
هذا البيت ، واصطلحوا مع الله ، وأقاموا منهجه في الأرض .

الحج عبادة زُيّنت بمحاسن وآداب ، وإذا كان الحج ارتفاعاً عن
شهوات الحياة الدنيا ومادياتها ، وتدريباً للعبد على التخفف منها ،
والاكتماء باليسير ، فلا يليق بالمتلبس بهذه العبادة أن ينشغل عنها بما
نهى الله تعالى عنه ، إنه لا يكفي منك أن تُعرض عن هذه المنهيات
فحسب ، بل عليك أن تكون آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر .

إن حُسن الخلق ، وطيب الكلام ، وإطعام الطعام من أعظم القربات
التي يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل .

وإذا كان اقتراء المعاصي محرماً في كل حين ، فإنه في مكة ، وفي
حال الإحرام أشدّ تحريماً ، وهي أولى بالمنع ، والزجر ، والنهي عنها .

لا يُعقل ، ولا يُقبل أن يذهب الحاج إلى بيت الله الحرام قبل أن يتفقه
في أركان الحج ، وواجباته ، وسُنَّته ، ومستحباته ، وصفة حجة النبي

عليه الصلاة والسلام ، وما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الحاج .
لا يُعقل ، ولا يُقبل أن تؤدى هذه العبادة الجليلة أداءً بعيداً عن مقاصدها وثمارها .

لا يُعقل ، ولا يُقبل أن يعود الحاج من أداء هذه الفريضة كما ذهب .
لا يُعقل ، ولا يُقبل أن يوجد الحاج في المشاعر المقدسة دون أن يشعر بأية مشاعر مقدسة .

لا يُعقل ، ولا يُقبل أن يتحرى الحاج سنة أو مستحباً ، ويرتكب من أجلها معصية ، أو أن يتجاوز فريضة .

لا يُعقل ، ولا يُقبل أن يحدثك الحاج عن كل شيء في الحج إلا عن الحج .

لا يُعقل ، ولا يُقبل أن يرمي الحاج الجمرات تعبيراً عن معاداته للشيطان ، ويعود إلى بلده ليكون العوبة بين يدي الشيطان .

لا يُعقل ، ولا يُقبل أن يقتصر أمر الله في هذه الفريضة على أن يأتي الحاج من بلاد بعيدة ليجلس في المشاعر المقدسة ، يأكل ، وينام ، ويتكلم في شؤون الدنيا ، إن أمر الله في هذه العبادة ليس كذلك ، وهو أعظم وأجل من أن يكون كذلك ، أن تأتي إليه من بلاد بعيدة ، لتحقق وجودك المادي في مكان ، تمضي هذا الوقت في غير ما أمرت به ، وليس هذا المستوى من الحج هو الذي تقوم به مصالح المسلمين في دنياهم وأخراتهم .

يجب أن نعلم العلم اليقيني بأن الحج لا يكفر الذنوب التي لم يتب

منها صاحبها ، فالمقيم على ذنب ، ولم يَتُبْ منه ، وهو مستمر فيه ، فإنَّ الحجَّ لا يكفِّر هذا الذنب ، وإنما الحجُّ كفارةٌ وأجرٌ للعبدِ التائبِ إلى الله ، الراجع إليه ، الراجي رحمته وعفوه ، والذي أفلح عن ذنوبه إقلاعا لا رجعة بعده .

والدليل على ذلك ما رواه الإمام مسلم بإسناده إلى عبد الله قال : قَالَ أَنَسُ بْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَنْتَ أَخَذُ بِمَا عَمَلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالَ : « أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ فَلَا يُؤَاخَذُ بِهَا ، وَمَنْ أَسَاءَ أَخَذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ » (١) .

فمع أن الإسلام يهدم ما كان قبله إلا أنه من أساء في الإسلام جُوزِي بعمله السيئ في الإسلام ، وما كان قبل الإسلام ، وكذلك الحال فيمن له معاصٍ لم يَتُبْ منها قبل الحج ، فإن الحج لا يهدم هذه المعاصي ، وهذا يعني أن الحج لا يفيد إلا التائب من الذنب ، والعائد إلى الله ، الراجع إليه ، المقلع عن ذنوبه ، وأما المقيم على معاصيه وذنوبه ، المستمر فيها فإن الحج لا يهدم ما كان قبله في هذه الحالة .

وقد ورد أنه « من حجَّ بمالٍ حرام ، فقال : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، قال الله عز وجل له لَا لَبَّيْكَ ، وَلَا سَعْدَيْكَ ، وَحَجُّكَ مردودٌ عليك .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ ، يَغْنِي الْفَرِيضَةَ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَذْرِي مَا يَغْرِضُ لَهُ » (٢) .

(١) مسلم (١٢٠) ، ابن ماجه (٤٢٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦٩) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ ، كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ »^(١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفَدُّ اللَّهِ ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ ، وَإِنْ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ »^(٢) ، وهذه ميزة لا تُقَدَّرُ بِشَيْءٍ ، أَنْ تَكُونَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ .

مَنْ مَاتَ ، وَلَمْ يَجَاهِدْ ، وَلَمْ يَحْدِثْ نَفْسَهُ بِالْجِهَادِ مَاتَ عَلَى ثَلَاثَةِ نَفَاقٍ ، فَإِنْ لَمْ يُتَّخِ لِلْمُسْلِمِ الْجِهَادُ الْقِتَالِيُّ ، فَقَدْ أُتِيحَ لَهُ جِهَادُ النَّفْسِ وَالْهَوَى ، وَأُتِيحَ لَهُ الْجِهَادُ الدَّعْوِيُّ ، وَأُتِيحَ لَهُ الْحَجُّ ، وَالْحَجُّ نَوْعٌ مِنَ الْجِهَادِ ، وَالِدَلِيلُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « جِهَادُ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ »^(٣) ، وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْحَجُّ جِهَادٌ كُلُّ ضَعِيفٍ »^(٤) ، وَفِي حَدِيثٍ ثَالِثٍ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قُلْتُ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ ، الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ^(٥) .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي أَصُولِ الدِّينِ ، وَفِي الْمُحْكَمَاتِ الْقِطْعِيَّةِ الَّتِي

(١) أخرجه الترمذي في الحج (٨١٠) ، والنسائي في المناسك (٣٦١٠) ، وأحمد (٣٦٦٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك (٢٨٩٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠١٦٨) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٦٣١١) .

(٣) أخرجه النسائي في المناسك (٣٦٠٥) .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٠٢) ، وأحمد في المناسك (٢٦٥٦٣) .

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٩٠١) ، وأحمد في المناسك (٢٥٣٦١) .

جاءَ الدِّينُ بها ، هم يؤمنون باللهِ واحدٍ لا شريك له في ذاته ، وفي أسمائه ، وفي صفاته ، وفي ربوبيته ، وفي ألوهيته ، فهو المستحقُّ للعبادةِ وَحْدَهُ ، وهم يؤمنون بنبيٍّ واحدٍ ، هو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلين ، جاءَ بأفضلِ الشرائعِ وآخرها ، وهو واجبُ الاتباعِ إلى قيامِ الساعةِ ، ويتجهون إلى قِبَلِهِ واحدةٍ ، ويقرؤون قرآنًا واحدًا ، يقطعُونَ كلُّهم بأنه محكمٌ محفوظٌ مِنَ الزيادةِ والنقصانِ ، لم تَطْلُهُ يدُ التحريفِ والتبديلِ والتغييرِ في ألفاظه ، ومجملاتِ معانيه ، ويصومون شهرًا واحدًا ، ويحجُّون بيتًا واحدًا ، ويقفون في عرفةَ موقفًا واحدًا ، تاريخُهم واحدٌ ، ومصيرُهم ومستقبلُهم واحدٌ ، حتَّى إنَّ التحدياتِ التي تواجهُ المسلمين هي تحدياتٌ واحدةٌ في الجملة .

إنَّا نجدُ الأذى الذي يوجَّهُ إلى المسلمين كلُّهم ، يوجَّهُ إليهم شعوباً وأممًا ، بلا تمييزٍ بين أقوياءِ الإيمانِ وضعفاءِ الإيمانِ ، وبين العلماءِ والجهلاءِ ، وبين الصالحينِ والفاسدينِ ، ومع كلِّ هذه المقوماتِ فهم متفرِّقون ، متنازعون ، بأسْهم بينهم ، تُفرِّقهم الأهواءُ والمصالحُ ، وهذا يؤكِّدُ على الأُمةِ ضرورةَ أنْ تعملَ على تحقيقِ معنى هذا الانتماءِ ، ومعنى تلك الوحدةِ .

وَمِنْ أخطرِ توجيهاتِ النبيِّ الكريمِ في هذا الظرفِ الصعبِ الذي يُحدِّقُ بالأُمةِ العربيةِ والإسلاميةِ قوله ﷺ : « إِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ ، لَا يُسَالِمُ الْمُؤْمِنُ دُونَ الْمُؤْمِنِ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ »^(١) .

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣٣ / ٣) .

أَيُّ : لَا يَحِقُّ فِي الْمَنْهَجِ الْإِسْلَامِيِّ لَفْتَةٌ أَنْ تَصْطَلَحَ مَعَ عَدُوٍّ بِشَكْلِ
 انْفِرَادِيٍّ ، هَذَا وَصَفٌ دَقِيقٌ مِنْ قَبْلِ مَبْعُوْثِ الْعَنَاءِ الْإِلَهِيَّةِ لِمَا عَلَيْهِ
 الْمُؤْمِنُونَ ، أَوْ لِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ فِي شَتَّى أَقْطَارِهِمْ ، وَدِيَارِهِمْ ،
 مِنْ تَعَاوُنٍ وَتَنَاصُرٍ وَتَعَاظُفٍ ، فَهَمَّ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ نَصَحَةُ مُتَوَادُّونَ ، وَهَمَّ
 بَنِيَانٌ وَاحِدٌ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، هَمَّ يَدُّ عَلَى مَنْ سَوَاهُمْ ، سِلْمُهُمْ
 وَاحِدَةٌ ، وَحَرْبُهُمْ وَاحِدَةٌ ، هَذَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ فِي شَتَّى
 أَقْطَارِهِمْ وَأَمْصَارِهِمْ .

* * *

الْأَمْطَارُ

إِنْ هَطُولَ الْأَمْطَارِ يُوْجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى زَعَمِهِ
 الْعَظِيمَةِ ، وَعَطَايَاهُ الْجَزِيلَةِ وَأَنْ نَعْزُوْهُ هَذِهِ النِّعَمَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لِأَنَّ هَذَا
 مِنْ صَمِيمِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
 يَقُولُ : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا
 بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي ، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ؛ وَأَمَّا مَنْ قَالَ :
 بَنُوْءُ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » ^(١) .

وَهَاكُمُ هَذَا الْخَبَرُ الَّذِي يُؤَكِّدُ أَنَّ تَقْتِيرَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْأَمْطَارِ
 لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَقْنِينٌ عَجَزٍ ، كَشَأْنِ الْبَشَرِ حِينَمَا يَقْنَنُونَ ، وَلَكِنَّهُ تَنْنِينٌ
 تَرْبِيَّةٌ وَتَأْدِيبٌ ، كَمَا يَظُنُّ الْمُؤْمِنُونَ .

(١) البخاري (٩٩١) ، مسلم (٧١) ، أبو داود (٣٩٠٦) ، النسائي (١٨٣٣) عن
 زيد بن خالد الجهني .

أعلمت وكالة الفضاء الأوربية أن مرصد الفضاء الأوربي العامل بالأشعة تحت الحمراء رصد غيمة من البخار في الفضاء الخارجي ، يمكن لها أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في اليوم الواحد بالمياه العذبة .

وعلق أحد علماء الفلك أن المرصد عثر على غيوم للبخار في أكثر من مكان في الكون ، إلا أن هذه الغيمة التي اكتشفت مؤخراً تعد مصنعا هائلا لبخار الماء ، يمكنها أن تنتج من الماء ما يكفي لملء جميع محيطات العالم بالماء العذب ستين مرة في اليوم الواحد ، وهذا مصداق قول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ ^(١) [الحجر : ٢١] .

وأما معنى التقدير التربوي ، أو التأديبي ففي قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ

بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] ، وقوله تعالى :

﴿ وَالْوَلَوِ اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لَنُفَتِّتَنَّهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : ١٦] .

[١٧] ، وقوله سبحانه :

(١) قال الطبري في تفسير هذه الآية (١٨/١٤) : يقول تعالى ذكره : وما من شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر لكل أرض ، معلوم عندنا حده ومبلغه . وقال القرطبي في تفسيره (١٤/١٠) : أي ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا ، وعلى حسب حاجة الخلق إليه ، كما قال : ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، وروي عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه : ليس عام أكثر مطرا من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيمطر قوم ، ويحرم آخرون ، وربما كان المطر في البحار والقفار .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ
وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

فالجاهلون والشاردون يُخَوِّفون أهل الأرض ، مرةً بنقصِ الغذاء ،
وأخرى بنقصِ الماء ، وتارةً باقترابِ نضوبِ آبارِ النفطِ ، فيفتعلون حروباً
مِن أَجْلِ المِياهِ تارةً ، وحروباً مِن أَجْلِ القمحِ تارةً أخرى ، وأخذوا هذه
الحروبَ مِن أَجْلِ النفطِ ، وفاتَهُمْ أَنَّ تَقْتِيرَ اللهِ عزَّ وجل هو تَقْتِيرٌ تأديبٍ ،
وليسَ تَقْتِيرٌ عجزٍ .

* * *

الظلامُ في الفضاءِ الخارجيِّ

كان عالمٌ مِن علماءِ الفلكِ في زيارةٍ مركزِ إطلاقِ المراكِبِ الفضائيَّةِ في
بعضِ الدُّولِ المتقدِّمةِ ، وبينما هو في زيارةٍ هذا المركزِ الذي كان على
اتِّصالٍ مستمرٍّ بِمركبةٍ فضائيَّةٍ كانت قد أُطْلِقَتْ قَبْلَ ذلكَ بقليلٍ ، إذ برأيد
الفضاءِ يَتَّصِلُ بِمركزِ انطلاقِ هذه المركبةِ ، ويقولُ : لقد أصبحنا عُُمِيًّا
لا نرى شيئاً ، وكانتِ المركبةُ أُطْلِقَتْ في وَضَحِ النَّهارِ ، وبعدَ وقتٍ قليلٍ
تجاوَزَتِ الغِلافَ الجويَّ ، ودخلَتْ في منطقةٍ لا هواءَ فيها ، وأصبحَ الجوُّ
مُظْلَمًا ظلاماً كليًّا ، فصاحَ هذا الرائدُ : لقد أصبحنا عُُمِيًّا لا نرى شيئاً ،
فما الذي حَصَلَ ؟

الذي حَصَلَ أَنَّ أشِعَّةَ الشَّمْسِ إذا وَصَلَتْ إلى الغِلافِ الجويِّ تنأثَرُ
ضوءُها ، وتشتَّتْ بين ذرَّاتِ الهواءِ وذرَّاتِ الغبارِ ، وهذا ما يُعَبَّرُ عنه

علماء الفيزياء بانتشار الضوء ، أو بَشَّتِ الضَّوءُ ، إذ تنعكس أشعة الشمس على ذرات الهواء ، وذرات الغبار فتجعلها متألقة ، وهذا الذي يُسمى في الدنيا : منطقة فيها أشعة الشمس ، ومنطقة فيها ضوء ، ولا شمس فيها ، كَجَوْ المسجد ، فإنه يرى فيه بعضنا بعضاً ، هناك ضوء ، وليس فيه أشعة شمس ، لأن الضوء ينتثر ، فلما غادرت هذه المركبة الغلاف الجويّ انعدَم تناثر الضوء ، وأصبح الفضاء مظلماً ، شديد الظلام ، لا يرى فيه شيء .

لو عُدْنَا إلى كتاب الله الذي نزلَ قبلَ أربعة عشر قرناً ونيّفاً ، ووقتها ما عرفَ أهلُ الأرض الصَّعودَ إلى القمرِ ، وما عرفوا غزوَ الفضاءِ بهذه العبارةِ الفَجَّةِ ، ما عرفوا تجاوزَ الغلافِ الجويّ ، ما عرفوا كلَّ ذلك ، لو عُدْنَا إلى كتابِ الله لَوَجَدْنَا في هذه الآيةِ إعجازاً عِلْمِيّاً ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر : ١٤-١٥] .

هذا الذي قاله رائدُ الفضاء : لقد أصبحنا عُميّاً ، قد جاء به القرآن قبلَ أربعة عشر قرناً ، أليس هذا دليلاً قَطْعِيّاً على أن هذا الكلامَ كلامُ خالقِ البشرِ ؟ عُرِفَتْ هذه الحقيقةُ قبلَ عشرِ سنواتٍ ، حينما عَرَفَ الإنسانُ الغلافَ الجويّ واقتَحَمَهُ ، وأُلْغِيَ تناثرُ الضوء ، ودَخَلَ في ظلامِ دَامِسٍ ، عرفَ كيفَ أن الفضاءَ الخارجي مُظْلَمٌ ظلاماً دَاكِئاً ، ولا يرى في الفضاءِ إلا كوكبٌ متألقٌ من دون أن ينتثرَ الضوءُ ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر : ١٤-١٥] .

إِنَّ مِنْ خِصَائِصِ الْوَحْيِ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ دَلِيلَهُ مِنْهُ ،
وَأَنَّ الدَّلِيلَ يَتَطَابَقُ مَعَ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ ، فَالْوَحْيُ الَّذِي جَاءَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى بِظَاهِرَةٍ صَارِخَةٍ ، أَلَا وَهِيَ الْإِعْجَازُ ، فَإِنَّ
هَذَا الْكَلَامَ يَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ الْإِنْسَانُ حِينَمَا نَزَلَ الْقُرْآنُ ، وَالْآنَ مَعَ التَّقَدُّمِ
الْعِلْمِيِّ بَدَأَ الْعِلْمُ يَكْشِفُ جَوَانِبَ قَلِيلَةٍ مِنْهُ ، يُوكِّدُ هَذَا قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

﴿ سَرُّيَهُمْ ءَايَتُنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ
بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وهذه السُّيُنُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ سَرُّيَهُمْ ﴾ لِلْإِسْتِقْبَالِ ، حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ
لِلْمُعْرِضِينَ ، وَلِلْمُنْكَرِينَ ، وَلِلْمُشَكِّكِينَ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ .

لَا شَيْءَ فِي الْحَيَاةِ يَجِبُ أَنْ يَسْتَحْوَذَ عَلَىٰ فَهْمِنَا كَفَهْمِ مَنْهَجِ رَبِّنَا ،
كَفَهْمِ كِتَابِ اللَّهِ ، كَفَهْمِ أُنْعَادِهِ ، وَمَدْلُولَاتِهِ ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ ، وَوَعْدِهِ
وَوَعِيدِهِ ، وَأَيَاتِهِ الْكُونِيَّةِ وَالتَّكْوِينِيَّةِ ، لِأَنَّهُ طَرِيقُ سَعَادَتِنَا وَهُدَايَتِنَا .

* * *

الاستطاعة في الحج

إنَّ في الإسلام عقائد هي أساسُ الدِّينِ ، وعباداتٍ تنظِّمُ علاقةَ الإنسانِ بربِّه ، ومعاملاتٍ تنظِّمُ علاقةَ الإنسانِ بأخيه ، وإذا صحَّتِ العباداتُ ارتقتِ المعاملاتُ ، وكان ارتقاءُ المعاملاتِ مؤشراً على صحَّةِ العباداتِ ، والعباداتُ تهدفُ أوَّلَ ما تهدفُ إلى السُّموِّ بالإنسانِ نفساً وقولاً وعملاً ، عن طريقِ الاهتداءِ بهدْيِ ربِّ العالمين ، وإحكامِ الصِّلَةِ به ، والتنعمِ بقرْبِهِ ، والتقلُّبِ في رحمته ، وقطفِ ثمارِ فضله ، ومن هذا المنطلقِ شُرِعتِ العباداتُ الشعائريَّةُ ، كالصلاةِ ، والصيامِ ، والحجِّ .

والحجُّ عبادةٌ قوليةٌ ، وقلبيةٌ ، وبدنيةٌ ، وماليةٌ ، وشعائريةٌ ، تؤدَّى في أمكنةٍ مُخصَّصةٍ ، وفي أزمنةٍ مُخصَّصةٍ ، وبأعمالٍ مُخصَّصةٍ .

والحجُّ فرضٌ عَيْنٍ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ ، بالغٍ ، عاقلٍ ، حرٍّ ، مستطيعٍ ، مرةً في العمرِ كُلِّهِ ، يُكفِّرُ جاحدَهُ ، ويُفَسِّقُ تاركَهُ ، فعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ مَلَكَ زَاداً وَرَاحِلَةً تَبْلُغُهُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلَمْ يَحُجَّ فَلَا عَلَيْهِ أَنْ يَمُوتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ » (١) .

الصلاةُ تتكررُ في اليوم الواحدِ خمسَ مراتٍ ، وفريضةُ الجمعةِ تُؤدَّى كلَّ أسبوعٍ ، وفريضةُ الصومِ تُؤدَّى في العامِ شهراً ، وفريضةُ الحجِّ تجبُ في العمرِ كلَّ مرةٍ واحدةً ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « سَأَلَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَرَّةَ الْحَجِّ ، أَوْ فِي كُلِّ عَامٍ ؟ قَالَ : لَا ، بَلْ مَرَّةً ، فَمَنْ زَادَ فَتَطَوُّعٌ »^(١) .

الحجُّ هو الرحلةُ الفريدةُ في عالمِ الأسفارِ ، ينتقلُ فيها المسلمُ بدينه وقلبه إلى البلدِ الأمينِ ، الذي أقسمَ اللهُ به في القرآنِ الكريمِ ، ليقفَ في عرفاتِ الله ، وَلِيَطَّوَّفَ بِبَيْتِهِ الْحَرَامِ ، الذي جعله الإسلامُ رمزاً لتوحيدِ الله ، ووحدَةِ المسلمين ، ففَرَضَ على المسلمِ أَنْ يستقبله كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ في صلواته .

ومما تميَّزَ به هذه العبادةُ أنها تحتاجُ إلى تفرُّغ تامٍّ ، فلا تُؤدَّى إلا في بيتِ الله الحرامِ ، ولا بدَّ مِنْ مغادرةِ الأوطانِ ، وتركِ الأهلِ والخِلاَّنِ ، وتحمُّلِ مشاقِّ السفرِ ، والتعرُّضِ لأخطارِهِ ، وإنفاقِ المالِ في سبيلِ رضوانِهِ ، وإذا صَحَّ أَنَّ ثَمَنَ هذه العبادةِ باهظُ التكاليفِ ؛ فإنه يصحُّ أيضاً أَنَّ ثَمَرَةَ هذه العبادةِ باهرةُ النتائجِ ، حيثُ قال المصطفى ﷺ فيما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حَجَّ لِلَّهِ ، فَلَمْ يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفْسُقْ ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »^(٢) ، وقال أيضاً لعمرُو بنِ العاصِ : « أَمَا عَلِمْتَ يَا عَمْرُو أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ

(١) أخرجه أبو داود (١٧٢١) ، وابن ماجه (٢٨٨٦) ، وأحمد (٣٣٠٣) .

(٢) رواه البخاري (١٤٤٩) ، ومسلم (١٣٥٠) .

قَبْلَهُ ؟ وَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟ ^(١) ، وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ » ^(٢) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الْحَجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَقَدْ لُغِيَ اللَّهُ ؛ إِنْ سَأَلُوا أُعْطُوا ، وَإِنْ دَعَوْا أُجِيبُوا ، وَإِنْ أَنْفَقُوا أُخْلِفَ عَلَيْهِمْ » ^(٣) .

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ » ^(٤) .

وقال ﷺ : « النَّفَقَةُ فِي الْحَجِّ كَالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِسَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ » ^(٥) .

ثم فرض على المسلم أن يتوجه إليه بشخصه ، ويطوف به بنفسه في العمر مرة واحدة ، بشرط استمرار نتائجه .

الحج رحلة إلى الله . . ولحكمة بالغة ، ومراعاة للنزعة المادية في

(١) رواه مسلم (١٢١) .

(٢) البخاري (١٦٨٣) ، ومسلم (١٣٤٩) .

(٣) البيهقي في الشعب (٤٧٥/٣) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (١١٣/٢) ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٤) رواه الترمذي (٨١٠) ، والإمام أحمد (٣٦٦٩) عن ابن مسعود .

(٥) أخرجه أحمد في المسند برقم (٢٣٠٥٠) .

كيان الإنسان ، أراد الله أن يضع للناس في الأرض بيتاً له يُمكن المؤمنين به أن يعبروا من خلال إتيانه من كل فج عميق عن حبهم لله ، وشوقهم إليه ، فالمؤمن يؤكّد من خلال قصده البيت الحرام ، مُلبياً دعوة ربه ، أن الله أحب إليه من أهله وولده وماله وعمله وبلده والناس أجمعين ، فيتحمل نفقات الحج التي ربما كانت باهظة ، وتحمل ترك الأهل والولد ، الذي ربما كان صعباً ، وتحمل ترك العمل والكسب ، الذي ربما كان أثيراً ، كل ذلك حباً لله ، وطمعاً بالقرب منه .

وشاءت حكمة الله أن يكون بيته الحرام في المنطقة الحارة من الأرض ، وفي وادٍ غير ذي زرع ، ليكون واضحاً لدى الحجاج أن الاتصال الحقيقي بالله يحقق للمرء سعادة يستغني بها عن كل الشروط الماديّة ، التي يتوهم أنها سبب سعادته ، وأن سعادة الإنسان تنبع من داخله ، لا ممّا يحيط به نفسه من ألوان النعيم .

ولو كان بيت الله الحرام في المنطقة المعتدلة من الأرض ، حيث الجبال الخضراء ، والمياه العذبة ، والبحيرات الصافية ، والبساتين الغناء ، والجو اللطيف ، والنسيم العليل ، وكان الحج على مدار العام دفعاً للازدحام ، لأقبل كل الخلق إلى أداء الفريضة الممتعة ، طلباً للاستجمام ، لا حباً لخالق الأكوان .

إنه علاوة على موقع البيت الحرام ، وعن طبيعة الجو فيه ، فإن الحاج المحرم يحظر عليه لبس المخيط من الثياب ، ويحظر عليه التطيب ، بكل أنواع الطيب ، ويحظر عليه الحلق والتقصير ، ويحظر عليه مقاربة المُنَع التي أبيحت له خارج الحج ، كل ذلك ليُحكّم اتصاله بالله ، ويسعد بقربه

وحده ، بعيداً عن كلِّ مُداخلةٍ من مُتّع الأرض ، ليتحقّق الحاجُّ أنه إذا وصلَ إلى الله وصلَ إلى كلِّ شيء ، وأن الدنيا كلّها لا يمكنُ أن تُمدَّ الإنسانَ بسعادةٍ مستمرةٍ ، بل متناقضةٍ ، ولينطلقَ لسانه على نحوٍ عَفْوِيٍّ قائلاً : يا رب ، ماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ ؟ وماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ ؟

وَمُجْمَلُ القول : الحجُّ عبادةٌ كبرى ، قوامُها اتصالٌ متميِّزٌ بالله عز وجل ، وأساسُها معرفةٌ وقُرْبٌ ، وبَذْلٌ وَحُبٌّ ، وسببُها نزعُ أَقْنَعِ الدنيا المزيفةِ ، وتجاوزُ الخَلْقِ إلى الخالقِ ، وخرقُ النعمِ إلى المُنعمِ .

ولكي تؤدّي هذه العبادةُ العظيمةُ على نحوٍ يقبلها اللهُ ، ويرضى عنها ، ولئلا يُنفِقَ الإنسانُ المالَ الكثيرَ ، والوقتَ الثمينَ ، ويتجشَّم المشاقَّ ، ثم لا تُقبلَ حجَّتهُ ، ويُقالَ له : لا لبيكَ ولا سعديك ، وحجُّكَ مردودٌ عليك ، لئلا تُضيعَ حجَّتهُ سُدىً ، عليه أن يتوبَ قبلَ الذهابِ إلى الحجِّ من كلِّ الذنوبِ والآثامِ ، كبيرها وصغيرها ، جليلها وحقيرها ، فيجتنب كلَّ كَسْبٍ حرامٍ ، وكلَّ علاقةٍ متلبِّسةٍ بالآثامِ ، وعليه أن يؤدّي الحقوقَ التي عليه بالتَّمامِ والكمالِ ، ولا سيما الحقوقَ المتعلقةُ بالخلقِ ، لأنَّ حقوقَ العبادِ مبنيةٌ على المُشَاحَحةِ ، بينما حقوقُ الله مبنيةٌ على المسامحةِ ، فعليه أن يؤدّي الحقوقَ ، ويُقلعَ عن الذنوبِ ، والأهمُّ من هذا أن يَعْقِدَ العزمَ على ألا يعودَ إليها بعدَ الحجِّ ، وإلا أصبحَ الحجُّ من الطقوسِ لا من العباداتِ ، فَمِنَ الخطأ الكبيرِ ، والوهمِ الخطيرِ أن يظنَّ الحاجُّ أنَّ الحجَّ يهدمُ ما قبله من الذنوبِ كلّها ، وفيه تُغْفَرُ كلُّ خطيئةٍ ، وقد أجمعَ العلماءُ على أنَّ الأحاديثَ الشريفةَ التي تُبيِّنُ أنَّ الحاجَّ يعودُ من الحجِّ كيومٍ ولدته أمُّه ، وقد غُفِرَتْ ذنوبُه كلّها ، هذه الذنوبُ التي أشارَ

إليها النبي ﷺ هي الذنوب التي بين العبد وربّه حصراً ، أما الذنوب التي بينه وبين الخلق ، والحقوق التي في ذمّته ، والواجبات التي قصر في أدائها ؛ فهذه لا تسقط ولا تُغفر إلا بالأداء أو المسامحة ، فالذنوب ثلاثة ؛ ذنب لا يُغفر ، وهو الشرك ، وذنب لا يُترك ، وهو ما كان بين العبد والخلق ، وذنب يُغفر ، وهو ما كان بين العبد وربّه .

والاستطاعة التي وردت في الآية التي تعدّ أصلاً في فرضية الحج ، وهي قوله تعالى :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] ، هي استطاعة بدنية ، ومالية ، وأمنية ، وإدارية .

فالمسلم الذي لا يقوى جسمه على تحمّل أداء مناسك الحجّ بغلبة يقينية ، أو بإخبار طبيب متخصص مسلم حاذق وريح ، يُجزئه أن يُكَلّف مَنْ يحجّ عنه في حياته ، أو يوصي بحجّة بدّل بعد مماته ، وفق أحكام هذا النوع من الحجّ .

والمسلم الذي لا يملك المال الكافي الذي يغطّي نفقات الركوب بأنواعها ، ونفقات السكن في مكة والمدينة ، وثمر الطعام والشراب ، فضلاً عن نفقات أهله وولده في غيبته لا يُعدّ عند الله مستطيعاً ، فلا ينبغي للمسلم غير المستطيع أن يبذل ماء وجهه من أجل جمع نفقة الحجّ ، ولا أن يسلك المسالك الملتوية من أجل أن يحصل على نفقة الحجّ ، فإنّه في الأصل ليس مستطيعاً ، ولا حجّ عليه .

وحينما يقرر أولو الأمر في ديار المسلمين أن يعتمدوا نظاماً يُتيح لمن لم يحج أن يحج ، ويمنع من حج حجة الفريضة أن يحج ، حينما يكون الباعث على هذا التنظيم إفساح المجال للمسلمين الذين لم يحجوا حجة الفريضة أن يؤدوها بيُسْرٍ وطُمأنينة ، فلا ينبغي للمرء أن يرتكب معصية ليحج حجة نافلة ، فالمسلم الذي لم يُسمح له أن يحج لا يُعدّ مستطيعاً .

وما دام الحج من العبادات المالية التي تستوجب إنفاق المال ، فلا بد في المال الذي سينفقه الحاج في هذه الفريضة أن يكون مالا طيباً وحلالاً ، فقد قال رسول الله ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّباً »^(١) ، ورُوِيَ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « إِذَا خَرَجَ الْحَاجُّ حَاجًّا بِنَفَقَةٍ طَيِّبَةٍ ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ - رِكَابِ الدَّابَّةِ - فَنَادَى : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، نَادَاهُ مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ : لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ ، زَادَكَ حَلَالٌ ، وَرَاحِلَتَكَ حَلَالٌ ، وَحَجُّكَ مَبْرُورٌ غَيْرُ مَأْزُورٍ ، وَإِذَا خَرَجَ بِالنَّفَقَةِ الْحَبِيبَةِ ، فَوَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ فَنَادَى : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، نَادَاهُ مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ : لَا لَبَّيْكَ وَلَا سَعْدَيْكَ ، زَادَكَ حَرَامٌ ، وَنَفَقَتَكَ حَرَامٌ ، وَحَجُّكَ مَأْزُورٌ غَيْرُ مَأْجُورٍ »^(٢) .

وبما أن الحج فريضة فرضها الله على المستطيع ؛ والفقير ليس مستطيعاً ، فلا ينبغي للفقير أن يقترض ليحج ، فعن عبد الله بن أبي أوفى قال : « سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ لَمْ يَحْجْ : أَوْ يَسْتَقْرِضُ ؟ قَالَ :

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (١٠١٥) .

(٢) مجمع الزوائد (٣/ ٢١٠) ، وقال : رواه البزار وفيه سليمان بن داود اليماني ، وهو ضعيف .

لَا»^(١) ، والمَدِينُ لَا تُقْبَلُ حَجَّتُهُ إِلَّا بِمُوَافَقَةِ دَائِنِهِ .

إِنْ مَنْ بَدَأَ حَجَّهَ بِتَصْرِيحٍ كَاذِبٍ ، أَوْ انْتَحَلَ صِفَةً لَا يَتَّصِفُ بِهَا ، أَوْ يَتَّصِفُ بِهَا وَلَا يَرِيدُ أَنْ يَقُومَ بِهَا ، أَوْ دَفَعَ مَالًا غَيْرَ مَشْرُوعٍ لَجَهَةِ غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ تَحَوَّلَ أَدَاؤُهُ لِهَذِهِ الْفَرِيضَةِ إِلَى عَمَلٍ مُحَرَّمٍ ، اسْتِنَادًا إِلَى الْقَاعِدَةِ الْفَقْهِيَّةِ الْأَصُولِيَّةِ وَهِيَ : أَنَّ كُلَّ مَا اسْتَلْزَمَ مُحَرَّمًا يَصْبِحُ هُوَ الْآخَرُ مُحَرَّمًا ، فَالطَّرِيقُ إِلَى الْمُحَرَّمِ مُحَرَّمٌ ، فَالْمُؤْمِنُونَ عَادَاتُهُمْ عِبَادَاتٌ ، وَالْمُنَافِقُونَ عِبَادَاتُهُمْ سِيئَاتٌ .

إِنَّ عِبَادَةَ الْحَجِّ فَرَضَهَا اللَّهُ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ فِي الْعُمْرِ كُلِّهِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، فَإِنْ أَخْلَى الْحَاجُّ بِمَنَاسِكِهَا ، فَلَمْ يُؤَدِّ رُكْنًَا ، أَوْ نَسِيَ وَاجِبًا ، أَوْ تَرَكَ سُنَّةً ، أَوْ حَرَصَ عَلَى سُنَّةٍ أَذْثَ إِلَى انْتِهَاكِ حُرْمَةٍ ، أَوْ اقْتَرَفَ مَعْصِيَةً ، أَوْ فَعَلَ مُحْظُورًا ، فَقَدْ أَبْطَلَ حَجَّهَ ، أَوْ لَزِمَهُ الدَّمُ ، أَوْ أَسَاءَ ، أَوْ قَصَرَ ، أَوْ تَرَكَ الْأَوَّلَى ، إِنْ فَعَلَ هَذَا فَقَدْ ضَيَّعَ فُرْصَةً فَرِيدَةً لَا تَتَكَرَّرُ ، فُرْصَةً لِمَغْفَرَةِ ذَنْبِهِ ، وَاسْتِحْقَاقِهِ جَنَّةَ رَبِّهِ ، كُلُّ هَذَا بِسَبَبِ الْجَهْلِ الَّذِي هُوَ أَعْدَى أَعْدَاءِ الْإِنْسَانِ ، فَالْجَاهِلُ يَفْعَلُ بِنَفْسِهِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَهُ عَدُوُّهُ بِهِ ، لِذَلِكَ نَقُولُ : أَيُّهَا الْحَجَّاجُ ؛ تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَحْجُّوا ، فَعَالِمٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفٍ عَابِدٍ ، وَقَلِيلٌ مِنَ الْفَقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ الْعِبَادَةِ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ فَتَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٧] ، وَكَمَا أَنَّ أَنْتَظَارَ

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٣٣٣/٤) ، من قول ابن أبي أوفى ، وكذا ابن أبي شيبه في المصنف (٤٤٩/٣) .

الصلاة يُعَدَّ مِنَ الصلاة ، كذلك الإعدادُ الفقهيُّ للحجِّ هو مِنَ الحجِّ ، فكم مِنْ حاجٍّ أَهْمَلَ التفقُّهَ قَبْلَ الحجِّ ، وعادَ مِنَ الحجِّ ، ولم يَطْفُ طَوافَ الرُّكْنِ ، فَبَطَلَ حُجُّهُ ، وكم مِنْ حاجٍّ اجتازَ الميقاتَ المَكَانِيَّ غيرَ مُحَرِّمٍ فَلَزِمَهُ الدَّمُ ، وكم مِنْ حاجٍّ وَقَعَ فِي محظوراتِ الإحرامِ ، وهو يحسبُ أَنه يُحسِنُ صنْعاً .

وَمِنْ فَقِهِ الرَّجُلِ أَنْ يَتَحَرَّكَ فِي حَيَاتِهِ وَفَقِ سُلَّمِ لِلأُولَيَاتِ ، فإذا أَدَّى حَجَّةَ الإسلامِ ، وهي حَجَّةُ الفريضةِ ، وتَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَى أَنْ يَحِجَّ مَرَّةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً ، وكانَ مُسْتَطِيعاً بِماله وبَدَنه وموافقَةِ أُولِي الأمرِ له ، ولم يُسْهِمِ مِنْ خِلالِ تصرِيحٍ غيرِ مطابقٍ للواقعِ فِي حرمانِ مسلمٍ مِنْ حَجَّةِ الفريضةِ ، وكانَ قد أَدَّى كُلَّ ما عَلَيْهِ مِنْ واجباتِ تَجَاةٍ وَالدَّيْنِ ، وَأَوْلَادِهِ ، وَإِخْوَتِهِ ، وَأَخَوَاتِهِ وَأَصْدِقَائِهِ ، وَجيرانِهِ ، فلا عَلَيْهِ أَنْ يَحِجَّ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً وَرَابِعَةً ، فَالْحَجُّ جِهَادٌ لَا شَوْكَةَ فِيهِ ، وهو جِهَادُ الكَبِيرِ ، والمرأةُ ، والضعيفُ ، وقد وردَ فِي الحديثِ القدسي : « إِذَا أَصْحَحْتُ لِعَبْدِي جِسْمَهُ ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ ، فَأَتَتْ عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَغْوَامٍ لَمْ يَفِدْ إِلَيَّ لِمَحْرُومٍ »^(١) .

لكن حينما يحجُّ المسلمُ حَجَّةَ الفريضةِ ، وله وَلَدٌ فِي سنِّ الزَّوَاجِ ، ويخشى عَلَيْهِ الانحرافَ ، فالأُولَى أَنْ يَزُوجَهُ بِدَلٍّ أَنْ يَحِجَّ حَجَّةَ النفلِ ، لأنَّ ذَرَّةَ المَفسادِ مُقَدِّمٌ عَلَى جَلْبِ المنافعِ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ نَافِلَةً أَدَّتْ إِلَى تَرْكِ واجبٍ ، ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] ،

(١) البيهقي فِي السنن الكبرى (٢٦٢/٥) ، ومُسْنَدُ أَبِي يَعْلَى (٣٠٤/٢) ، والترغيب والترهيب للمُنْذَرِي (١٣٧/٢) .

ومن أدعية النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ حَجَّةً لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةً »^(١) .

ومعنى هذا أن من انحرف الحاج عن قصده ، وعدم إخلاصه في عبادته أن يبتغي من حجه السمعة والرياء .

ويجب أن يعلم المسلم أن الحج لا يكفر الذنوب التي لم يتب منها صاحبها ، فالمقيم على ذنب ما لم يتب منه ، وهو مستمر فيه . فإن الحج لا يكفر ذنبه ، وإنما الحج كفارة وأجر للعبد التائب إلى الله ، الراجع إليه ، الراجي رحمته وعفوه ، والذي أُلغى عن ذنوبه إقلاعا لا رجعة بعده ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام مسلم بإسناده إلى عبد الله بن مسعود قال : قَالَ أَنَسٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَنُؤَاخِذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالَ : أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الْإِسْلَامِ فَلَا يُؤَاخِذُ بِهَا ، وَمَنْ أَسَاءَ أَخَذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ »^(٢) .

* * *

مَاءُ زَمْزَمَ طَعَامٌ طَعِيمٌ ، وَشِفَاءٌ سَقِيمٌ

وصف النبي ﷺ ماء بئر زمزم فقال : « إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامٌ طَعِيمٌ »^(٣) ، وزاد غير الإمام مسلم : « وَشِفَاءٌ سَقِيمٌ »^(٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ (٢٨٩٠) .

(٢) مسلم (١٢٠) .

(٣) رواه الإمام مسلم عن أبي ذر (٢٤٧٣) في فضائل الصحابة .

(٤) فيض القدير ، للمناوي (٤٨٩ / ٣) عن صفية . والبراز بإسناد صحيح .

وعن ابن جريج قال : سمعت أنه يقال : « خَيْرُ مَاءٍ فِي الْأَرْضِ مَاءُ زَمْزَمَ »^(١) .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ »^(٢) ، وزاد الحاكم في مستدركه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : « فَإِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَفَاكَ اللَّهُ ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِذًا بِهِ أَعَاذَكَ اللَّهُ ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لِيَقْطَعَ ظَمَأَكَ قَطَعَهُ اللَّهُ »^(٣) .

وأخرج ابن ماجه في المناسك عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ جَالِسًا ، فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ : مِنْ أَيْنَ جِئْتَ ؟ قَالَ : مِنْ زَمْزَمَ ، قَالَ : فَشَرِبْتَ مِنْهَا كَمَا يَنْبَغِي ؟ قَالَ : وَكَيْفَ ؟ قَالَ : إِذَا شَرِبْتَ مِنْهَا فَاسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ ، وَادْكُرْ اسْمَ اللَّهِ ، وَتَنَفَّسْ ثَلَاثًا ، وَتَضَلَّعْ مِنْهَا ، فَإِذَا فَرَعْتَ فَاحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ »^(٤) .

وقد حرص الصحابة والتابعون وكثير من علماء الأمة وعامتها على التَضَلُّعِ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ، أي : أَنْ تَمَلَأَ الضَّلُوعَ مِنْهُ ، مع استحضار نِيَّاتٍ معينة عند الشرب منه ، لأنَّ الدعاء مستحبٌّ عند الشربِ من ماء زمزم ، فزَمْزَمُ لِمَا شُرِبَ لَهُ ، وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه إذا

(١) الطبراني في الأوسط (١٧٩/٤) ، والكبير (٩٨/١١) . ورواه ثقات .

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٠٦٢) ، وأحمد (١٤٨٩٢) .

(٣) الحاكم (١٧٣٩) .

(٤) ابن ماجه (٣٠٦١) .

شرب ماء زمزم دعا فقال : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْرَبُهُ لِظَمَائِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » ، وكان ابن عباس إذا شرب ماء زمزم قال : « اللهم إني أسألك علماً نافعا ، ورزقا واسعا ، وشفاء من كل داء » .

قال ابن القيم : « ماء زمزم سيد المياه ، وأشرفها ، وأجلها قدرا ، وأحبها إلى النفوس ، وأغلاها ثمنا ، وأنفسها عند الناس ، وهو هزيمة^(١) جبريل وسقيا الله إسماعيل^(٢) » .

هذا ما في السنة الصحيحة والحسنة ، والأثر عن ماء زمزم ، فماذا في العلم وتحليلاته الدقيقة عن ماء زمزم ؟ .

أجريت في عام (١٩٧٣) ، وفي عام (١٩٨٠) تحليل كيميائي من قبل شركات عالمية عملاقة ومتخصصة ، فكانت النتائج عجيبة ، حيث إن مياه زمزم خالية تماما من أي نوع من أنواع الجراثيم المسببة للتلوث .

وتعد المياه معدنية ، ويتهافت الناس على شرائها إذا كانت نسبة أملاح المعادن فيها من (١٥٠) إلى (٣٥٠) ملغ في اللتر ، أما مياه زمزم فتبلغ نسب المعادن فيها (٢٠٠٠) ملغ في اللتر ، ومن أبرز هذه الأملاح المعدنية الكالسيوم ، والصوديوم ، والمغنيزيوم ، والبوتاسيوم وغيرها .

ويعد ماء زمزم من أغنى مياه العالم بعنصر الكالسيوم ، إذ تبلغ نسبته

(١) [أي ضربها جبريل عليه السلام برجله فتبع الماء ، والهزمة النقرة في الصدر ، وفي التفاحة إذا غمرت بها يديك ، وهزمت البئر إذا حفرتها] (النهاية ٥ / ٢٦٢) . وسقيا الله إسماعيل أي أظهره الله ليسقي بن إسماعيل في أول الأمر .

(٢) زاد المعاد ج ٤ ص ٣٥٩ ط مؤسسة دار الرسالة .

فيه مائتي ملغ في اللتر ، لقد صدّق رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا مُبَارَكَةٌ إِنَّهَا طَعَامٌ طَعْمٌ »^(١) .

وقد دلّت البحوث العلمية الحديثة أنّ أمراضَ شرايين القلب التاجية أقلّ حدوثاً في الذين شربوا مثل هذه المياه ، ولقد صدّق رسول الله ﷺ حينما قال : « شِفَاءُ سُقْمٍ »^(٢) .

وتعدّ المياهُ غازيّةً هاضمةً إذا احتوت على ما يزيد على (٢٥٠) ملغ في اللتر من البيكربونات ، ومن أشهر المياه الغازيّة في العالم مياهُ نَبْعِ إِفْتِيان في فرنسا ، إذ تبلغُ نسبةُ البيكربونات فيه (٣٥٧) ملغ في اللتر ، أمّا ماءُ زمزم فتبلغُ نسبةُ البيكربونات (٣٦٦) ملغ في اللتر ، ولقد صدّق رسول الله ﷺ حينما قال : « ماءُ زمزمٍ لِمَا شُرِبَ لَهُ »^(٣) .

يذكر بعضُ علماء الطبِّ في كتاب طُبِعَ عامَ (١٩٩٥) أنّ المياهَ المعدنيةَ تقيّدُ في علاجٍ كثيرٍ من الأمراضِ الروماتزمية ، وزيادة حموضة المعدة ، والإسهال المزمن ، وعُسْرِ الهضم ، وهي ذاتُ تأثيرٍ مُدِرٍّ ومُليّنٍ ومرمّمٍ لنقصِ المعادن في الجسم ، ولقد صدّق رسول الله ﷺ حينما قال : « فَإِنْ شَرِبْتَهُ تَسْتَشْفِي بِهِ شَفَاكَ اللَّهُ ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ مُسْتَعِيداً بِهِ أَعَادَكَ اللَّهُ ، وَإِنْ شَرِبْتَهُ لَيَقْطَعَ ظَمَأَكَ قَطْعَهُ اللَّهُ »^(٤) .

وذلك لأنّ ماءَ زمزمٍ ليس عذباً حلوّاً ، بل يميلُ إلى الملوحة ،

(١) سبق تخريجه ص ٤٢٨ .

(٢) سبق تخريجه ص ٤٢٨ .

(٣) سبق تخريجه ص ٤٢٩ .

(٤) سبق تخريجه ص ٤٢٩ .

والإنسان لا يشرب من هذا الماء الذي يميل إلى الملوحة إلا إيماناً بما فيه من البركة ، فيكون التضلع منه دليلاً على الإيمان .

ولعل الله عز وجل لم يجعله عذباً حتى لا تُنسي العذوبة فيه معنى التعبد عند شربه ، ولكن طعمه على أية حال مقبول ، ولقد صدق رسول الله ﷺ حينما قال : « إِنَّ آيَةَ مَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْمُنَافِقِينَ إِنَّهُمْ لَا يَتَضَلَّعُونَ مِنْ زَمْزَمَ »^(١) .

والآن نسأل : ما المؤسسات العلمية العالية التي كانت على عهد النبي ﷺ ، والتي أعطته هذه الحقائق المدهشة عن ماء زمزم ؟ ومن هي هيئات البحوث المتخصصة التي توصلت إلى هذه النتائج الدقيقة عن هذا الماء ؟ وما نوع المخابر العملاقة التي حللت ، واستتجت نسب ملاح المعادن في ماء زمزم البالغة دقتها ، والتي اعتمد عليها ﷺ النبي في أحاديثه عن هذا الماء المبارك ؟ إنه الوحي ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، وإن هذه الأحاديث عن ماء زمزم من دلائل نبوة النبي ﷺ .

نسأل الله أن يسقينا من حوض نبيه الكريم يوم القيامة ، يوم العطش الأكبر شربة لا نظماً بعدها أبداً .

* * *

العبادات التعاملية

الدُّوقُ الإسلاميُّ

إنَّ الإسلامَ عقائدٌ ، وعباداتٌ ، ومعاملاتٌ ، وآدابٌ ، فمن هذه الآدابِ الإسلاميةِ مصطلحٌ جديدٌ شاعَ بين الناسِ ، ألا وهو الدُّوقُ ، ونقصدُ بالدُّوقِ أدبياتِ التعاملِ مع الناسِ ، وجمالَ التعاملِ بأشكالهِ المتعدِّدةِ ، والنفسَ المرفهةَ الجميلةَ ، والموقفَ الجميلَ ، والتصرُّفَ الجميلَ ، والحركةَ الجميلةَ ، واللمسةَ الجميلةَ ، والكلمةَ الجميلةَ ، وجمالَ النظامِ ، وجمالَ النظافةِ ، وجمالَ الأناقةِ ، وجمالَ التناسقِ والانسجامِ ، وجمالاً في البيتِ ، وجمالاً في مكانِ العملِ ، وجمالاً في الطريقِ ، وجمالاً في الأماكنِ العامَّةِ .

ونقصدُ بالدُّوقِ النفسَ الشَّقاغةَ التي تفهمُ الخطأَ ، وتقدرُ وقوعَها فيه من نظرةِ العينِ ، وابتسامةِ الوجهِ .

إنَّ الحياةَ شعبةٌ من الإيمانِ ، والحَيُِّّ هو الذي يفهمُ خطأه من لمحةِ عابرةٍ ، ونظرةِ حائرةٍ .

الناسُ أجناسٌ ؛ فمنهم من اعتقدَ خطأ أنَّ الدُّوقَ ، والأدبَ ، والخُلُقَ الرفيعَ ، والرَّقِيَّ الحضاريَّ قِيَمٌ غريبةٌ خالصةٌ ، ولا تُكتسَبُ إلا في المدارسِ الأجنبيةِّ .

ومنهم مَنْ تربَّى على الأدبِ والرقيِّ والدُّوقِ ، وظنَّ أنَّ الإسلامَ عكسُ ذلك تماماً ، فتراه حينما يسمعُ كلمةَ (متدين) ينتظرُ منه عدمَ اللياقةِ ، وعدمَ النظافةِ ، وعدمَ النظامِ ، فصارَ الدُّوقُ عندَ هذا الإنسانِ الواهمِ حاجزاً بينه وبين التدينِ .

ومن الناس مَنْ ظنَّ أنَّ الإسلامَ في المسجدِ ، ليس غير ! لذلك يقول : « دَعَ ما لله الله ، وما لقيصرَ لقيصرَ » ، وبالتالي فالأدبُ والرقيُّ والحضارةُ ، وكذلك إدارةُ الحياةِ جميعها ليس لها علاقةٌ بالدينِ ، والحقيقةُ أنَّ ما لله الله ، وما لقيصرَ الله .

إنَّ الدُّوقَ والأدبَ ، والرقيَّ ، والحضارةَ ، والشفافيةَ ، والجمالَ ، والنظافةَ ، والنظامَ هي أصولٌ كبيرةٌ من أصولِ هذا الدينِ ، وإنَّ الإسلامَ جاء لتنظيمِ الحياةِ وإدارتها والسموُّ بها ، فالإسلامُ هو الحياةُ الكاملةُ .

والإنسانُ المتدينُ الذي فهمَ الإسلامَ عبادةً شعائريةً ، ليس غير ، صلاةً وصياماً وذكرًا وتسييحاً ، فهو حريصٌ على هذه العبادةِ ، ولكنه لم يفهم أنَّ الدُّوقَ جزءٌ أساسيٌّ من أخلاقِ المسلمِ ، وأنَّ اللهَ لا يرضيه أن يؤذي المسلمَ الناسَ بكلمةٍ أو بتصرفٍ ، فإذا عاملَ الناسَ بغلظةٍ وشيءٍ من عدمِ الدُّوقِ ، كانت النتيجةُ أنه يفتنُ الناسَ عن دينهم ، فيصبحُ تدينُهُ سبباً لبُعدِ الناسِ عن الإسلامِ ، وتجدُّ مَنْ حوله يقول : منذ أن تدينَ أصبحَ فظاً غليظاً غيرَ مهتمٍّ بمظهره .

فالنبيُّ ﷺ سيدُ الخلقِ ، وحبيبُ الحقِّ ، أَوْحِيَ إليه ، وأوتِيَ القرآنَ ، وأوتِيَ المعجزاتِ ، تمثَّلَ فيه الكمالُ البشريُّ ، حتى قال الله له مخاطباً :

﴿وَأَنَّكَ لَکَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٌ﴾ [القلم : ٤] ، وأقسمَ اللهُ بعمُره الثمينِ فقال :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر : ٧٢] .

النبي ﷺ جميلُ الخُلُقِ ، حسنُ النطقِ ، أوتيَ جوامعَ الكلمِ ، عصمهَ اللهُ من أن يُخطئَ في أقواله ، وفي أفعاله ، وفي إقراره ، وفي صفاته ، ومع كلِّ هذه الخصائصِ ، ومع كلِّ هذا الكمالِ والقمةِ يقول الله له :

﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَآتَقَفْنَا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، فكيف بإنسان ، لا بسيدِ الخُلُقِ ، ولا بحبيبِ الحقِّ ، ولم يُوحَ إليه ، ولم يُؤتَ جوامعَ الكلمِ ؟ وهو مع هذا فظٌّ ، غليظٌ في أمره بالمعروفِ ونهيه عن المنكرِ ، متجهِّمٌ في نظراته ، قاسٍ في تعليقاته .

الأدبُ مع الوالدين والدُّوقُ في التعاملِ معهما

في المنهجِ الإلهيِّ إرشاداتٌ كثيرةٌ جدًّا في التعاملِ مع الوالدين ، نكتفي بواحدةٍ منها ، هي الاستئذانُ للدخولِ على الأبِ والأمِّ ، تجسَّدهُ آيةٌ في القرآنِ الكريمِ ، تبينُ أدبَ الدخولِ ووقته ، يقول الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَسْتَفِدِينَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْدَاتٍ لَّكُمْ﴾ [النور : ٥٨] .

آيةٌ في القرآنِ الكريمِ ، الذي تعبَّدنا اللهُ بتلاوتهِ إلى ساعةِ اليقينِ ، ترسِّخُ قاعدةً من قواعدِ الدُّوقِ ، هل بعد ذلك نقولُ : إنَّ الإسلامَ ينظِّمُ

الحياة في المسجد ، ليس غير ، أم إنه ينظم الحياة كلها ؟ إنه ينظم الحياة حتى في غرفة النوم !

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : نَعَمْ ، قَالَ الرَّجُلُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : نَعَمْ ، قَالَ الرَّجُلُ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عَارِيَةً ؟ قَالَ : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ ﷺ : فَاسْتَأْذِنْ عَلَى أُمِّكَ » (١) .

الأدب والذوق في التعامل مع الزوجة

هناك توجهات كثيرة في التعامل مع الزوجة نكتفي بواحدة منها :

من الأزواج من يهدد زوجته مراراً وتكراراً ، هزلاً وجداً ، قائلاً : سأترؤج عليك ، أين الذوق في التعامل مع المرأة ؟ ومنهم من يعد هذا من المزاح ، في حين أن هذا الأمر يجرح المرأة جرحاً شديداً ، ويرضاها رضاءً بليغاً ، ولا تنساه .

وإليك هذا الحديث الذي دار بين النبي ﷺ والسيدة عائشة ، فلقد جلست السيدة عائشة مع النبي ﷺ ، وأخذت تقص عليه قصة إحدى عشرة امرأة يحدثن عن أزواجهن ، وظلت تحدث حتى وصلت إلى قصة الزوج الأخير ، وآخر الأزواج اسمه أبو زرع ، كان رقيقاً مع زوجته ، يحبها وتحبه ، عاشت معه أحلى الأيام ، قَالَتْ عَائِشَةُ : قَالَ لِي

(١) البيهقي في السنن الكبرى (١٣٣٣٦) عن عطاء بن يسار .

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لَأُمِّ زَرْعٍ »^(١) ، وفي بعض الروايات : « غَيْرَ أَنِّي لَا أُطَلِّقُكَ »^(٢) .

هذا ذوقٌ رفيعٌ في التعاملِ مع الزوجة .

سألتَه مَرَّةً : « كَيْفَ حُبُّكَ لِي ؟ فَقَالَ لَهَا : كَعُقْدَةِ الْحَبْلِ ، فَكَانَتْ تَسْأَلُهُ مِنْ حِينٍ لآخر : كَيْفَ الْعُقْدَةُ ؟ فَيَقُولُ عَلَى حَالِهَا »^(٣) ، أراد أن يطمئنَها .

الذوقُ في الطريق

كنا في البيتِ مع الوالدين والزوجة ، فإذا خرجنا إلى الشارع ، فثمة ذوقٌ .

لا ترفعوا أصواتكم

من الذوقيَّاتِ المفقودةِ في الشارعِ تلك الأصواتُ المزعجةُ لأبواقِ السياراتِ التي يتفاخرُ بها أصحابها ، صغيرةٌ كانت أو كبيرةً ، فتجد صاحبَ المركبةِ يقفُ أسفلَ البيتِ ، ويطلقُ بوقَ مركبتهِ منادياً مَنْ في الطابقِ العلويِّ ، حتى لا يكلفَ نفسه الصعودَ إليه ، وهو بهذا يتعبُ الآخرينَ باستخدامِ آلةِ التنبيهِ ، فيأتي الإسلامُ ويردُّ للشارعِ ذوقيَّاته المفقودةَ .

يقولُ الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ

(١) البخاري (٤٨٩٣) ، ومسلم (٢٨٤٨) .

(٢) ذكرها أبو بكر البغدادي في الفصل للوصل المدرج (٢٤٧ / ١) .

(٣) أبو نعيم في الحلية (٤٤ / ٢) .

صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ [الحجرات : ٤-٥] .

ينبغي أن نفهم الآية على نحوٍ موسّع ، نعم ، إن الآية تتحدث، عن النبي ﷺ ، ولكنها تنظم وتهذب سلوكيات الناس .

إن من حق الناس عليك ألا تزعجهم ، فمنهم النائم ، ومنهم الطالب الذي يدرس ، ومنهم المريض ، ومنهم الذي يصلي ، واعلم أن الشارع ليس مُلكاً لك وحدك .

افسحوا الطريق

ومن التصرفات العجيبة أنك تجد سائق السيارة لا يسمع للسيارة التي خلفه أن تتجاوزَه ، وإذا سألتَه : ما السبب ؟ لم يجب ، وأدهى من ذلك أن هذا التصرف أصبح عملاً لا شعورياً من كثرة ما تعودنا عليه ، ولكن الإسلام يعلمك الذوق في هذه المواقف ، يقول الله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ائْشَرُوا فَأْشَرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وينبغي أن نفهم الآية بمعناها الواسع .

افسحوا ليس في المجالس فقط ، ولكن في الطرق ، ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، ومن قلة الذوق أنك تضيق الطريق على الناس ، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ثلاث يُصَفِّين لك ود أخيك ، منها : وأن تفسح له في المجلس » .

وإليكم هذا الموقف الجميل .

بينما كان النبي ﷺ يجلسُ في المسجدِ إذ جاء رجلٌ من الأعرابِ فتزحزحَ له النبي ﷺ ، مع أن المسجدَ لم يكن ممتلئاً ، فقال هذا الأعرابيُّ ، وقد لفتَ نظره هذا التصرفُ : يا رسولَ الله ، لم تزحزحتَ ؟ إنَّ في المسجدِ سعةً ، فقال له النبي ﷺ : « حقٌّ على كلِّ مُسلمٍ إذا جاء أخوه أن يتزحزحَ له » (١) .

من يقولُ بعد هذا : خذوا الذَّوقَ ، وتعلَّموه من الغريبتين ؟!

إماطة الأذى عن الطريق صدقة

هل من الأدبِ والذَّوقِ إلقاء القمامةِ في الشارع ؟ تجدُ الرجلَ ينظرُ يميناً وشمالاً ، ويقول في نفسه : هل يراني أحدٌ ؟ ويبدأُ يختلسُ النظراتِ ، كالذي يسرقُ شيئاً ، ثم يلقي بالقمامةِ ، يقول النبي ﷺ : « ... وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ ... » (٢) .

فما بالنا بمن يلقي الأذى في الطريقِ ؟! عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ » (٣) .

ومعنى ذلك أن إماطة الأذى عن الطريق جزءٌ من الإيمانِ .

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٨٩٣٣) عن واثلة بن الخطاب القرشي .

(٢) مسلم (١٠٠٩) ، أحمد (٨١٦٨) .

(٣) مسلم (٣٥) ، الترمذي (٢٦١٤) ، ابن ماجه (٥٧) .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ الثُّومِ - وَقَالَ مَرَّةً - : مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ » (١) .

فالمدخنُ مثلاً يؤذي مَنْ حوله ، إذن بناءً على هذا الحديث الصحيح فإن الملائكة تتأذى منه ، وقد ثبت أن الذي يجالس المدخن يتأذى بثلاث أخطار التدخين .

حق الطريق

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ ، فَقَالُوا : مَا لَنَا بِذَٰ ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا ، قَالَ : فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا ، قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ : غَضُّ الْبَصَرِ ، وَكَفُّ الْأَذَى ، وَرَدُّ السَّلَامِ ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ » (٢) .

يا الله !! الإسلام يضع لك منهجاً للجلوس في الشارع مضطراً .

الاستئذان

خرجت من بيتك إلى الشارع ، ووصلت إلى بيت صديقك ، هل تقول : إنه صديقي ، إنه أخي ، إننا هنا نتكلم عن الذوق في المعاملة ، نتكلم عن الأدب الذي علّمنا إياه الإسلام .

(١) مسلم (٥٦٤) .

(٢) البخاري (٢٣٣٣) ، أحمد (١١٤٥٤) .

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور : ٢٧] .

ومعنى : ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ أي : تتأكدوا أنهم مستعدون لاستقبالكم ، وتستأنسوا في القرن الواحد والعشرين معناها : أن تتصل به هاتفياً ، وتأخذ منه موعداً ، إنها - أي : ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ - كلمة جميلة ، كلها ذوق ، أي : تضمن أنه سيأنس بك هذا الصديق .

أحياناً تذهبُ إلى صديقٍ من دونِ موعدٍ ، فتجدهُ يعتذرُ إليك ؛ أنه لن يستطيع أن يستقبلَكَ ، فتغضبُ حينها غضباً شديداً ، وتقيمُ الدنيا ولا تقعدُها ، والأصلُ أنه من الذوقِ ألا تغضبَ ، يقولُ تعالى :

﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ازْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [٢٨]

[النور : ٢٨]

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « لَيْسْتَ أَذِنَ أَحَدِكُمْ ثَلَاثًا ، فَإِنْ أَذِنَ لَهُ ، وَإِلَّا فَلْيَرْجِعْ » (١) .

إياك أن تغضبَ إن اعتذرَ أخوك عن أن يستقبلَكَ ، ﴿فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ﴾ .

طريقة قرع الباب

ومن السلوكيات غير الطيبة والبعيدة كل البعد عن الذوق أن تجد مثلاً

(١) أبو داود (٥١٨١) .

مَنْ يَدُقُّ جَرَسَ الْبَابِ ، ثُمَّ يَقِفُ فِي وَجْهِ الْبَابِ ، وَيَضَعُ يَدَيْهِ الْاِثْنَتَيْنِ عَلَى الْبَابِ !

انظر إلى أدب الإسلام ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ الْمَازِنِيِّ قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَتَى بَيْتَ قَوْمٍ أَتَاهُ مِمَّا يَلِي جِدَارَهُ ، وَلَا يَأْتِيهِ مُسْتَقْبِلًا بَابَهُ » (١) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ يَقُولُ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا جَاءَ الْبَابَ يَسْتَأْذِنُ لَمْ يَسْتَقْبِلْهُ . . . يَمْشِي مَعَ الْحَائِطِ حَتَّى يَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهُ ، أَوْ يَنْصَرِفَ » (٢) .

الحركة الرفيعة

هناك مِنَ النَّاسِ صِنْفٌ لَا يَرَاعِي الْآدَابَ الْعَامَّةَ ، فَتَجِدُهُ بَعْدَمَا يَدْخُلُ مَكَانًا ، سَوَاءٌ أَكَانَ بَيْتًا أَمْ مَصْعَدًا أَمْ سَيَارَةً ، فَإِنَّهُ يَغْلُقُ الْبَابَ بِشِدَّةٍ ، فَتَارَةً يَكْسِرُ الزَّجَاجَ ، وَتَارَةً يَفْزَعُ النَّاسَ ، هُنَّ عَائِشَةُ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الرُّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ » (٣) .

اجعل أيها المسلم هذا الحديث منهجاً لك ، فهو طريقك إلى الذوق الرفيع .

(١) أحمد (١٨٩/٤) .

(٢) أحمد (١٨٩/٤) .

(٣) مسلم (٢٥٩٤) .

التَّطَفُّلُ فِي الدَّعْوَةِ

أحيانا يدعوك أحدُ أصدقائك إلى طعامٍ في يومٍ كذا ، وفي هذا اليوم تذهبُ ، ولكن ليس وحدك ! بل تأخذُ معك شخصاً آخرَ ، فيصابُ صاحبُ البيتِ بصدمةٍ لهذا التطفُّلِ .

دعِيَ النبي ﷺ هو وخمسةٌ من الصحابةِ عند رجلٍ من الأنصارِ ، وفي أثناء ذهابِ النبي ﷺ والخمسةِ إذا بصحابيٍّ آخرٍ يتبعُهُم ، ويمشي معهم حتى وصلوا إلى البيتِ ، فقال النبي ﷺ لصاحبِ البيتِ : « إِنَّكَ أَرْسَلْتَ إِلَى خَمْسَةٍ مِنَّا ، وَإِنَّ هَذَا تَبِعَنَا ، فَإِنْ أَذْنْتُ لَهُ دَخَلَ ، وَإِلَّا رَجَعَ ، قَالَ : أَذْنْتُ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَلْيَدْخُلْ »^(١) .

إنَّه موقفٌ محرجٌ ، ولا سيَّما لصاحبِ البيتِ وأهله ، فالطعامُ لعددٍ معيَّن ، وقد تكونُ الأماكنُ على الطاولةِ لعددٍ معيَّن ، وإذا زاد هذا العددُ فما العملُ ؟ ولكن انظر إلى أدبِ النبي ﷺ ، حتى لا يضعَ صاحبُ البيتِ في مأزقٍ وحرَجٍ بادره ، وشرحَ له الموقفَ ، وخيَّره ، أين هذه الذوقياتُ بيننا الآن ؟

ما أُخِذَ بسيفِ الحياءِ فهو حرامٌ

بعضُ الناسِ حينما يدخلُ بيتَ صديقِهِ تجدُ عينيه تتحركان بسرعةٍ بحثاً عن الهاتفِ ، فإذا رأى الهاتفَ رفعَ السَّمَاعَةَ ، وبعدها يستأذن من صديقِهِ ليجريَ اتصالاً واحداً سريعاً ، وهو يعلمُ أنَّ صديقَهُ لن يرفضَ له طلباً ،

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١٤٣٢١) عن جابر ، والطبراني في المعجم الكبير (٥٢٤) عن أبي مسعود .

كيف يرفضُ وقد أمسكَ بالهاتفِ ؟ ثم يبدأُ الاتصالَ ، فيتصلُ اتصالاً «ولياً مثلاً !! ويستمرُّ هذا الاتصالُ نصفَ ساعةٍ !! هل هذا من الذوقِ ؟ ؟ لقد قيل قديماً : « ما أخذَ بسيفِ الحياءِ فهو حرامٌ » .

وهل يراعي حياءَ الناسِ إلا مَنْ كان عنده ذوقٌ ؟ فتجده يرى القلمَ في جيبِ زميلِهِ ، ثم يقولُ له : إنه قلمٌ جميلٌ ، وهذه كلمةٌ لها معنى ، فما على زميلِهِ إلا أن يقولَ : تفضّلْ خذْهُ !! فيأخذُ منه القلمَ .
إلى هؤلاء نوجّه إليهم : « ما أخذَ بسيفِ الحياءِ فهو حرامٌ » .

طولُ المكثِّ عند المُضيفِ

أحياناً ينزلُ الإنسانُ عند أقاربه ضيفاً ، ويمكثُ يوماً أو يومين أو ثلاثة ، ويكرمه أهلُ البيتِ ، وتتفننُ الزوجةُ في الضيافةِ ، وتجتهدُ لترضي ربّها أولاً ، ثم لترضي زوجها باستضافةِ أهله وإكرامهم ، وتكونُ الطامةُ حينما يمكثُ الضيفُ أسبوعاً أو أكثرَ ، فيصبح هذا الضيفُ ثقيلاً ، وإذا علمَ الثقيلُ أنه ثقيلٌ فليس بثقيلٍ ، ولكنه لا يعلمُ .

حينما هاجر النبي ﷺ من مكةَ إلى المدينة نزلَ في منزلِ أبي أيوب الأنصاري ، إلى حينِ بناءِ المسجدِ النبويِّ ، وبناءِ بيتهِ ، وكان بيتُ أبي أيوبٍ من طابقين ، فعن أبي أيوبَ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَزَلَ عَلَيْهِ ، فَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي السُّفْلِ ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعُلُوِّ ، قَالَ : فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةً ، فَقَالَ : نَمَشِي فَوْقَ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ ! فَتَنَحَّوْا ، فَبَاتُوا فِي جَانِبِ ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : السُّفْلُ أَرْفَقُ ، فَقَالَ : لَا أَعْلُو سَقِيفَةً أَنْتَ تَحْتَهَا ، فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْعُلُوِّ ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ ، فَكَانَ

يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ طَعَامًا ، فَإِذَا جِيَءَ بِهِ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ ، فَيَسْتَبَعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقِيلَ لَهُ : لَمْ يَأْكُلْ ، فَفَزِعَ ، وَصَعِدَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَحْرَامٌ هُوَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لَا ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ ، قَالَ : فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ ، أَوْ مَا كَرِهْتَ ، قَالَ : وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُؤْتَى ^(١) .

هل تعرف لماذا فعل أبو أيوب ذلك ، ولماذا كان هذا الاختيار ؟ حتى لا تكون قدماء فوق النبي ﷺ ، إنها قِمةٌ في الذوق ، وقِمةٌ الأدب في التعامل مع النبي ﷺ ، ولكن انظر إلى أدب النبي ﷺ وذوقه الرفيع ، قال النبي ﷺ : « السُّفْلُ أَرْفَقُ » .

مكان جلوسك عند المضيف

من السُّنَّةِ ألا تجلسَ في بيتٍ من تزوره إلا في المكان الذي يدعوك إليه ، فلا تجلسَ في مكانٍ تختاره أنت ، وتصرُّ عليه إلا أن يُؤذَنَ لك ، فقد يكون المكان الذي اختاره المضيف يشرف على البيت كله ، وزوجته محببة ، فكيف تتحرك في أرجاء البيت ، إنها والله آداب الإسلام ، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرُوهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا ، وَلَا يَوْمَنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ ، وَلَا يَقْعُدُ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » ^(٢) .

(١) مسلم (٢٠٥٣) ، أحمد (٢٣٥٦٤) .

(٢) مسلم (٦٧٣) ، الترمذي (٢٣٥) ، أبو داود (٥٨٢) ، النسائي (٨٥٨) ، ابن ماجه (٩٨٠) .

إنَّ الحضارةَ ليست باستخدامِ الهاتفِ المحمولِ ، والدخولِ على مواقعِ الإنترنت ، وركوبِ المركبةِ الفارهةِ فقط ، إنما الحضارةُ بالأدبِ والذوقِ والرقِيّ الأخلاقيّ .

عيادةُ المريضِ

ومن الذّوقيّاتِ الإسلاميّةِ في عيادةِ المريضِ ألاّ تطيلَ الزيارةَ ، فمنَ الذّوقِ أن تكونَ زيارةٌ خفيفةً ، إلّا إذا كان المريضُ مستأنساً بك وسعيداً ، وهناك قصّةٌ لطيفةٌ للإمامِ أبي حنيفةٍ ، فقد كان مريضاً وعاده أربعةَ رجالٍ ، فكانت زيارتهم ثقيلةً ، وأطالوا الجلوسَ ، والإمامُ مريضٌ ، فضاقَ بهم ذرعاً ، وتعبَ تعباً شديداً ، ومع ذلك فهم ما زالوا جالسين ، فماذا فعل الإمامُ ؟ قال لهم : قوموا فقد شفاني الله عز وجل !!

إنَّ الإسلامَ يعلمنا ويربّيّنا على أن نراعي ظروفَ المريضِ وحالتهِ الصحيّةَ .

الذّوقُ مع الجيرانِ

يعلمنا الإسلامُ أننا إذا دخلنا البيتَ ومعنا فاكهةٌ أو طعامٌ نادرٌ تحبّه النفسُ ، فرآه أحدُ الجيرانِ ، سواءً كان صغيراً أو كبيراً ، فلا بد أن تقدّمَ لهم منه ، طالما أننا لم نخبئه .

وردَ في الحديثِ حولَ الأدبِ مع الجارِ : « وَإِذَا اشْتَرَيْتَ فَاكِهَةً فَأَهْدِ لَهُ مِنْهَا ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَأَدْخِلْهَا سِرّاً ، وَلَا يَخْرُجْ بِهَا وَلَدُكَ لِيَغِیْظَ وَلَدَهُ ، وَلَا تُؤْذِهِ بِقِتَارٍ قَدْرِكَ - بِرَائِحَةِ طَعَامِكَ - إِلَّا أَنْ تَعْرِفَ لَهُ مِنْهَا » (١) .

(١) البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٦٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

وبعضُ الناسِ يتعمَّدُ أن يُريَّ جيرانه ما يحملُ من طعامٍ لذيذٍ ، أو يتحدثُ عمَّا في البيتِ من طعامٍ طيِّبٍ تفاخراً ، أو يتحدثُ عن رحلاته وإنفاقه ، هذا من قلةِ الذوقِ الذي نُهيئنا عنه .

كان هناك شابٌّ يسكنُ بجوارِ الإمامِ أبي حنيفةَ ، وكان يشربُ الخمرَ ، ويغني طوالَ الليلِ وهو سكرانٌ ، وهو يقولُ :

أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنَى أَضَاعُوا^(١)

وكان كلَّ يومٍ هو على هذا الحالِ ، يقومُ الإمامُ أبو حنيفةَ إلى صلاةِ الفجرِ فيزعجهُ هذا الشابُّ ، فكان أبو حنيفةَ يتحَيَّنُ الفرصةَ المناسبةَ ليعظَ فيها هذا الشابَّ ، ويرقِّقُ قلبه للتوبةِ ، وفي يومٍ من الأيامِ قامَ الإمامُ أبو حنيفةَ ليصليَ الفجرَ فلم يسمعْ صوتَ هذا الشابِّ ، فسألَ عنه ، فعرفَ أنه قد قُبِضَ عليه ! لأنه ضُبطَ يشربُ الخمرَ ، فذهب أبو حنيفةَ إلى صاحبِ الشرطةِ ، وقال له : هلاً أفرجتم عنه لي ، فقالوا : إنه شربَ الخمرَ ! قال : أخرجوه من أجلي ، فأخرجوه ، فأخذهُ أبو حنيفةَ ، وجعله يركبُ خلفه على بغلته ، ولم يتكلَّمْ معه كلمةً واحدةً حتى وصل إلى البيتِ ، وحينها قال أبو حنيفةَ : هل أضعناك يا فتى ؟ فقال : لا ، والله ، ولا أعودُ إليها أبداً ، إنه يشربُ الخمرَ ! ؟ ولكن انظر إلى نتيجةِ اللطفِ والذوقِ .

إن كثيراً من الشبابِ فطرتهم طيبةً مع كلِّ ما يفعلونه ، ولكنهم لم

(١) هذا شطر من بيت لأمية بن أبي الصلت ، وتمامه :

ليوم كريمةٍ وسداد ثغرٍ .

يجدوا أمثالَ أبي حنيفةَ الذي يتحَيَّنُ الفرصَ ، ويتخيَّرُ الوقتَ ، ويفتَحُ بمفتاحِ الذَّوقِ أبوابَ قلوبهم المغلقةَ ، أو التي كنا نظنَّ أنها مغلقةٌ ! انظر إلى نتيجةَ اللطَفِ والذوقِ .

الذَّوقُ في المسجدِ

ومن الذَّوقياتِ والآدابِ التي علَّمها إياها الإسلامُ في المسجدِ ، وأصبحت من البديهياتِ ألاَّ نتخطى الرقابَ ، وأن نجلسَ حيث ينتهي بنا المجلسُ ، وأن نفسحَ لإخواننا ليجلسوا ، وألاَّ نجلسَ في مكانٍ نسدُ بجلوسنا طريقاً ، وأن نجلسَ فيه جلسةً تنمُّ عن أدبٍ جمٍّ ، فما رُئيَ النبيُّ ﷺ ماداً رجليه قط ، وأن ندعَ كلَّ حركةٍ أو صوتٍ يؤذي الجالسينَ ، وأن نحافظَ على نظافةِ المسجدِ ، وعلى حرمةِ ، فلا نرفعُ أصواتنا فيه ، ولا نتكلَّمُ في شؤون الدنيا ، وأن نكونَ في أعلى درجاتِ النظافةِ في البدنِ والثيابِ ، وفي البعدِ عن كلِّ أكلةٍ تؤذي رائحتها روادَ المسجدِ .

إنه بيتُ اللهِ ، فاحرص أن تكونَ فيه في قَمَّةِ الذوقِ وقَمَّةِ الأدبِ .

الهاتفُ المحمولُ تتأذى منه الملائكةُ ! بدليل أن الملائكةَ تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، كما قال رسولُ الله ﷺ .

فمن الذَّوقياتِ المطلوبةِ في القرنِ الواحدِ والعشرين أن تغلقَ الهاتفَ المحمولَ وأنت ذاهبٌ إلى بيتِ اللهِ ، وهذا أمرٌ مهمٌّ ، فأحيانا تكونُ في بيتِ اللهِ ، وبعد مجاهدةٍ في صلاتك تسعدُ بنفحاتٍ من الله ، وبأنسٍ به ، وفجأةً تسمع صوتَ الهاتفِ المحمولِ ! فتذهبُ هذه النشوةُ ، لذلك اضطرَّ أحدُ أئمةِ المساجدِ أن يقولَ قبل أن يبدأ بالصلاة : استوا

واعتدلوا ، وأغلقوا هواتفكم ، فإن إغلاق الهواتف من إقامة الصلاة .
لذلك ندعو كلَّ متوجِّهٍ إلى المسجد أن يغلق هاتفه المحمول حفاظاً
عليه من لعنة المصلين ودعائهم عليه ، فقد يقع منك ويتعطل !! فإن
المصلين يتأذون منه ، وإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم .

الأدبُ في الدعوة إلى الله

وإليك هذا الموقف الطريف البسيط ، فإن له دلالاتٍ عظيمةً ، أحيانا
يتعوذُّ الناسُ على أشياء لم يَرِدْ لها أصلٌ في السُّنة ، وحينما نريدُ أن نقوِّمَها
يكونُ التقويمُ على نحوٍ خاطئٍ ، وبشكلٍ منقَرٍ .

وقفَ شيخٌ كبيرٌ في الصلاة ، وكان بجواره شابٌّ على وجهه علامةُ
التدبُّنِ ، وبعدها انتهى الإمامُ ، أعجَبَ هذا الشيخُ الكبيرُ بالشابِّ ،
وأعجَبَ بخشوعه في صلاته ، ومدَّ الشيخُ الكبيرُ يده لهذا الشابِّ داعياً له
أن يرزقه الله حَجَّةً أو عمرةً ليصلِّي في بيتِ الله الحرامِ ، فقال له مختصراً
هذا الدعاء : حَرَمًا ، فنظرَ إليه الشابُّ المتدبُّنُ بتجهمٍ وغلظةٍ قائلاً : لم
يَرِدْ في السُّنة حَرَمًا ! فقال الرجلُ الكبيرُ : وهل قَلَّةُ الذَّوقِ هي التي وردت
في السُّنة ! ؟

ولكنْ لغيابِ الفهم ، ولغيابِ حُسْنِ التَّعاملِ مع الناسِ بالحكمة ،
والموعظةِ الحسنةِ سيظلُّ هذا الشيخُ على موقفه بسببِ هذا الشابِّ .

أيُّها الشابُّ افهم دينك ، وتلطَّفْ مع الناسِ ، وتأدَّبْ في معاملتك
معهم ، فالذَّوقُ مفتاحُ القلوبِ ، وقَلَّةُ الذَّوقِ تصدُّ الناسَ عن سبيلِ الله .

ولتعلَّمْ مِنَ الطَّفْلِينِ الحَسَنِ والحُسَيْنِ سِبْطَيْ رسولِ الله ﷺ ، هذه

قصة ينبغي أن يدرسها كلُّ مَنْ يدعو إلى الله عز وجل ، ويجعلها دائماً نصبَ عينيه .

ذاتَ يومٍ وجدَ الحسنُ والحسينُ سبطاً النبي ﷺ رجلاً لا يُحسِنُ الوضوءَ ، فماذا فعلاً ؟ انظرُ إلى فعلِهما ، وتعلَّمِ الذَّوقَ في الدعوةِ إلى اللهِ منهما .

ذهباً إليه ، فقال الحسنُ : « يا سيدي ، أخي هذا يدَّعي أنه يتوضأ أحسنَ مني ، وأنا أقسمُ أنني أتوضأُ كما يتوضأُ النبي ﷺ ، فاحكم بيننا ، وانظرُ إلى وضوئه ووضوئي ، ثم قل أيتنا يتوضأُ كما يتوضأُ النبي ﷺ ، فدخل الحسنُ وتوضأَ ، وأسبغَ الوضوءَ ، وأحسنه ، ودخلَ الحسينُ ، وتوضأَ مثلَ أخيه فقال الرَّجلُ : واللهِ إني لا أجيدُ الوضوءَ كما توضأتما ، ما رأيك في تصرفِ الحسنِ والحسينِ !! تعلَّمِ الذَّوقَ والأدبَ الرفيعَ من الحَسَنِ والحُسَيْنِ ، واقتدِ بهما تصلُ إلى ما تريدُ بأرقِّ وألطفِ الأساليبِ ، فإنه مَنْ أَمَرَ بمعروفٍ فليكنْ أمرُهُ بمعروفٍ .

الذَّوقُ في الحديثِ

سنتقلُّ إلى الحديثِ عن الذَّوقِ في الكلامِ مع الناسِ ، وفيه من اللطائفِ الكثيرُ والكثيرُ ، وأوَّلُ الأشياءِ التي يقعُ فيها بعضُ الناسِ هو المقاطعةُ وعدمُ سماعِ آراءِ الآخرين ، وهذه الأشياءُ تدلُّ على قلةِ الذَّوقِ .

ولذلك إذا أردتَ أن يكرهَكَ الناسُ فعليك بمقاطعتهم وعدمِ إعطائهم الفرصةَ ليعتبروا عن وجهةِ نظرهم ، وكلما عرَّضوا فكرةً قلَّ لهم : إنكم على خطإٍ ، وعندي أفضلُ منها ، دائماً أوجدُ عندهم إحساساً بأنهم

لا يفهمون ، دائما عليك بتوبيخهم ، فإذا فعلت هذا فسيكرهك جميع الناس .

لنتعلم من نبينا ﷺ كيف يحبك الناس ، ويقدرونك ، وإنها والله لكلمات تدرس ليتعلم الناس فنَّ الكلام وأسلوب الحوار .

جاء عقبة بن ربيعة ممثلاً لقريش ، وكان سيداً فيهم ، فجلس إلى رسول الله ﷺ فقال : « يَا ابْنَ أَخِي ، اسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُوراً تَنْظُرُ فِيهَا ، لَعَلَّكَ تَقْبَلُ بَعْضَهَا ، فَقَالَ ﷺ : قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ ، قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَالاً جَمَعْنَاهُ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالاً ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكاً مَلَكْنَاكَ عَلَيْنَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رِثِيًّا^(١) تَرَاهُ وَلَا تَسْتَطِيعُ رَدُّهُ عَنْ نَفْسِكَ طَلَبْنَا لَكَ الطَّبَّ^(٢) .

إنها اختياراتٌ سخيضةٌ ؛ مالٌ ، وملكٌ ، ومداواةٌ من مرضٍ .

انظر إلى ذوقٍ وأدبِ النبي ﷺ ، بدأه بكُنيتِه « يَا أَبَا الْوَلِيدِ » من باب التلطفِ ولينِ الجانبِ ، ثم قال : « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَسْمَعْ » ، ولم يقاطعه النبي ﷺ ، وبعد أن أنهى عتبهُ كلامه قال النبي ﷺ : « أَفَرَّغْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ؟ » ، قال : نعم ، وللقصةِ تنمةٌ .

ثمة طالبٌ بريطانيٌّ جامعيٌّ أسلمَ بسببِ الذوقِ الإسلاميِّ .

(١) الرثي - بالكسر - المنظرُ ، والمعنى ما يُرى لك . انظر (لسان العرب مادة رأي) .

(٢) القصة بتمامها في السيرة النبوية لابن هشام (١٣١ / ٢) .

عَلَّمَنَا النَّبِيُّ ﷺ حِينَمَا نَكُونُ ثَلَاثَةً أَلَّا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُوْذِيهِ .

لقد كان صديقان مسلمان يدرسان في بريطانيا ، ويتحدثان العربية والإنكليزية ، فكانا يتحدثان العربية طالما كانا بمفرديهما ، وحينما يأتي هذا الصديق البريطاني يتحولان إلى الإنكليزية ، حدث هذا عدة مرات ، فتعجب هذا الصديق من ذلك الفعل أَيْمَا تعجب ، فأراد أن يستنسر ، ويعرف السبب ، فقال له : نهانا نبينا ﷺ أن نتحدث سوياً بلغة لا يفهمها ثالثاً ، فما كان منه إلا أن قال باللغة الإنكليزية ما معناه : « نبيكم هذا حضاري جداً » ، فأسلم هذا الصديق بعد ستة أشهر ، وقد عكف على دراسة الإسلام ، وكان من كلامه : « أول شيء وقع في قلبي هز ذوق الإسلام في التعامل مع الآخرين » .

إننا نريد أن نخرج من خُلُقِ الذَّوْقِ بشيء هام جداً ، ألا وهو عدم إيذاء شعور الآخرين أيّاً كان الفعل ، فلقد كان النبي ﷺ إذا أنكرَ فعلاً من إنسانٍ لم يذكر اسمه صراحةً ، بل تجده يقول : ما بال أقوام .

ومن أمثلة ذلك ، هي كثيرة جداً : قوله «... مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطاً لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ...»^(١) ، و : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلَاتِهِمْ... »^(٢) ، و : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَنْزَهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً »^(٣) ، « مَا

(١) البخاري (٤٤٤) ، مسلم (١٥٠٤) عن عائشة :

(٢) مسلم (٧١٧) عن أنس .

(٣) البخاري (٥٧٥٠) عن عائشة .

بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذًا وَكَذَا ، لَكِنِّي أَصْلِي وَأَنَامُ ، وَأَصُومُ وَأُفِطِرُ ، وَأَتَزَوَّجُ
النِّسَاءَ . . . »^(١) ، « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَلْعَبُونَ بِحُدُودِ اللَّهِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمْ : قَدْ
طَلَّقْتُكَ ، قَدْ رَاجَعْتُكَ ، قَدْ طَلَّقْتُكَ »^(٢) .

ولا يصرِّحُ ﷺ حفاظاً على شعور الآخرين ، فهذا من قَمَّةِ الذوقِ ،
فلتكن من الآنَ لَمَاحاً ، إذا أحسستَ أنَّ الكلمةَ التي ستقولها ستضايقُ مَنْ
أمامك فلا تقلها .

وَمِنْ تطبيقاتِ خُلُقِ الذوقِ الذوقُ مع أصحابِ المراكزِ العليا ، أمثالِ
الملوكِ والأمراءِ والعلماءِ ، فمن السنةِ أَنْ ننزلَ الناسَ منازلهم إلا في حالةِ
الحربِ ، وتعلَّمْ من النبي ﷺ .

بعثَ ﷺ برسالةٍ إلى كسرى ملكِ الفُرسِ الذي يسجدُ للنَّارِ ، يقولُ له
فيها : « مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ الْفُرسِ » .

وبعثَ إلى هرقل ملكِ الرومِ يقولُ له : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ،
مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ
الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنِّي أَذْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلِمْ تَسْلِمًا ، وَأَسْلِمْ
يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْأَرِيسِيِّينَ . . . »^(٣) .

فهل كسرى وهرقل عظيمان عند رسولِ الله ؟

(١) البخاري (٤٧٧٦) ، مسلم (١٤٠١) عن أنس .

(٢) ابن ماجه (٢٠١٧) ، البيهقي في السنن (١٤٦٧٤) عن أبي موسى .

(٣) البخاري (٧) ، مسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس .

الذوق والأدب مع أصحاب الفضل عليك

أدب العباس مع النبي ﷺ

كلُّ مَنْ كان له فضلٌ عليك كان له حقٌّ عليك ، وأوّل هذه الحقوق أن تتأدّب معه ، وانظر إلى أدب العباس رضي الله عنه ، فمن المعروف أن العباس أكبرُ سنّاً من النبي ﷺ ، لكنّ حينما سُئِلَ العباسُ : « أأنت أكبرُ أم رسولُ الله ؟ قال كلماتٍ رقيقةً ، كلّها أدبٌ وذوقٌ وحبٌّ ، قال : هو أكبرُ مني ، وأنا وُلِدْتُ قبلَه » .

أدب أبي بكر الصديق مع النبي ﷺ

حينما هاجر النبي ﷺ هو وسيّدنا أبو بكر انتظره الأنصارُ على مشارف المدينة ، ولم يكن الأنصارُ يعرفون النبي ﷺ ، فأوا راحلتين قادمتين ، وكان سيّدنا أبو بكر الصديق هو المتقدّم ، لأنه كان خائفاً على النبي ﷺ ، فكان يحميه ، فظنّ الأنصارُ أنّ الرسولَ ﷺ هو أبو بكر الصديق ، فأسرعوا نحو ناقَةِ أبي بكرٍ ، وأخذوا بخطامِها .

إنه موقفٌ حرجٌ ، كيف تصرّفتَ فيه يا أبا بكرٍ ؟ هل قلتَ لهم : لستُ أنا برسولِ الله ، إنني أبو بكر ؟ فإنك لو قلتَ هذا لما كانت كلمةً لعليّةً ، فماذا فعلتَ يا أبا بكرٍ ؟

لقد خلَعَ رداءه ، وأظَلَّ به رأسَ النبي ﷺ ، فكانت لمحةً طيِّبةً ، وذوقاً رفيعاً ، فعرفَ الأنصارُ أنه ليس برسولِ الله ﷺ ، وأسرعوا إلى النبي ﷺ .

حقّاً ، إنه أبو بكر الصديق .

أدب الإمام الشافعي

أحياناً يزولُ حاجزُ الاحترامِ بينك وبين مدرّسك ، ولا سيّما حين تكونان في لقاءٍ خاصٍ ، ولكن انظر إلى الإمام الشافعي ، كيف كان يتأدّب مع أستاذه ، يقول : « لا أستطيعُ أن أقلبَ الورقَ بصوتٍ مرتفعٍ بين يدي أستاذه كي لا أزعجه ، ولا أستطيعُ أن أشربَ الماءَ أمامَ أستاذه إجلالاً له » .

واللهِ إنّنا لنحتاجُ اليومَ لأمثالك أيّها الإمام الشافعي ، وتخيّلُ معي لو كان الإمام الشافعي بيننا الآن ، ونظر إلى ما يحدثُ بين الطالب والمعلّم ، ماذا كان سيفعل ؟

المبالغة في الذوق من قلة الذوق

وأخيراً : من الذوق في التعامل مع الناسِ نقطتان :

الأولى : أن المبالغة في الذوق من قلة الذوق ، بمعنى ألا تتكلّف في الذوق ، فمثلاً عند عيادتك للمريض قلنا : لا تطلّ إلا إذا أذن لك ، أو إذا كان يأنسُ بك ، فيطلبُ منك أن تجلسَ ، ويقسمُ عليك ، فلا تبالغ في الذوق ، وتقول : لقد علّمونا ألا نطيلَ على المريض ، أنا عندي ذوقٌ ، المريضُ يقسمُ عليك ، وأنت مصرٌّ ، إنّ المبالغة في الذوق من قلة الذوق .

إليك هذه المقولة للإمام الشافعي : « أثقلُ إخواني على قلبي مَنْ يتكلّفُ لي ، وأتكلّفُ له ، وأحبُّ إخواني إلى قلبي مَنْ أكونُ معه كما أكونُ وحدي » .

الثانية : أن المبالغة في الجدّة من قلة الذوق أيضا ، فعدم الضحك والمبالغة في الجدّة ليس من الذوق في شيء ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يضحك مما يضحك منه أصحابه ، ويتعجب مما يتعجبون ، إياك أن تفهم أن عدم الضحك من الذوق ، إنه من قلة الذوق أحيانا ، فلا بدّ للإنسان أن يفهم دينه فهما صحيحا من غير إفراط ولا تفريط .

كتب رجل صالح قبل موته رسالة لابنته يقول فيها : « بنيّ ، لم أعد أفزع من الموت ، ولو جاءني اللحظة ، لقد أخذت من الحياة كثيرا ، أقصد : أعطيت كثيرا ، أحيانا يا بنيّ يصعب التفرقة بين الأخذ والعطاء ؛ لأنهما عند المؤمن لهما مدلول واحد ، في كلّ مرة أعطيت فيها أخذت منها ؛ بل أخذت أكثر مما أعطيت » (١) .

* * *

عذرا يا صلاح الدين

نظراً لشدة الآلام التي تنتاب أمتنا ، لما جرى أخيراً على الساحة العربية والإسلامية فنحن مضطرون أن نقدّم اعتذارنا للبطل صلاح الدين الذي طرد الفرنجة القدامى من بلاد المسلمين ، ونحن بسبب أخطاء كبيرة ارتكبها بعضنا أعدناهم إلى بعض بلاد العرب والمسلمين .

فعذراً لك يا صلاح الدين ، وألف عذر ، أنت الذي طردت الفرنجة القدامى من بلاد الشام ومصر والعراق ، وأنت الذي حررت دمشق والقدس من أيديهم ، وقد قلت قولتك المشهورة : « لن يرجعوا إليها

(١) هذا الموضوع مقتبس من كتاب الذوق الإسلامي للداعية عمرو خالد .

ما دمنّا رجالاً» ، عذراً يا صلاح الدين ، لقد رجعوا في المرة الأولى بعد الحرب العالمية الأولى ، ولما دخل قائدهم إلى دمشق ، ووقف عند قبرك ، وقال : ها قد عُذْنَا يا صلاح الدين ، فعذراً ، وألفَ عذرَ لك ، لقد رجعوا مرةً ثانيةً ، بسبِّ أخطاء ارتكبتها بعضنا ، ولسانُ حالهم يقول ثانية : ها قد عُذْنَا يا صلاح الدين ، ولئلاَ تقلقَ علينا كثيراً ؛ إنهم يقولون : إنما عادوا كي ننعَم بحرية كحريتهم ، وسلام كسلامهم ، وبرخاء كرخائهم ، ولا أتمنى عليك أيها القائدُ الفدّ أن تسألَ أهمَّ يحققون هذه الأهدافَ بوسائلَ من جنسِها ، أم بوسائلَ مناقضةٍ لها ؟ من أجل أن تكونَ مستريحاً لا تسألَ ، إنّ وسائلهم إفقارٌ ، وإضلالٌ ، وإفسادٌ ، وإذلالٌ .

إنها ردةٌ ولا صديقَ لها ، إنها هجمةٌ تتريةٌ ولا قُطرَ لها ، إنها حملة فرنجيةٌ ، وأنت غائبٌ عنها .

عذراً يا صلاح الدين ، فلقد كنتَ دائماً ترتسمُ معالمُ الحزنِ والأسى على وجنتيك ، ولم يكن للابتسامةِ مكانٌ ولا نصيبٌ على شفّتيك ، فلما كنتَ تُسألُ : لماذا لا تضحكُ يا صلاح الدين ؟ كان جوابك المتكرر : «إني أستحي من الله أن أضحك ، وما يزالُ المسجدُ الأقصى بيدِ المعتدين » .

عذراً يا صلاح الدين ، وأنت الذي وصلك خبرُ اعتراضِ أميرِ الفرنجة أرناط الذي احتلَّ قلعةَ الكرك في الأردن ، ومن هناك راحَ يقطعُ الطريقَ على الحُجّاجِ المسلمين المتوجّهِين من الشام نحو الحجاز ، فكان يقتلُ الرجالَ ، ويسبي النساءَ ، وهو يقول لهم : نادوا من ينتصر لكم ، فلما

سمعتَ ما قاله بكيتَ ، وانسابتِ الدموعُ من عينيكِ ، وقد قلتَ قولتَكِ المشهورةَ : « أنا سأنوب عن رسولِ الله بنصرةِ أمته » ، وهذا ما كان منك أيها البطلُ الذي ما هداً لك بالُ ، ولا سكنتُ لك جارحةً حتى رقيتَ بوعدك يومَ حطينَ ، يوم انتصرتَ على ملوكِ أوربةِ وأمرائها ، ويومَ وقعَ أرناطُ في الأسرِ ، فمُثلَ بين يديكِ ، وذكرتهُ بما قال ، وقلتُ له : يا أرناطُ ، أنا أنوب اليومَ عن رسولِ الله بالدفاعِ عن أمته ، ولم تذكرِ الرواياتُ التاريخيةُ أنكِ تأكدتَ من شخصيةِ أرناطَ بفحصِ حامضه النووي .

عذراً يا صلاحَ الدِّينِ ، وأنت الذي كنتَ كلَّ مساءٍ بعدَ أن ترجعَ من قتالِ الأعداءِ القدامى يومَ حطينَ فكنتَ تخلعُ عباةَكِ وعمامتكِ ، وتنفضُ ما علقَ عليها من غبارٍ في كيسٍ ، وتجمعُ ذلكَ الغبارَ حيثَ أوصيتَ أولادك أن إذا متَّ أن يضعوا هذا الغبارَ تحتَ رأسكِ ، حتى إذا جاءك الملكان في القبرِ يسألانكِ كما يُسألُ كلُّ إنسانٍ عند موتِهِ في قبرِهِ . فإذا رأيا ذلكَ الكيسَ من الغبارِ قالوا : ما هذا الكيسُ يا صلاحَ الدِّينِ ؟ فنقول لهم : هذا غبارُ الجهادِ في سبيلِ الله!!

يا سعدُ بَلِّغْ خالداً إِنَّ القتالَ لَهُ رَجَالُ

عذراً يا صلاحَ الدِّينِ ، يا من هزمتَ الفرنجةَ القدامى حتى أصبحَ اسمُكِ على لسانِ النساءِ في أوربةَ ، يخوفنَ به أولادهنَّ في الليلِ ليناموا ، نم يا ولدي ، وإذا لم تنمَ فسيطلعُ علينا صلاحُ الدِّينِ ، لقد قذفتَ الرِّعبَ في نفوسِ أهلِ أوربةَ ، وشكَّلتَ لهم عقدةَ نفسيَّةٍ اسمُها صلاحُ الدِّينِ .

فَعُذِرًا وَأَلْفَ عَذْرِ يَا أَيُّهَا الْقَائِدُ الْفِدُ ، لِمَا حَلَّ بِنَا مِنْ بَعْدِكَ ، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ تَبْقَى مَنْسَجَمًا مَعَ إِيْمَانِكَ الْكَبِيرِ بِاللّٰهِ نَقُولُ لَكَ :

لَقَدْ هَانَ أَمْرُ اللَّهِ عَلَيْنَا مِنْ بَعْدِكَ ، فَهَنَّا عَلَى اللَّهِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَتْ نَبْوَةُ الْقُرْآنِ فِينَا ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ خَلَفَ مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَةَ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] ، وَقَدْ لَقِينَا ذَلِكَ الْغِيَّ .

وَمِنْ أَجْلِ أَنْ نَطْمِئِنَّكَ نَذْكُرُكَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي دَافَعْتَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ نِيَابَةً عَنْهُ ، عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا يَضُرُّهُمْ مَنْ كَذَّبَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ » ، فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَاظِرَ : سَمِعْتُ مُعَاذًا يَقُولُ : وَهُمْ بِالشَّامِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ : وَهُمْ بِالشَّامِ ^(١) .

قَالَ مُسْتَشَارُكَ وَمُرَافِقُكَ : كُنْتَ خَاشِعَ الْقَلْبِ ، غَزِيرَ الدَّمْعَةِ ، إِذَا سَمِعْتَ الْقُرْآنَ أَوْ تَلَوْتَهُ دَمَعْتَ عَيْنَاكَ ، وَكُنْتَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - كَثِيرَ التَّعْظِيمِ لَشُعَائِرِ الدِّينِ ، كُنْتَ نَاصِرًا لِلتَّوْحِيدِ ، وَقَامِعًا أَهْلَ الْبَدْعِ ، لَا تَوْخَرُ الصَّلَاةَ عَنْ وَقْتِهَا ، وَكَانَتْ لَكَ رَكَعَاتُ تَصَلِّيْهَا فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَكُنْتَ إِذَا سَمِعْتَ أَنَّ الْعَدُوَّ دَاهَمَ الْمُسْلِمِينَ خَرَرْتَ إِلَى الْأَرْضِ سَاجِدًا لِلَّهِ تَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ : « إِلَهِي قَدْ انْقَطَعَتْ أَسْبَابِي الْأَرْضِيَّةُ فِي نَصْرَةِ دِينِكَ ، وَلَمْ

(١) البخاري (٣٤٤٢) ، مسلم (١٠٣٧) .

يَبْقَ إِلَّا الْإِخْلَادُ إِلَيْكَ ، وَالْاعْتِصَامُ بِحَبْلِكَ ، وَالْاعْتِمَادُ عَلَى فَضْلِكَ ،
أَنْتَ حَسْبِي ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

إِنَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ وَالْإِسْلَامِيَّةَ تَمَرُّ بِمَحْنَةٍ عَظِيمَةٍ ، نَرْجُو أَنْ تَكُونَ وَرَاءَهَا
مَنْحَةً رَبَّانِيَّةً ، لَيْسَتْ شَرْقِيَّةً وَلَا غَرْبِيَّةً ، وَلَكِنَّهَا عُلُويَّةٌ سَمَاوِيَّةٌ ، وَتَعَانِي
هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ شِدَّةٍ لَمْ تَشْهَدْ مِثْلَهَا فِي التَّارِيخِ الْحَدِيثِ ، نَرْجُو أَنْ يَعْقِبَ
هَذِهِ الشَّدَّةَ شِدَّةٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، تَسْتَحِقُّ بَعْدَهَا أَنْ تُسْتَخْلَفَ ، وَأَنْ
تَمَكِّنَ فِي الْأَرْضِ .

وَإِنَّا نَقُولُ مَا قَالَه صَلاَحُ الدِّينِ ، وَنَحْنُ نَرَى جِيُوشَ الْفَرَنْجَةِ مِنْ جَدِيدٍ
تَدَاهِمُ أَرْضَ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ : اللَّهُمَّ وَقَدْ انْقَطَعَتْ أَسْبَابُنَا الْأَرْضِيَّةُ فِي
نَصْرَةِ دِينِكَ ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا إِلَّا الْإِخْلَادُ إِلَيْكَ ، وَالْاعْتِصَامُ بِحَبْلِكَ ،
وَالْاعْتِمَادُ عَلَى فَضْلِكَ ، أَنْتَ حَسْبُنَا ، وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

* * *

التنمية الأخلاقية

إنَّ صناعةَ الإنسانِ الكاملِ ، وبناءَ الأسرةِ المتماسكةِ ، وإقامةَ المجتمعِ الفاضلِ ، هي من أسمى أهدافِ بعثةِ الأنبياءِ والرسلِ عليهم السلامُ .

لكنَّ طوفانَ الفسادِ في آخرِ الزمانِ حملَ من الأوبئةِ الخُلُقِيَّةِ الشيءَ الكثيرَ ، فقد حملَ الكذبَ والدَّجَلَ ، والحسدَ والنفاقَ ، والفسقَ والفجورَ ، والظلمَ والخيانةَ ، والحميَّةَ والعصبيةَ ، والغشَّ والتدليسَ ، والطمعَ والجشعَ ، والمكرَ والحيلةَ ، والفحشَ والخلاعةَ ، والحرصَ والبخلَ ، والترفَ والتبذيرَ ، وسوءَ الظنِّ باللهِ والرياءَ ، وعقوقَ الوالدينِ وإهمالَ الأولادِ ، وأكلَ السُّحتِ والمالِ الحرامِ ، وأكلَ مالِ اليتيمِ ظلماً .

إنَّ ظاهرةَ النفاقِ التي تحدَّثَ عنها القرآنُ الكريمُ والسُّنةُ النبويَّةُ الصحيحةُ بتفصيلٍ مطوَّلٍ تعني خللاً في مطابقةِ الأقوالِ للمعتقداتِ ، وهذا هو النفاقُ الاعتقادي الذي يخرجُ صاحبه من المِلَّةِ ، أما التباينُ بينَ الأقوالِ والأفعالِ فيعبرُ عنه بالنفاقِ العمليِّ ، وهذا شاعَ كثيراً في المجتمعِ ، ومهمَّةُ التنميةِ الأخلاقيةِ تطهيرُ حياةِ المسلمينِ من كلِّ هذا .

إنَّ أهمَّ مصدرٍ للسعادةِ والهناءِ انسجامُ واقعِ المرءِ مع ما يعتقدُ ، حيثُ

يشعرُ المرءُ بتَيَّارٍ يجتاحُه من البهجة والارتياح والأمنِ كلما تخطى عتبةً من العقباتِ التي تحولُ بينه وبين التناقضِ مع مثله وقيمه العليا .

إنَّ اللذاتِ الحسيةَ لا تخرقُ غشاءَ القلبِ ، بل لا تحومُ حوله ، لكنَّ الذي يملأُ كيانَ المرءِ كله بالسعادةِ والطمأنينةِ هو نشوةُ الانتصارِ على الأهواءِ والمغرياتِ ، وضغوطاتِ الشهواتِ والمصالحِ .

إنَّ السعادةَ الحقيقيةَ لا تُجلبُ أبداً من الخارجِ ، وإنما هي شعاعٌ من نورٍ ، يولدُ ، ويكبرُ في داخلِ الإنسانِ ، ويضيءُ جوانبَ الحياةِ كلها ، ويجعلُها أكثرَ قيمةً ومنطقيةً ، وأكثرَ تهيوأً للنموِّ والتقدمِ والاستمرارِ ، وكلُّ ذلك مرهونٌ بأوضاعٍ تسودُ فيها الأحكامُ الأخلاقيةُ ، ويعلو فيها صوتُ الالتزامِ والاستقامةِ ، وترفرفُ في أرجائها إشراقاتُ النفسِ !

إنَّ القاعدةَ النفسيةَ الأخلاقيةَ في أيِّ مجتمعٍ هي التي تتحمَّلُ الأثقالَ التي تنتجُ عن طبيعةِ الحياةِ الماديةِ والاجتماعيةِ ، وعن الانتكاساتِ التي تصابُ بها الأمةُ في ميادينِ الحياةِ المختلفةِ .

إنَّ هذه القاعدةَ هي التي تمكِّنُ الناسَ من تحمُّلِ الظروفِ الصعبةِ من دونِ أن يتحلَّلوا ، أو ينحرفوا ؛ فحين يُصابُ الناسُ بضائقةٍ اقتصاديةٍ شديدةٍ فإنَّ القاعدةَ الأخلاقيةَ تدفعهم إلى إغاثةِ الملهوفِ وإطعامِ الجائعِ ، والصبرِ على المدينِ المعسرِ ، إلى جانبِ التماسكِ الشخصيِّ ، وعدمِ الرضوخِ لمقتضياتِ الظروفِ الصعبةِ ؛ فنجدُ المسلمَ الحقَّ يمتنعُ عن كلِّ أنواعِ الكسبِ الحرامِ مع فاقتهِ الشديدةِ ، وذلك اتكالا على ما لديه من قيمٍ ومقاومةٍ إيمانيةٍ لدواعي التحلُّلِ .

إنَّ هذه القاعدة هي الرصيد الاحتياطي الضخم الذي تعتمد عليه الأمم في ترميم العديد من أنواع الخلل في حياتها .

ومن هنا ندرك حجم الجريمة التي ارتكبت في حق هذه الأمة حينما دُفعت دفعا من قبل أعدائها على مستوى التنظير ، وعلى مستوى العمل إلى أن تجعل القيم الأخلاقية والنفسية في المرتبة الدنيا من اهتماماتها ؛ فلما واجه الناس ما واجهوه من ضائقات في العيش ، ومن شح في متطلبات الحياة الكريمة لم يجدوا لديهم سندا خلقيا كريما يعتمدون عليه في الصمود أمام المغريات ، وأمام أسباب الانحدار المختلفة !

إن الذين نكروا لهم عظيم الاحترام ليسوا أولئك الذين يملكون كثيراً من المال ، أو الدهاء والمكر ، أو القوة الجسدية الخارقة ، وإنما نكروا عظيم الاحترام لأولئك الذين يملكون خلق التسامي ، وخلق الترفع عن سفاسف الأمور ، وأولئك الذين انتصروا على التحديات داخل نفوسهم ، وأولئك الذين يملكون فضيلة الانتظار والتضحية بالعاجل في سبيل الآجل ، والإيثار مع مسيس الحاجة إلى ما يؤثرونه .

إنه بالإمكان أن نقول : إن طابع الرقي الحقيقي هو طابع إيماني أخلاقي أكثر من أن يكون طابعاً عمرانياً تنظيمياً ، والجاذبية التي تتمتع بها القرون الأولى من تاريخ الإسلام تنبع أساساً من طابع الاستقامة والنبيل والتضحية ، وليس من التفوق في الحروب أو العلوم أو العمران .

ولعل الطريق الوحيد إلى كسر أغلال الشهوات يكون عن طريق إحداث انتفاضة إيمانية أخلاقية يستعلي بها المسلم على المعطيات المادية

للوضع الحضاريِّ الراهن ، وملتفتٌ إلى إثراء حياته بوسائل كثيرة لا تحتاجُ إلى المال .

إنَّ دراسةَ الحضاراتِ توقُّفنا على حقيقةٍ كبرى ، وهي أنَّ مصيرَ الإنسانِ كان يتوقَّف دائماً على أمرين : علاقتهُ بربه ، وعلاقتهُ بأخيه الإنسانِ ، والبعدُ النفسيُّ والأخلاقيُّ هو المركزُ والمحورُ في هاتين العلاقتين .

حينما ينحطُّ الإنسانُ يتحوَّلُ عن عبادته لربه إلى عبادته لشهواته ، وتعتمدُ علاقتهُ بالآخرين على القوةِ لا على الرحمةِ ، وعلى العنفِ لا على التفاهمِ ، وينصرفُ الإنسانُ عن العنايةِ بالنفسِ إلى العنايةِ بالجسدِ ، وعن الاهتمامِ بالمبدأِ إلى الاهتمامِ بالمصلحةِ ، ويتحوَّلُ المجتمعُ كُلُّه إلى غابةٍ يشعرُ كلُّ واحدٍ فيها أنَّ من حقِّه افتراسَ الآخرين ، كما أنَّه من الممكنِ أن يكونَ فريسةً لأيِّ واحدٍ منهم ! هذا هو مجتمعُ الغابِ .

والطريقُ الوحيدةُ للحيلولةِ دون هذه الحالةِ تكمنُ في تدعيمِ الرقابةِ الذاتيةِ ، وتعزيزِ علاقةِ العبدِ بربه - جل وعلا - وتحفيزِ الإرادةِ الخيرةِ في الناسِ ، وهذا الحلُّ وإن كان مُكلفاً على المدى القريب فإنه سفينةُ نوح على المدى البعيد .

لن يكونَ في إمكانِ أفضلِ النظمِ الاجتماعيةِ ، ولا في إمكانِ أفسى العقوباتِ الصارمةِ أن تقوِّمَ الاعوجاجَ ، ولا أن تملأَ الفراغَ الناشئَ عن ذبولِ النفسِ ، وانحطاطِ القيمِ ؛ فالعقوباتُ الصارمةُ لا تنشئُ مجتمعاً ، لكنَّها تحميه ، والنظمُ مهما كانت مُحكمةً ومتقنةً فلن تحوِّلَ دون تجاوزِ الإنسانِ لها ، وتأويلِها بما يجهضها ، وكلُّ الحضاراتِ المندثرةِ تركت

تنظيماتها وأدوات ضبطها خلفها شاهدة على نفسها بالعقم والعجز .

لابد أن نكون على يقين من أن تيار الشهوات والنزوات الجارف لا يمكن أن يقابل إلا بتيار إيماني متدفق من المشاعر والأحاسيس الإنسانية ؛ فوظيفة الفكر الدلالة على الطريق ، وعلى الأساليب والأدوات المناسبة للعمل ؛ ولكن الذي نستمد منه الطاقة على الاندفاع في طريق الخير ، والقوة على كبح جماح الشهوات هو الإيمان العميق ، ورصيدنا من المشاعر الحميمية التي هي ثمرة الاتصال بالله ، وإن كثيراً من الشباب الذين جرفهم تيار الجنس والمجون والخلاعة لم يكونوا بحاجة إلى أدلة على فضل العفة والاستقامة ، وإنما كانوا بحاجة إلى شيء من المعاني التي تفيض على القلب بسبب تذوق طعم العبودية الحقيقية لله ، والإحساس الصادق بمعية الله تعالى لهم وإطلاعه عليهم .

حين يبلغ التقدم التقني أقصى مداه ، ويشعر المرء بالتخمة من أدوات التحكم عن بُعد ، وكل ما يجعل الحياة خالية من التحديات حينئذ تنبعث في النفس أشواق قديمة جديدة ، هي أشواق النفس إلى ما وراء المادة ، إلى عالم التراحم ، إلى عالم التعاطف ، إلى عالم التضحية ببعض المكاسب من أجل استمرار حياة الجميع .

إن الأخلاقيين اليوم هم القادة غداً ، وهل يُعرف فضل الماء إلا عند اشتداد الظم ؟

إن الإسلام يعلمنا أنه بالإمكان تصحيح المسار قبل أن نرتطم بقاع الهاوية ، كما يعلمنا أنه بالإمكان أن نتحول من الخسارة إلى الربح قبل أن يصبح الرصيد صفراً ؛ وذلك إذا أصغينا إلى نداء الفطرة في أعماقنا ،

وضغطنا على بعض حاجات الجسد من أجل إنعاش النفس ، وفكرنا ملياً بما هو آت .

إن المسألة الحاسمة في مجال الأخلاق هي إطارها المرجعي ، أي الجهة التي نستمد منها الحكم على حسن الخلق أو قبحه ، والجهة التي ستتولى الإثابة أو المعاقبة على ذلك الخلق .

في العالم الغربي تحول الإطار المرجعي للأخلاق من الوحي إلى العقل ، وهذا العقل بعيداً عن الوحي يقود إلى مبدإ خطير جداً ، وهو مبدأ النسبية في الأخلاق ، حيث أصبح الطريق ممهداً لتحويل الرذائل إلى فضائل ، وأصبح النمو الاقتصادي صنماً يُعبد من دون الله ، وتقدم له كلّ القرايين .

لاشك أن علينا أن نبذل جهوداً ضخمة لإحياء أخلاق جديدة تلبي شروط العيش في عصر معقد ، وتستند في الوقت نفسه إلى السبائى الإسلامية ، والقيم الإسلامية ، إلا أن التقدم الحاسم في المجال الأخلاقي ربما كان بحاجة إلى إحراز تقدم في المجالات السياسية والحضارية ، حيث إن التخلف نفسه يحول دون الإبداعات الأخلاقية الأصيلة .

ومما لا يخفى أن الثقافة العلمانية وكثيراً من الثقافات التي فُرِضَتْ علينا أهملت الميدان الأخلاقي إهمالاً شبة تام ، وذلك نتيجة للتأثر بفلسفة وضعية ، جعلت العلم المادي هدف كل تقدم ، وصار هذا العلم المادي علماً ، وأخلاقاً ، وأدباً وقيماً ! وصارت الأخلاق الأصيلة

الإسلامية تصوّر على أنها قيود مفروضة بسبب الجهل ، وعمى التقاليد ، وأنت ضعيف لأنك أخلاقي ، أو أنك أخلاقي لأنك ضعيف ، وأن أخلاق المسلمين أفقدتهم المقدرة على استيعاب الحضارة الحديثة ! وصارت الأخلاق كما تصوّرها التيارات العلمانية تعني سذاجة في الشخص ، وبساطة في تركيبه ، وتثير الشك في صدق موقفه ، بل ربما دفعت إلى اتهامه بشتى التهم .

نتيجة لتهميش كثير من كتابنا القضايا الأخلاقية ، ونتيجة لسوء التخطيط وسوء الظروف المعيشية لكثير من الناس سادت لدينا أمراض أخلاقية عديدة وخطيرة ، نذكر بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر :

إن كثيراً من الناس يعيش اليوم دون أي أهداف سامية ، فتأمين الحاجات الضرورية هو شغل الناس الشاغل ، وامتلاك بيت صغير يُعدّ نصراً كبيراً في معركة شرسة !

وقد صار الواحد من الناس أشبه بالحيوان البرّي الذي يقضي حياته في حديقة حيوانات ، فهو ليس معزولاً عن بيئته الطبيعية فحسب ، بل هو معزول عن أعماق ذاته ، وعن هويته ، وعن سرّ وجوده ، وعن غاية وجوده .

ويعاني السواد الأعظم من الناس من ضعف الإحساس بالواجب ، وهو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية ؛ ليعكس تسامي الإنسان أو قدرته على الالتزام تجاه غيره ، والتضحية من أجل غيره .

وما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتماء إلى الجماعة ،

وبالرغبة في الذوبان فيها ، فإذا عجز الإنسان عن الالتزام الجماعي أباح لنفسه كل ما استطاع أن يحرّمه على غيره .

وهناك فريق من المسلمين من نوع آخر يعاني على الصعيد الحضاري من ذبول الروح الجماعية لديه ، وهو ينزع باستمرار إلى نوع من الانطواء على الذات والأسرة والحي والقرية والقبيلة ، وهو نزوع ذو أثر سلبي على الإحساس بمصلحة الأمة والحرص على تقدّمها .

وإلى جانب ذلك فهناك عادات سيئة عديدة تتعلق بالعمل والاستهلاك ؛ إذ إنّ كثيراً من الناس ينظرون نظرة ازدراء للعمل الإبداعي ، كما أنّ هناك رغبة قوية لشراء العقارات ، وشراء السيارات الفاخرة ، والإنفاق الترفي والبذخي الذي لا تتحمّله موارد الأمة .

وهناك أمراض خلقية كثيرة على صعيد العلاقات بين الناس ، مثل قطع الرحم ، والجفاء بين الأهل والجيران ، ومثل الحسد والتكبر على الناس ، وحب الاستئثار ، والانفراد بالخيرات العامة والمشاركة .

وإنّ مشكلات الزحام وشح الموارد ، وتراجع التربية الخلقية ، وضعف الإحساس بالأهداف الكبرى سوف تولّد المزيد من التأزم النفسي ، والمزيد من الأمراض الخلقية ، وذلك يحتاج إلى تأمل عميق من المصلحين ، وإلى البحث عن سبل للعلاج والخلاص .

إنّ الانحدار الأخلاقي كثيراً ما يكون صدى لأزمات يمرّ بها المجتمع ؛ فقد تنتشر الجريمة بسبب ضائقة اقتصادية ، أو كبت شديد ، أو وجود نماذج اجتماعية غارقة في البذخ والترف .

وهذا كله يوصلنا إلى قناعة بضرورة ألا ن عزل معالجة القضايا الأخلاقية عن معالجة مشكلات الحياة الأخرى ، وهذا ما نغفل عنه في أحيان كثيرة . لكن لا ينبغي أن نصرف انتباهنا عن حقيقة أخرى تتصل بالمسألة الأخلاقية ، وهي أن لكل أمة سلماً قيمياً ترتب فيه أخلاقها في ضوء أمرين : مبادئها وحاجاتها ؛ فظروف الصحراء والبدوة حملت العرب في الجاهلية على وضع الشجاعة والكرم في أعلى السلم القيمي ؛ وحين جاء الإسلام لم يُخرج هاتين الخصلتين من سلم الفضائل ، لكنه غير من موقعها في الإطار الجديد ، حيث صارت التقوى المعيار الأهم في الدلالة على الفضل والسبق .

وفي المجتمعات الصناعية الحديثة هناك ميل قوي إلى جعل الدقة والفاعلية والإنجاز والمهارة والنجاح في أعلى السلم القيمي ، وهكذا . والذي نريد أن نقوله : إننا اليوم في أمس الحاجة إلى إيجاد مدخل جديد للتنمية الأخلاقية ، يقوم على منح بعض الثوابت القيمة والأخلاقية معاني جديدة أو اهتمامات خاصة ببعض مدلولاتها ، بغية التخفيف من حدة وطأة التخلّف الذي يجتاح حياة المسلم ، فالتقوى في حياتنا المعاصرة بحاجة إلى إثراء مفرداتها كي تتناول بعض الفروض الحضارية ، كالإسراع إلى العمل ، وإتقان العمل ، وتطوير العمل ، والمحافظة على الوقت ، وحسن إدارته ، والعمل المؤسساتي ، وترسيخ مفهوم فريق العمل ، والالتزام بالمواعيد ، وحسن التصرف بالإمكانات المتاحة ، وترشيد الاستهلاك . . . وكل هذه القيم المعاصرة لها أصول ثابتة في القرآن والسنة .

ويمكن من خلال التربية والموعظة الحسنة أن نجعل المسلم يشعر

بحلاوة الإيمان ، وحلاوة الالتزام من خلال القيام بهذه الأعمال التي تقتضيها طبيعة العصر ، كما يشعر تماماً عندما يضع صدقة في يد فقير ، أو عندما يقوم الليل والناس نياماً .

فالتجديد النفسي والأخلاقي ليس نسخ أخلاق وإحلال أخلاق أخرى في موضعها ، وإنما هو توسيع في مدلولات بعض المفاهيم الأخلاقية ، ومنحها أهمية أكبر في النسق الأخلاقي العام .

لا توجد أمة ليس لها مبادئ محددة تعول عليها في النسيب الاجتماعي ، وفي ترجيح ممكن على ممكن آخر ، كما أنه ليس هناك أمة تخطط لجعل واقعها حرباً على مبادئها ، وقد ضربت أمة الإسلام أروع الأمثلة في هذا السبيل ، مما ليس له نظير .

ومع الإدراك العميق للصعوبات الكثيرة التي تواجه من يريد إحداث تقدم أخلاقي ممتاز في وسط متأزم ، فلا بد من ذكر بعض المبادئ والشروط والأساليب والوسائل التي نطلق أنها ذات تأثير في تحسين المستوى النفسي والخُلقي لأمتنا والرفق به^(١) .

إن أمة الإسلام اليوم تحاول أن تتطلع نحو آفاق واسعة المدى ، عليها أن تجد مضافات الانطلاقة الأولى التي أشعل شرارتها النبي ﷺ وأهل القرون الخيرة من بعده ، وهذا في الحقيقة يحتاج إلى رواد ، وإلى دعاة ، وإلى علماء من نوعية خاصة ، ومع أن كثرة عددهم أمر مهم جداً ، إلا أن نوعية الموصفات والأخلاق التي يجب أن يتحلوا بها تظل

(١) اقتبست معظم فقرات هذا الموضوع من كتاب « التنمية الأخلاقية » للدكتور عبد الكريم بكار .

أهمّ من كثرة عددهم ؛ فالصحابه الكرام الذين تلقوا تربية مكثفة ومتميزة عن النبي ﷺ ربّما لا يتجاوزون بضعة ألوف ، ولكن خصوصية سماتهم وأخلاقهم جعلت منهم قدوة فريدة ، أمكنها أن تحمل بناء ضخماً متطاولاً ، وما زلنا إلى اليوم نقتبس من بركات تلك القدوة وهداياها .

من سمات هذا الذي يريد أن يصلح من شأن الأمة :

أ - صلة قوية بالله جلّ وعلا : إنّ الصلة القوية بالله تغمر كيان المسلم ، وتنقل إيمانه من حيّر الدائرة العقلية والتصديق القلبي إلى حيّر الشعور ، المعبر عنه في حديث في صحيح مسلم حين قال له جبريل : « فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »^(١) ، وهذا لن يتأتى إلّا من خلال العبادات المكثفة ، حيث إنّ الإيمان أشبه شيء بشجرة وارفة الظلال ، وكلما أردنا لهذه الشجرة أن تكبر ، وأن تمتد أغصانها في كل اتجاه ، كان علينا أن نسقيها أكثر ؛ وماؤها هو العبادات والنوافل والأذكار .

وهذه السمة كانت واضحة جداً في حياة الصحابة - رضي الله عنهم - والسلف الصالح عامة .

إنّ الإيمان الحيّ المتدفق هو الطاقة العظمى التي نحتاجها في مرحلة الإقلاع ، وليس ثمة بديل لذلك .

ب - الصبر وطول النفس : حيث إنّ الواقع الرديء الذي نعيشه ما هو إلا خلاصة لتراكمات أخطاء قرون عديدة ؛ وحتى يتحسن ذلك الواقع

(١) مسلم (٨) عن عمر بن الخطاب .

بصورة جيدة ، فإنه يحتاج إلى زمنٍ وجهدٍ ، وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى حين قال :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ يَا أَمْرًا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأحياناً يسيطر على الناس اليأس بسبب طول الطريق ومشاقه ، وبسبب شعورهم بأن التحسن ضعيف أو معدوم ، أما الرواد والدعاة الصادقون والعلماء الربانيون فإنهم لا ينظرون أبداً إلى ما قطعوه من الطريق ، ولا إلى ما تبقى منه ، وإنما يستغرقهم ، ويسيطر عليهم الانشغال بواجب الوقت ، والانشغال بتصحيح المسيرة ، وهم بعد ذلك يشعرون أنهم لم يقدموا سوى جزء يسير من المطلوب ، ولكنه جهدهم الذي يملكونه ، وينتظرون من الله - تعالى - أن يتقبله .

ج - الإعراض عن متاع الدنيا وشهواتها : ومع أن قدرنا من ذلك مطلوب من كل مسلم ، إلا أن للرواد شأناً آخر ، فهم أحق الناس بالتقليل قدر الإمكان من متاع الحياة الدنيا ، بما لا يصل إلى حد الحرمان ؛ ويظل المهم هو شعور الناس بتميز هذه الفئة المباركة في أسلوب عيشها ، وفي مقاييسها للرفق الاجتماعي .

إن الأمة في هذه المرحلة بحاجة ماسة إلى المال ، كي تشيد المرافق العامة والمدارس والجامعات . . . وهي بحاجة إلى من يوضح لها بطريقة عملية منهجية جديدة في العيش بعيداً عما اعتاده كثير من الناس من البذخ والترف وإنفاق المال بغير حساب ، ولا أدنى شعور بالمسؤولية .

د - التضحية والعطاء السخي والكرم الذاتي : هذه سمات مهمة فيمن

يتصدى للنهوض بهذه الأمة ، ومع كون هذه المعاني عميقة في ثقافة المسلم ومتغلغلة في وجدانه ، إلا أن الناس يبحثون دائماً عن القدوة والنموذج المحسوس ، ولو أن المبادئ تُعَيِّرُ حياة الناس لما بعث الله تعالى الرُّسُلَ ، ولا أنزل الكتب ، لكن مضت مُنتَه في خلقه بأن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ، وأن المحسوس أسهل في الإدراك وأعظم في التأثير من المجرّد ، فحال موصول بالله في ألف رجل أبلغ من مقال ألف في واحد .

النفسُ تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت بناها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها

إن القضية الأساسية في التعامل مع الأحداث الجسام ليست في تصديق وقوعها ، أو عدم تصديقه ، فطبيعة العصر من حيث التواصل الإعلامي المذهل ، وثورة المعلومات المتفجرة ، واجتماع الأمم والشعوب في غرفة إعلامية واحدة ، يلغي موضوع التصديق ، أو عدم التصديق ، ولكن العبرة في التعامل مع الأحداث الجسام تحليلها التحليل الصحيح ، ثم اتخاذ موقف ، والانطلاق إلى عمل من خلال هذا الموقف ، ولنضرب على ذلك مثلاً .

لو أن صاحب سيارة في أثناء قيادته لها تألق ضوء أحمر في لوحة البيانات التي أمامه ، فالمشكلة ليست في تصديق التألق ، أو عدم تصديقه ، لقد رأى تألق هذا الضوء بأم عينه ، ولكن المشكلة في فهم هذا

التألق ، وتحليله ، والسلوك الذي يُبنى على هذا الفهم والتحليل ، فلو فهم التألق على أنه ضوء تزييني ، فتابع السير ، لاحترق المحرك ، وتكلف لإصلاحه مبلغاً كبيراً ، وتعطل سيره إلى هدفه ، أما إذا فهم هذا التألق على أنه ضوء تحذيري ، أوقف السيارة ، وأضاف الزيت ، وسلم محرك السيارة من الاحتراق ، وتابع سيره إلى هدفه ، فالعبرة لا في التصديق وعدمه ، بل في فهم الحدث وتحليله .

ما هذا العالم ! ؟ إنه عالم أحمر من كثرة الدماء التي تُسفك ظلماً ، ما هذا العالم الذي ليس في قاموسه إلا القتل ، والتدمير ، والقصف ، والمداومة ، والقبض ، والاعتقال ، والتعذيب ، والاغتيال ، وأنهار من الدماء تجري ؟ حتى إنك لتشك في إنسانية هذا العالم ، علاوة على قيمه وأخلاقه ودياناته ، بل إن الإنسان وهو يشاهد هذه المشاهد الظالمة يخلج أن ينتمي إلى هذا الجنس البشري المتوحش .

هل هذه حياة تعاش ؟ هل هذه حضارة تثمن ؟

هل هذه دول متقدمة أم أنها أبث إلا أن تأخذ نصيبها من التخلف والهمجية ؟ وإلا فبماذا تفسر تلك الأعمال الإجرامية العالمية والإرهاب الدولي ضد أبرياء وعزل وأصحاب حقوق سليمة ، وكرامات منتهكة ؟

إن حياة الغاب أرحم بكثير مما نشاهد في مسرحية الحرية والديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، التي استمتعنا بالفصل الأول منها ، ونحن في غفلة ساهون ، وبكينا في الفصول اللاحقة ؛ كفصل التطهير العرقي ، ومكافحة الإرهاب بإرهاب يفوق حد الوصف ، لكن المخرج

المخادعَ حاولَ أن ينسيتنا فصولَ الجريمةِ بقضايا براقية ، من العولمة التي لا تعني سوى الحيوانية ، أي : أن نثيرَ في الإنسانِ الجانبَ الحيوانيَّ ، ليس غير .

لذلك نستطيعُ أن نقابلَ القنبلةَ الذريةَ بقنبلةِ الذريةِ ، أي بتربيةِ جيلٍ مسلمٍ ينهضُ بأُمته .

إنّ مواقفَ العدوِّ وسياساته تؤكِّدُ عقمَ التياراتِ التليفيةِ والاستسلاميةِ ، وتفتحُ الطريقَ واسعاً وبلا حدودٍ أمامَ تيارِ المقاومةِ ، ولاسيما الملتزمة منها ، وهكذا فقد انتهى طريقُ الوهم ، وبدأ طريقُ النصرِ ، إن شاء الله تعالى .

صحيحٌ أنّ هناك متغيّراتٍ دوليةً ، ولكنّ الأصحَّ من ذلك أن هناك ثوابتَ إسلاميةً ، وأنّ الباطلَ الكثيفَ الذي يركبُ موجةَ هذه المتغيّراتِ الدوليةِ لا يمكنُ أن يلغِيَ الحقَّ الراسخَ الذي تملكه أمتنا ، فالمتغيّراتُ الدوليةُ تستوجبُ قدراً من التكيفِ والمناورةِ في الوسائلِ والجزئياتِ ، لكنّ لا يجوزُ بحالٍ من الأحوالِ أن نغيّرَ في الأهدافِ والمبادئِ .

مثالٌ ذلك : إذا سافرَ المسلمُ ، والسفرُ تغييرٌ بالنسبةِ إلى المصلّي ، هذا السفرُ يجزئُ للمصلّي القصَرَ والجمعَ في بعضِ الصلواتِ ، لكنّ السفرَ لا يجزئُ له تركُ الصلاةِ بحالٍ من الأحوالِ .

قالَ طفلٌ صغيرٌ بعفويةٍ ، وهو يزاحمُ بجسده النحيلِ ، ويحاولُ شقَّ طريقٍ له وسطَ الجموعِ الغفيرةِ التي أمت مستشفى الشفاءِ في غزة : « إنّ اغتيالَ هذا المجاهدِ الشهيدِ لن يحبطنا ، ولن يكسرَ شوكتنا ، بل سيزيدنا

قوة وعزيمة على مواصلة درب الكفاح والمقاومة ، حتى تحرير أرضنا » .

ولله درُّ مَنْ قال ، وقد صدق فيما قال :

لئن عرف التاريخ أوساً وخزرجاً فلله أوسٌ قادمون وخزرجٌ

* * *

متى تغضب

نظراً للمحن والشدائد التي تمرُّ بها أمتنا ، والتي تهدِّد لَهولها الجبال ،
فإني أخاطب أولئك الذين لم يحملوا هموم أمتهم أينما كانوا في العالمين
العربي والإسلامي ، ولم يتألموا لآلامها ، ولم يحزنوا لأحزانها ،
وتوهموا أن الذي يجري حولهم لا يعينهم ، وهم غارقون في حفلات تقام
في ردهات الفنادق ، وفي أبهاء المطاعم ، وفي حدائق المزارع ، وفي
ألعاب تافهة ، وسباقات فارغة ، وفي برامج ساقطة مستوردة من عالم
تتناقض قيمه ومبادئه مع قيمنا ومبادئنا ، تبثُّها بعض الفضائيات ، والتي
تبذلُّ فيها الأموال الطائلة ، والأوقات الثمينة ، إلى هؤلاء الشاردين
أقول :

أخي في الله ، أخبرني متى تغضب ؟

إذا انتهكت محارمنا

إذا نسفت معالمنا ولم تغضب

إذا قتلت شهامتنا ؟ إذا ديست كرامتنا

إذا قامت قيامتنا ، ولم تغضب

فأخبرني متى تغضب ؟

إذا نُهِبَتْ مواردُنا ، إذا نُكِبَتْ معاهدُنا .

إذا هُدمت مساجدُنا ، وظلَّ المسجدُ الأقصى .

وظلَّت قدسُنا تُغضب .

ولم تغضب .

فأخبرني متى تغضب ؟

عدوي أو عدوك يهتك الأعراس .

يعبثُ في دمي لعباً

وأنت تراقبُ الملعب

إذا لله للإسلام لم تغضب فأخبرني متى تغضب ؟!

رأيتَ هناك أهوالاً

رأيتَ الدم شلالاً

عجائز شيعت للموت أطفالاً

رأيتَ القهر ألواناً وأشكالاً

ولم تغضب

فأخبرني متى تغضب ؟

صارحني بلا خجلٍ ، لأيِّ أمة تُنسب ؟!

فلست لنا ، ولا منا ، ولست لعالم الإنسان منسوبا

ألم يحزنك ما تلقاه أمتنا من الهول ؟
 ألم يخجلك ما تجنيه من مستنقع الحل
 وما تلقاه في دوامة الإرهاب والقتل ؟
 ألم يغضبك هذا الواقع المعجون بالذل ؟
 وتغضب عند نقص الملح في الأكل !
 ألم يهزرك منظر طفلة ملأت
 مواضع جسمها الحفر
 ولا أبكاك ذاك الطفل في هلع
 بظهر أبيه يستتر
 فما رحموا استغاثته
 ولا اكرثوا ولا شعروا
 فخر لوجهه ميتاً
 وخر أبوه يحتضر
 متى التوحيد في جنبك ينتصر ؟
 أتبقى دائماً من أجل لقمة عيشك
 المغموس بالإذلال تعتذر ؟
 متى من هذه الأحداث تعتبر ؟

صَلَةُ الرَّحِمِ

في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فَتُحْتَأَبُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ » (١) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِذَا كَانَ أَوَّلُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ صُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ وَمَرَدَةُ الْجِنِّ ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ ، فَلَمْ يُفْتَحْ مِنْهَا بَابٌ ، وَفُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، فَلَمْ يُغْلَقْ مِنْهَا بَابٌ ، وَيُنَادِي مُنَادٍ : يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ ، وَلِلَّهِ عُتَقَاءُ مِنَ النَّارِ ، وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ » (٢) .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٣) .

وَعَنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٤) .

(١) البخاري (٣١٠٣) ، مسلم (١٠٧٩) .

(٢) الترمذي (٦٨٢) ، النسائي (٢٤١٧) ، ابن ماجه (١٦٤٢) .

(٣) البخاري (٣٨) ، مسلم (٧٥٩) .

(٤) البخاري (٣٧) ، مسلم (٧٥٩) .

شهرُ رمضان شهرُ الصيام ، وهو أحدُ أركانِ الإسلام ، فضَّله اللهُ على شهورِ العام ، وأفاضَ فيه على المسلمين الخيراتِ والبركاتِ ، وضعفَ لهم فيه الحسناتِ ، وتجاوزَ فيه عن الذنوبِ والسيئاتِ ، وأقالَ فيه العثراتِ ، فهو شاهدٌ للمحسنين ، وشاهدٌ على المعرِّضين والمفسدين ، يجيءُ أوَّلُهُ ، فما أسرعَ انقضاءَ آخرِهِ ، فأرؤوا اللهَ في كلِّ رمضانٍ من أنفسِكم خيراً بالتوبةِ من المحرِّماتِ ، وبفعلِ الطاعاتِ ، فإن هذا الشهرَ من أسبابِ مكفِّراتِ الذنوبِ ، والشفاءِ من العيوبِ ، فرضَ اللهُ جلَّ جلالُهُ علينا صيامَهُ ، وسنَّ رسولُ اللهِ ﷺ قيامَهُ ، وبشَّرَ على القيامِ بذلك أعظمَ البشائرِ ، فليُغتَنَمَ هذا الشهرُ يا ذوي الألبابِ والبصائرِ .

إنَّ التقوى هي علَّةُ الصيامِ ، وإنَّ صلةَ الأرحامِ أفضلُ أوقاتها في رمضانَ .

صلةُ الرحم من العباداتِ التعامليةِ

إنَّ رمضانَ شهرُ البرِّ والصَّلةِ ، وشهرُ التعاطفِ والرحمةِ ، فالقلوبُ تلينُ لذكرِ اللهِ ، والنفوسُ تستجيبُ لداعي اللهِ ، فلا ترى من جرَّاءِ ذلك ، إلا أعمالاً زاكياتٍ ، وقرباً من ربِّ الأرضِ والسمواتِ .

ذلك لأنَّ الإسلامَ يهدفُ إلى بناءِ مجتمعٍ متراحمٍ متعاطفٍ ، تسوده المحبةُ والإخاءُ ، ويهيمنُ عليه حبُّ الخيرِ والعطاءِ ، والأسرةُ وحدةُ المجتمعِ ، تسعدُ بتقوى اللهِ ورعايةِ الرِّحمِ ، لذلك اهتَمَّ الإسلامُ بتوثيقِ عُراها ، وتثبيتِ بُنيانها ، فجاء الأمرُ برعايةِ حقِّها بعدَ توحيدِ اللهِ وبرِّ

الوالدين ، قال جلّ وعلا : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء : ٣٦] .

وَقُرِنتَ مع إفراد الله بالعبادة والصلاة والزكاة فعَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ . . . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ »^(١) .

وقد أَمَرَتِ الْأُمَمُ قَبْلَنَا بِصِلَةِ أَرْحَامِهَا ، قال سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [البقرة : ٨٣] .

وَدَعَا إِلَى صِلَتِهَا نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ فِي مَطْلَعِ نُبُوتِهِ ، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ : قَالَ عَمْرُو بْنُ عَبْسَةَ السُّلَمِيُّ : « كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ ، وَأَنَّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا ، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي ، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَحْفِيًا جُرْءَاءُ عَلَيْهِ قَوْمُهُ ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ ، فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا نَبِيٌّ ، فَقُلْتُ : وَمَا نَبِيٌّ ؟ قَالَ : أَرْسَلَنِي اللَّهُ ، فَقُلْتُ : وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ : أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ . . . »^(٢) .

وسأله هِرَقْلُ أَبَا سَفْيَانَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ

(١) البخاري (١٣٣٢) .

(٢) مسلم (٨٣٢) .

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ هِرْقَلَ قَالَ لَهُ : « سَأَلْتُكَ : مَاذَا يَأْمُرُكُمْ ؟ فَرَعَمْتُ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ ، وَالصَّدَقِ ، وَالْعَفَافِ ، وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، قَالَ : وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ » (١) .

وَأَمَرَ بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ مَقْدَمِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ قَالَ : لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ قَبْلَهُ ، وَقِيلَ : قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ، قَدْ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ، ثَلَاثًا ، فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لَأَنْظُرَ ، فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ ، فَكَانَ أَوَّلَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ قَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطِعُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ » (٢) .

وهي وصية النبي ﷺ ، قال أبو ذرٍّ : « أَوْصَانِي خَلِيلِي بِصَلَاةِ الرَّحِمِ وَإِنْ أَدْبَرْتَ » (٣) .

إِنْ صَلَاةُ ذَوِي الْقَرْبَى أَمَارَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « ... وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ... » (٤) .

صَلَاةُ الْحَرَمِ عِبَادَةٌ جَلِيلَةٌ مِنْ أَحْصَى الْعِبَادَاتِ ، يَقُولُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ : « مَا مِنْ خَطْوَةٍ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ خَطْوَةٍ إِلَى ذِي الرَّحِمِ » .

(١) البخاري (٢٥٣٥) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٥) ، وابن ماجه (١٣٣٤) واللفظ له ، وأحمد (٢٣٨٣٥) .

(٣) أبو نعيم في الحلية (٣٥٧ / ٢) .

(٤) البخاري (٥٧٨٧) .

ثوابها معجلٌ في الدنيا ، ونعيمٌ مدَّخَرٌ في الآخرة ، قال ﷺ : « لَيْسَ شَيْءٌ أَطْيَعَ لِلَّهِ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صَلَةِ الرَّحِمِ ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ »^(١) .

القائمُ بحقوقِ ذوي القربى موعودٌ بالجنة ، فعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ : « ... وَأَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ ، ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَّصِدٌّ مُوَفَّقٌ وَرَجُلٌ رَحِيمٌ ، رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى ، وَمُسْلِمٌ وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ »^(٢) .

أمر الله بالرفقة بالأرحام كما نرأف بالمسكين وابن السبيل ، قال عز وجل : ﴿ وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقًّا وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ [الإسراء : ٢٦] .

وحقهم في البذل والعطاء مقدَّم على اليتامى والمساكين ، قال سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وََالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

وللسخاء عليهم ثوابٌ مضاعفٌ من ربِّ العالمين ، فعَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ الضَّبِّيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي الْقَرَابَةِ اثْنَتَانِ ؛ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ »^(٣) .

وأولُّ مَنْ يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ هم الأقربون من ذوي المسكنة ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : « كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ

(١) البيهقي في السنن الكبرى (٣٥ / ١٠) ، وفي شعب الإيمان (٤٨٤٢) ، والقضاعي في مسنده (٨١٤) عن أبي هريرة .

(٢) مسلم (٢٨٦٥) .

(٣) النسائي (٢٣٦٣) ، ابن ماجه (١٨٤٤) ، الدارمي (١٦٨٠) .

مَالًا ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا ، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ ، فَلَمَّا نَزَلَتْ : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ ، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ ، فَضَعَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ شِئْتَ ، فَقَالَ : بَخ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ ، قَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ فِيهَا ، وَأَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ ، قَالَ : أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ ، وَبَنِي عَمِّهِ ^(١) .

فالباذلُ لهم سخيُّ النفسِ ، كريمُ الشَّيْمِ ، يقولُ الشعبيُّ رحمه اللهُ :
« ما ماتَ ذو قرابةٍ لي وعليه دينٌ إلَّا وقضيتُ عنه دينه » .

ماذا تعني كلمة (الأرحام) ؟

المعنى الأولُ : رحمُ الدِّينِ ، وهي رحمٌ عامَّةٌ تشملُ جميعَ المسلمين ، وتتفاوتُ صلَّتُهُم حسبَ قُرْبِهِم وبُعْدِهِم عن الدِّينِ ، وكذلك حسبَ قُرْبِهِم وبُعْدِهِم المكاني .

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] .

فأثبتَ اللهُ الأخوةَ الإيمانيةَ لجميعِ المسلمين .

(١) البخاري (١٣٩٢) ، مسلم (٩٩٨) .

وقوله : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٢٢] .

المعنى الثاني : رَحِمُ القرابة القريبة والبعيدة ، من جهة الأبوين ، ولكل من هذين النوعين حقوق ونوعُ صلة .

إن الروابط تزداد وثوقاً بالرحم ، وقريبك لا يملك على القرب ، ولا ينسأك في البعد ، عزُّه عزُّ لك ، وذُلُّه ذُلُّ لك .

قال القرطبي رحمه الله : « اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة ، وأن قطيعتها محرمة »^(١) .

عن عائشة أن النبي ﷺ قال لها : « إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ ، وَحُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ »^(٢) .

وعن أنس بن مالك قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئَ غَضَبَ الرَّبِّ ، وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ الشُّوْءِ »^(٣) .

معنى صلة الرحم

الرحمُ العامةُ رحمُ الدين ، ويجبُ صلتُها بملازمة الإيمان ، والمحبة للمؤمنين ، ونصرتهم ، والنصيحة لهم ، وترك أذيتهم ، والعدل بينهم ، والإنصاف في معاملتهم ، والقيام بحقوقهم الواجبة ، كالقيام على معالجة

(١) تفسير القرطبي (٦/٥) .

(٢) أحمد (٢٥٢٩٨) .

(٣) الترمذي (٦٦٤) .

المرضى ، ومواساة الفقراء ، دون أن يمتنَّ عليهم ، ونصرة المظلومين ، وحقوق الموتى ، من غسلهم ، والصلاة عليهم ، ودفنهم ، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لأهل الإيمان .

الرَّحْمُ الخاصَّةُ رحمُ القرابة ، وتكونُ صلَّتها بزيارتهم ، وتفقدِ أحوالهم ، والسؤالِ عنهم ، والإهداءِ إليهم ، والتصدُّقِ على فقيرهم ، والتلطُّفِ مع وجيهم وغيثهم ، وتوقيرِ كبيرهم ، ورحمةِ صغيرهم ، وتكونُ الصَّلَةُ باستضافتهم ، وحُسنِ استقبالهم ، وإعزازهم ، ومشاركتهم في أفراحهم ، ومواساتهم في أتراحهم .

وتكونُ الصَّلَةُ أيضاً بالدعاءِ للأرحامِ ، وسلامةِ الصدرِ لهم ، والحرصِ على نصيحهم ، ودعوتهم للخير ، وأمرهم بالمعروفِ ، ونهيهم عن المنكرِ ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ إذا فسدَتْ .

وتكونُ الصَّلَةُ أيضاً ببشاشةٍ عندَ اللقاءِ ، ولينٍ في المُعاملةِ ، إلى طيبٍ في القولِ ، وطلاقةٍ في الوجهِ ، وزياراتٍ وِصَلاتٍ ، وإحسانٍ إلى المحتاجِ ، وبذلٍ للمعروفِ ، ونصحهم ، والتَّصحُّحِ لهم ، ومساندةِ مكروبهم ، وعيادةِ مريضهم ، وإقالةِ عثراتهم ، وتركِ مُضارَّتِهِمْ ، والمعنى الجامعُ لذلكِ كله : إيصالُ ما أمكَّنَ من الخيرِ ، ودفعُ ما أمكَّنَ من الشرِّ .

ثمَّ إنَّ الأقاربَ يختلفون في أحوالهم ، وطباعهم ، ومنازلهم ، فمنهم من يرضى بالقليلِ ، فتكفيه الزيارةُ السنويَّةُ ، والمكالمةُ الهاتفيةُ ، ومنهم من يرضى بطلاقةِ الوجهِ ، والصَّلَةِ بالقولِ ، ومنهم من يعنو عن

حقّه كاملاً ، ويلتمسُ المعاذيرَ لأرحامِهِ ، ومنهم مَنْ لا يرضى إلاّ بالزيارة المستمرة ، وبالاهتمامِ الدائم ، فمعاملتهم بهذا المقتضى تُعينُ على حُسنِ الصلّةِ بهم ، واستيفاءِ مودّتهم .

وتبدأُ صلّةُ الرّحمِ بنوعٍ من الاتّصالِ الهاتفيّ أو البريديّ ، ثم زيارتهم ، ثم تفقّدِ أحوالِهِم المعيشيّة والاجتماعيّة ، ثم مساعدتهم بالطفِ أسلوبٍ ، ثم الأخذُ بيدِ القريبِ وأهله إلى الله ، وحملهم على طاعته ، والتقرّبِ إليه ، وهذا تاجٌ تتوّجُ به هذه الصلّةُ ، وعندئذٍ تكونُ هذه الصلّةُ قد حقّقتْ هدفها الأكبر .

كيف تعاملُ الرّحمُ المسيئةُ ؟

حتى لو كان الأقاربُ من النوعِ المتعبِ الذي يقابلُ الإحسانَ بالإساءة ، فلا يجوزُ أن تقاطعهم ، لأنك تتعاملُ مع الله تعالى طاعةً لأمرِهِ ، والتزاماً بسنّةِ رسولِهِ ﷺ ، وعلى ذلك يجبُ على المسلم أن يسلكَ كلّ السبلِ ليصلَ أرحامه ، ويحسنَ إلى أقاربه وجيرانه .

إنّ ذوي الرّحمِ غيرُ معصومين ، يتعرّضون للزللِ ، ويقعون في الخللِ ، وتصدُرُ منهم الهفواتُ ، ويقعون في خطيئاتٍ كبيراتٍ ، فإن بَدَرَ منهم شيءٌ من ذلك فالزّم جانبَ العفوِ معهم ، فإنّ العفوَ من شيمِ المحسنين ، وما زادَ الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً ، وقابلُ إساءَتَهُم بالإحسانِ ، واقبلُ عُذرَهُم إذا اعتذروا ، ولك في النبيِّ الكريم يوسفَ القدوةَ والأسوةَ ، فقد فعلَ إخوته معه ما فعلوا ، وعندما اعتذروا قبلَ عُذرِهِم ، وصفَحَ عنهم الصفحَ الجميلَ ، ولم يوبّخهم ، بل دعا لهم ، وسألَ الله

المغفرة لهم ، ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] .

فغُضَّ الطَّرْفُ عن الهفوات ، واعْفُ عن الزَّلَّاتِ ، وأَقِلَّ العثراتِ ،
تَجُنِّ الوَدَّ والإِخَاءَ ، واللينَ والصفاءَ ، وتحقِّقْ فيك الشَّهَامَةُ والوفاءَ ،
وداومْ على صِلَةِ الرَّحِمِ ولو قطعوا ، وبادِرْ بالمغفرةِ وإنْ أخطؤوا ،
وأحْسِنْ إليهم وإنْ أساءوا ، ودَعْ عنك محاسبةَ الأقربين ، ولا تجعلْ
عِتَابَكَ لهم سبباً لبُعْدِهِمْ عنك ، وَكُنْ جوادَ النَّفْسِ ، كريمَ العطاءِ ،
وجانبِ الشُّحَّ ، فَإِنَّهُ من أسبابِ القطيعةِ ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ :
خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
بِالشُّحِّ ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا ، وَأَمَرَهُمْ
بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا » (١) .

قيل لأحدهم : ما حقُّ الرَّحِمِ ؟ قال : « تُسْتَقْبَلُ إِذَا أَقْبَلْتَ ، وَتُتْبَعُ إِذَا
أَدْبَرْتَ » .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ
وَيَقْطَعُونِ ، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَنِّي ،
فَقَالَ : لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسْفُهُمُ الْمَلَّ ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ
ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » (٢) .

أما إذا كانتِ الرَّحِمُ فاجرةً أو فاسقةً ، فتكونُ صلَّتها بالعظةِ

(١) أبو داود (١٦٩٨) ، النسائي (١١٥٨٣) ، أحمد (٦٧٩٢) .

(٢) مسلم (٢٥٥٨) ، أحمد (١٠٢٨٩) .

والتذكير ، وبالطفِ تعبير ، وبذلِ الجهدِ الكبير ، فإذا أَعْيَنَكَ الحيلةُ في هدايتهم كأن ترى منهم عناداً ، أو استكباراً ، أو أن تخافَ على نفسك أن تتردى معهم ، وتهوي في حضيضهم فابتعد عنهم ، واهجرهم الهجرَ الجميلَ ، الذي لا أذى فيه ولا تحقيرَ ، وردّدْ هاتين القاعدتين : « دغ خيراً عليه الشريرُ » ، و : « دَرءُ المفسدِ مُقَدِّمٌ على جَلْبِ المنافع » ، وأكثر من الدعاء لهم بالهداية ، وأعدِ الكَرَّةَ بَعْدَ الكَرَّةِ ، والمَرَّةَ تلوَ المَرَّةِ .

وَإِكْرَامُ ذَوِي الْقُرَابَاتِ مَأْمُورٌ بِهِ ، عَلَى الْآلِ يَكُونُ فِي التَّقْدِيمِ بَخْسٌ لِأَحَدٍ أَوْ هَضْمٌ لِآخَرِينَ ، قَالَ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

ثَمَارُ صَلَاةِ الرَّحِمِ

صَلَاةُ الرَّحِمِ تَدْفَعُ بِإِذْنِ اللَّهِ نَوَائِبَ الدَّهْرِ ، وَتَرْفَعُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَنِ الْمَرَةِ الْبَلَايَا ، قَالَ جَبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : « ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ ﴾ ، فَارْجِعْ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجِفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَقَالَ : زَمِّلُونِي ، زَمِّلُونِي ، فزَمِّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ ، وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلَّا ، وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ »^(١) .

(١) البخاري (٣) ، مسلم (١٦٠) .

لقد خَلَقَ اللهُ الرَّحِمَ ، وشَقَّ لها اسْمًا من اسمِهِ ، ووَعَدَ ربُّنا جَلَّ وعَلا بوصولِ مَنْ وصلَها ، وَمَنْ وصلَهُ الرَّحِيمُ ، وصلَهُ كُلُّ خَيْرٍ ، ولم يقطعْهُ أحدٌ ، ومن بَرَّهَ الجَبَّارُ لم يُعْلِهِ بشرٌ ، وعاشَ في كَمَدٍ .

﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ [الحج : ١٨] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخُلُقَ ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتْ الرَّحِمُ : هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ ، قَالَ : نَعَمْ ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ ؟ قَالَتْ : بَلَى يَا رَبِّ ، قَالَ : فَهُوَ لَكَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : فَافْرَوْا إِنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ » (١) .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ ، تَقُولُ : مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ » (٢) .

إِنَّ صَلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ لِلْأَهْلِ ، وَبَسْطٌ لِلرِّزْقِ ، وَبِرْكَةٌ فِي الْعُمْرِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ ، فَإِنَّ صَلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الْأَهْلِ ، مَثْرَاءٌ فِي الْمَالِ ، مَنَسَاءٌ فِي أَثَرِهِ » (٣) .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » (٤) .

(١) البخاري (٤٥٥٢) ، مسلم (٢٥٥٤) .

(٢) مسلم (٢٥٥٥) .

(٣) الترمذي (١٩٧٩) ، أحمد (٨٨٥٥) .

(٤) البخاري (١٩٦١) ، مسلم (٢٥٥٧) .

صلة الرّحم أمانة على كرم النفس ، وسعة الأفق ، وطيب المنبت ،
وحسن الوفاء ، ولهذا قيل : مَنْ لم يَصْلُحْ لأهله لم يَصْلُحْ لك ، وَمَنْ لم
يَذُبَّ عنهم لم يَذُبَّ عنك ، يُقَدِّمُ عليها أولو التذكرة وأصحاب البصيرة .
وصلة الرّحم مدعاة لرفع ذكر الواصل ، وسبب للذكر الجميل ،
وموجبة لشيوع المحبة ، وعزة المتواصلين .
صلة الرّحم تقوي المودة ، وتزيد المحبة ، وتتوثق بها عرى القرابة ،
وتزول بها العداوة والشحناء ، فيها التعارف والتواصل ، والشعور
بالسعادة .

واقع معظم المقصّرين

إنّ كثيراً من الناس مضيعون لهذا الحق ، مفرطون فيه ، فمن الناس
من لا يعرف قرابته لا بصلة ولا بمال ، ولا بجاء ولا بحال ، ولا بخلق ولا
بود ، تمضي الشهور ، وربما الأعوام ولا يقوم بزيارتهم ، ولا يتودّد إليهم
لا بصلة ولا بهدية ، ولا يدفع عنهم مضرّة ولا أذية ، بل ربما أساء
إليهم ، وأغلظ القول لهم .

ومن الناس مَنْ لا يشارك أقاربه في أفراحهم ، ولا يواسيهم في
أتراحهم ، ولا يتصدّق على فقرائهم ، بل تجده يقدّم عليهم الأبعد في
الصلات والهبات .

ومن الناس مَنْ يصل أقاربه إن وصلوه ، ويقطعهم إن قطعوه ، وهذا
في الحقيقة ليس بواصل ، وإنما هو مكافئ للمعروف بمثله ، وهو
حاصل للقريب وغيره ، وإنما الواصل حقيقة هو الذي يتقي الله في

أقاربه ، فيصلهم الله ، سواء وصلوه أو قطعوه ، فعن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال : « لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِي ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا » (١) .

ومن مظاهر القطيعة أن تجد بعض الناس يحرص على دعوة الأبعد ، ويغفل أو يتغافل عن دعوة الأقارب ، وهذا ما لا ينبغي ؛ فالأقربون أولى بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

نتائج قطيعة الرحم

إن معاداة الأقارب شرٌّ وبلاءٌ ، الزابح فيها خاسرٌ ، والمنتصر مهزومٌ ، وقطيعة الرحم من كبائر الذنوب ، وقبائح العيوب ، متوعدٌ صاحبها باللعة والشبور ، قال تعالى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ (٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ [محمد : ٢٢-٢٣] .

فالتدابير بين ذوي القربى مؤذنٌ بزوال النعمة ، وسوء العقوبة ، وتعجيل العقوبة ، فعن جبير بن مطعم أنه سمع النبي ﷺ يقول : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » (٢) ، قال سُفْيَانُ : يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ .

وعقوبتها معجلة في الدنيا قبل الآخرة ، فعن أبي بكره قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي

(١) البخاري (٥٦٤٥) ، الترمذي (١٩٠٨) ، أبو داود (١٦٩٧) ، أحمد (٦٥٢٤) .

(٢) البخاري (٥٦٣٨) ، مسلم (٢٥٥٦) .

الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ - أَيِ الظُّلْمِ - وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»^(١) .

إِنَّ قَطِيعَةَ الرَّحِمِ سَبَبٌ لِلذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ ، وَالضَّعْفِ وَالتَّفَرُّقِ ، مَجْلَبَةٌ لِلْهَمِّ وَالْغَمِّ ، فَقَاطِعُ الرَّحِمِ لَا يَثْبُتُ عَلَى مُوَاخَاةٍ ، وَلَا يُرْجَى مِنْهُ وَفَاءٌ ، وَلَا صِدْقٌ فِي الْإِخَاءِ ، يَشْعُرُ بِقَطِيعَةِ اللَّهِ لَهُ ، مَلَا حَقٌّ بِنِظَرَاتِ الْإِحْتِقَارِ ، مَهْمَا تَلَقَّى مِنْ مَظَاهِرِ التَّبْجِيلِ ، لَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَسْتَوْحِشُونَ مِنَ الْجُلُوسِ مَعَ قَاطِعِ الرَّحِمِ .

وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحِمٍ لَهُ عَدَاوَةٌ فَلْيَبَادِرْ بِالصَّلَةِ ، وَلْيَعْفُ وَلْيَصْفَحْ ، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠] .

الخطوة العملية

إِنَّ لِحُسْنِ الْخُلُقِ تَأْثِيرًا فِي الصَّلَةِ ، فَالزَّمْ جَانِبَ الْأَدَبِ مَعَ ذَوِي الْقُرْبَى ، فَإِنَّ مَنْ حَفِظَ لِسَانَهُ أَرَاخَ نَفْسِهِ ، وَلِلْهَدِيَّةِ أَثَرٌ فِي اجْتِلَابِ الْمَحَبَّةِ ، وَإِثْبَاتِ الْمَوَدَّةِ ، وَإِذْهَابِ الضَّغَائِنِ ، وَتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ .

إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ يَحْذَرُ مِنَ الْخِصَامِ وَالْخِلَافِ وَالْقَطِيعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَمُومًا ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بَيْنَ الْأَقَارِبِ ؟ عَنْ أَبِي أَيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ ، يَلْتَقِيَانِ ، فَيَصُدُّ هَذَا ، وَيَصُدُّ هَذَا ، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ »^(٢) .

(١) رواه الترمذي (٢٥١١) ، أبو داود (٢٤٩٠) ، ابن ماجه (٤٢١١) .

(٢) البخاري (٥٨٨٣) ، الترمذي (١٩٣٢) ، أحمد (٢٣٥٧٥) .

ويقول ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

يَحْذَرُنَا النَّبِيُّ ﷺ مِنْ مُصِيرِ قَاطِعِ الرَّحِمِ فِي الْآخِرَةِ ، فَعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ » ، قَالَ سُفْيَانُ : يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ ^(١) .

فلنحذر من قطيعة الرحم ، فإنها سبب للعنة الله وعقابه ، يقول الله عز وجل : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [النساء : ١١] أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢-٢٣] .

ويقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٥] .

من هدي النبي ﷺ في صلة الرحم

كان رسول الله ﷺ أرقَّ الناس ، وأعفاهم ، وأوصلهم ، وأحلمهم ؛ ولذلك ذكر الله خلقه ومناقبه في القرآن ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

وقال له : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ لَكُمْ بِوَعْدِهِمْ لَنْ نَقْضِيَهُمْ مِنْ حَوْلِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

لقد بلغ ﷺ في صلة الرحم مبلغاً عظيماً ، ضرب به المثل الأعلى على مرِّ التاريخ ، فما سمعت الدنيا بأوصل منه ﷺ ، قام قرابته ، أبناء

(١) البخاري (٥٦٣٨) ، مسلم (٢٥٥٦) .

عمّه وغيرهم ، فأخرجوه من مكة ، وطاردوه ، وشتموه ، وآذوه ، حاربوه في المعارك ، ونازلوه في الميدان ، وقاموا بحرب عسكرية وإعلامية واقتصادية ضده ، فلما انتصر ماذا فعل؟

« دخل مكة منتصراً ، ووقفت له الأعلام مكبرة ، وطنت بذكر نصره الجبال والوهاد ، فلما انتصر وقف ﷺ عند حلق باب الكعبة منحنياً ، وهو يقول للقرابة وللعمومة : ما ترون أني فاعلٌ بكم؟ فيتصوّرون الجزاء المرّ ، والقتل الحارّ ، والموت الأحمر ، فيقولون وهم يتباكون : أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فتدمع عيناه ، ويقول ﷺ : اذهبوا فانتم الطلقاء! .

كأنه يقول : عفا الله عنكم ، وسامحكم .

ويأتي ابن عمّه أبو سفيان بن الحارث ، فيسمع بالانتصار ، وقد آذى الرسول ﷺ ، وشتمه ، وقتله ، فيأخذ هذا الرجل أطفاله ، ويخرج من مكة ، فيلقاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويقول له : يا أبا سفيان! إلى أين تذهب؟ قال : أذهب بأطفالي إلى الصحراء فاموت جوعاً وعرياً! والله لئن ظفري بي محمد - ﷺ ليقطعني بالسيف إرباً إرباً! فيقول علي - وهو يعرف رسول الله ﷺ - : أخطأت يا أبا سفيان! إن الرسول ﷺ أوصل الناس ، وأبر الناس ، وأكرم الناس ، فعذ إليه ، وسلّم عليه بالنبوة ، وقل له كما قال إخوة يوسف ليوسف : ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩١] ، فيأتي بأطفاله ، ويقف عند رأس المصطفى ﷺ ، ويقول : يا رسول الله ، السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ﴿ تَاللّٰهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ ،

فيكي ﷺ ، وينسى تلك الأيام ، وتلك الأعمال ، وتلك الصحف السوداء ، ويقول : ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾^(١) .

ويقول أبو سفيان بن حرب : يا بن أخي ، ما أوصلك ! ما أرحمك ! ما أحكمك ! ما أعقلك !

فهل من مَسِّمٍ بأخلاقه ؟ وهل من مُقْتَدٍ بأفعاله ؟ فإنه الأسوة الحسنة ، وإن أتباعه نجاة من العار والدمار والنار .

تأتيه أخته من الرضاعة ﷺ وكانت في سبي ، وقد ابتعدت عنه عقوداً عديدة ، فتأتيه وهو لا يعرفها ، وهي لا تعرفه ، وتسمع وهي في بادية بني سعد في الطائف بانتصاره ، فتأتي لتسلم على أخيها من الرضاعة ، وهو ﷺ تحت سدره ، والناس بسيوفهم بين يديه ، وهو يورع الغنائم بين العرب ، فتستأذن ، فيقول لها الصحابة : من أنت ؟ فتقول : أنا أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة ، أنا الشيماء بنت الحارث ، أرضعتني أنا وإياه حليلة السعدية ، فيخبرون الرسول ﷺ فيتذكر القربى وصلة الرحم ، ويقوم لها ليلقاها في الطريق ، ويرحب بها ترحيب الأخ بأخته بعد طول غياب ، وبعد الوحشة والغربة ، ويأتي بها ، ويجلسها مكانه ، ويظللها من الشمس^(٢) .

تصوّروا رسول البشرية ، ومعلم الإنسانية ، ومزعزع كيان الوثنية ،

(١) انظر القصة برواياتها وألفاظها في سنن البيهقي الكبرى (١١٨/٩) ، والسيرة النبوية (٧٣/٥ - ٧٤) ، وتاريخ الطبري (١٦١/٢) .

(٢) ذكر قريبا من هذه القصة القرطبي في تفسيره (١٠٢/٨) .

يظللُّ هذه العجوزَ أختَه من الرضاةِ من الشمسِ ، ويتركُ الناسَ وشؤونَهُم ، ويقبلُ عليها ويسألُها ، ويقولُ لها : يا أختاه كيف حالكم ؟ يا أختاه اختاري الحياةَ عندي ، أو تريدين أهلكِ ؟ فتقول : أريدُ أهلي ، فيمتّعها بالمالِ ، ويعطيها مئةَ ناقةٍ ، ليعلمَ الناسَ صلةَ الأرحامِ .
يا من كانت الرحمةُ مهجَتِكَ ، والعدلُ شريعَتِكَ ، والحبُّ فطرتِكَ ، والسموُّ حرفَتِكَ ، ومشكلاتُ الناسِ عبادتَكَ !

لقد نُقِلَ عنك في أحاديثك الصحيحة أنك تقلقُ أشدَّ القلقِ يومَ القيامةِ على أمتك وأصحابك ، فعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : فَأَقُولُ - يعني يومَ القيامةِ - : « أَصْحَابِي ، أَصْحَابِي ، فَقِيلَ : إِنَّكَ لَا تَذَرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، قَالَ : فَأَقُولُ : بُعْدًا ، بُعْدًا ، أَوْ قَالَ : سُحْقًا ، سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي » (١) .

إنَّ الذي أحدثوه بعدك أنهم قطعوا صلةَ عَمَاتِهِمْ وخَالَاتِهِمْ ، وبنَاتِهِمْ وأخَوَاتِهِمْ ؟ وحرَموهنَّ من الميراثِ الذي فرضه اللهُ لهنَّ ؛ حتى سمعنا ورأينا من الأمهاتِ الفقيراتِ مَنْ تضطرَّ الواحدةُ منهنَّ أن تقيمَ دعوى على ابنها المترفِّ من أجلِ أن ينفقَ عليها ، هانَ أمرُ اللهِ علينا مِنْ بعدِكَ فهنا على الله .

أسبابُ قطيعةِ الرَّحِمِ

وَإِذَا أَمَعْنَا النَّظَرَ فِي أَسْبَابِ قُطْيَةِ الْأَرْحَامِ وَجَدْنَا أَنَّ مِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ :

- الجهل بعواقب القطيعة ، والجهل بفضائل الصلة ، والتفكير في الآثار المترتبة على الصلة ؛ فإن معرفة ثمرات الأشياء ، واستحضار حسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها ، وتمثلها ، والسعي إليها . وإن النظر في عواقب القطيعة ، وتأمل ما تجلبه من هم ، وغم ، وحسرة ، وندامة ، ونحو ذلك ، فهذا مما يُعين على اجتنابها ، والبعد عنها .

- ضعف التقوى ، والكبر ، فبعض الناس إذا نال منصباً رفيعاً ، أو حاز مكانة عالية ، أو كان تاجراً ، أو مشهوراً ؛ تكبر على أقاربه ، وأنف من زيارتهم والتودد إليهم .

ومما يحجب الإنسان لقربته ، ويؤدنيه منهم تواضعه ولين جانبه : من كان يحلم أن يسود عشيرة فعليه بالتقوى ولين الجانب ويغض طرفاً عن مساوي من أسا منهم ويحلم عند جهل الصاحب

الانقطاع الطويل الذي يقود إلى الوحشة ، واعتياد القطيعة

- العتاب الشديد ، فبعض الناس إذا زاره أحد من أقاربه أطر عليه وإبلاً من التقرع والعتاب على تقصيره في حقه ، وإبطائه في المجيء إليه ؛ ومن هنا تحصل النفرة من ذلك الشخص ، والهيبة من المجيء إليه .

وعلاج ذلك تحمّل عتابهم ، وحمله على أحسن المحامل ، فهذا أدب الفضلاء ، ودأب النبلاء ممن تمت مروءتهم ، وكملت أخلاقهم ، وتناهى سؤددهم ، ممن وسعوا الناس بحلمهم ، وحسن تربيتهم ، وسعة أفقهم ؛ فإذا عاتبهم أحد من الأقارب ، وأغلظ عليهم لتقصيرهم في حقه

لم يثرّبوا عليهم ، ولم يجاروه في عتابه ، بل يتلطفون به ، ويحملون عتابه على المحمل الحسن ، فيرون أنّ هذا المعاتب مُحِبٌّ لهم ، حريصٌ على مجيئهم ، ويُشعرونه بذلك ، ويشكرونه ، ويعتذرون إليه ، حتى تخفّ حدّته ، وتهدأ ثورته ، فبعضُ الناسِ يقدّر ويحبُّ ؛ ولكنه لا يستطيع التعبير عن ذلك إلا بكثرة اللوم والعتاب ، والكرام يحسنون التعامل مع هؤلاء ، ولسان حالهم يقول : لو أخطأت في حُسنِ أسلوبك ما أخطأت في حُسنِ نيتك .

- التكلّف الزائد ، فهناك من الناسِ مَنْ إذا زاره أقاربه تكلّف لهم أكثر من اللازم ، وخسر الأموال الكثيرة ، وقد يكون - مع ذلك - قليل ذات اليد ، ومن هنا تجد أقاربه يقصّرون عن المجيء إليه ، خوفاً من إيقاعه في الحرج .

- عدم الاهتمام بزيارتهم ، إذ تجد مَنْ إذا زاره أقاربه لم يهتم بهم ، ولم يصنح لحديثهم ، ولم يفرح بمقدمهم ، ولم يستقبلهم إلا بتناقل وبرودة ، ممّا يقلّل رغبتهم في زيارته .

- الشحّ والبخل ، فمن الناسِ مَنْ إذا رزقه الله مالاً أو جاهاً تهرب من أقاربه ، حتى لا يرهقونه بطلباتهم المتنوّعة .

وعلاجُ ذلك ببذل المستطاع لهم من الخدمة بالنفس ، أو الجاه ، أو المال ، وأن يدعّ المنّة عليهم ، والتعاون على حلّ مشكلاتهم المادية والاجتماعية والدينية ، فإذا ما احتاج أحدٌ من أفراد الأسرة مالاً لزواج ، أو نازلة أو غير ذلك قاموا بدراسة حاله ، ورفدوه بما يستحقّ ، فهذا مما يولّد المحبة بين الأقارب .

- تأخيرُ قسمة الميراث ، فقد يكونُ بين الأقارب ميراثٌ لم يقسم ، إما تكاسلاً منهم ، أو من قلة وفاقٍ فيما بينهم ، وكلما تأخرَ قسم الميراث شاعت العداوة ، وكثرت المشكلات ، وزاد سوء الظن ، وحلت القطيعة .

- الشراكة بين الأقارب ، فكثيراً ما يشترك الإخوة أو غيرهم من الأقارب في مشروع أو شركة ما ، دون أن يتفقوا على أسس ثابتة ، ودون أن تقوم الشراكة على الوضوح والصراحة ، بل تقوم على المجاملة ، والحياء ، وحسن الظن ، فإذا زاد الإنتاج ، واتسعت دائرة العمل دب الخلاف ، وساد البغي ، ونزع الشيطان بينهم ، وحدث سوء الظن ، ولا سيما إذا كانوا من قليلي التقوى والإيثار ، أو كان بعضهم مستبداً برأيه ، أو كان أحد الأطراف أكثر جدية من صاحبه ، ومن هنا تسوء الملاقة ، وتحلُّ الفرقة ، وربما وصلت بهم الحال إلى الخصومات في المحاكم ؛ فيصبحون سبةً لغيرهم ، ﴿وَإِنْ كَثُرَ كَيْفًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص : ٢٤] .

- الاشتغال بالدنيا ، والانشغال بها عن أداء واجباته تجاه أرحامه ، لذلك وجب أن تكون لهم اجتماعات دورية شهرية أو نصف شهرية ، أو نحو ذلك .

- الطلاق بين الأقارب إذا لم يكن بإحسان .

- بُعد المسافة ، والتكاسل عن الزيارة .

- وقد يكون التقارب في المساكن بين الأقارب سبباً للقطيعة ، لما

يكون من التزامهم على الحقوق ، ولما يحدث بين الأولاد من مشكلات قد تنتقل إلى الوالدين .

- قلة التحمل والصبر على الأقارب .

- نسيانهم في الولائم والمناسبات ، فقد يفسر هذا النسيان بأنه تجاهل واحتقار ، فيقود ذلك الظن إلى الصرم والهجر .

ومن الطرق المُجدية أن يسجل أسماء أقاربه ، وأرقام هواتفهم ، ثم يحفظها عنده ، حتى يستحضرهم جميعاً ، ويتصل بهم إما مباشرة أو عن طريق الهاتف ، أو غير ذلك .

الإخلاص في صلة الرحم

يراعى في صلة الأرحام أن تكون الصلة قربة لله ، خالصة لوجهه الكريم ، وأن تكون تعاوناً على البر والتقوى ، ولا يقصد بها حمية الجاهلية .

الجاليات الإسلامية وصلة الرحم

إن الجاليات الإسلامية والعربية منتشرة في شتى بقاع الأرض ، وبعض الجاليات في بعض البلاد الغربية القريبة والبعيدة تفوقت تفوقاً يلفت النظر ، فبينما لا يزيد عدد حاملين للدكتوراه من السكان الأصليين على الثمانية في الألف نجد أن الذين يحملون الدكتوراه في الجاليات الإسلامية يزيد على ثلاثة وثلاثين في الألف ، هؤلاء المتفوقون علمياً تسلّموا مناصب رفيعة في بلاد المهجر في الطب والفلك والاقتصاد والذرة .

لكن ما علاقة أفراد الجاليات الإسلامية بصلة الأرحام؟

الحقيقة أن أفراد الجاليات الإسلامية والعربية ينبغي أن يكونوا رسلاً لإسلامهم ولأوطانهم ، وهم إذ ينقلون للغرب القريب والبعيد حقائق الإسلام ومبادئه وقيمته دعوة ، ويطبّقونها منهجاً في حياتهم ، يأخذ الغرب من الإسلام موقفاً غير هذا الموقف الذي يؤلّمنا أشدّ الألم ، وهم إذ ينقلون لأمتهم التي ترعرعوا في كنفها ، ونبت لحمهم من خيراتها ، وتلقوا العلم في جامعاتها ، أفضل ما في الغرب من علم ونظام وعمل ودؤب ، ولا ضير في ذلك ، لأن ثقافة أمة هي ملك البشرية جمعاء ، لأنها بمنزلة عسل استخلص من زهرات مختلف الشعوب على مرّ الأجيال ، وهل يُعقل إذا لدغتنا جماعة من النحل أن تقاطع العسل الذي حصلته من أزهارنا؟ فإن فعلت الجاليات الإسلامية والعربية ذلك تكون قد وصلت رحمها بطريقة معاصرة ، ولا أدلّ على ذلك من أن كبار مفكّري الغرب يعترفون بفضل الحضارة الإسلامية على العالم .

يقول غوته : « إنّ دين الإسلام دين إخلاص ، ودين اجتماع وأخلاق ، ورعاية لبني الإنسان » .

ويقول برناردشو : « الإسلام هو الدين الذي نجد فيه حسنات الأديان كلّها ، ولا نجد في الأديان حسناته » .

ويقول غوستاف لوبون : « إنّ الأمم لم تعرف بحق فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم » .

ويقول ولي عهد بريطانيا : « إنّ كثيراً من المزايا التي تفخر بها أوربة

العصرية جاءت أصلاً من إسبانيا في أثناء الحكم الإسلامي .
ويقول ديورانت : « إن محمداً - ﷺ - كان من أعظم عظماء التاريخ ،
فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي للناس ، وقد
نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يُدّان فيه أيُّ مصلح آخر » .
هذه هي منزلة صلة الرحم في الإسلام ، وأكرم بها من منزلة وأعظم .

* * *

موضوعات تربوية

تربية الأولاد في الإسلام

إن الأطفال غراسُ الحياة ، وقطوفُ الأمل ، وقُرّةُ عينِ الإنسان ، وزهورُ الأمةِ المفتحة ، والبراعمُ الإنسانية المتألقة ، عليهم المعولُ في الحفاظِ على مكاسبِ الأمة ، واستعادةِ ماضيها المجيد ، وخوضِ معاركها الضارية والمصيرية ضدَّ أعدائها .

إن للطفولة في الإسلام عالمها الخاص ، المُفعمَ بالعناية والاهتمام ، وحديثُ القرآن عن الطفولة يفيضُ بالموّدة ، فإنَّ الله تعالى يُقسمُ بالطفولة :

﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَالْوَالِدُ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾﴾ [البلد : ١-٣] .

والأطفال هم البُشرى ، قال تعالى مبشراً نبيّه زكريا :

﴿يَنْزَكِرْنَا إِنَّا نَبُشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾

[مريم : ٧]

وهم قُرّةُ العين ، لذلك أرشد الله عبادَ الرحمن إلى هذا الدعاء ،

فقال :

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا

لِلْمُنْقِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان : ٧٤] .

وهم زينة الحياة الدنيا ، قال تعالى :

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف : ٤٦] .

وهم المودة والرحمة ، قال تعالى :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم : ٢١] ، قال بعض علماء التفسير : المودة والرحمة هما الطفل الذي يقوي العلاقة بين الزوجين ، ويجعلها أكثر أمناً واستقراراً .

وفي السنة الصحيحة يرسم لنا النبي ﷺ عالم الطفولة ، وكأنه عالم قريب من عالم الجنة ، فعن أبي حسان قال : تُوفِّي لي ابنان ، فقلتُ لأبي هريرة هل سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً تُحدِّثناه تُطِيبُ بِنَفْسِنَا عَنْ مَوْتَانَا ؟ قَالَ : نَعَمْ : « صِغَارُهُمْ دَعَامِصٌ ^(١) الْجَنَّةِ ، يَلْقَى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ أَوْ أَبَوَيْهِ فَيَأْخُذُ بِنَاحِيَةِ ثَوْبِهِ أَوْ يَدِهِ ، كَمَا آخُذُ بِصِنْفَةٍ ^(٢) ثَوْبِكَ هَذَا ، فَلَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُدْخِلَهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ » ^(٣) ، والدعاميص : هي نوع من الفراشات الجميلة .

(١) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (١٢٠/٢) : [الدعاميص جمع دعموص وهي دُوْبِيَّة تكون في مستنقع الماء ، والدعموص أيضا الدَّخَال في الأمور ، أي إنهم سيأخون في الجنة ، دَخَالون في منزلها ، لا يُمْنَعون من موضع ، كما أن الصبيان في الدنيا لا يمنعون من الدخول إلى الحرم ، ولا يحتجب منهم أحد] ، وانظر (لسان العرب مادة دعمص) .

(٢) [صنف الثوب طرفه مما يلي طرته] ، النهاية في غريب الحديث (٥٦/٣) ، [صنفه الإزار طرته التي عليها الهُذْبُ] ، (لسان العرب مادة صنف) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٦٢٨) .

ورعاية الأطفال واجبة ، وحبهم قربي إلى الله ، أليس الرسول الكريم ﷺ هو القائل : « لَوْلَا شُبُوحُ رُكْعٍ ، وَشَبَابُ خُشْعٍ ، وَأَطْفَالُ رُضْعٍ ، وَبَهَائِمُ رُتْعٍ ، لَصَبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبًّا » (١) .

لقد كان حُبُّ الرسول ﷺ للطفولة يملأ قلبه الشريف ، فعَنْ بُرَيْدَةَ يَقُولُ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ ، يَمْشِيَانِ وَيَعْتُرَانِ ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ ، فَحَمَلَهُمَا ، وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : « صَدَقَ اللَّهُ ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ، فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْشِيَانِ ، وَيَعْتُرَانِ ، فَلَمْ أَضْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا » (٢) .

وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا ، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةً أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ » (٣) .

أولُّ حقوقِ الطفلِ على أبيه أن يُحَسِّنَ اختيارَ أمِّه ، لأنَّ الإسلامَ لم يكن ليهتمَّ بالطفلِ بدءاً من مولده فحسب ، بل إنه ليرعاه فكرةً ، ويحضنه غيباً ، ويخطِّطُ مستقبله ، وهو ما يزالُ أُمْنِيَّةَ هائِمةً في ضميرِ الغيبِ ، فبمجردِ تفكيرِ الأبِ في الزواج ، وتكوينِ الأسرة ، يحدِّدُ الإسلامُ له معالمَ الطريقِ .

(١) مسند أبي يعلى الموصلي (٢٨٧ / ١١) ، وسنن البيهقي (٣ / ٣٤٥) ، والطبراني في المعجم الأوسط (١٣٤ / ٧) ، عن أبي هريرة .

(٢) حديث مسند صحيح أخرجه الترمذي (٣٧٧٤) وأحمد (٢٣٠٤٤) وغيرهما .

(٣) رواه البخاري (٦٧٥) .

والأسرة في الإسلام لها نظامٌ بديعٌ غاية في الحسن والنقاء ، ولها خطورتها ومكانتها ، ولهذا كان لابد للإسلام أن يصحح أول لبننة من لبناتها ، والزواج مرحلة أولية في بناء الأسرة ، وعناية الإسلام بهذه اللبنة تعني سلامة ما يترتب عليها من حياة مستقرة هائلة سعيدة لكل أفرادها .

فالإسلام يأمر الرجل عند الزواج أن يختار الزوجة ذات دين ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « تُنكِحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ ؛ لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا ، وَجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبْتُ يَدَاكَ » (١) ، فلا ينبغي حينئذ أن يكون جمال المرأة ، أو حسبها ، أو مالها هو كل شيء ، بل لابد أن ينضم إلى كل ذلك الدين ، وأن تكون من بيت كريم ؛ لأن أولادها سيرثون من أخلاقها وصفاتها وسلوكها الشيء الكثير .

وبالمقابل أرشد النبي ﷺ أولياء المخطوبة إلى أن يبحثوا عن الخاطب الذي يرضون دينه وخلقه ؛ ليرعى الأسرة رعاية كاملة ، ويؤدي حقوق الزوجة والأولاد ، قال عليه الصلاة والسلام : « إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ ، فَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ، وإن كان فيه ؟ قال : « إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ، ثلاث مرات » (٢) .

وانطلاقاً من هذا المبدأ أجاب الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن سؤال لأحد الأبناء حين سألته : « مَا حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى أَبِيهِ ؟ قَالَ :

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٢) ، ومسلم (١٤٦٦) .

(٢) انفرد به الترمذي (١٠٨٥) عن أبي حاتم المزني وهو حديث حسن .

أَنْ يُحْسِنَ انْتِقَاءَ أُمِّهِ ، وَأَنْ يُحْسِنَ اسْمَهُ ، وَأَنْ يُعَلِّمَهُ الْقُرْآنَ . . . » (١) .
 ومن أجل ذلك وجّه الإسلام عنايته إلى تربية الأبناء حتى يسعد بهم المجتمع ، ويسعدوا هم به ، والإسلام وهو ينظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع لا ينسى أنّ هذه الأمور كلّها أغصان متشابكة ، فأى تأثير في أحدها فلا بدّ أن يؤثر في الآخر ، فأخذت تعاليمه السمحة تنسّق الخطوات ، وتوضّح المناهج ؛ لينشأ من مجموعها تقدّم متكامل أساسه الإيمان والرحمة ، والتعاطف والمحبة ، فالإسلام بهذا يسبق كلّ محاولة لتقويم الفرد والأسرة والمجتمع ، بما أنّه يزاوج بين خطواتها في ثبات واتزان ، على أساس من عقيدة وإيمان .

ويبدأ الإسلام بإعداد الفرد ، لأنّه الخلية الأولى التي تُنسج منها الأسرة والمجتمع والأمة ، وهو الوحدة الأساسية التي تولّف العنصر الأول في التكوين العام ، والفرد ما هو إلا طفل في بدايته ، تُنميه فطرته ، ومكارم الأخلاق التي يُربى عليها في بيئته ، والقيم والمفاهيم الإنسانية والحضارية التي يتلقاها من مجتمعه ، فإذا ما تمّ تكوينه في الحياة على النسق القويم ، وعلى الصراط المستقيم ، والنهج الحكيم ، كانت الأسرة وهي المجتمع الصغير تامّة التكوين ، متماسكة البنيان ، وكان المجتمع بعد ذلك متقدماً نحو أهدافه ، وكانت الأمة قوية الدعائم ، ثابتة الأركان .

الوالدان والمعلّمون لهما أكبر الأثر في بناء نفوس الأولاد ، ويتأثر

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/١٩٥) ، وأخرج البزار نحوه ، انظر مجمع الزوائد للهيثمى (٤٧/٨) .

الطفلُ أولَ ما يتأثر بالوالدين اللذين يتخذهما مثلاً أعلى في سلوكه وحياته ، ولذا وجب على الوالدين ألا يظهرا أمام أطفالهما إلا بالظهر الحسن ، والخلق المستقيم ، وأن يضربا أمامهم أكرم الأمثلة في الأقوال والأفعال .

وقد وجه الإسلام إلى الوالدين إرشاداته السامية ؛ إذ أمرهما بالعناية بهم العناية الكاملة ، وكان النبي ﷺ أرحم الناس بالصبيان ، وقد ورد في السنة الشيء الكثير مما يحض على العناية بالأطفال ، وحسن معاشرتهم ومعاملتهم ، فعن عائشة قالت : « قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا : أَتَقْبَلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟ فَقَالُوا : نَعَمْ ، فَقَالُوا : لَكِنَّا وَاللَّهِ ! مَا نَقْبَلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَوْ أَمْلِكُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ » (١) .

وعن عائشة : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُؤْتِي بِالصَّبْيَانِ ، فَيَبْرِكُ عَلَيْهِمْ ، وَيُحَنِّكُهُمْ » (٢) .

وَحَدَّثَ أَنَسٌ : « أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَمَرَّ بِصَبْيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ » (٣) .

وعن عبد الله بن جعفر قال : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تَلَقَّى بِصَبْيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، قَالَ : وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسَبَقَ بِي إِلَيْهِ ، فَحَنَّنِي

(١) البخاري (٥٦٥٢) ومسلم (٢٣١٧) .

(٢) مسلم (٢١٤٧) .

(٣) رواه مسلم (٢١٦٨) .

بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرَدَفَهُ خَلْفَهُ ، قَالَ : فَأَدْخَلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ عَلَى دَابَّةٍ وَاحِدَةٍ « (١) .

وَعَنْ أَبِي أَيُّوبَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الْوَالِدَةِ وَوَلَدِهَا فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » (٢) .

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ « أَنَّ امْرَأَةً وَجِدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَقْتُولَةً ، فَأَنْكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ » (٣) .

قَالَ أَنَسٌ : « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا ، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ ! لَا أَذْهَبُ ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ ، لِمَا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمُرَّ عَلَى الصِّبْيَانِ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَبَضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي ، قَالَ : فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَقَالَ : يَا أَنْسُ ! أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، أَنَا أَذْهَبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ، قَالَ أَنَسٌ : وَاللَّهِ ! لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ ، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لِسْنِيءٍ صَنَعْتُهُ : لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ أَوْ لِسْنِيءٍ تَرَكَتُهُ : هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا ؟ » (٤) ، فما أروع ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الأحاديث :

الْحُبُّ ، وهو الرباطُ الروحيُّ الذي يجمعُ كلَّ الناسِ على الخير ، ولا سيما أقاربَ الإنسانِ ، وَمَنْ أَوْلَى مِنْ الْوَلَدِ - فَلِذَلِكَ الْكَبْدِ - بِهَذَا الْحُبِّ ؟ والرحمةُ واحدةٌ إنسانيةٌ عميقةٌ ، تجمعُ الناسَ في حضنها الحاني

(١) رواه مسلم (٢٤٢٨) .

(٢) الترمذي (١٢٨٣) .

(٣) البخاري (٢٨٥١) ، ومسلم (١٧٤٤) .

(٤) البخاري (٥٦٩١) ، ومسلم (٢٣١٠) ، واللفظ له .

العطوف ، فتؤكد فيهم نوازع الخير والإنسانية .

والوفاء بالوعد من الوالد للولد ، دليل على العواطف الصادقة النبيلة ، الوفاء بالوعد واجب أخلاقي تحتمه الشرائع ، وتوجبهُ فرائض الأديان ، إلا أنه للولد أوجب ما يكون ؛ لينظر إلى أبيه نظرة تقدير والإكبار .

وملازمة الوالدين لولديهم تفرس في نوازع كريمة ، وتطبعه بطابع إنساني نبيل ، وتقوم طبعه وخلقه ، وتنشئه تنشئة صالحة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ : « أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ ، وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ »^(١) ، يريد ﷺ بذلك ألا تتركوهم هملاً دون راع ، أو تتركوهم وتدعوهم لغيركم ، فذلك حري أن يهز معايير الأخلاق في ذواتهم ، ويذر بذور الشر في نفوسهم .

ولا يقل دور المعلم الواعي لخطورة رسالته ، المخلص في أداء عمله عن دور الأب ، قال عتبة بن أبي سفيان يوصي مؤدب ولده : « ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبیح ما استقبحت » .

وروى ابن خلدون أن هارون الرشيد قال لمعلم ولده الأمين : « إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مَهْجَةً نَفْسِهِ ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ ، فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً ، وَطَاعَتَهُ لَكَ وَاجِبَةً ، فَكُنْ لَهُ حَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَقْرَأْهُ الْقُرْآنَ ، وَعَرِّفْهُ الْأَخْبَارَ ، وَرَوِّهِ الْأَشْعَارَ ، وَعَلِّمُهُ السُّنَنَ ، وَبَصِّرْهُ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ ، وَامْنَعُهُ مِنَ الضَّحِكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ ، وَلَا تَمُرَنَّ بِكَ سَاعَةٌ

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٧١) .

إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه ، فتميت ذهنه ، ولا تُمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ، ويألفه ، وقومه ما استطعت بالحكمة والملاينة .

وقد نبّه علماء التربية الإسلامية كالغزالي وابن خلدون على أهمية تربية الطفل في سنّه الأولى ، لأنه في هذه الفترة تُغرس فيه الأخلاق ، وتُرَبَّى فيها العواطف والمفاهيم ، فعن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ هَلْ تَرَى فِيهَا جَذْعًا » (١) ؟ (٢) .

كما نبّه القرآن على أن الإسلام هو دين الفطرة ، قال تعالى :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

إن الأدب المطلوب في فترة الطفولة ؛ لينشأ الطفل على مَحَامِدِ الأفعال ، ومكارم الأخلاق ، قال تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَوْلًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقَوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] ، قال

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (٢٥٠ / ٣) : [والجدعاء المقطوعة الأذن... يريد أنها تولد لا جدع فيها ، وإنما يبدعها أهلها بعد ذلك] ، وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٦ / ٢٠٩) : [جدعاء بالمد ، وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء ، ومعناه أن البهيمه تلد البهيمه كاملة الأعضاء لا نقص فيها ، وإنما يحدث فيها الجدع والنقص بعد ولادتها] .

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٩) ، ومسلم (٢٦٥٨) ، وغيرهما .

عليُّ بن أبي طالب في معنى قوله تعالى : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ « أي أدبواهم ، وعلموهم »^(١) .

وقد ورد عن رسول الله أيضاً : « لَأَنْ يُؤَدَّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ »^(٢) .

إننا حين نؤدِّب أولادنا إنما نقدم للحياة عنصراً نظيفاً ، وللمجتمع لبنةً صالحةً ، وهذا ما تهدف إليه التربية الإسلامية ، والإسلام بدوره يعدُّ الآباء سعادةً في الدنيا ، وهي قُرَّةُ الْعَيْنِ ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۖ ﴾ [الفرقان : ٧٤] .

ويعدُّ الإسلام الآباء جنةً في الآخرة ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۖ ﴾ [الطور : ٢١] .

إن الإسلام قرَنَ تربية الأولاد بهذين الوعدين الكبيرين في الدنيا والآخرة ؛ ليكون ذلك حافزاً للأب والأم ، على أن يربيا أولادهما ، وأن يُحسِنَا تأديبهما ، فعن أنس بن مالك يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَكْرَمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ »^(٣) ، ورحم الله من قال : « لَاعِبٌ

(١) تفسير الطبري (٢٨/١٦٥-١٦٦) ، وابن كثير (٤/٣٩٢) .

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٥١) ، وأحمد (٢٠٩٣٧) .

(٣) انفرد به ابن ماجه (٣٦٧١) .

ولذلك سبعاً ، وأدبته سبعاً ، وصاحبه سبعاً ، ثم اجعل حبله على غاربه « (١) .

عن عبد الله بن عمر قال : سأل النبي ﷺ أصحابه : « إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ شَجَرَةً لَا يَسْقُطُ وَرَقُهَا ، وَهِيَ مَثَلُ الْمُسْلِمِ ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ الْبَادِيَةِ ، وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَاسْتَحْيَيْتُ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَخْبِرْنَا بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : هِيَ النَّخْلَةُ ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : فَحَدَّثْتُ أَبِي بِمَا وَقَعَ فِي نَفْسِي ، فَقَالَ : لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِي كَذَا وَكَذَا » (٢) .

حقُّ التعليم

ولأنَّ الإسلامَ يرعُبُ في العلم والتعليم ، فطلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم ، أي : على كلِّ شخصٍ مسلم ، ذكراً كان أو أنثى ، فهو ليس وقفاً على جنسٍ دون جنسٍ ، ولا طائفةٍ دونَ أخرى ، إِنَّهُ قَدَرٌ مُشَاعٌ ، ومصلحةٌ لكلِّ مَنْ يَتَنَسَّمُ نَسَمَاتِ الْحَيَاةِ ، الذكورُ والأنثى فيه سواءٌ ، والرجُلُ والمرأةُ تجاههُ سيَّان ، والمجتمعُ الذي ينشأ أفرادُهُ على وعيٍ ومعرفةٍ ، وعلى هُدًى وبصيرةٍ ، وثقافةٍ وعلمٍ ، هو المجتمعُ الحقُّ الذي ينهضُ به أفرادُهُ ، وينهضُ هو بأفرادِهِ ، ومن أجل ذلك كانتْ آدابُ الإسلامِ تهدفُ إلى العلم الذي يحققُ الفائدةَ للفردِ ، والسعادةَ للجماعةِ ، والسلامَ للعالمِ ، فعَلِّمُوا

(١) [الغارب ما بين العنق والسهم ، وهو ما يُلقَى عليه من خطام البعير إذا أُرْسِلَ ليرعى حيث شاء] ، (التعاريف (١/٥٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣١) ، ومسلم (٢٨١١) ، والترمذي (٢٨٦٧) ، وأحمد (٤٥٩٩) .

أولادكم ، فإنهم مخلوقون لزمانٍ غيرِ زمانكم .

يبدو أنَّ مَنْ مَلَكَ ناصيةَ العلمِ مَلَكَ ناصيةَ العالمِ ، وما يجري في العالم اليوم يؤكد هذه الرؤية ، فَمَنْ مَلَكَ العلمَ مَلَكَ القوةَ ، وَمَنْ مَلَكَ القوةَ فَرَضَ إرادته - وقد تكونَ ظالمةً - على العالمِ ، فالحقُّ عندَ الشاردين عن الله يعني القوةَ ، ليس غيرَ ، والحقُّ عندَ المؤمنينَ باللهِ هو ما جاء به الوحيُّ في تنزيله ، وما بينه النبيُّ ﷺ في سنته ، وينبغي أن يُدعَمَ بالقوةِ ، ودعمه بالقوةِ أمرٌ تكليفيٌّ وليس تكوينيًّا ، قال سبحانه وتعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِمْ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأفقال : ٦٠] .

إن العلم الذي يوصلُ إلى معرفةِ اللهِ ، ثم يحملُ على طاعته فرضُ عينٍ على كلِّ إنسانٍ ، كي يسلمَ ، ويسعدَ في الدنيا والآخرة ، قال تعالى في كتابه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [نصك : ٣٠] .

بل إنَّ وجودَ الإنسانِ لا معنى له مِنْ دُونِ منهجٍ يسيرُ عليه ، ويؤكدُ هذا ترتيبُ الآياتِ في مطلعِ سورةِ الرحمنِ ، فتعليمُ القرآنِ جاءَ مقدِّماً على خلقِ الإنسانِ ، بترتيبٍ رتبيٍّ ، لا بترتيبٍ زمنيٍّ ، قال تعالى :

﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝﴾

والتعليمُ في نظَرِ الإسلامِ يمتدُّ فيشملُ جميعَ المعارفِ الإنسانيةِ ، وكلَّ ما يقعُ تحتَ إدراكِ الحسِّ والعقلِ ، وما أجملَ وصيةَ الفاروقِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه : « علِّموا أولادكم السباحةَ والرمايةَ ، ومروهم فليشبوا على الخيلِ وثباً »^(١) .

فالرمايةُ والتدربُ على ركوبِ الخيلِ كانت عند العربيِّ كلَّ حياته في ذلك الوقتِ ، ولو امتدَّ العمرُ بعُمَرَ رضي الله عنه حتى اليومَ لكان له مع هذا القول قولٌ وقولٌ ، ربما يقول : علِّموا أولادكم الكمبيوترَ ، فهو سلاحُ العصرِ ، والأُمِّيُّ اليومَ هو الذي لا يحسنُ استخدامَه فعلموهم بما يتناسب مع تعاليم ديننا ، ويتفق مع الأخلاق والقيم .

وينبغي أن نستعينَ على تربيةِ الطفلِ وتعليمه بتحقيقِ اهتماماته وخصائصِ طفولته ، وفي سُنَّةِ النبي ﷺ العملية ما يؤكد ذلك ، فعن عبدِ الله بنِ شدَّادٍ عن أبيه قال : « خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ ، وَهُوَ حَامِلٌ حَسَنًا أَوْ حُسَيْنًا ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَوَضَعَهُ ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ ، فَصَلَّى ، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانِي صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا ، قَالَ أَبِي : فَرَفَعْتُ رَأْسِي وَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاةَ قَالَ النَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ ، قَالَ : كُلُّ ذَلِكَ

(١) هو في الإصابة لابن حجر (٣٢٥/١) عن بكر بن عبد الله بن ربيع الأنصاري مرفوعاً ، ومن قول عمر ، من غير قوله : « ومروهم فليشبوا على الخيل وثباً » ، انظر فتح الباري (٧٠/٦) ، وتفسير القرطبي (٣٦/٤) .

لَمْ يَكُنْ ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَّرْتُ أَنْ أُعْجَلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ» (١) .

إِنَّ التُّحْفَةَ واللُّعْبَةَ تُدْخِلَانِ عَلَى الطِّفْلِ الفَرْحَةَ والسُّرُورَ ، وتُزْرِعُ عَلَى نَفْسِهِ البِسْمَةَ والسَّعَادَةَ ، وقد أَصْبَحَتْ وَسِيلَةً لَتَنْمِيَةِ المَعَارِفِ والمَدَارِكِ ، فَمَنْ دَخَلَ السُّوقَ ، واشْتَرَى تَحْفَةً ، فَحَمَلَهَا إِلَى عِيَالِهِ كَانَ كَحَامِلٍ صَدَقَةٍ إِلَى قَوْمٍ مُحَاوِجٍ (٢) ، وَلِيَبْدَأَ بِالْإِنَاثِ قَبْلَ الذَّكَورِ .

هَذِهِ هِيَ تَعَالِيمُ الْإِسْلَامِ الْغَرَاءُ ، تَرْشِدُنَا إِلَى كُلِّ مَا يَسْمُو بِنَا وَبِأَبْنَائِنَا نَحْنُ مَرَاقِي الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ ، مَا أَحْكَمَ هَذِهِ النِّظَمَ الْأَخْلَاقِيَّةَ الْحَكِيمَةَ ! ، وَمَا أَسَمَى مَقَاصِدَهَا ! ، وَلَا سِيَمَا نَحْنُ قُرَّةُ أَعْيُنِنَا ، وَأَعَزُّ مَنْ لَنَا فِي الْحَيَاةِ ؛ لِيَخْلُقَ بِذَلِكَ رُوحَ الْكَمَالِ الْمُنَشُودِ ، وَالْخَيْرِ الْمَقْصُودِ ، فَالْوَلَدُ الصَّالِحُ امْتِدَادٌ لِحَيَاةِ أَبِيهِ ، وَثَمَرَةٌ مِنْ ثَمَرَاتِ مَجْتَمَعِهِ ، وَأَمَلٌ أُمَّتِهِ ، يَقُولُ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « الْوَلَدُ الصَّالِحُ رَيْحَانَةٌ مِنْ رَيَاحِينِ الْجَنَّةِ » (٣) .

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَخَلَّبُ ثَدْيَيْهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا ، وَأَرْضَعَتْهُ ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ : أَتُرَوْنَ هَذِهِ صَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قُلْنَا : لَا ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا » (٤) ، وَهُوَ حُبٌّ غَرِيزِيٌّ فطَرِيٌّ ، لَا يَقْدِرُ

(١) أخرجه النسائي (٧٢٦) ، وأحمد (٢٧٦٨٨) .

(٢) أي : أصحاب حاجة .

(٣) فيض القدير (٤٢/٤) .

(٤) البخاري (٥٦٥٣) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

إنسان على دَفْعِهِ ، أو مَنَعِهِ ، ولذلك كُلُّهُ وَصَّى اللهُ الإنسانَ بوالديه ، ولم يوصَّ الوالدين بأولادهما ، لأنَّ حَبَّ الآبَاءِ لِلأَبْنَاءِ ورعايتهم طبعٌ ، والطبعُ لا يحتاجُ إلى تكليفٍ ، بينما رعايةُ الأبنَاءِ لِآبائِهِم ليس طبعاً ، بل هو تكليفٌ ، قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ [لقمان : ١٤] .

الإسلام والمساواة بين الأبناء ، ونظرته للإناث

إنَّ الإسلامَ الذي يجعلُ الأطفالَ قُرَّةَ أعينٍ لا بد أن تؤكِّد شعائره وآدابه هذه النزعةَ الإنشائيةَ ، فالمساواةُ بينهم حتَّى في التقبيلِ أمرٌ يحثُّهُ الإسلامُ ، وتقرُّهُ أوامره السَّمَّحَةُ ، فما بالكَ في المساواةِ في العطيةِ ، فعن الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ : « انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَشْهَدُ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ الثُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي ، فَقَالَ : « أَكُلَّ بَيْتِكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ الثُّعْمَانَ ؟ » قَالَ : لَا ، قَالَ : « فَأَشْهَدْ عَلَيَّ هَذَا غَيْرِي » ، ثُمَّ قَالَ : « أَيْسُرُكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً » ؟ « قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَلَا ، إِذَا » ^(١) .

أما أن يميلَ الرجلُ كلَّ الميلِ إلى طفلٍ بعينه دونَ إخوته ، أو إلى جنسٍ من الأولادِ دونَ الآخرِ فذلك ينافي نظرةَ الإسلامِ ، ومبادئه الصحيحةَ ، ومنطقَ المساواةِ التي بنيت عليها تعاليمه ، فلا تفرقةَ في الإسلامِ بين فتى وفتاةٍ ، ولا بين ولدٍ وبناتٍ ، بل كلاهما في كِفَّتَي ميزانٍ ، لا يُرَجَّحُ

(١) البخاري (٢٤٤٦) ، ومسلم (١٦٢٣) ، واللفظ له .

أحدهما على الأخرى إلا بمقدار العلم الذي يحصله ، والعمل الصالح الذي يقدمه ، يقول سبحانه :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

إن الخروج عن منطقي المساواة والحق والإنصاف ميل عن الصراط المستقيم ، ولذلك نرى الإسلام يأمر بالمساواة بين الأولاد ، كما سبق ، حتى لا تتأذى مشاعر بعضهم ، وعواطف بعضهم الآخر ، فيضربون السوء ، ويحل البغض مكان الحب ، والخصام محل الوثام ، فيكون التعقيد ، والانحراف ، والشذوذ ، والعقد النفسي ، والكبت ، والعزلة القاتلة التي تقتل الإحساس ، وتثد المشاعر .

وكثيراً ما نهى الرسول ﷺ عن تمييز الذكور ، وتفضيلهم على الإناث دون موجب ، بل إنه يرفع بذلك من شعور الإناث ، وإحساسهن بقيمتهن في الحياة ، فعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا ، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ » وَضَمَّ أَصَابِعَهُ ^(١) .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ عَالَ ثَلَاثَ بَنَاتٍ ، فَأَدَّبَهُنَّ ، وَرَحِمَهُنَّ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ » ^(٢) .

(١) رواه مسلم (٢٦٣١) .

(٢) رواه أحمد (١١٩٤٣) ، وأبو داود (٥١٤٧) ، قال المناوي في فيض القدير (١٧٨/٦) : [من عال ثلاث بنات ، أي : قام بما يَحْتَجُّهُنَّ من نحو نفقة وكسوة وغيرهما ، فأدبهن بآداب الشريعة الإسلامية وعلمهن أمور دينهن ، وزوجهن من كفاء عند احتياجهن للزواج ، وأحسن إليهن بعد الزواج بنحو صلة وزياره فله الجنة ، أي مع السابقين الأولين] .

الإعداد المادي والمعنوي

مرَّ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه ببلدةٍ من بلادِ المسلمين في عهدِهِ ، فوجدَ أنَّ الفعالياتِ المعيشيةَ فيها ليستُ بأيدي أبناءِ هذه البلدةِ ، فوبَّخَهُمْ ، وعَنَّفَهُمْ ، وقالَ لهم : « كَيْفَ بكمْ وقد أصبحْتُمْ عبيداً عندَهُمْ ؟ » .

لقد أدركَ هذا الخليفةُ الراشدُ - ببُعْدِ نظره - أنَّ المنتجَ هو القويُّ ، وأنَّ المستهلكَ هو الضعيفُ ، ويمكنُ أن يُضافَ إلى ذلك أنَّ التفوقَ العلميَّ سبيلٌ إلى امتلاكِ القوةِ ، وأنَّ صاحبَ الحقِّ لا يستطيعُ أن يحميَ حقَّهُ إنَّ كانَ ضعيفاً ، وما يجري في العالمِ اليومَ خيرُ شاهدٍ على ذلك ؛ لذلك أَمَرْنَا رَبُّنَا أنْ نَعِدَّ لأعدائنا ما نستطيعُ من قوَّةٍ ، فقال تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، قوَّة في العدد ، وقوَّة في العدد ، وقوَّة في التدريب ، وقوَّة في التخطيط ، وقوَّة في الإمداد ، وقوَّة في التموين ، وقوَّة في الاتصالات ، وقوَّة في المعلومات ، وقوَّة في تحديد الأهداف ، وقوَّة في دقة الرمي ، وقوَّة في الإعلام .

إنَّ الله جل في علاه لم يكلفنا أنْ نَعِدَّ القوَّةَ المكافئةَ لأعدائنا ، ولكن كلفنا أنْ نَعِدَّ القوَّةَ المتاحة ، وهذا من رحمة الله بنا ، لأنَّ الله وعد المؤمنين حقاً المطبِّقين لمنهج الله المخلصين له ، وعدهم بالنصر ، قال تعالى :

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم : ٤٧] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفِي كُلِّ خَيْرٍ ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ ، وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَرُ اللَّهِ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » (١) .

يقول الله عز وجل في كتابه العزيز :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّكَ عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمَرُونَا ﴾ [يونس : ٢٤] .

* * *

حليب الأم

يؤكد علماء نفس الأطفال أَنَّ الطفلَ حينما يولد لا يملك أيَّةَ قدرةٍ إدراكيةٍ ، بل إنَّ كلَّ ما يتمتَّعُ به الراشدُ من إمكانياتٍ وقدراتٍ ، ومفهوماتٍ ومعقولاتٍ ، وخبراتٍ ومؤهلاتٍ ، هي نتيجةُ تفاعله مع البيئة ، وهذا فحوى الآية الكريمة :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] .

لكنَّ مُعكساً - كما في تعبير علماء النفس - يولد مع الطفل ، ولا يحتاجُ إلى تعليم ، إنَّه منعكسُ المصِّ ، إذ لولاه لَمَا وجدتُ إنساناً

واحداً على سطح الأرض في قاراتها الخمس ، إِنَّ الطفلَ ساعةً يولد لا يستطيعُ أن يتلقَى توجيهاتِ والدِه في ضرورةِ التَّقامِ ثديِ أمِّه ، وإحكامِ إطباقِهما ، ثم سحبِ الهواءِ ، كَيْ يَأْتِيَه الحليبُ ، لا يستطيعُ أن يتلقَى هذه التوجيهاتِ بالفهمِ فضلاً عن التطبيقِ .

إِنَّ حليبَ الأمِّ مِنْ آياتِ الله الكبرى الدَّالةِ على عظمته ، يتغيَّرُ تركيبُه خلالَ الرُّضعةِ الواحدةِ ، يبدأ حليبُ الأمِّ بماءٍ كثيرٍ ، يقلُّ الماءُ ، ويزداد الدَّسمُ ، إلى أن تصبحَ الموادُ الدَّسمةُ في نهايةِ الرُّضعةِ أربعةَ أمثالٍ ، فهل بالإمكانِ أن تغذِّيَ طفلاً بقارورةٍ ، وتتغيَّرِ نِسَبُ الدَّسمِ ، والموادِ السكريةِ والموادِ البروتينيةِ في أثناءِ الرُّضعةِ الواحدةِ ؟ .

شيءٌ آخرٌ ، تتغيَّرُ تراكيبُ مقوِّماتِ حليبِ الأمِّ بالكمياتِ المعادلةِ لنموِّ الصغيرِ ، فكلِّما نما الصغيرُ الرضيعُ ازدادتِ الأحماضُ الأمينيةُ ، والأملاحُ المعدنيةُ ، والمعادنُ النادرةُ ، والفيتاميناتُ .

أما الشيءُ الذي يَلِفْتُ النظرَ فهو أَنَّ هذا الطفلَ الذي خلَقَهُ اللهُ عزَّ وجل قد أودَعَ فيه خمائرَ هاضمةً بمقاديرَ تتناسبُ مع حليبِ الأمِّ ، فلو أرضعناه حليبَ البقرِ ، ولو كان طازجاً ، أو كان مجفَّفاً لَعَجَزَ الطفلُ عن هضمِهِ ، وتبقَى كمياتٌ كبيرةٌ مِنَ الموادِ الدَّسمةِ والبروتيناتِ والأحماضِ الأمينيةِ دونَ هَضْمٍ ، وطَرَحُ هذه الموادِ عن طريقِ الكُلْيَةِ يُجْهِدُها ، لذلك نَجِدُ الطفلَ الذي يَرْضَعُ حليبَ البقرِ تَجْهَدُ كُلِّيَّتهُ في طَرَحِ الموادِ الدَّسمةِ ، والأحماضِ الأمينيةِ ، والبروتيناتِ التي لم يستطعْ هَضْمُها ، فخمائرُ الهضمِ عنده متوافقةٌ مع حليبِ الأمِّ ، وليست متوافقةً مع حليبِ البقرِ ، لأنَّ في حليبِ البقرِ أربعةَ أمثالٍ ما في حليبِ الأمِّ مِنَ الأحماضِ الأمينيةِ .

قال العلماء : إن ارتفاع نسبة الأحماض الأمينية في الدم تُسببُ للطفل الرضيعِ القصورَ العقليَّ ، والآفاتِ القلبيةَّ ، والآفاتِ الوعائيةَ ، وأمراضَ جهازِ الهضمِ والكبدِ ، والأمراضَ المزمنةَ التي تلازمُ الإنسانَ طوالَ حياته ، ولو سألتَ أطباءَ الأورامِ الخبيثةِ لأجابوك بقولهم : إنَّ المرأةَ التي تُرضعُ ابنها مِن ثديها أقلُّ عُرضَةً للإصابةِ بورَمِ الثديِ من المرأةِ التي لا تُرضعُ ابنها مِن ثديها ، أي : إنَّ نسبَ أورامِ الثديِ الخبيثةِ في النساءِ اللواتي يُرضعن أولادهنَّ قليلةٌ جداً ، أمَّا نسبُ الأورامِ الخبيثةِ في النساءِ اللواتي لا يُرضعن أولادهنَّ فهي نسبٌ عاليةٌ .

إنَّ العطفَ والحنانَ الذي يتلقاه الطفلُ مِن أمه في أثناءِ الرضاعةِ يُكسبهُ رحمةً في قلبه تنعكسُ على علاقاته بمن حوله في مستقبلِ أيامه ، قال تعالى :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّىَ الرِّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، وصيغة : ﴿ يُرْضِعْنَ ﴾ جاءتُ خبراً في معرضِ الأمرِ ، أي : أَيْتُهَا الْوَالِدَاتُ أَرْضِعْنَ أَوْلَادَكُمْ ، وكلُّ أمرٍ في القرآنِ يقتضي الوجوبَ ، ما لم تكن هناك قرينةٌ تنصُّ على خلافِ ذلك .

وقد ألزمتُ حكوماتُ أكثرِ الدولِ معاملَ حليبِ الأطفالِ أن تكتبَ على كلِّ عبوةٍ : لاشيءَ يعدلُ حليبَ الأم .

ثمّة بحثٌ علميٌّ تمَّ في بلدٍ متقدِّمٍ ، قاسَ مستوى الذكاءِ الفطريِّ لدى عددٍ مِنَ الأطفالِ ، مِن شعوبٍ متعددةٍ ، بالنسبةِ للإرضاعِ الطبيعيِّ والصناعيِّ ، فكانتِ النتائجُ مذهِشةً : أطفالُ جُزُرِ الباسيفيكِ يتمتَّعون

بأعلى نسب الذكاء من بين مجموعة الأطفال الذين تناولهم البحث ،
وذلك بسبب أنهم لا يعرفون الإرضاع الصناعي أبداً ، لقد صدق الله
العظيم إذ يقول :

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ^ط ﴾ .

هذا منهج الله عز وجل ، إنه تعليمات الصانع ، قال سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَيْنَيْنِ ^أ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ^ب وَهَدَيْنَاكَ النُّجَيْنِ ^ج ﴾ [البلد : ١٠٨] .

وقد أحسن الشاعر حين قال :

تَدَارَكْتَنَا بِاللُّطْفِ فِي ظُلْمَةِ الْحَشَا	وَحَيْرَ كَفِيلٍ فِي الْحَشَا قَدْ كَفَلْتَنَا
وَأَسْكَنْتَ قَلْبَ الْأُمّهَاتِ تَعْطُفًا	عَلَيْنَا وَفِي الثَّدْيَيْنِ أَجْرَيْتَ قُوْتَنَا
وَأَنْشَأْتَنَا طِفْلاً ، وَ أَطْلَقْتَ أَلْسِنَا	تُرْجِمُ بِالْإِقْرَارِ أَنَّكَ رَبُّنَا
وَعَرَّفْتَنَا إِتَاكَ ، فَالْحَمْدُ دَائِماً	لِرَوْحِكَ إِذْ أَلْهَمْتَنَا مِنْكَ رُشْدَنَا

* * *

الامتحان الأكبر (١)

قيل قديما : « يوم الامتحان يُكرّم المرءُ أو يُهَانُ » .

تعيشُ البيوتُ في آخرِ كلِّ عامٍ دراسيٍّ أزمةَ الامتحاناتِ التي تطرُقُ الأبوابَ ، وما إنْ يقترب هذا الموسمُ حتَّى ترى كثيراً من البيوتِ قد أعلنتْ حالةَ التأهبِ القصوى ، والاستعدادِ الكاملِ ، لدخولِ معمرةِ الامتحانِ التي يكرّمُ المرءُ فيها أو يُهَانُ ! وهذا جهدٌ مشكورٌ ، وعملٌ مأجورٌ ، إذا صلحتِ النيَّةُ ، وخلَصَ المقصدُ لله ربَّ العالمين .

ولكنّا لو تأملنا هذا الاهتمامَ مِنْ أجلِ هذا الامتحانِ ، ثُمَّ نظرنا إلى ضَعْفِ الاستعدادِ ، وقَلَّةِ الاهتمامِ ، وشِدَّةِ الغفلةِ عن ذلك الامتحانِ الرهيبِ ، الذي خَلَقَنَا اللهُ - تعالى - مِنْ أَجلِهِ ، وأنشأنا له ، لرأيتَ العجبَ العُجَابَ ، قال تعالى :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ الْخَبَارَ ﴾ [محمد : ٣١]

والفرقُ واسعٌ ، والبونُ شاسعٌ بين امتحانِ الدنيا وامتحانِ الآخرةِ .

(١) عدد كبير من فقرات هذا الموضوع مأخوذ من الإنترنت مع التعديل والتصريف ، بقلم الأخ عبد اللطيف الغامدي .

وإليكم أوجهها من ذلك التباين والاختلاف بين الامتحانين :

فمن حيث الموضوع ، فامتحان الدنيا في جزء من كتاب ، وفي ورقات معدودات ، في مجال من مجالات الحياة ، وضرب من ضروب العلم ؛ أمّا امتحان الآخرة ففي كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، قد حوى الأقوال ، وأحصى الأفعال ، وأحاط بالحركات والسكنات ، وألم بالخطرات والزلات ، قال تعالى :

﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوقِلْنَا آلَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف : ٤٩] .

فالصغائر مسجلة فيه ، كما أنّ الكبائر مدونة في هذا الكتاب ، قال تعالى :

﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ ۝٥٣﴾ [القمر : ٥٣] .

فالعباد يقولون ويعملون ، والكتّاب من الملائكة يكتبون . ويوم القيامة يخرجون ما كانوا يحصون ويستسخون ، قال تعالى :

﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩﴾ [الجاثية : ٢٩] .

فتنشر الفضائح ، وتظهر القبائح ، ويبدو ما كان مخبوءاً من ذنوب وعصيان ، تحت ركام الغفلة والنسيان !

قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة : ٦] .

ومن حيث الأسئلة ، فامتحان الدنيا أسئلته محدودة في بعض مفردات الكتاب ، فلا يمكن للمعلم أن يسأل الطالب عن كل دقيق وجليل من محتويات المنهج ، وربما تدركه الشفقة فيختار له من أسهل الأسئلة وأيسرها ، ولعله يراجع مع الطالب الإجابة قبيل الامتحان بأيام مساعدة له ، وتيسيراً عليه .

أما امتحان الآخرة فالأسئلة حاوية لجوانب الحياة ، شاملة لدقائق العمر ؛ أسئلة عن المعتقدات .. وأسئلة عن الأقوال .. وأسئلة عن الأفعال .. وأسئلة عن الأموال .. وأسئلة عن النيات .. وأسئلة عن العبادات .. وأسئلة عن الأوقات .. وأسئلة عن الأمانات ..

سؤال خطير ؛ جدّ خطير ، عن كل كبير وصغير ، وعظيم وحقيق ! قال تعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] .

إنه موقف السؤال والحساب بين يدي ملك الملوك ، وعلام الغيوب ! قال تعالى :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : ٢٤] .

عن أبي هريرة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ ؟ » (١) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

(١) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة الأسلمي (٢٤١٧) .

« كُلكُم راع ، ومسؤول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل في أهله راع ، وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية ، وهي مسؤولة عن رعيته ، والخادم في مال سيده راع ، وهو مسؤول عن رعيته ، فكلُّكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيته » (١) .

وقال ﷺ أيضاً : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ ؟ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ » (٢) .

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مُنَّا تُرْكُنَا لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةً كُلِّ حَيٍّ
وَلَكِنَّا إِذَا مُنَّا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَ ذَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ
ومن حيث المكان ، فامتحان الدنيا في جو مهيب ، ومكان معد ،
فالكراسي مريحة ، والأنوار ساطعة ، والأمن والأمان متوافران في مكان
الامتحان .

أما امتحان الآخرة ففي جو رهيب ، وموقف عصيب ، ومكان
عجيب ، قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

[إبراهيم : ٤٨]

إنها أهوال عظيمة ، وكربات جسيمة ، وأحوال مفعجة ، ومناظر
مدهشة ، ترتعد منها الفرائص ، وتقشعر منها الجلود ، وتنخلع لهولها
القلوب ، وتشيب منها مفارق الولدان ، قال تعالى :

(١) أخرجه البخاري (٨٥٣) واللفظ له ، مسلم (١٨٢٩) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٩١٧٤) .

﴿ فَكَيْفَ تَقْفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل : ١٧] .

يومَ يجمعُ اللهُ الأولين والآخرين ، فإذا هم بالسَّاهرة ، حفاةً بلا نعالٍ ، عراةً بلا أرديةٍ ، غُرلاً ، أي : من غيرِ ختان ، قال تعالى :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ، قَالَتْ عَائِشَةُ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ ! فَقَالَ : الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهْمَّهُمْ ذَلِكَ »^(١) .

القبورُ بُعِثَتْ ، والأفلاكُ فُجِّرَتْ ، والنجومُ انكدرتْ ، والسماءُ تَفْطَرَتْ ، والجبالُ سُيِّرَتْ ، والبحارُ سُعِرَتْ ، والشمسُ كَوِّرَتْ ، والجحيمُ بُرِّزَتْ ، والوحوشُ جُمِعَتْ ، وعلى أرضِ المحشرِ حُشِرَتْ ، قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَرَوْنها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَئِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ٢] .

القلوبُ واجفةٌ ، والأبصارُ خاشعةٌ ، والأعناقُ خاضعةٌ ، والأممُ جاثيةٌ على الرُّكَبِ تخشى العَطَبَ ، لِمَا ترى وتسمعُ من مُهْلِكَاتٍ وَخُطُوبٍ ، فالميزانُ منصوبٌ ، والصراطُ مضروبٌ ، والشهودُ تشهدُ ، والجوارحُ تفضحُ ، والصحائفُ تُنشرُ ، فأين المفرُّ ؟ ! إلى اللهِ يومئذٍ المستقرُّ ، قال تعالى :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ومن حيث الزمان ، فإن امتحان الدنيا إن طال زمانه ، وامتدَّ أوانه ، فهو في ساعةٍ من نهارٍ ، وربما كان أكثرَ بقليل .

أما امتحان الآخرة فهو في ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

[السجدة : ١٥] .

وعندما يعيش المجرمون ذلك اليوم الطويل ، بما فيه من خُصْبٍ جليل ، يُقسِمون الأيمانَ المغلظةً ، ما لبثوا في الدنيا إلا قليلاً ، ولا عاشوا فيها إلا يسيراً ، قال تعالى :

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم : ٥٥] ، فيفزعون نادمين ، وعلى أعمارهم متحسرين ؛ إنما هو زمنٌ يسير ! وعمرٌ قصيرٌ ثمَّ كان الحسابُ العسيرُ ، وإلى الله المصير ! قال تعالى :

﴿قُلْ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [١١٢] ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ﴾ [المؤمنون : ١١٢-١١٤] .

والعاقلُ الحَصيفُ يعلمُ علمَ اليقينِ أنما هي بضْعُ سنين ، أو أقلُّ من ذلك أو أكثر ، ثمَّ يُقَبَّرُ ، ثمَّ يُنْشَرُ ، ثمَّ يُحْشَرُ ، فإذا به واقفٌ بين يدي ربِّه في يومِ العرضِ الأكبر ، فيستعدُّ لما أمامه من أهوالِ يومِ القيامةِ ، فيغتمُّ أيامه ولياليه فيما يقربه من خالقه ومربيّه بالمبادرةِ إلى الطاعاتِ ، والأعمالِ الصالحاتِ ، والمسابقةِ في الخيراتِ ، قبلَ أنْ تأتيه المنيّةُ ،

وَيُصَاحُ فِي قَافِلَةِ الْهَلْكِ : الرِّحِيلُ ! الرِّحِيلُ ! قَالَ تَعَالَى :

﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ أَنْزِلُهُمْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوِ ضُحَاهَا ﴾ [النَّازِعَات : ٤٦] .

ومن حيث المراقب ، فالمراقب في الدنيا مخلوق مثلك ، محدود القدرات ، محدود الإمكانيات ، ينسى ويغفل ، ويسهو ويتنازل ، وليس بالإمكان أن يحيط بقاعة الامتحان !

أمَّا الرقيب على امتحان الآخرة - وله المثل الأعلى - فهو الذي لا يضل ولا ينسى ، قد أحاط بكل شيء علماً ، لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا يغيب عن بصره شيء من الأشياء في الأرض ولا في السماء ، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ، فَقَالَ : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ ، لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » (١) .

فأين تغيب عن سمعه وبصره ؟! وهو السميع البصير !

وأين تهرب عن علمه ونظره ؟! وهو العليم الخبير !

وأني حجاب يواريك منه ، ويحجبك عنه ؟!

ومن حيث النجاح ، فالنجاح في امتحان الدنيا مؤداه أن يرتقي العبد في مراتبها ، ويعتلي في درجاتها ، وأي درجة هذه ؟ وأي مرتبة تلك ؟ !
والدنيا بما فيها من نعيم ولذة ، منذ خلقها الله تعالى ، وإلى أن يرثها ،
وهو خيرُ الوارثين ، نعيمها لا يساوي في نعيم الآخرة إلا كقطرة أخذت
من بحر لجي ، فعن المستورد بن شداد يقول : قال رسول الله ﷺ :
« وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ
بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ » (١) .

وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لَرَوْحَةُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَدَوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَقَابٌ قَوْسٍ أَحَدُكُمْ مِنَ
الْجَنَّةِ ، أَوْ مَوْضِعٌ قِيدَ - يَعْنِي سَوْطُهُ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَلَوْ أَنَّ
امْرَأَةً مِنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا ، وَلَمَلَأَتْهُ
رِيحًا ، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا » (٢) .

أما نجاح الآخرة فهو الزحزحة عن النار ، والدخول إلى الجنة ، فضلاً
من الله ومنه ! قال تعالى :

﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ
الْفُتُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

وتأمل فرحة المؤمن العارمة ، وسعاده الغامرة ، عندما يثقل
بالصالحات ميزانه ، وتثبت على الصراط أقدامه ، فيأمن يوم الفرع الأكبر

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) ، الترمذي (٢٣٢٣) ، ابن ماجه (٤١٠٨) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٤١) .

جَنَانُهُ ، وَيُلْقَى حَجَّتَهُ وَبَيَانَهُ ، فِيرْفَعُ كِتَابَهُ فَوْقَ رَأْسِهِ ، وَيَنْشُرُهُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ، وَيَسْتَعْلِي بِصَوْتِهِ ، وَيُنَادِي عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ ، فِي فَرْحٍ وَسُرُورٍ ، وَبَهْجَةٍ وَحُبُورٍ :

﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ١٩-٢٤] .

وكما أَنَّ النِّجَاحَ يَتَفَاوَتُ فِي الدُّنْيَا مَا بَيْنَ مَقْبُولٍ ، وَجَيِّدٍ ، وَجَيِّدٍ جَدًّا ، وَمُمْتَازٍ ، ثُمَّ تَأْتِي مَرَاتِبُ الشَّرَفِ ، وَأَوْسَمَةُ التَّفَوُّقِ ، دَرَجَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، كَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَدُخُولُ الْجَنَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِفَضْلِ اللَّهِ وَمَنْنَتِهِ ، ثُمَّ يَكُونُ التَّفَاوُتُ فِي الدَّرَجَاتِ ، وَالتَّمَايُزُ بَيْنَ أَهْلِهَا فِي النِّعَمِ وَالْخَيْرَاتِ ، عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمُ الصَّالِحَةِ فِي الدُّنْيَا ، فَكُلَّمَا زَادَتْ حَسَنَاتُهُمْ زَادَتْ دَرَجَاتُهُمْ ، وَكُلَّمَا كَثُرَتْ طَاعَاتُهُمْ ارْتَقَوْا فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَعَظُمَتْ كِرَامَتُهُمْ ، قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « فِي الْجَنَّةِ مِائَةُ دَرَجَةٍ ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَالْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةٌ ، وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ »^(١) .

فَجَدِّ ، وَاجْتَهِدْ ، وَلَا يَسْبِقَنَّكَ إِلَى الْجَنَّةِ - مِمَّنْ عَرَفْتَ - أَحَدًا !
وَمِنْ حَيْثُ الرُّسُوبُ ، فَالْإِخْفَاقُ فِي امْتِحَانِ الدُّنْيَا هَيِّنٌ سَهْلٌ ، فَهُوَ

(١) أخرجه أحمد الترمذي (٢٥٣١) ، (٢٢٧٩٠) .

خسارة لدرجة ، أو لمرحلة ، أو لمرتبة من الدنيا ، لا تساوي عند الله جناح بعوضة .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِذِي الْحُلَيْفَةِ ، فَإِذَا هُوَ بِشَاةٍ مَيْتَةٍ سَائِلَةٍ بِرَجْلِهَا ، فَقَالَ : « أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيْئَةً عَلَى صَاحِبِهَا ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لِلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا ، وَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَرَنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا » (١) .

وحسب الدنيا حقارة ودناءة أن الله تعالى جعلها دار بلاء وامتحان ، وموطن غفلة ونسيان ، وموقع خطيئة وعصيان ، ولو كانت نعمة لساقها بين يدي رسوله الكريم ﷺ ، الذي كان عيشه منها كفافاً .

أما الرسوب في امتحان الآخرة فخسارة الأبد ، وحسرة السرمد ، وألم لا ينفد ، وندم لا ينقطع ، وعذاب لا ينتهي ، وعقاب لا ينقضي . يوم يُكبُّ المجرم على وجهه في نارٍ تُلْظَى ، لا يصلها إلا الأذى ، فيخسر نفسه وأهله وماله ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُتْلِفَانِ ﴾ [الزمر : ١٥] .

وأي خسارة أكبر من أن يرى العبد غيره يساق في سعادة ومسرّة إلى جنّة عرضها السماوات والأرض ، لينعم بما تلذّ به العين ، وما تشتهي النفس ، ويطرب له السمع ، ويسعد به القلب ، ثم يقاد هو في ذلّة وصغار ، ومهانة وانكسار إلى نارٍ وقودها الناس والحجارة ، حيث

العقاب والعذاب ، والبلاء والشقاء ، والنكال والأغلال ، مما لا يخطر
على البال ، ولا يوصف بحال من الأحوال !

قال تعالى :

﴿ وَرَنَّهُمْ يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الدُّنْيَا يَنْظُرُونَ مِّنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ ﴾

[الشورى : ٤٥]

والخسار الأكبر ، والحرمان الأعظم ، أن يُحرَمَ العبدُ لذةَ النظرِ إلى
وجهِ اللهِ الكريم ، ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَجُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] .

وكما يرجع الطالبُ الخائبُ باللومِ على نفسه ، والتقريعِ والتوبيخِ
لها ، والندمِ على تفريطها ، ينقلبُ الحالُ بأهلِ الرسوبِ في الآخرةِ إلى
الأمانِ العقيمةِ ، ويركنون إلى الأحلامِ السقيمةِ ، ويتمنون أن يعودوا
ليجدوا ويجتهدوا ، قال الله تعالى عنهم :

﴿ يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ .

[الأحزاب : ٦٦]

ومن حيث فرصُ التعويضِ ، فامتحانُ الدنيا أسوأُ ما فيه الرسوبُ ،
وغالباً ما يكون لدى الراسبِ فرصةٌ أخرى ، وكرةٌ ثانيةٌ ، حتَّى يتمَّ له
النجاحُ ، أو تغييرُ مجالِ الدراسةِ والبحثِ ، ولعلَّ في ذلك خيراً كثيراً
لا يدركه ، وفضلاً عظيماً لا يعلمه .

فكم من بابٍ أُغلقَ في وجهِ صاحبه ، وكان الخيرُ في إغلاقه ، ولو أنه
ولجَ فيه لوقعَ في البلايا والمحنِ ، والرزايا والفتنِ ، قال تعالى :

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

أمّا امتحان الآخرة فليس فيه فرصة ثانية ، ولا كَرَّةٌ آتيةٌ ، وإنما هي رحلةٌ عملٍ تنتهي لحظاتها ، وتنقضي أوقاتها ، ثمَّ تحينُ ساعةُ الانتقالِ إلى الكبيرِ المتعالِ ! قال تعالى :

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

وعند ذلك ينادي المفرطُ المخلطُ في كمدٍ ونكدٍ : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون : ٩٩] ، لِمَ أَيُّهَا الغافلُ ؟ ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] ، فهل يجابُ سؤالُهُ ، ويحقق له أمله ؟!

﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] .

وعندما يخفقون في الاختبار ، ويدخلون النارَ ، يُعَذَّبون بها ، ويصلون سعيَها ، ويحرقون بحرارتها ، ينادون :

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾

[فاطر : ٣٧] .

فيأتيهم التقريعُ والتوبيخُ ، الذي يزيدُ في حسراتِهِمْ ، ويضاعفُ من لوعَاتِهِمْ :

﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر : ٣٧] .

والجزاء في يومِ الجزاءِ : ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر : ٣٧] .

إنَّ رحلةَ العمرِ انتهت ، وفرصةُ الزرعِ انقضتْ ، وقد حان أوانُ

الحصاد! فيا بشرى للزارعين بما حصدوا! ووا أسفاه على الخاملين يوم
جدّ المشمرون وهم رقدوا! وفازَ بالغنائم طلابُها ، وبالمعالي أربابُها!

أمّا أولئك البطّالون فقد حيلَ بينهم وبين ما يشتهون ، فإنَّ اللهَ الذي
يعلمُ ما كان ، وما يكونُ ، وما سيكونُ ، وما لم يكن لو كان كيف كان
يكونُ ، يعلمُ أنَّهم لو رُدُّوا إلى الدنيا ، وفسحَ لهم في الأجلِ ، لعادوا لما
نُهِوا عنه من المعاصي والموبقاتِ ، والخمولِ والكسلِ! قال تعالى :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٨] .

فيا لهذا الإنسان ؛ ما أشدَّ ظلمه لنفسه! وما أعظمَ جهله بعاقبة أمره!

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

والخاتمة

وبعد ؛ فإنَّنا نعتقدُ جازمين أنَّه لم يبقَ لنا بعدَ هذا البيانِ إلا أن نستشعرَ
أُتْنَا في امتحانٍ رهيبٍ ، في كلِّ ما نأتي ونذرُ ، وفيما نحبُّ ونكرهُ ،
ونعتقدُ وننوي ، ونرى ونسمعُ ، ونعطي ونمنعُ ، ونأكلُ ونشربُ ،
ونسكنُ ونركبُ ، ونقولُ ونعملُ ، وذلك على مدى الدَّهرِ ، وبطولِ
العمرِ .

واليومَ عملٌ ولا حسابٌ ، وغداً حسابٌ ولا عملٌ! فلنرِ اللهَ منَّا خيراً ،
نسرُّ به يومَ نُعرضُ عليه ، ونقفُ بين يديه ، حيث تُعطى الجوائزُ لكلِّ
فائزٍ ، ويُزجُّ كلُّ خاسرٍ في نارِ السَّمومِ .

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا
فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَكُوتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا

شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوفٍ ﴿١٠٨﴾ [هود : ١٠٥-١٠٨] .

وفي هذا بلاغٌ لقوم عابدين !

النَّفْسُ تَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ السَّلَامَةَ فِيهَا تَرُكُ مَا فِيهَا لَا دَارَ لِلْمَرَّةِ بَعْدَ الْمَوْتِ يَسْكُنُهَا إِلَّا الَّتِي كَانَ قَبْلَ الْمَوْتِ بَانِيهَا إِنَّ التَّعَلُّمَ وَالتَّعْلِيمَ قَوَامُ هَذَا الدِّينِ ، وَلَا بَقَاءَ لَجَوْهَرِهِ ، وَلَا ازدهارَ لِمُسْتَقْبَلِهِ إِلَّا بِهِمَا ، وَالنَّاسُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : مُتَعَلِّمٌ يَطْلُبُ النِّجَاةَ ، وَعَالِمٌ يَطْلُبُ الْمَزِيدَ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « الْعَالِمُ وَالْمُتَعَلِّمُ شَرِيكَانِ فِي الْخَيْرِ ، وَلَا خَيْرَ فِي سَائِرِ النَّاسِ » (١) .

وتعلُّمُ العلومِ الماديَّةِ يحقِّقُ عِمَارَةَ الْأَرْضِ عَنْ طَرِيقِ اسْتِخْرَاجِ ثُرَوَاتِهَا ، وَاسْتِثْمَارِ طَاقَاتِهَا ، وَتَذْلِيلِ الصَّعُوبَاتِ ، وَتَوْفِيرِ الْحَاجَاتِ ، تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] .

وتعلُّمُ العلومِ الماديَّةِ ، وَالتَّفَوُّقُ فِيهَا قُوَّةٌ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، لِيَجَابِهُوا أَعْدَاءَهُمْ ، أَعْدَاءَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالسَّلَامِ ، تَحْقِيقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

(١) ابن ماجه (٢٢٨) عن أبي أمامة .

لأن قوة هذا العصر في العلم ، بل إن الحرب الحديثة ليست حرباً بين ساعدين وسيفين ، بل هي حرب بين عقليين .

وبالتحرُّر من الجهل والوهم ، واعتماد النظرية العلمية ، واتباع الطريقة الموضوعية ، نستطيع أن نسقط كل الدعاوى الباطلة المزيفة ، التي يطرحها أعداؤنا ، أعداء الدين للنيل من إمكاناتنا وطموحاتنا ، فباعتماد النظرية العلمية تصحُّ رؤيتنا ، وبإيماننا بالله ، واستقامتنا على أمره نستمدُّ منه قوتنا ، قال تعالى :

﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

توجيهات منهجية للطلاب

أخصُّ طلابنا الأعزاء وطلابتنا العزيزات بهذه النصائح والتوجيهات ، فالإسلام هو الحياة ، وأبناؤنا أهمُّ ما في حياتنا ، لأنهم خيرُ كسبنا ، وشبابنا وشاباتنا ، وهم أملُ أمتنا ومستقبلها ، تفوُّقهم في التحصيل العلمي ، وانضباطهم في الجانب السلوكي أحدُ أسباب انتصارنا أمام التحديات التي نواجهها .

إليكُم بعض الحقائق العلمية في تحصيل المعرفة والمتعلقة بالدراسة والامتحان :

الدراسة التي ينتظرُ أن تحقِّق النجاح للطلاب لها قواعدُ وأصولُ ، ومن هذه القواعد والأصول :

١- ثَبَّتْ أَنْ قِرَاءَةَ التَّصْفِيحِ وَأَنْتَ مُسْتَلْقٍ عَلَى مَقْعَدِ مُرِيحٍ ، أَوْ عَلَى فَرَاشٍ وَثِيرٍ ، أَوْ عَلَى شُرْفَةٍ تَمْتَعُ النَّظَرَ بِالْغَادِي وَالرَّائِحِ ، أَوْ فِي غُرْفَةٍ الْجُلُوسِ مَعَ أَهْلِكَ وَإِخْوَتِكَ الصَّغَارِ ، مِثْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ ، وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَا تَتَمَرُّ شَيْئاً ، فَأَنْتَ لَا تَذْكُرُ مِنَ الَّذِي قَرَأْتَهُ بَعْدَ حِينَ آيَةٍ مَعْلُومَةٍ ، اللَّهُمَّ إِلَّا انْطِبَاعاً عَامّاً ، لَا يَسْمَنُ وَلَا يَغْنِي مِنْ جُوعٍ ، وَهَلْ تَعْتَمِدُ امْتِحَانَاتُنَا - وَهِيَ لَا تَزَالُ تَقْلِيدِيَّةً - إِلَّا عَلَى مَا فِي الذَّاكِرَةِ مِنْ مَعْلُومَاتٍ ، وَإِذَا صَحَّ أَنْ لِلْجَهْدِ الْمَبْدُولِ فِي فَهْمِ الْكِتَابِ الْمَقْرَرِ ، وَالْقُدْرَةِ عَلَى الْإِجَابَةِ عَنْ أَسْئَلَةِ الْامْتِحَانِ يُقَاسُ بِوَحْدَاتٍ كَمَا تُقَاسُ الْحَرَارَةُ بِالْدرجاتِ ، مِثْلُ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ لَا تَحَقِّقُ مِنْ وَحْدَاتِ الْجَهْدِ الْمِئَةِ الَّتِي تَحَقِّقُ النِّجَاحَ إِلَّا خَمْسَةٌ بِالْمِئَةِ ، وَهِيَ فِي قِيَمَتِهَا أَرْخَصُ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي اسْتَعْرَفَهَا .

٢- أَمَّا حِينَمَا تَجْلِسُ وَرَاءَ طَاوِلَةٍ بَعِيداً عَنِ الضَّجِيجِ ، وَالْمَنَازِلِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الشُّرُودِ ، وَتَفْتَحُ الْكِتَابَ الْمَقْرَرِ ، وَتَقْرَأُ بِتَأَنٍّ وَتَعَمَّقٍ ، وَتَضَعُ عَلَامَةً بِقَلَمٍ شَفَافٍ تَحْتَ كُلِّ فِكْرَةٍ رَئِيسَةٍ ، وَخَطّاً بِقَلَمِ الرِّصَاصِ تَحْتَ كُلِّ فِكْرَةٍ فِرْعَوِيَّةٍ ، ثُمَّ تَلْخُصُّ الْفَقْرَةَ عَلَى الْهَامِشِ ، وَتَضَعُ خَطّاً بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ تَحْتَ كُلِّ كَلِمَةٍ تَحَبُّ أَنْ تَضِيفَهَا إِلَى قَامُوسِكَ اللُّغَوِيِّ ، وَخَطّاً بِاللَّوْنِ الْأَحْمَرِ أَيْضاً تَحْتَ آيَةٍ عِبَارَةٍ تَحَبُّ أَنْ تَغْنِيَ بِهَا أَسَالِيكَ التَّعْبِيرِيَّةَ ، ثُمَّ تَضَعُ إِشَارَةً بِلَوْنٍ ثَالِثٍ عِنْدَ كُلِّ فِكْرَةٍ غَامُضَةٍ لَتَسْأَلَ عَنْهَا أَسْتَاذَكَ ، أَوْ صَدِيقَكَ الْمَتَفَوِّقَ فِي تِلْكَ الْمَادَّةِ ، وَبَعْدَهَا تَرَسِّمُ مَخْطَطاً لِلْبَحْثِ الَّذِي قَرَأْتَهُ ، وَتَمْلَأُهُ بِالْأَفْكَارِ الرَّئِيسَةِ ، ثُمَّ تُسَمِّعُهُ مَنْ حَوْلَكَ ، أَوْ تَحَاوُلُ أَنْ تَرَاوِجَهُ مِنْ ذَاكَرَتِكَ ، أَوْ أَنْ تَكْتُبَهُ عَلَى دَفْتَرِكَ ، هَذِهِ الْقِرَاءَةُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ تَسَاوِي مِنَ الْجَهْدِ الْمَطْلُوبِ نَسْعِينَ بِالْمِئَةِ ،

ولا يبقى أمامك إلا مراجعة سريعة ، وتحقق النجاح .

٣- هناك مشكلة كبيرة يعاني منها الطلاب ؛ وهي أنهم يستمعون إلى الدروس كثيراً ، ويقرؤون كثيراً ، أما إذا جلسوا في قاعة الامتحان فيتعثرون في الكتابة ؛ ذلك لأن في الإنسان ذاكرةً تعرفيّةً يغذيها جهدُ الأخذ ، كالقراءة والاستماع ، وفي الإنسان ذاكرةً أخرى استرجاعيّةً يغذيها جهدُ العطاء ، كاللقاء الدروس ، وكتابة البحوث ، والذاكرة التعرفيّة لا تفيدُ الطالب في الامتحان ، لأنها لا تسعفه بالمعلومات ، ولنضرب مثلاً لتوضيح ذلك :

حينما تقرأ كلمة « علاقات وشيخة » ، مثلاً ، تعرف أنها تعني علاقات متينة ، لأنها مخزّنة في الذاكرة التعرفيّة ، أي : تعرفها إذا قرأتها ، ولكنك لا تستطيع أن تستخدمها في الكتابة ، أي : لا تستطيع أن تسترجعها ، لأنها ليست في الذاكرة الاسترجاعيّة ، فما لم تلق المعلومات المخزّنة في الذاكرة التعرفيّة شفاهاً على صديق ، أو قريب ، أو ما لم تحاول كتابتها فإن هذه الحقائق التي قرأتها ، أو استمعت إليها لا تستطيع أن تذكرها في الامتحان إلا إذا نقلتها من الذاكرة التعرفيّة إلى الذاكرة الاسترجاعيّة عن طريق التسميع والكتابة ، وتلخّص هذه القاعدة بالتعلّم الرباعي : استمع واقرأ ، سمع وكتب ، وهناك قاعدة التعلّم الخماسي ، وهو : تصفّح ، تساءل ، اقرأ ، سمع ، راجع .

٤- هناك مشكلة كبيرة تزعجُ الطلاب ، وهي أنهم يعانون من الملل والسأم والضجر من دراسة كتاب واحدٍ لزمّنٍ طويل ، وهذا يجزّهم إلى تضييع الوقت بشئ الحُجَج المفتعلة ، ويصابون بالحزن ، ثم الكآبة ،

وهذا خطأ كبيرٌ في إعدادِ جدولِ المذاكرة ، ولشرحِ هذه المشكلةِ أسوقُ المثلَ التالي :

أنتَ إذا وضعتَ في كَفِّكَ كيلو غرامًا من المعدنِ ، ورفعتهِ إلى أعلى مراتٍ ومراتٍ ، فبعدَ عددٍ من المراتِ ، وقد تصل إلى المئة تصابُ عضلةُ اليدِ بالإعياءِ ، وهو التوقُّفُ عن الحركةِ ، لكن لو وضعتَ بعدها في يدك نصفَ كيلو عندئذٍ تستطيعُ أن ترفعه مئة مرةٍ أخرى بعد الإعياءِ .

من هذا المثلِ نستنتجُ أنه بإمكانِ الطالبِ أن يتابعَ الدراسةَ دونَ مللٍ أو سأمٍ أو ضجرٍ إذا صمَّمَ جدولَ الدراسةِ على أساس أن يقرأَ فصلاً واحداً كلَّ يومٍ من كلِّ كتابٍ مقررٍ ، ويرتَّبُ الكتبَ التي يقرأها من حيثِ صعوبتها ترتيباً تنازلياً .

وبهذه الطريقةِ يستطيعُ الطالبُ أن يتابعَ الدراسةَ ساعاتٍ طويلةً ، دونَ أن يشعرَ بالسأمِ والضجرِ ، لأنه ينتقلُ كلَّ ساعةٍ من كتابٍ صعبٍ إلى كتابٍ أقلَّ صعوبةً ، وبهذا يتجددُ نشاطه .

٥ - ثَبَّتْ أَنَّ قُوَّةَ أَتِيَةٍ إيجابيةٍ في الامتحانِ ، وتحقيقها شروطُ النجاحِ تعتمدُ على صحَّةِ المعلوماتِ ، وعلى وفائها بفقراتِ السؤالِ ، وعلى تحليلها وترتيبها ، ودعمها بالأدلةِ والشواهدِ ، وهذا هو المضمونُ ، وتعتمدُ على الأسلوبِ الذي يتألفُ من غزارةِ المفرداتِ التي في مخزونِ الطالبِ ، ومن حسنِ انتقائها ، ومن متانةِ العباراتِ ، ومن روعةِ صورها ، وهذا هو الشكلُ ، وسواءٌ رُصدتْ في سلَّمِ الدرجاتِ علاماتٌ للأسلوبِ أو لم ترصد ، فإنَّ المصحَّحَ يعطي علامةً عاليةً لأيِّ طالبٍ قويِّ الأسلوبِ عن وعيٍ أو عن غيرِ وعيٍ منه ، مع وجودِ سلَّمٍ دقيقٍ ، ولا سبيلَ

إلى امتلاك قوة الأسلوب إلا بالقراءة الأسلوبية التي تعني أن تقرأ النصوص ذات الأسلوب القوي لا لتتبع الأفكار التي تنطوي عليه فحسب ، بل لتقف على الكلمات الجديدة التي لا تستخدمها أنت في أسلوبك ، أو لتقف على العبارات المتيّنة التي ينبغي أن تضيفها إلى أساليبك التعبيرية ، وإليك مثالا على ذلك :

إن أغلب الطلاب يستخدمون كلمة (نَظَرَ) لشتى حالات النظر ، فيأتي أسلوبهم ضعيفاً ضبابياً ، ولو قرؤوا الكتب ذات الأسلوب الأدبي قراءة أسلوبية لأغنوا مفرداتهم ، ونوعوا أساليب تعبيرهم ، إن هنالك مدلولات دقيقة لمرادفات كلمة نَظَرَ ، منها : (رَأَى) ، وتحتمل الرؤية القلبية ؛ كأن تقول : رأيت العلم نافعاً ، (شَاهَدَ) ، التي تضيف إلى النظر المسؤولية الجزائية ، (رَنَأَ) ، وتفيد النظر مع سكون الطرف والمتعة ، كأن تقول : رنوت إلى المنظر الجميل ، (حَدَجَ) ، وهي بمعنى نظر إلى الشيء مع المحبة ، وفي الحديث : « حَدَّثَ الْقَوْمَ مَا حَدَّجُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ » ، (رَمَقَ) ، أي : نظر إلى الشيء من جانب أذنه ، (لَمَحَ) ، نظر إلى الشيء ، ثم أعرض عنه ، (لَاحَ) ، ظهر له شيء ، ثم خفي عليه ، (تَوَضَّعَ) ، نظر نظرة المُسْتَشَبِّتِ ، (اسْتَشْرَفَ) ، نظر واضعاً يديه على حاجبيه ، (اسْتَشَفَّ) ، نظر مع التفحص باليد ، (حَدَّقَ) ، فتح جميع عينيه لشدة النظر حتى اتسعت حدقة العين ، (حَمَلَقَ) ، نظر وظهر حملاق العين الأحمر ، وهو باطن الجفن ، (نَظَرَ) ، شَرَّراً ، أعاره لَحْظَ العداوة والازدراء ، (شَخَصَ) ، فتح عينيه ، وجعل لا يطرف من الخوف .

فأنت أيها الطالب لا يمكن أن تمتلك أسلوباً غنياً إلا بغنى المفردات التي في ذاكرتك الاسترجاعية .

٦ - الأفضل تحديد فترات للدراسة ، وأن تتخللها فترات للراحة ، فهذا يحول دون الشعور بالإحباط ، أو الإجهاد الذي قد يسببه التركيز مدة طويلة .

٧ - خذ قسطاً من الراحة كافياً قبل وقت الامتحان ، وهذا يُعينك على التذكر والتركيز .

٨ - تناول الطعام المناسب قبل أن تذهب إلى الامتحان ، ليعينك على المتابعة وبذل الجهد .

٩ - اقرأ الأسئلة بتمعن وتؤدّة حتى تتيقّن من المطلوب من السؤال ، وابدأ بالأسئلة التي تعرفها جيداً ، ثم بالأسئلة التي لست متمكناً منها ، وبعدها أجب عن السؤال الذي لا تعرفه إجابة تخمينية ، فهذا أفضل من عدم الإجابة ، ولا تسلّم الورقة قبل تنقيح الإجابة ، ولا تخرج من قاعة الامتحان قبل انتهاء الوقت لئلا تندم .

١٠ - أيها الطالب الحبيب ، درست في الفيزياء أنك إذا وضعت ورقة في محرق عدسة تحت أشعة الشمس فإنها تحترق ، لكن الورقة هذه لا تحترق إذا وضعتها في أشعة الشمس من دون عدسة ! ما تفسير ذلك ؟ إن حزم أشعة الشمس التي انكسرت عبر العدسة تجمعت في محرقها فأحرقت الورقة ، وكذلك الطالب المؤمن بربه ، والمستقيم على أمره ، والمتوكل عليه .

وينبغي أن تعلم أيها الطالب أنه ما من شيء أكرم على الله من شاب تائب ، هذا الشاب الطاهر تتجمع قدراته ومهاراته واهتماماته ، وتتجه إلى بؤرة واحدة وهي الوسائل التي جعلها سلماً لهدفه الكبير ، لذلك يتفوق تفوقاً كبيراً ، ويحقق نجاحاً خطيراً ، ليكون شيئاً مذكوراً في أمته ، فشاباً أو شاباً من هذا النوع كألف ، وألف من المتفلتين والشاردين عن الله كأف ، لأن الله مع المؤمنين ، وهذه المعية معية خاصة ، فسرها العلماء بالتوفيق ، والتأييد ، والحفظ ، والنصر ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ وقد قال الله تعالى :

﴿ مَا يَتَكُمُونَ ﴾ ٢١ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَمَّ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ ﴿[الجنابة : ٢١] .

رجاء إلى الأهل والجيران

والآن نتوجه إلى كل الإخوة المواطنين بأعلى درجات الرجاء ، وبكل ما يتمتعون به من الشعور بالمسؤولية تجاه أبنائهم صغاراً وكباراً ، ذكوراً وإناثاً ، وتجاه أبناء جيرانهم ؛ أن يهيئوا الأجواء التي تعين أولادهم ، وأولاد جيرانهم على الدراسة التي هي قوام أمرهم في الدنيا ، وقد بين النبي ﷺ في دعائه هذا المعنى حينما قال : « اللَّهُمَّ أَصْلَحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلَحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي » (١) .

(١) أخرجه مسلم (٢٧٢٠) عن أبي هريرة .

من أهم أسباب تهيئة الأجواء التي تُعين على الدراسة :

١ - أن يسمع المرء ما يحلوه له وحده ، دون أن يُسمع غيره ما لا يحلوه له ، ودون أن يعكّر صفو الطالب أو الطالبة من جيرانه في أثناء الدراسة ، فهذا السلوك المنضبط سلوك إسلامي ، قال تعالى :

﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ [الحجرات : ٢] .

من الذوقيات المفقودة في البيوت رفع صوت المذياع أو التلنّاز ، الذي يعكّر على الطلاب الذين يدرسون .

ومن الذوقيات المفقودة في الشارع تلك الأصوات المزعجة لأبواق السيارات ، فتجد صاحب المركبة يقف أسفل البناء ، وينادي ببوق مركبته زوجته في الطابق العلوي ، بدلاً من أن يصعد إليها ليُعلمها بقدومه ، فيريح نفسه ، ويتعب الآخرين باستخدام آلة التنبيه ، فيأتي الإسلام ويرد للشارع ذوقياته المفقودة .

وينبغي أن نفهم قوله تعالى على نحوٍ موسّع :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥ ﴾ . [الحجرات : ٥-٤] .

نعم ، إن الآية تتحدث عن النبي ﷺ ، ولكنها تنظم ، وتهذب سلوكيات الناس .

إن من حق الناس عليك ألا تزعجهم ، فمنهم النائم ، ومنهم الطالب الذي يدرس ، ومنهم المريض ، ومنهم الذي يصلي ، واعلم أن ما حول بيتك ليس ملكك وحده .

٢- تأجيل المناسبات الاجتماعية الصاخبة التي تقام في البيوت ،
رحمة بالطلاب والطالبات ، فمستقبلهم ، وجامعتهم ، وحرفتهم تتحدد
في الأعم الأغلب في أيام الامتحان ، ومن أجل علامة واحدة يُقبل ابن
مدينة ما حيث أهله وبيته ، وحيث انضباطه ، في جامعة بعيدة في مدينة
أخرى ، حيث السفر والإنفاق وضعف الانضباط .

٣- تجميد الخلافات الأسرية ، وإرجاء حسمها إلى ما بعد نهاية
الامتحانات رحمة بالأولاد فلذات الأكباد .

٤- تأجيل الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن محل إلى محل ، ومن
حرفة إلى حرفة إلى ما بعد الامتحانات .

٥- تفرغ الأهل ، ولاسيما الأمهات ، والإخوة والأخوات الكبار ،
تفرغهم للذين يؤدون الامتحانات من أفراد الأسرة ، وتأمين حاجاتهم ،
والسهر على راحتهم ، والتدقيق في جدول امتحانهم ، وإيقاظهم على
مواعيد امتحانهم .

٦- لا تقل : ليس عندي أولاد يؤدون امتحاناً ، فالنبي ﷺ يقول :
« لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارَهُ بَوَائِقَهُ »^(١) .

تحفظ لا بد منه

وفي الدعاء النبوي الشريف : « ... اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ،
وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا »^(٢) .

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم عن زيد بن أرقم (٢٧٢٢) .

فبناءً على هذا الحديث الشريف نقولُ : العلمُ الذي نرتزقُ منه وكفى
ليس إلا حرفةً من الحرفِ .

العلمُ الذي لا يصلُ تأثيرُهُ إلى نفوسِنَا ، ومن ثمَّ إلى سلوكِنَا ، ما هو
إلا حذلقَةٌ لا طائلَ منها .

العلمُ الذي يجعلُنَا نتيهُ به على غيرِنَا ما هو إلا نوعٌ من الكِبَرِ .

العلمُ الذي يعطلُّ فينا المحاكمةَ السليمةَ والتفكيرَ السديدَ نوعٌ من
التقليدِ .

العلمُ الذي يوهِمُنَا أننا علماءُ كبارٌ هو نوعٌ من الغرورِ .

العلمُ الذي يسعى لتدميرِ الإنسانِ والفتكِ به ، ويسعى لصناعةِ المرضِ
نوعٌ من الجريمةِ .

العلمُ الذي نستخدمه للإيقاعِ بين الناسِ ، والعدوانِ على أموالِهِم
وأعراضِهِم نوعٌ من الجنوحِ والانحرافِ .

والعلمُ الذي لا يتصلُّ بما ينفعنا في ديننا ودنيانا نوعٌ من الترفِ
المذمومِ .



موضوعات دعوية

الخطاب الإسلامي

لستُ مبالغاً إذا قلتُ : إنَّ الخطابَ الإسلاميَّ هو من أخطر القضايا في حياة المسلمين اليوم ؛ ذلك أنَّ شيوعَ الأُميَّةِ الدِّينيَّةِ ، والغزو الثقافيَّ الهادفَ ، والأزماتِ الاقتصادية الطاحنة ، واستعمارَ الفتنِ الصارفةِ ، جعلتِ المسلمَ المعاصرَ يتعدُّ عن ينابيع الإسلامِ الصافية ، لضيقِ الوقتِ ، وكثرةِ العقباتِ والصوارفِ ، ولم يبقَ له من صلةٍ بحقائق الدِّينِ إلَّا الخطابُ الإسلاميُّ الذي يصلُّه من خلالِ خطبةِ الجمعةِ ، أو من خلالِ التدريسِ الدينيِّ ، أو من خلالِ وسائلِ الإعلامِ ، وهذه حالُ الخطِّ العريضِ في المجتمعِ الإسلاميِّ ، وهذا لا ينفي وجودَ قَلَّةٍ قليلةٍ من الشبابِ طلبتِ العلمَ من ينابيعه الأصيلةِ ، ولم تتأثرْ بالخللِ في الخطابِ الدينيِّ .

وبناءً على هذه المعطياتِ يتضحُ أنَّ العالمَ الإسلاميَّ في أمسِّ الحاجةِ إلى خطابٍ دينيٍّ ينطلقُ من حقائقِ الدِّينِ النَّاصعةِ المأخوذةِ من مُحكَمِ الكتابِ ، والسُّنَّةِ الثابتةِ ، بالفهمِ الصحيحِ ، وبمعرفةٍ مقاصدِ الإسلامِ الكبرى ، وهذا يُشارُ به إلى الانعتاقِ من سلطةِ النفسِ ، ومحدوديةِ التفكيرِ ، والوعيِّ بأصولِ الدَّعوةِ ، وطرائقِ معالجةِ الأوضاعِ المتردِّيةِ ، ومراعاةِ السننِ الشرعيةِ والكونيةِ في منهجِ التغييرِ والإصلاحِ .

من المهمّ كثيراً أن ندرك الإمكانَ الشرعيَّ والواقعيَّ الذي نعيش فيه ، ونعملَ على إيجادِ تطبيقٍ للمعاني الإسلامية في هذه المجتمعات ، ولا سيما التي يُمارَسُ ضدها تغييبٌ جادٌ لطمسِ هويّتها .

لقد كان النجاشيُّ في الحبشة ملكاً صالحاً مؤمناً ، صلى عليه رسول الله ﷺ بعد وفاته ، وأثنى عليه خيراً ، مع أنه لم يكن يحكم بالقرآن ، ولا يقيم كثيراً من شعائر الإسلام ، فهذا مبلغه من الإمكان .

من المهمّ أن يتخلَّصَ بعضُ دعاة الإسلام من هيمنة التشاؤمِ على منهجهم ولغتهم وتعاملهم مع عوامِّ وسوادِ المسلمين ، إنه حينما يكون الداعيةُ وطالبُ العلمِ مدركاً أنه لا يستعملُ الأوراقَ الأخيرةَ والنفسَ النهائيَّ في محاولات الإصلاح والدعوة فهو - هنا - يتخلَّصُ من كثيرٍ من الأخطاء .

من الحكمة الشرعية أن يتخلَّصَ الخطابُ الإسلاميُّ من التعاملِ بلغةٍ واحدةٍ ، حيث تجدُّ بعضُ أهلِ الدعوة والعلمِ جَمَعَ أُرْمَةِ الأمة في الواقعِ السياسيِّ التي تعيشه ، فتراه لا يمارسُ إلا هذه اللغة!! وتجد نمطاً آخرَ من الخطابِ الإسلاميِّ لا يخاطبُ إلا أهلَ الصلاح والبرِّ والتقوى ، يؤدّبهم بالفضائل ، وربما يكونُ هذا الخطابُ أداةً لفصلِ المجتمع الإسلاميِّ إلى طبقاتٍ تعيش العزلة والصراعَ الشعوريَّ .

وهنا يفترضُ أن يكونَ دعاة الإسلام أكثرَ تأصيلاً وواقعيةً ، فإنَّ تقديرَ دائرةٍ ما يقبلُ الاجتهادَ ، وما لا يسعُ فيه الخلافُ ، وأمثال ذلك من أكبرِ مقاصدِ الشريعة ، وأخصَّ مقاماتِ العلم ، فهذا يستلزمُ أن تُحكَمَ هذه

القضايا بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع .

إن علماء الإسلام الكبار ودعائهم يُعرف لهم قدرهم وفضيلتهم ، لكن لا بد أن نعلم أن خير الهدى هدى رسول الله ﷺ ، والدين هو ما شرعه الله ورسوله ﷺ ، فإن نعرف لأحد حقه لا يعني أن كلامه لا يقبل النظر والمراجعة ، والخطأ والترك ، والرد إلى سنة ظهرت ، وحق بان بالدليل ، وما زال علماء الإسلام يتراجعون ويختلفون ، بل هذا هو الواجب على أهل العلم ورجال الدعوة .

ليكن هم كل واحد في هذه الأمة أن يبلغ عن الله ، ورسوله ، ولو آية أو حديثاً ، وألا يمتلكه الحزن الذي يقعد عن العمل لدين الله ، وألا يتخذ طريقاً ليست مشروعة في التعامل ، وألا يشعر بعدم القدرة والإحباط ، فيميل إلى الصفائية والمثالية والانتقاء ، فيجد نفسه أخيراً مراجعاً لإخوانه الدعاة ، ثم قائماً عليهم حكماً على أقوالهم وأعمالهم ، يحسب عليهم أنفاسهم ، وهنا ربما خالطه شعور أن هذه هي الأصالة والديانة .

* * *

تجديد الخطاب الدعوي

أعتقد أنه لا يختلفُ اثنان في العالم الإسلامي في موضوع تجديد الخطاب الديني كأسلوب ، ليس غير ، بحسب المستجدات التي نعيشها اليوم .

إن ما يجري في العالم الإسلامي اليوم من مؤتمرات وندوات تحت اسم التجديد في الخطاب الديني هو أسلوب التفافٍ لإلغاء الخطاب الديني ، أو لتفريغهِ من مضمونه ، حيث يصبح الدين متوافقاً مع مصالح القطب الواحد في السيطرة ونهب الثروات .

إن الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح ، هناك من ينادي بأن نضلَّ قبل أن نُجبرَ على الضلال ، وأن نذلَّ قبل أن نُجبرَ على الذل .
إن آية واحدة في كتاب الله تلخص ما يجري في العالم الإسلامي ، وهي قوله تعالى :

﴿وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفَرِّيَ عَلَيْنَا عِزُّهُ وَإِذَا لَأَتَّخِذُوكَ حِلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

هذه الآية تنظم علاقة الطرف الآخر بالمسلمين ، والهدف من عقد مؤتمرات في العالم الإسلامي تحت اسم التجديد في الدين إلغاء الخطاب الإسلامي أو تفرغه من مضمونه .

الخطاب الديني فرض عيني ، وفرض كفائي ، أما كونه فرضاً عينياً فلقوله تعالى :

﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر : ١-٣] .

التواصي بالحق رُبُع النجاة ، التواصي بالحق من أجل الحفاظ على كيان الدين ، ومن أجل نمو الدين ، ومن أجل أن تضيق دوائر الباطل ، فلا بد من خطاب ديني كفرض عين على كل مسلم ، ولكن في حدود ما يعلم ، ومع من يعرف ، يؤكد هذا المعنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام ، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « بَلَّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً... » (١) .

إن كل مسلم مكلف أن يبلغ من حوله من أصدقائه وجيرانه وزملائه وأهله كلمة الحق التي سمعها في حدود ما يعلم ، ومع من يعرف ، هذا فرض عيني تؤكد آية أخرى ، قال تعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

قالوا : البصيرة : الدليل والتعليل .

﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف : ١٠٨] ، فالذي لا يدعو إلى الله على بصيرة لا يتبع النبي عليه الصلاة والسلام ، وهو بالتالي لا يحب الله ، قال تعالى :

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران : ٣١] .

هذا الخطاب الديني فرض عيني على كل مسلم في حدود ما يعلم ، ومع من يعرف .

أما الخطاب الديني كفرض كفائي ، فتؤكد الآية الكريمة :

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، فهذا التفرغ والتعمق وامتلاك الأدلة التفصيلية هو فرض كفائي ، إذا قام به البعض سقط عن الكل .

إن أحد العلماء الغربيين هداه الله إلى الإسلام التقى بالجالية المسلمة في بريطانيا ، وقال كلاماً رائعاً ، قال : « أنا لا أصدق أن يستطيع العالم الإسلامي في المدى المنظور أن يلحق بالعالم الغربي لاتساع الهوة بينهما ، ولكنني مؤمنٌ أشدَّ بالإيمان أن العالم كله سيركعُ أمامَ أقدام المسلمين ، لأنَّ في الإسلام خلاصَ العالم » .

كان قبلَ حينٍ ثلاثُ كتلٍ من القيم والمبادئ ؛ قيمُ الشرق والغرب ، وقيمُ الإسلام ، فقيمُ الشرق تهاوت من الداخل ، وانتهى الأمر ، بقيت كتلتان كبيرتان من القيم والمبادئ ، قيمُ الإسلام ومبادئه ، وقيمُ الغرب ومبادئه ، الغربُ ذكيٌّ جداً ، وقويٌّ جداً ، وغنيٌّ جداً ، وقد طرحَ قيماً رائعةً : الحرية ، الديمقراطية ، حقوقُ الإنسان ، تكافؤُ الفرص ،

العدالة ، حقُّ المقاضاة ، العولمة ، ولكن هذا البناء الشامخ من قيم الغرب ومن مبادئه تهاوت عقب الحادي عشر من أيلول ، فلم يبق في الساحة إلا مبادئ الإسلام وقيمه ، وهذه فرصة ذهبية للمسلمين لنشر هذا الدين بأسلوب حكيم فعّال .

ماذا قال هذا العالم الأمريكي ؟ قال : « ولكنَّ العالمَ كلَّه سوف يركعُ أمامَ أقدامِ المسلمين إذا أحسنوا فَنَهمَ دينهم ، وأحسنوا تطبيقه ، وأحسنوا عرضه للعالم » ، هذا هو الشيء الأول .

الشيء الثاني : التعريف الدقيق الجامع المانع للتجديد ، أن ننزع عن الدين كلَّ ما علق به مما ليس منه فقط ، لأنه دينٌ توقيفيٌّ ، قال تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

[المائدة : ٣]

قال علماء التفسير : الإتمام عدديٌّ ، والإكمال نوعيٌّ ، أي : إن القضايا التي عالجها الدين تامةً عدداً ، وإن طريقة المعالجة كاملة نوعاً ، وأيُّ إضافة تعني اتِّهام الدين بالنقص ، وأيُّ حذف يعني اتِّهام الدين بالزيادة ، فلما أضفنا على الدين ما ليس منه تفرقنا ، وصار بأسنا بيننا ، ولما حذفنا من الدين أصبحنا في مؤخرة الأمم ، فإن أضفنا نتفرق ، وإن حذفنا نضعف .

كفكرة تمهيدية لحقيقة خطيرة ؛ إن كمال الخلق يدلُّ على كمال التشريع ، أضرب لكم مثلاً بالبعوضة التي ذكرها الله في القرآن فقال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] .

ما من مخلوق أحقرُّ على الإنسان من بعوضة ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَقَى الْكَافِرَ مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »^(١) .

البعوضة في رأسها مئة عين ، وفي فمها ثمان وأربعون سنًا ، وفي صدرها ثلاثة قلوب ؛ قلبٌ مركزيٌّ ، وقلبٌ لكل جناح ، تملك البعوضة أجهزة لا تملكها الطائرات ، تملك جهاز استقبال حراريًا ، فهي ترى الأشياء بحرارتها لا بأحجامها ، ولا بألوانها ، ولا بأشكالها ، وحساسية هذا الجهاز واحدٌ من الألف من درجة الحرارة المثوية .

وتملك البعوضة جهاز تحليل للدم ، فما كل دم يناسبها ، وتملك جهاز تخدير ، وتملك جهاز تمييز ، وللبعوضة خرطوم فيه ست سكاكين ، أربع سكاكين تُحدث في جلد الملدوغ جرحاً مربّعاً ، ولا بد من أن يصل الجرح إلى وعاء دموي ، والسكّيتان الخامسة والسادسة تلتقيان لتشكّلا أنبوباً لامتناص دم الملدوغ .

وفي أرجل البعوضة مخالب إذا أرادت أن تقف على سطح خشن ، ولها محاجم إذا أرادت أن تقف على سطح أملس .

لم سقت هذا المثل ؟ الذي خلق البعوضة على هذا النحو المعجز لا يمكن أن يحتاج دينه إلى تبديل ، ولا إلى تعديل ، ولا إلى استدراك ، ولا إلى تجديد ، ولا إلى تطوير ، مع أنه لا يختلف اثنان في العالم الإسلامي على وجوب التجديد في طريقة العرض والأسلوب .

(١) الترمذي (٢٣٢٠) ، ابن ماجه (٤١١٠) .

في الدِّينِ قيمٌ ثابتةٌ ، ومبادئٌ ثابتةٌ ، سمَّها إن شئت الثوابتَ ، هذه مغطاةٌ بنصوصٍ قطعيةٍ الدَّلالةِ .

وفي الإسلامِ متغيِّراتٌ مغطاةٌ بنصوصٍ ظنيَّةٍ الدَّلالةِ ، هي محلُّ الاجتهادِ ، ومحلُّ التجديدِ والتطويرِ ، والمشكلةُ أننا مكلَّفون أن نتَّبَعَ في عقائدنا وعبادتنا ، وأن نبتدعَ في دنيانا ، الذي حدث أننا ابتدعنا في عقائدنا ، وفي عبادتنا ، وقلدنا في دنيانا ، فكنا في مؤخِّرةِ الأممِ .

معنى التجديد أن ننزعَ عن الدِّينِ كلَّ ما علقَ به ممَّا ليس منه ، والأزمةُ كما أراها ليست في تجديدِ الخطابِ الدينيِّ ، بل في مصداقيةِ الخطابِ الدينيِّ .

جاءتني رسالةٌ ذاتَ يومٍ بالبريدِ الإلكترونيِّ ، وهي قصةٌ قصيرةٌ عن إمامٍ مسجدٍ في بريطانيةٍ نُقِلَ إلى بلدةٍ في ظاهرِ لندن ، فاضطرَّ أن يركبَ المركبةَ العامةَ كلَّ يومٍ ، ومن غرائبِ الصُّدفِ أنه يركبُ المركبةَ نفسَها مع السائقِ نفسِهِ ، وفي إحدى المراتِ صعدَ المركبةَ ، وأعطى السائقَ ورقةَ نقديةً ، ردَّ له السائقُ البقيةَ ، عندما عدَّها وجدها تزيد على ما يستحقُّ عشرين سنْتاً ، فقال : أنا كَوْنِي مسلماً ينبغي أن أَرُدَّ هذه الزيادةَ ، ثم قال : هي زيادةٌ طفيفةٌ ، والشركةُ عملاقةٌ ، ودخلُها فلكيٌّ ، ولا تتأثَّرُ بهذا المبلغِ الزهيدِ ، هو هبةٌ مِنَ اللَّهِ لي ، وهذا خطأٌ ، فلما جاء وقتُ نزوله من المركبةِ وقفَ أمامَ السائقِ ، ودونَ أن يشعرَ أعطاه العشرين سنْتاً ، فابتسمَ السائقُ ، وقال له : ألسْتَ إمامَ هذا المسجدِ ؟ قال : بلى ، قال : واللَّهِ حَدَّثْتُ نفسي أن أزورك في المسجدِ لأتعبَدَ اللَّهَ ، ولكنني أردتُ أن أمتحنَكَ ، فوقعَ هذا الإمامُ على الأرضِ لهولِ الصدمةِ ،

لأنه تصور عظم الجريمة التي كاد يقتربها لو أبقى المبلغ معه ، فلما استعاد وعيه وقف ، وأمسك بعمود ، وقال : يا رب كدت أبيع الإسلام كله بعشرين سنتاً .

كم من مسلم يبيع دينه كله بشركة ، بحصته من شركة ، باستعصائه في بيت ، بكذب ، باحتيال .

إن الأزمة اليوم أزمة مصداقية الخطاب الديني ، لماذا فعل الأنبياء شيئاً لا يكاد يصدق ، وآلاف الدعاة لا يفعلون شيئاً ؟ لأن الأنبياء فعلوا بسلوكهم ما قالوه بالستهم .

لقد كان سيدنا عمر إذا أراد إنفاذ أمر جمع أهله وخاصته ، وقال : « إني قد أمرت الناس بكذا ، ونهيتهم عن كذا ، والناس كالطير ، إن رأوكم وقعتم وقعوا ، وإيم الله لا أوتين بواحد وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني ، فصارت القرابة من عمر مصيبة » .

سيدنا عمر رأى إبلاً سميناً فقال : « لمن هذه الإبل ؟ قالوا : هي لابنك عبد الله ، قال : اتنوني به ، وغضب ، فلما جاء ابنه عبد الله قال : لمن هذه الإبل ؟ قال : هي لي يا أبت ، اشتريتها بمالي ، وبعثت بها إلى المرعى لتسمن ، فماذا فعلت ؟ قال عمر : ويقول الناس : ارعوا هذه الإبل ، فهي لابن أمير المؤمنين ، اسقوا هذه الإبل ، فهي لابن أمير المؤمنين ، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين » .

والله الذي لا إله إلا هو لو فهم الصحابة الكرام الإسلام كما نفهمه نحن لما خرج هذا الدين من مكة ، ولكنه وصل إلى أطراف الدنيا بالقيم والمبادئ .

حينما أرسل النبي ﷺ صحابته إلى الحبشة سأل النجاشي سيدنا جعفر بن أبي طالب أن يحدثه عن الإسلام ، فقال جعفر بن أبي طالب : « أَيُّهَا الْمَلِكُ . . . كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارِ ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ ، وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَادَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْدَّمَاءِ ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ » (١) .

الآن افهموا معي هذا الحديث الشريف ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ . . . » (٢) . أين الإسلام ؟ هذه العبادات الخمس أم هذا الذي بُني عليه مجموعهُ قيم إسلامية ؟

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : « الدِّينُ كُلُّهُ خُلُقٌ ، فَمَنْ زَادَ عَلَيْكَ فِي الْخُلُقِ زَادَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ » (٣) .

(١) أحمد (١٧٤٠) عن أم سلمة .

(٢) البخاري (٨) ، مسلم (١٦) ، الترمذي (٢٦٠٩) .

(٣) مدارج السالكين (٣٠٧ / ٢) .

الأزمة ليست في تجديد الخطاب الديني ، ولكن في مصداقية
الخطاب الديني .

الأزمة ليست في شبهة في الرؤوس ، ولكنها أزمة في النفوس .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الَّتِي
أُسْرِيَ بِي فِيهَا أَتَتْ عَلَيَّ رَائِحَةٌ طَيِّبَةٌ ، فَقُلْتُ : يَا جَبْرِيلُ مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ
الطَّيِّبَةُ ؟ فَقَالَ : هَذِهِ رَائِحَةُ مَا سُطِّطَ ابْنَةُ فِرْعَوْنَ وَأَوْلَادُهَا ، قَالَ : قُلْتُ :
وَمَا شَأْنُهَا ؟ قَالَ : بَيْنَا هِيَ تُمَسِّطُ ابْنَةَ فِرْعَوْنَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ سَقَطَتْ الْمِدْرَى
مِنْ يَدَيْهَا فَقَالَتْ : بِسْمِ اللَّهِ ، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ : أَبِي ؟ قَالَتْ : لَا ،
وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّ أَبِيكَ اللَّهُ ، قَالَتْ : أَخْبِرُهُ بِذَلِكَ ، قَالَتْ : نَعَمْ فَأَخْبَرْتُهُ
فَدَعَاَهَا ، فَقَالَ يَا فُلَانَةُ ، وَإِنَّ لَكَ رَبًّا غَيْرِي ؟ قَالَتْ : نَعَمْ رَبِّي
وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نَحَاسٍ فَأَحْمِيَتْ ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُلْقَى هِيَ
وَأَوْلَادُهَا فِيهَا ، قَالَتْ لَهُ : إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً ؟ قَالَ : وَمَا حَاجَتُكَ ؟
قَالَتْ أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ، وَتَدْفِنَنَا ،
قَالَ : ذَلِكَ لَكَ عَلَيْنَا مِنَ الْحَقِّ ، قَالَ : فَأَمَرَ بِأَوْلَادِهَا فَأُلْقُوا بَيْنَ يَدَيْهَا
وَاحِدًا وَاحِدًا ، إِلَى أَنْ انْتَهَى ذَلِكَ إِلَى صَبِيٍّ لَهَا مُرْضِعٍ ، وَكَانَتْهَا تَقَاعَسَتْ
مِنْ أَجْلِهِ ، قَالَ : يَا أُمُّهُ افْتَحِيْ ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ
الْآخِرَةِ ، فَافْتَحَمَتْ ، قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : تَكَلَّمَ أَرْبَعَةُ صِغَارٍ ؛ عِيسَى
ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ ، وَابْنُ مَا شِطَّةِ
ابْنَةِ فِرْعَوْنَ » (١) .

هذه حلاقةٌ عندها هذا الثباتُ ؟ ونسمعُ كلَّ يومٍ من أعلى المراتب الدينية فتاوى تتناقضُ مع جوهر الدين ، أليس كذلك ؟ تسمعون كلَّ يوم فتاوى لإرضاء الأقوياء ، من أجل أن يتماشى الدينُ مع مصالحهم .

والحقيقة أنه جهةٌ في الأرضِ مهما بدتُ قوياً طاغيةً فلن تستطيع أن تفسدَ على الله هدايته لخلقِهِ ، لكنهم يتكلمون ، ويهدّدون ، والحقيقة هي أن الله لا يُسلمنا إلى غيره :

﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [مود : ١٢٣] .

متى أمرك أن تعبدَهُ ؟ بعد أن طمأنك :

﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ .

* * *

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- تفسير القرطبي ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ ، ط ٢ ، تحقيق أحمد عبد الحلیم البردوني .
- ٣- تفسير الطبري ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ .
- ٤- تفسير ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠١ هـ .
- ٥- الدر المنثور ، في التفسير بالمأثور ، السيوطي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٣ م .
- ٦- صحيح البخاري ، دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ط ٣ ، تحقيق د . مصطفى ديب البغا .
- ٧- صحيح مسلم ، دار إحياء التراث العربي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٨- سنن الترمذي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، وآخرون .
- ٩- سنن أبي داود ، دار الفكر ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
- ١٠- سنن ابن ماجه ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
- ١١- السنن الكبرى ، النسائي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، تحقيق د عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن .
- ١٢- مسند الإمام أحمد ، مؤسسة قرطبة ، مصر .

- ١٣- مسند الشاميين ، الطبراني ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ط ١ ، تحقيق محمد عبد المجيد السلفي .
- ١٤- موطأ الإمام مالك ، دار إحياء التراث العربي ، مصر ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
- ١٥- سنن الدارمي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٠٧هـ ، ط ١ ، تحقيق فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي .
- ١٦- سنن البيهقي الكبرى ، مكتبة دار الباز ، مكة المكرمة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، تحقيق محمد عبد القادر عطا .
- ١٧- مصنف عبد الرزاق ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣هـ ، ط ٢ ، حبيب الرحمن الأعظمي .
- ١٨- مصنف ابن أبي شيبة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ١٤٠٩هـ ، ط ١ ، تحقيق كمال يوسف الحوت .
- ١٩- صحيح ابن حبان ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، تحقيق شعيب الأرناؤوط .
- ٢٠- صحيح ابن خزيمة ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي .
- ٢١- المعجم الكبير ، للطبراني ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، ط ٢ ، تحقيق حمدي السلفي .
- ٢٢- المستدرک علی الصحیحین ، للحاکم النیسابوری ، دار الکتب العلمیة ، بیروت ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ط ١ ، تحقيق عبد القادر عطا .
- ٢٣- الجامع الصغير للسيوطي ، دار طائر العلم ، جدة ، تحقيق عبد الرؤوف المناوي .

- ٢٤- حلية الأولياء ، أبو نُعَيْم الأصبهاني ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥ هـ ، ط ٤ .
- ٢٥- شُعب الإيمان ، للبيهقي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠ هـ ، ط ١ ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول .
- ٢٦- الأم ، الشافعي ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ ، ط ٢ .
- ٢٧- مسند الشهاب ، للقضاعي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٧ / ١٩٨٦ ، ط ٢ ، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي .
- ٢٨- الترغيب والترهيب ، للمنذري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٧ ، ط ١ ، تحقيق إبراهيم شمس الدين .
- ٢٩- مجمع الزوائد ، أبو بكر الهيثمي ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، بيروت ١٤٠٧ هـ .
- ٣٠- الأحاديث المختارة ، محمد بن عبد الواحد بن أحمد الحنبلي المقدسي ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة ، ١٤١٠ هـ ، ط ١ ، عبد الملك بن دهيش .
- ٣١- كشف الخفاء ، ومزيل الإلباس ، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ ، ط ٤ ، تحقيق أحمد القلاش .
- ٣٢- الكامل في ضعفاء الرجال ، لابن عدي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م ، ط ٣ ، تحقيق يحيى مختار غزوي .
- ٣٣- علل ابن أبي حاتم ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٤٠٥ هـ ، تحقيق محب الدين الخطيب .
- ٣٤- الفصل للوصل المدرج ، أبو بكر البغدادي ، دار الهجرة ، الرياض ، ١٤١٨ هـ ، ط ١ ، تحقيق محمد مطر الزهراني .

- ٣٥- الطبقات الكبرى ، ابن سعد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٠ هـ ، ط ١ ، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول .
- ٣٦- سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٣ هـ ، ط ٩ ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، ومحمد نعيم عرقسوسي .
- ٣٧- السيرة النبوية ، ابن هشام ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١ هـ ، ط ١ ، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد .
- ٣٨- تاريخ الطبري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٧ هـ ، ط ١ .
- ٣٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحافظ ابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، تحقيق فؤاد عبد الباقي ، ومحّب الدين الخطيب ، ١٣٧٩ هـ .
- ٤٠- شرح صحيح مسلم ، للنووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٢ هـ .
- ٤١- عون المعبود ، شرح سنن أبي داود ، شمس الحق العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١٣ هـ ، ط ٢ .
- ٤٢- تحفة الأحوذى ، شرح جامع الترمذي ، المباركفوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٤٣- حاشية السندي على سنن النسائي ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة .
- ٤٤- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ، الزرقاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤١١ هـ ، ط ١ .
- ٤٥- حاشية الدسوقي ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق محمد عlish .
- ٤٦- الْمُحَلَّى ، ابن حزم ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي .

- ٤٧- التعاريف ، عبد الرؤوف المناوي ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر ، بيروت ، دمشق ، ١٤١٠هـ ، ط ١ ، تحقيق د محمد رضوان الداية .
- ٤٨- شرح الحكم العطائية ، للشربلاني ، دار ابن كثير ، دمشق ، تحقيق عبد الفتاح البزم .
- ٤٩- لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ط ١ ، ١٩٩٧م .
- ٥٠- مختار الصحاح ، الرازي ، دار العلوم ، تحقيق د . مصطفى البغا .
- ٥١- مجمع الأمثال ، للميداني ، دار المعرفة ، بيروت ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
- ٥٢- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ابن قيم الجوزية ، دار اليقين للنشر والتوزيع ، مصر ، المنصورة ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ، تحقيق حسين عبد الحميد .
- ٥٣- بدائع الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، مكتبة نزار مصطفى الباز ، مكة المكرمة ، ١٤١٦/١٩٩٦ ، ط ١ ، تحقيق هشام عبد العزيز ، عادل عبد الحميد العدوي .
- ٥٤- مفتاح دار السعادة ، ابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٥٥- مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ، ط ٢ ، تحقيق محمد حامد الفقي .

المحتوى

المحتوى

المقدمة	٧

موضوعات محاضرة

الاستخلاف في الأرض بين الوعد والشرط	٢٥
سرعة الضوء	٤٠
القمر	٤١
عالمية الإسلام ، وعولمة الغرب	٤٥
بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية	٤٩
مفهوم النصر	٥٣
النصر المبدئي	٥٣
النصر الواقعي	٥٥
قصة عبد الله بن سلام	٥٧
القمح وفوائد	٦١
إدارة الوقت	٦٥
الإيمان	٦٧

٦٨	وعملوا الصالحات
٧١	وتواصوا بالحق
٧١	وتواصوا بالصبر
٧٦	الوقت في حياة النبي ﷺ
٨٠	قصة عبد الله بن رواحة
٨١	والشمس تجري لمستقر لها
٨٥	أسباب هلاك الأمم
٩٩	وظيفة الكائنات الحية في التربة
١٠٣	الجهاد في فلسطين
١٢١	قصة صلاح الدين الأيوبي
١٢٥	التحليل الإسلامي للحوادث
١٢٩	إيجابيات في الأحداث الأخيرة
١٣٧	الانتفاضة
١٤١	الإرهاب
١٤٩	زلازل آسيا
١٦٢	المدخل الأول لفهم هذا الحدث
١٦٣	مدخل آخر لفهم هذا الحدث

موضوعات قرآنية

١٦٩	المنهج القرآني في تقويم السلوك الإنساني
١٧٦	أثر القرآن في تقويم سلوك النبات

موضوعات إيمانية

١٨١		قوة المؤمن
١٨٣		١ - التوحيد قوة
١٨٦		٢ - المعرفة والعلم قوة
١٨٨		٣ - العبادة الخالصة قوة
١٩١		٤ - الدعاء قوة
١٩٢		٥ - الاعتزاز بالله قوة
١٩٣		٦ - الإصرار قوة
١٩٤		٧ - الجمال قوة
١٩٥		٨ - العفة قوة
١٩٦		٩ - التسبيح قوة
١٩٦		١٠ - الاستغفار قوة
١٩٦		١١ - التقوى قوة
١٩٧		١٢ - الاستقامة قوة
١٩٧		١٣ - الإيمان قوة مطلقة
٢٠٣		السكينة
٢٠٨		أسباب السكينة لدى المؤمن
٢١٠		وضوح الغاية والطريق عند المؤمن
٢١٢		اهتداء المؤمن إلى سر وجوده
٢١٢		المؤمن يعيش في معية الله

- المؤمن يعيش في صحبة النبيين والصديقين ٢١٤
- أنس المؤمن بالوجود كله ٢١٥
- الصلاة والدعاء من بركات السكينة ٢١٦
- المؤمن لا يعيش بين (لو) و(ليت) ٢١٧
- قصة أويس القرني ٢١٧
- الخشوف والكسوف ٢٢١
- أثر الإيمان في نزول الرحمة ٢٢٧
- ١ - الدعوة البيانية ٢٣٢
- ٢ - التأديب التربوي ٢٣٢
- ٣ - الرخاء الاستدراجي ٢٣٤
- ٤ - مرحلة القصم ٢٣٦
- أسباب ازدياد الرزق ٢٣٩
- صلاة الاستسقاء ٢٤١
- الغدة الصعترية (التيموس) ٢٤٥
- أثر الإيمان في حياة الفرد ٢٤٩
- قصة وفد اليمن ٢٥٥
- الوردة الجورية ٢٦٠
- المعجزات والزمن ٢٦٣
- قصة معبرة ٢٧٣
- السمة الطيبة ٢٧٥

موضوعات إسلامية

٢٨١	 إنسانية الإسلام
٢٨٥	 خطبة حجة الوداع
٢٩١	 قصة جبلة بن الأيهم
٢٩٦	 زلازل الدنيا وزلزلة الساعة

موضوعات في السيرة

٣٠٥	 في ذكرى مولد الرسول ﷺ
٣١٧	 الحكمة من تذكية الذبيحة

مناسبات دينية

٣٢٥	 الإسراء والمعراج
٣٣٤	 شروط النصر
٣٣٩	 المسجد الأقصى
٣٤٣	 خواطر إيمانية حول ليلة القدر
٣٥٩	 خطبة العيد

الحج والعبادات الشعائرية

٣٧٩	 الصيام
٣٩٥	 آية الله في مخلوقاته: الذباب
٤٠١	 حقائق عن الحج

- الأمطار ٤١٤
- الظلام في الفضاء الخارجي ٤١٦
- الاستطاعة في الحج ٤١٩
- ماء زمزم ، طعام طعم ، وشفاء سقم ٤٢٨

الحبائات التعاملية

- الذوق الإسلامي ٤٣٥
- الأدب مع الوالدين والذوق في التعامل معهما ٤٣٧
- الأدب والذوق في التعامل مع الزوجة ٤٣٨
- الذوق في الطريق ٤٣٩
- لا ترفعوا أصواتكم ٤٣٩
- افسحوا الطريق ٤٤٠
- إمالة الأذى عن الطريق صدقة ٤٤١
- حق الطريق ٤٤٢
- الاستئذان ٤٤٢
- طريقة قرع الباب ٤٤٣
- الحركة الرفيقة ٤٤٤
- التطفل في الدعوة ٤٤٥
- ما أخذ بسيف الحياة فهو حرام ٤٤٥
- طول المكث عند المضيف ٤٤٦
- مكان جلوسك عند المضيف ٤٤٧

٤٤٨	 عيادة المريض
٤٤٨	 الذوق مع الجيران
٤٥٠	 الذوق في المسجد
٤٥١	 الأدب في الدعوة إلى الله
٤٥٢	 الذوق في الحديث
٤٥٦	 الذوق والأدب مع أصحاب الفضل عليك
٤٥٦	 أدب العباس مع النبي ﷺ
٤٥٦	 أدب أبي بكر الصديق مع النبي
٤٥٧	 أدب الإمام الشافعي
٤٥٧	 المبالغة في الذوق من قلة الذوق
٤٥٨	 عذراً يا صلاح الدين
٤٦٣	 التنمية الأخلاقية
٤٧٣	 أ - صلة قوية بالله جل وعلا
٤٧٣	 ب - الصبر وطول النفس
٤٧٤	 ج - الإعراض عن متاع الدنيا وشهواتها
٤٧٤	 د - التضحية والعطاء السخي والكرم الذاتي
٤٧٨	 متى تغضب
٤٨١	 صلة الرحم
٤٨٢	 صلة الرحم من العبادات التعاملية
٤٨٦	 ماذا تعني كلمة (الأرحام)
٤٨٧	 معنى صلة الرحم

٤٨٩	كيف تعامل الرحم المسببة
٤٩١	ثمار صلة الرحم
٤٩٣	واقع معظم المقصرين
٤٩٤	نتائج قطيعة الرحم
٤٩٥	الخطوة العملية
٤٩٦	من هدى النبي ﷺ في صلة الرحم
٤٩٩	أسباب قطيعة الرحم
٥٠٠	الانقطاع الطويل الذي يقود إلى الوحشة، واعتياد القطيعة
٥٠٣	الإخلاص في صلة الرحم
٥٠٣	الجاليات الإسلامية وصلة الرحم

موضوعات تربوية

٥٠٩	تربية الأولاد في الإسلام
٥١٩	حق التعليم
٥٢٣	الإسلام والمساواة بين الأبناء ونظرته للإناث
٥٢٥	الإعداد المادي والمعنوي
٥٢٦	حليب الأم
٥٣١	الامتحان الأكبر
٥٤٥	توجيهات منهجية للطلاب
٥٥١	رجاء إلى الأهل والجيران
٥٥٣	تحفظ لا بد منه

موضوعات دعوية

- الخطاب الإسلامي ٥٥٧
تجديد الخطاب الدعوي ٥٦١

المصادر والمراجع

- المصادر والمراجع ٥٧١

المحتوى

- المحتوى ٥٧٩

* * *